

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية مُحَكَّمة / العدد الخامس و الأربعون / شتاء / ٢٠٢٤

إبداعية التراث المتجدد وحدائته	عمر شبلي
الانزياح الضرفي في الخطاب القرآني	د. علي إسماعيل
القضايا الاجتماعية في مطوّلة جوزف حرب "المشهد الأصفر"	د. دويرين نصر
مدى مساهمة المرأة في التنمية المستدامة في قرى الـمتن	د. إيلبي شديد
التلاعب بالعقول: دراسة تداولية في نظرية التّطيل التّقدي للخطاب	د. كميل مكابيل
إشكالية ازدواجية اللغة العربية بين العاقبة والفصحى	د. جورج حنّاد
نضالات لرجال منسيين في جيل عامل	د. هاني حوماني
المشكلات الحدودية في منطقة الخليج العربي	د. سمر يونس
جوانب ناصية بين "سفر أيّوب" و"النّجاة المهجري"	فيرناليزا فريحة
دور الجهات المانحة و الذّاعمة في التّمية المحليّة	حسين جانيين
مفهوم الأدب في كتاب أبي بكر الضولي	رحمة الشيخ علي
Promotion « Corona » : la gageure de la distance	DR.Fatima elDamaj
Research-Based Teaching Strategies in Public Schools	Nada El-Khansa



- موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري
والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة
الإيجابية للتحدي

مجلة فصلية ثقافية محكمة

المنافذ الثقافية

العدد الخامس و الأربعون / شتاء / ٢٠٢٤

ISSN 2706-4302



9 772708 430007

المنافذ الثقافية
مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد الخامس والأربعون - شتاء 2024

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
أ. د. درية كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان	أ.د. عماد هاشم	د. علي أيوب
أ.د. عيدا زين الدين	أ.د. زهور شتوح (الجزائر)	أ.د. منى دسوقي
د. دلال مهنا الحلبي	د. رضا العليبي (تونس)	أ.د. جمانة أبو علي
د. منال شرف الدين	د. ندى الرمح	د. سمية طليس
د. ربي شوكت محسن	د. أناند فرح	أ.رولا الحاج حسن
أ. زينب راضي	أ. ربيعة الرزوق	أ. حكمت حسن
أ. سوزان زعيتر	أ.رانية مرعي	أ. مروان درويش
تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. أ. سامي التراس / د. إيمان صالح مسؤولة القسم الانكليزي		

اللجنة المحكّمة

أ.د. ديزيريه سقال	أ.د. حسن جعفر نور الدين	أ.د. محمد فرحات
أ.د. فؤاد خليل	أ.د. لارا خالد مخول	أ.د. علي حجازي
أ.د. جمال زعيتر	أ.د. مها خير بك ناصر	أ.د. محمد عواد
أ.د. عائشة شكر	أ.د. أحمد رباح	أ.د. يوسف كيال
أ.د. ماغي عبيد	أ.د. سعيد عبد الرحمن	أ.د. درية فرحات

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية

ISSN 2708-4302



موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية

للمراسلات: 00961 1 833 270

darnahdainfo@gmail.com

الاشتراكات السنوية:

لبنان للأفراد 15 دولار – للمؤسسات 40 دولار

باقي الدول العربية:

للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

- 1 - إبداعية التراث المتجدد وحدائته
عمر شبلي 5
- 2 - الانزياح الصرفي في الخطاب القرآني
د. علي أحمد إسماعيل 8
- 3 - القضايا الاجتماعية في مطولة جوزف حرب «المشهد الأصفر»
د. دورين نصر 26
- 4 - مدى مساهمة المرأة في التنمية المستدامة في قرى المتن الأعلى نموذج قرى
(القصيبة، دير الحرف، كفرسلوان) - قضاء بعيدا
د. إيلي شديد 57
- 5 - التلاعب بالعقول: دراسة تداولية في ضوء نظرية التحليل النقدي للخطاب
د. كميل مخايل 85
- 6 - إشكالية ازدواجية اللغة العربية بين العامية والفصحى للمتخصصين وغير المتخصصين
د. جورج إبراهيم حداد 127
- 7 - نضالات لرجال منسيين في جبل عامل
د. هاني حسن حوماني 144
- 8 - المشكلات الحدودية في منطقة الخليج العربي
د. سمر يونس 166
- 9 - جوانب تناصية بين «سفر أيوب» والنّاتج المهجري (نموذجان: قصة الشيطان والخوري
سمعان لجبران، ومسرحية أيوب، لتعليمه)
فيرناليزافريحة 182
- 10 - التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية لسكان جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى
مريم يوسف الخنساء 196
- 11 - دور الجهات المانحة والداعمة في التنمية المحلية (بلدة تمنين الفوقا نموذجا)
حسين محمد جانين 216

- 12 - تعريب المسكوكات العربيّة الإسلاميّة
لمياء دلّة 252
- 13 - العلاقات المصريّة-الأمريكيّة من الاستقلال 1953 الى 1970
ميسون سيف الدين الجمال 263
- 14 - مفهوم الأدب في كتاب أبي بكر الصّولي (محمّد بن يحيى)، أدب الكتاب
رحمة الشّيخ علي 293
- 15 - تطوّر الجنس الأدبيّ في الأدب العربيّ في مدوّنة «احكي يا شهرزاد» للقاصّة اللبنانيّة
درية فرحات
منيرة جهاد الحجّار 302
- 16 - الشّعْر العربيّ إلى أين؟
حسين ابراهيم 321
- 17 - الحرف اللبّانيّة بين التّعثر والانقراض
هدى عباس 325
- 1- Promotion «Corona» : la gageure de la distance
DR. Fatima khaled elDamaj.....1
- 2- Exploring the Implementation of Research-Based English Language
Teaching Strategies in Beirut and Its Suburbs Public Secondary Schools
Nada El-Khansa.....34
- 3- A Multimodal Study of News Headlines: A Critical Analysis of the
Sudanese Conflict
Abdulhussein Mansoor Ali.....69

إبداعية التراث المتجدد وحدائته

عمر شبلي

إبداعية التراث وإبداعية الحداثة زمن متجدد، وليستا تقويماً زمنياً، وإنما هي زمن جديد يمكن أن نسميه خلقاً وولادة، والولادة هي الجدة في حقيقتها رغم تكرارها. والحداثة هي دائماً متجاوزة المقياس الزمني، وبهذا المفهوم يمكن أن نسميها مستقبلاً، لأنها تتسم بالجدة في تأثيرها على المتلقي، حتى ولو كان المعنى مرافقاً لزمن خارجي سابق، وقتها تكون جدتها مرتبطة بالزمن الداخلي للمبدع. والزمن الداخلي في كل مبدع هو جديد، ونابع من التأثير العميق المختلج في الوجدان استعداداً للولادة. والحداثة في جوهرها هي عزلة عن الآخر واشتباك معه في آن. هي عزلة بمعنى الصدمة الداخلية التي تخلق كينونة في ذات المبدع، وحين تخرج منه إلى المتلقي تخلق فيه أثراً جديداً نابعاً من الدهشة والانفعال ومن الآثار المؤثرة فيه كالألم والفرح والإضافة والحذف، وهذا كله خلق جديد.

المتلقي يسأل متمم بن نويرة عن بكائه على قبر أخيه مالك بن نويرة، فيجيبه متمم ويحجب الآخرين: «دعوني فهذا كله قبر مالك». إن عزلة مالك بدموعه أمام قبر أخيه هي معاناة، وبقوة تأثيرها الوجداني انتقلت إلى المتلقي السائل. إن العلاقة بين الشاعر والمتلقي هنا نابعة من الصدق والمعاناة والوجدانية العالية المتسربة من هذا الشعر:

وقالوا: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتُهُ لقبرِ ثوى بين اللوى والذكادِكِ

فقلتُ لهم: إنَّ الأسي يبعث الأسي دعوني فهذا كله قبرُ مالكِ

هذا الشعر يظلُّ حديثاً، حتى ونحن نقرؤه بعد ألفٍ وأربع مئة سنة، وسبب حدائته هو ما يُوجدُه فينا، حتى لكأنه قيل الآن، فالشعر الحديث حقاً هو الذي يخلق حالة ارتقائية عالية في النفس الإنسانية، وليس الخاضع لزمن كتابته الحديث أو القديم.

ولعلَّ ظاهرة الألم هي من أرقى ولادات الشعر الذي يبقى حديثاً على الرغم من آنية زمنه. فلنتأمل معاً ما تخلقه الخنساء حين تقول في أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ولنتأمل الوجع المنبعث من شعر ابن الرومي في رثاء ابنه، وهو يراقب أخويه الباقيين،
وهما يلعبان أمامه:

أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أوزي من الزند
إذا لعبا في ملعب لك دُعا فؤادي بمثل الجمر عن غير ما قصد

فعلاً، «الله أدري بلوعة الحزن». لقد كانت ظاهرة الحزن المؤلم موجودة في الإنسان منذ خُلِق، وهي جديدة باستمرار بما تثيره من شجن ولوعة. وهذا سبب حداتها لأنها تولد فينا ولادة المخلوق الجديد، يؤلم في ولادته، ولكنه يخلق كوناً جديداً.

ومن عناصر الإبداعية خلق الدهشة التي يتركها الشعر في مُتلقّيه، وبواعث الدهشة كثيرة، ومن أبرزها جمال الصورة الشعرية المتسمة بجدة خلقها المدهشة، وقتها تكون الدهشة مولوداً جديداً يتّصف بالمستقبلية وعدم الانزياح بتكرار الزمن، ومستقبلية الرؤيا تنفي ماضوية الزمن الكتابي، كقول أبي تمام:

مطرٌ يذوبُ الصحو منه، وبعدهُ صحوٌ يكاد من النضارة يُمطرُ

هذا الخلق الزمني المتولد من هذا البيت يضاهي انشدادك لأجمل مناظر الطبيعة. إن تمازج الصورة في حركتها تبدو مذهلة في إذابة المطر للصحو، وتحول الصحو بنضارته إلى مطر، وفي عنصر الجمال المتولد من صورة جميلة يكون تحديد أبعاد الجمال عصياً على الحصر، لأن امتداد الجمال يتّصف دائماً باللانهائية. قد ترى صورة شعرية تذهلك بحضورها الجمالي، ولكن الإحاطة بكل بواعثها الجمالية تظل مستحيلة، فلننظر إلى هذه الصورة في شعر أدونيس يقول فيه:

إنه آخر ما غنى به طائرٌ في غابة محترقة

لا تعطيك هذه الصورة مجالاً لحصرها في اتجاه محدد، إنها تعبير عن امتلاء الفضاء الداخلي للشاعر بما لا تحصيه بصيرة الرؤية فتذهب بعيداً إلى عوالم رؤيا موحية شديدة الحضور والحدثة في آن.

ولا يمكن على الإطلاق تحديد أطر نقدية ومنهجية محصورة بعددٍ لتأكيد الحادثة في نص إبداعي، فالألم باعثٍ حادثي، والصورة باعث، وقد تكون المباشرة أحياناً من أهم بواعث الحادثة، إذا لامست واقعاً بشرياً معبراً عن هموم مجتمعٍ غارق في الفقر والبؤس والوجع، وقتها تكون المباشرة ملامسةً لحادثةً متقدمة ببساطتها ونفاذ تعبيرها كقول بدر شاكر السياب في وصف مأساة شعبه التي كان حلولها في وجدانه عميقاً ولذا اتّسمت بالحادثة واستعصت على الإزالة حين قال:

من جوعٍ صغارك يا وطني أشبعت الغرب وغربانه

ولن نستطرد في ملاحقة مكونات الحادثة في قديم الشعر أو حديثه لأنها عصية على الإحصاء، وسبب عصيانها عائد إلى النفسية التي تعبّر عن غربتها الكونية في مجتمعٍ مملوء بوجع الإنسان.

الانزياح الصّرفي في الخطاب القرآني د. علي أحمد إسماعيل

أولاً: تمهيد

تُعدّ ظاهرة الانزياح من أكثر الظواهر الأسلوبية تردُّداً، وأوسعها انتشاراً في النّصّ القرآنيّ. لذا، سأتوقّف في هذا البحث على صُور هذه الظاهرة، وأبعادها الدلاليّة والجماليّة في الخطاب القرآنيّ. فالانزياح ظاهرة بلاغيّة تُبرز وجهاً من وجوه الإعجاز القرآنيّ، وتدلّل على ما وهب المولى عزّ وجلّ اللّغة العربيّة "لغة التّنزيل"، من إمكانات متعدّدة، وقدرات فائقة في التّصرّف في التّعبير، والتّعدّد في الدلالات.

وتُعدّ دراسة ظاهرة الانزياح ركيزة أساسيّة في الكشف عن التّحوّلات المختلفة للبنى التركيبيّة في توتّرهما الدائم بين البنية السّطحيّة الإبداعية، والبنية العميقة المثاليّة، فأسلوب الانزياح إنتاجٌ إبداعيٌّ مُلازمٌ دائماً للخطاب الأدبيّ، بوصفه يحتوي على ركيزتين أساسيتين:

- الأولى: الخروج عن البنية المثاليّة الأصليّة، وتجاوز مستوى الخطاب العادي المألوف.

- الثّانية: البنية الجماليّة التي تقف وراء البنى الإبداعية.

من هنا تأتي أهميّة هذه الدّراسة التي تحاول الوقوف على أبرز صُور الانزياح الصّرفيّ في الخطاب القرآنيّ، وبيان جماليّاتها، ودورها الدلاليّ والبلاغيّ في التّعبير القرآنيّ، عن طريق تحليل البنية اللّغويّة تحليلاً يبيّن تحوّلات البنية في صورة من صُور الانزياح الصّرفيّ، ويكشف عن المفارقة بين دلالة البنية السّطحيّة الظاهرة، ودلالات البنية العميقة، عسى أن نصل إلى فهم بلاغة النّصّ القرآنيّ وبيان إعجازه.

فما هو هذا الانزياح الصّرفيّ؟ وما هي جماليّة الانزياح في الخطاب القرآنيّ؟ وما هي أهمّ أشكال الانزياح الصّرفيّ في النّصّ القرآنيّ؟ أسئلة سأحاول الإجابة عنها في بحثي هذا.

ثانياً: الانزياح الصرفي في اللغة والاصطلاح

1- الانزياح الصرفي لغةً: يدور المعنى اللغوي لمادة الصّرف في اللغة العربية حول التغيير والتبديل والتحويل⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾⁽²⁾، أي: تغييرها وتحولها من جهة إلى أخرى، وقال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيُّتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾⁽³⁾.

ولا يبعد المعنى الاصطلاحي للصّرف عن هذا المعنى اللغوي، إذ إنّ تعاريف العلماء تكاد تُجمع على أنّه تحويل أو تغيير في بنية الكلمة لغرض معنوي، مثل تحويل أصل الكلمة إلى صيغة الفعل الماضي، أو المضارع، أو الأمر، وإلى صيغة اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وغيرها من المشتقات، ومثل تغيير المفرد إلى التثنية والجمع، وغير ذلك مما يتصل بضرب من ضروب المعاني.

ولمّا كان موضوع علم الصّرف هو المفردات، وبالذات الأسماء المتمكّنة والأفعال المتصرفّة، فإنّ مفهوم «الانزياح الصرفي» يتحدّد بغياب التّطابق بين هذه المفردات في الخطاب، كالاختلاف بين الجنس أو العدد أو الزمن، وعليه فإنّ كلّ ما يبدو من مفارقة بين أجزاء الكلام، كإسناد الفعل المؤنث إلى الفاعل المذكّر، أو الإخبار عن المستقبل بالماضي، أو خطاب الواحد بلفظ الجماعة، أو الجماعة بلفظ الواحد، أو نحو ذلك ممّا سأفصّله، يدخل تحت مفهوم الانزياح الصرفي.

ثالثاً: جماليّة الانزياح في النصّ القرآني

إنّ المتأمل في مباحث علم الصّرف يجد أنّ فكرة الانزياح واضحة أنّمّ الوضوح فيها، ذلك أنّ عمليّة التّغيير أو التّحويل التي يقوم عليها علم الصّرف لا تنحصر علاقتها بالكلمة نفسها، وبما يطرأ عليها من تغييرات في حروفها وحركاتها، وإنّما تتسع دائرتها لتشمل التّحويل في الأبنية والصّيغ الصرفيّة المستقلّة، كأن يتمّ التّحويل من اسم الفاعل إلى اسم المفعول، أو من اسم المفعول إلى صيغة المبالغة... وهكذا، «فمن المعلوم أنّه يتمّ الانتقال أو التّحويل -في اللغة العربيّة- من صيغة صرفيّة إلى صيغة أخرى -في السياق نفسه- لمعانٍ مقصودة»⁽⁴⁾. وهذا ما أعنيه بـ«الانزياح الصرفي» الذي يُعدّ من

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (صرف).

(2) - سورة البقرة: 164.

(3) - سورة الأنعام: 65.

(4) - ياقوت، محمود: ظاهرة التّحويل في الصّيغ الصرفيّة، ص 5، 72.

الظواهر الأسلوبية البارزة التي يَشيع استخدامها في النصّ القرآنيّ.

وينبغي الإشارة هنا إلى أنّه ورد في تراث المتقدّمين ما يُشير إلى هذا اللون من الانزياح في النصّ القرآنيّ، من ذلك -مثلاً- ما نجده عند أبي هلال العسكريّ (بعد 395هـ/بعد 1005م) في حديثه عن العدول عن صيغة «راحم» إذ يقول: «فإنّ «الرّحيم» مبالغة لعدوله، وإنّ «الرّحمن» أشدّ مبالغة، لأنّه أشدّ عدولاً»⁽¹⁾.

وهو ما نجده عند الباقلاني (403هـ/1013م) -أيضاً- في قوله: ««ورحمن» عدل عن «راحم» للمبالغة»⁽²⁾، ونجده عند الرّماني (384هـ/994م) في ذكره وجوه المبالغة، حيث يقول: «ومن ذلك «فَعَال»، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾⁽³⁾، ومعدول عن «غَافِر» للمبالغة»⁽⁴⁾.

وقد أشار ابن الأثير (673هـ/1239م) لهذا الانزياح في أكثر من موضوع في كتابه «المثل السائر»، ومن ذلك قوله في دقّة هذا اللون: «اعلم أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلّا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة... فإنّه من أشكّل ضروب علم البيان، وأدقّها فهمًا، وأغمضها طريقًا»⁽⁵⁾.

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ «الانزياح الصّرفيّ» في النصّ القرآنيّ لا يكون إلّا لغرض بلاغيّ، وجماليّ إعجازيّ، أراده الحق تبارك وتعالى، فالتعبير القرآنيّ، عندما يُغاير بين الصّيغ الصّرفيّة، وينزاح عن صيغة إلى أخرى، فإنّه يكشف لنا عن المعاني البلاغيّة، والإيحاءات الدلاليّة التي تدلّ على الإعجاز البيانيّ لهذا الكتاب الخالد.

والمتمأل في الصّيغ الصّرفيّة يقف مذهولاً إزاء التّناسب العجيب بينها وبين سياقها، إلى الحدّ الذي لا يمكن معه استبدال صيغة بأخرى، مهما بدت شديدة الشّبه بها، ولهذا سأحاول في هذا البحث أن أبين دلالة السياق في الانزياح عن صيغة صرفيّة إلى أخرى من خلال أمثلة مختارة من القرآن الكريم، وأقف إزاء بعض صور الانزياح الصّرفيّ في

(1) - العسكري، أبو هلال: الفروق اللغويّة، ص 160.

(2) - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 273.

(3) - سورة طه: 82.

(4) - الرّماني: النكت في إعجاز القرآن، ص 104.

(5) - ابن الأثير: المثل السائر، 2/14.

النصّ القرآنيّ، كي أستجلي في كلّ صورةٍ فيها ما تحفل به في سياقها من قيم وأسرار.

رابعًا: أشكال الانزياح الصرفي في الخطاب القرآنيّ

1- الانزياح عن الفعل إلى الاسم

الفعل هو الحدث في صورته المتحرّكة، أو هو الحدث، وقد تلبّس بالذات الفاعلة في ظرفٍ من الزّمن؛ أمّا الاسم فإنّه محض الحدث دون اعتلاق بالفاعل أو الزّمن. لذلك، فإنّ التّعبير بالاسم يخلو من حركيّة الزّمن وتتوّع الفاعلين، فيكون أكثر ثباتًا واستقرارًا، وينزاح إليه عند الحاجة إلى ما فيه من استقرار وثبات. وأهدف في هذا المبحث رصد أهمّ أشكال انزياح الفعل إلى الاسم في النصّ القرآنيّ.

أ- الانزياح عن الفعل إلى المصدر: مثاله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾⁽¹⁾ حيث انزاح عن الأمر الصّريح «اضربوا» إلى مصدره «ضرب» للدلالة على أنّ الضرب أمرٌ ثابتٌ دائمٌ لا يتجدّد، ولو أتى فعلًا، فقال: «اضربوا الرقاب»، لكان المعنى غير ثابت، ولكان أن الضرب للكفار يتغيّر من زمن إلى آخر، فكان مجيء الاسم أبلغ في الدلالة على حتميّة ضرب الكفار، والله أعلم...

وهذا الفرق الدلاليّ بين الاسم والفعل، يهدينا إلى معرفة سرّ الانزياح عن الاسم إلى الفعل أو العكس في النصّ القرآنيّ، فهو انزياح يقتضيه سياق الحال، ويكشف عن دلالات بلاغيّة مقصودة، تُمثّل مظهرًا من مظاهر الإعجاز القرآنيّ...

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾⁽²⁾، إذ لم يقل: «ضربهم»، وأحلّ المصدر «ضربًا» محلّ الفعل، ومنحه وظيفة التّمييز.

وكذلك، قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾⁽³⁾، حيث انزاح عن الفعل «أحسنوا» إلى المصدر «إحسانًا»، إذ لا بدّ أنّ في اقتران الدّعوة إلى برّ الوالدين غاية تتناسب مع أخواتها بتوحيد الله...

ب- الانزياح عن الفعل إلى اسم الفاعل: هذا النوع أكثر انتشارًا من غيره، وفيما يلي بعض النّمادج عنه: قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ

(1) - سورة محمد، الآية 4.

(2) - سورة الصافات، الآية 93.

(3) - سورة الإسراء، الآية 23.

كَانَ قَمِيصُهُ فُذٌّ مِنْ فُئْبَلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾، و﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ فُذًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (2)، حيث نعت المرأة، في الحالتين صِدْقًا وَكَذِبًا- بالفعلين «صَدَقَتْ»، و«كَذَّبَتْ»، ونعت في الحالين الاسم بـ«الكاذبين»، و«الصادقين»، للدلالة على ثبات براءة يوسف واستقرارها أمام الملأ...

وقال: ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (3)، ولم يقل: «أم نحن نخلقه»، للدلالة على أنه خَلَقَ حَتْمِي، وثابت غير قابل للتغيير الزماني، ففي هذا الانزياح تحدُّ صارخ للذين يشككون في خلق الله سبحانه وتعالى. وسورة آل عمران (4)، وسورة غافر (5)، وسورة الأنعام (6).

ج- الانزياح عن الفعل إلى اسم المفعول: هي صورة قليلة في مقابل الصورتين السابقتين، أمثل لها بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (7)، حيث قال: «مجموع له»، ولم يقل: يجمع فيه، أو له. قال الزمخشري (538هـ/1144م): «فإن قلت: لأي فائدة أثير اسم المفعول على فعله، قلت: لما في اسم المفعول دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بُدَّ من أن يكون ميعادًا مضروبًا للجمع، تُجمع النَّاسُ له» (8).

وفيه كذلك غاية إيقاعية، تتمثل في مقابلة «مجموع» بـ«مشهود»، وهما مُتَمَاثِلان مقطعيًا. وكذلك، قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ (9)، حيث لم يقل: «لا تغل يدك»، للدلالة على ثبات البخل الذي هو عكس الإسراف، لأن الله يريد من عباده أن يكونوا كُرماء، يتصدقون على الفقراء.

وفي قوله أيضًا: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (10)، قال: «مهجورًا»، ولم يقل: «هجروه»؛ للدلالة على ثبات القوم على هجران القرآن، والبعد عنه...

(1) - سورة يوسف، الآية 26.

(2) - سورة يوسف، الآية 27.

(3) - سورة الواقعة، الآية 59.

(4) - آل عمران، الآية 27-26.

(5) - سورة غافر، الآية 61.

(6) - سورة الأنعام، الآية 60، والآية 95.

(7) - سورة هود، الآية 103.

(8) - الزمخشري: الكشاف 2/428.

(9) - سورة الإسراء، الآية 29.

(10) - سورة الفرقان، الآية 30.

2- الانزياح عن الاسم إلى الفعل

إذا كانت الغاية من انزياح الفعل إلى الاسم هو طلب الثبات أو الثبوت كما بيّنا سابقاً، فإنّ الانزياح في الخطاب القرآنيّ عن الاسم إلى الفعل يكون لجملة من الغايات، منها:

1- رصد الحدث وهو في صورته المتحرّكة.

2- تقييد الحدث بفاعله، لأنّ كلّ فعلٍ يتضمّن حتماً فاعلاً، إنّ ظاهراً أو مُضمراً.

3- تقييد الحدث بزمنٍ معيّن، وهذا مدار اهتمامنا في هذا المقام، فيتحصلّ من ذلك أنّ التعبير بالفعل يحدّد من إطلاق الحدث، وهو في صورته الاسميّة، وبخاصّة إذا كان مصدرًا، ولإثبات ذلك، رصدتُ جملة من الأمثلة، منها:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾⁽¹⁾، فقد قال: «أقيموا»، ولم يقل: «إقامة». و«كان تقدير الكلام: «أمر ربّي بالقسط، وإقامة وجوهكم عند كلّ مسجد»، فعُدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإنّ الصلّاة من أوكد فرائض الله على عباده»⁽²⁾.

- قوله: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾⁽³⁾، حيث قال: «الذين استكبروا»، ولم يقل: «المستكبرين»، في مقابل: «الضعفاء»، وفي ذلك دلالة على تكثير للمبنى. ومعلوم أنّ زيادة المبنى تُوجب زيادة المعنى، وقد مكّن من ذلك استعمال اسم الموصول «الذين»، وهو أسلوبٌ كثيرُ الورود في القرآن الكريم، كما ورد في سورة النجم⁽⁴⁾، والمائدة⁽⁵⁾، والصفّات⁽⁶⁾، والزّمر⁽⁷⁾، وفصلت⁽⁸⁾، ومريم، وفي هذه السّورة الأخيرة قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾⁽⁹⁾، حيث انزاح عن المصدر الصريح: «تسبيح»، إلى فعله «سبحوا»، مسبوقاً بـ«أن» المصدرية، والتقدير: فأوحى إليهم «التسبيح»، فأفاد هذا الانزياح الدلالة على الإكثار والتجدّد المستفاد من الصيغة الفعلية.

(1)- سورة الأعراف، الآية 29.

(2)- ابن الأثير: المثل السائر 2/14.

(3) - سورة إبراهيم، الآية 21.

(4) - سورة الخيم، الآية 31.

(5) - سورة المائدة، الآية 66.

(6) - سورة الصفّات، الآية 22.

(7) - سورة الزّمر، الآية 70.

(8) - سورة فصلت، الآية 37.

(9) - سورة مريم، الآية 11.

- قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (1)، و﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (2)، و﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ (3) و﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ (4)، حيث عبّر في الآيات الأربعة عن فعل البشر بالصيغة الفعلية، وعن فعله -تعالى- بالصيغة الإلهية، وشتان بين فعل الخالق وفعل المخلوق!؛

قال النَّسْفِيُّ (710هـ/1310م): «بدأ بذكر خلق الإنسان، فقال: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ»، لأنَّ النِّعْمَةَ فِيهِ سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ النِّعَمِ، ثُمَّ بِمَا فِيهِ قِوَامُهُ، وَهُوَ الْحَبُّ، فَقَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ»، ثُمَّ بِمَا يُعْجَنُ بِهِ وَيَشْرَبُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْمَاءُ، ثُمَّ بِمَا يَخْبَرُ بِهِ، وَهُوَ النَّارُ، فَحَصَلَ الطَّعَامُ بِمَجْمُوعِ الْآيَاتِ» (5).

يتبين لنا، إذن، أنَّ التَّعْبِيرَ بِالْفِعْلِ هُوَ دَلَالَةٌ لِتَجَدُّدِ فِعْلِ الْبَشَرِ فِي كُلِّ مِنَ الْخَلْقِ، وَهُوَ خَلْقٌ مُجَازِيٌّ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ فِعْلُ التَّكَاتُرِ، وَكَذَا فِعْلُ الزَّرْعِ، أَمَّا الْخَلْقُ الْحَقِيقِيُّ، وَالزَّرْعُ الْحَقِيقِيُّ، وَالْإِنْشَاءُ الْحَقِيقِيُّ، وَالْإِنْزَالُ الْحَقِيقِيُّ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ؛ وَلِذَلِكَ خَصَّ كُلَّ ذَلِكَ بِالصِّيْغَةِ الْإِسْمِيَّةِ الَّتِي أَوْلَى دَلَالَتِهَا الثَّبَاتَ وَالِدَوَامَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ...

إنَّ فِي كُلِّ هَذِهِ التَّمَاذِجِ انْزِيَاخًا عَنِ الْإِسْمِ إِلَى الْفِعْلِ بِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْحَرَكَةِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَبْنِيِّ الْمَفْضِيِّ إِلَى تَكْثِيرِ الْمَعْنَى.

3- الانزياح في الأبنية الاسمية

وضع العلماء العرب القدامى قاعدة تكاد تكون عامّة، تُعرف في ضوءها الفروق اللغوية بين الألفاظ. وتنحصر هذه القاعدة في أنّه لا يجوز أن تختلف صيغتان صرفياً ومعناهما واحد، لأنَّ في ذلك تكثيراً للغة بما لا فائدة فيه. قالوا: فإذا كان الرجل عدّةً للشّيء، قيل فيه: مَفْعَلٌ، مثل: «مِرْحَمٌ»، و«مَحْرَبٌ»، وإذا كان قوياً على الفعل قيل: «فَعُولٌ»، مثل: صَبُورٌ، وشَكُورٌ، وإذا فعل العقل وقتاً بعد وقت، قيل: «فَعَالٌ»، مثل: عَلَامٌ، وَصَبَّارٌ، وإذا كان ذلك عادةً له، قيل: «مِفْعَالٌ»، مثل: مِعْوَانٌ، وَمِعْطَاءٌ، وَمِهْدَادٌ. ومن لا يتحقّق

(1) - سورة الواقعة، الآية 58.

(2) - سورة الواقعة، الآية 63.

(3) - سورة الواقعة، الآية 69.

(4) - سورة الواقعة، الآية 72.

(5) - النَّسْفِيُّ: تفسير النَّسْفِيِّ 2/220.

المعاني يظنّ أنّ ذلك كلّه يفيد المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك، بل هي مع إفادتها المبالغة، تفيد المعاني التي ذكرناها»⁽¹⁾.

وقياساً على ما سبق، فإنّ الأبنية الصّرفيّة في اللّغة العربيّة وسيلة مهمّة من وسائل تحديد الدّلالة، وبيان المعاني المقصودة على وجه الدّقة. وهذا ما سأوضّحه بالشّواهد القرآنيّة، لتأكيد أنّ أيّ تغيّر في الأبنية الصّرفيّة يترتّب عليه تغيّراً في الدّلالة:

أ- الانزياح عن جمع التّكسير إلى جمع المذكر السّالم: إنّ المغايرة بين الأبنية الاسميّة في الخطاب القرآنيّ -محور هذا البحث- لا تكون إلّا لاعتبارات دلاليّة، ومن ذلك المغايرة بين صيغتي «بني» و«أبناء» في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُرْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاؤِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ...﴾⁽²⁾. فقد استخدم السّياق القرآنيّ صيغة جمع التّكسير: «أبناء»، مضافة إلى ضمير المؤنّات في «بعولتهنّ»، ثمّ انزاح عنها إلى صيغة جمع المذكر السّالم: «بني» عند الإضافة إلى «الإخوان» و«الأخوات».

وللوقوف على دلالة هذا الانزياح الصّرفيّ في الخطاب القرآنيّ، «ينبغي أن تدرك أوّلاً أنّ الصّيغة الأولى: «أبناء» هي إحدى صيغ القلّة في جموع التّكسير، أمّا صيغة جمع المذكر السّالم «بني» فقد اختلف النّحاة حولها، فمنهم من ذهب إلى أنّها للتقليل، ومنهم من ذهب إلى أنّها للتكثير، غير أنّ الذين ذهبوا إلى أنّها للتقليل قد نبّهوا على أنّها، إذا أُضيفت إلى ما يفيد الكثرة -وقد تحقّق ذلك بإضافة «بني» إلى «الإخوان» و«الأخوات»- فإنّها حينئذٍ تدلُّ على الكثير»⁽³⁾.

ولعلّ هذا الانزياح سرُّ الانزياح عن الصّيغة الأولى: «أبناء» إلى الصّيغة الثّانية: «بني» في سياق الآية الكريمة، لأنّ بني الإخوان، بني الأخوات، هم أكثر المذكورين في الآية، وقد يكونون إخواناً أشقاء، وقد يكونون إخواناً من الأمّ... من الأب... ومن الرّضاة، وكذلك أخوات، فإنّهنّ قد يكنّ أخوات شقائق... أخوات لأمّ... لأب... ومن

(1) - العسكري: م.س، ص 12-13.

(2) - سورة النور، الآية 31.

(3) - الرّجاعي: الإيضاح في علل النّحو، ص 122.

الرّضاة. وحكم هؤلاء جميعاً واحداً فيما ذُكر، وهم أكثر من أبناء المرأة وحدها، ومن أبناء البعولة وحدهم، ولهذا استعمل التعبير القرآنيّ -فيما أرى- صيغة «أبناء» لما هو أقلّ، فقال: «أبنائهنّ» أو أبناء بعولتهنّ»، ثمّ انزاح إلى صيغة «بني» واستخدمها لما هو أكثر، فقال: «بني أخوانهنّ أو بني أخواتهنّ».

وهذا ما يقرّره الألوسيّ (1342هـ/192م) في كتابه «روح المعاني» حيث يقول: «المُرَاد بِالْإِخْوَانِ مَا يَمْتَلِّ الْأَعْيَانِ. وَهِيَ الْإِخْوَةُ لِأَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ، وَبَنِي الْعَلَاتِ أَوْلَادُ الرَّجُلِ مِنْ نِسْوَةِ شَتَّى، وَالْأَخْيَافُ، وَهِيَ: أَوْلَادُ الْمَرْأَةِ مِنْ آبَاءِ شَتَّى. وَنَظِيرُ ذَلِكَ «الْأَخْوَاتُ»، وَاسْتَعْمَلَ: «بَنِي» مَعَهُمْ دُونَ «أَبْنَاءٍ»؛ لِأَنَّهُ أَوْفَقُ بِالْهَمُومِ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالاً فِي الْجَمَاعَةِ، يَنْتَمُونَ إِلَى شَخْصٍ مَعَ عَدَمِ اتِّحَادِ صِنْفِ قَرَابَتِهِمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ»⁽¹⁾.

ب- الانزياح عن المصدر إلى اسم المربة للمبالغة: يقول سبحانه تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَنْذَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽²⁾، و﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾، فقد كان مقتضى الظاهر في هذا السياق أن ينفي نوح⁽⁴⁾، عليه السلام، تهمة الضلال عن نفسه بصيغة المصدر: «ضلال» التي وردت بها تلك التهمة على لسان قومه، و«لكنّ الخطاب القرآنيّ انزاح عن تلك الصيغة إلى صيغة اسم المربة: «ضلالة» مبالغة في النفي، وذلك لأنّ الضلالة أدنى من الضلال وأقلّ، لأنها لا تُطلق على الفعلة الواحدة منه، وأمّا الضلال فيطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى»⁽⁵⁾.

ويتأمل هذا السياق القرآنيّ، نلاحظ أنّ اتّهام نوح -عليه السلام- بالضلال جاء مؤكداً مبالغاً فيه عن طريق التعبير بفعل رؤياً: «إنا لنراك في ضلال» المفيد لمعنى التثبيت واليقين... وقد اقتضى ذلك أن يسلك نفي هذا الاتّهام -على لسان نوح- مسلّكاً أكّد وأبلغ من إثباته. فكان الانزياح عن صيغة المصدر إلى اسم المربة «ضلالة»⁽⁶⁾.

ج- الانزياح عن صيغة مصدرية إلى أخرى للمبالغة: يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ

(1) - الألوسي: روح المعاني 142-143/18.

(2) - سورة الأعراف، الآية 60.

(3) - سورة الأعراف، الآية 61.

(4) - نبي، عاش 950 سنة.

(5) - الرّمخشري: الكشاف 2/108. وانظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن 3/403.

(6) - رضا، تفسير المنار 8/492.

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ⁽¹⁾، فالحياة والحيوان بمعنى واحد؛ إذ إنَّ كُلًّا منهما هو مصدر للفعل: «حَيِيَ»، ولكنَّ اللَّافَت للانتباه في هذا السِّياق هو أنَّ التَّعبير القرآني بدأ بالمصدر «الحياة»، ثمَّ انزاح عنه إلى مصدر آخر: «الحيوان»، للدَّلالة على المبالغة والزيادة في معنى الحياة، فاخترت لفظة «الحيوان» في الموضوع المقتضي للمبالغة⁽²⁾.

د- الانزياح عن الصِّفة المشبَّهة إلى اسم الفاعل للدَّلالة الطَّارئة: نحو قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ⁽³⁾﴾، نزلت هذه الآية بضيق صدر الرِّسول (ص) بالمشرِّكين الذين يسخرون منه، و«قد انزاح السِّياق عن الصِّفة المشبَّهة: «ضيق» إلى اسم الفاعل «ضائق»، ليبدل على أنَّ ضيق صدر النَّبي (ص) إنّما هو ضيقٌ طارئ... لأنَّه أفسح النَّاس صدرًا، وهي صِفة مشبَّهة دالَّة على تمكُّن وصف الضِّيق في صدره، بخلاف «ضيق» إذ هي صِفة مشبَّهة، وهي دالَّة على تمكُّن الوصف في الموصوف⁽⁴⁾».

ولذلك، فمن «يريد الدَّلالة على ثبوت الوصف ودوامه نصًّا فعلياً أن يجيء بالصِّفة المشبَّهة، ومن يريد الدَّلالة نصًّا على حدوثه وتقييده بزمنٍ معيَّن، دون باقي الأزمنة، فعلياً أن يجيء باسم الفاعل⁽⁵⁾».

4- الانزياح عن الجِنس (المدكَّر والمؤنَّث)

تُعَدُّ ظاهرة التَّذكير والتَّأنِيث في اللُّغة العربيَّة من أهمِّ المسائل اللُّغويَّة التي تنبَّه لها العلماء منذ زمنٍ مبكِّر، فقد شغلت قسطاً غير يسير من اهتمام اللُّغويين النَّحاة القدامى، بيَّد أنَّ هذه الظَّاهرة ظلَّ يكتنفها الإبهام والغموض، كما يقول ابن التَّستري الكاتب (360هـ/970م): «لَيْسَ يَجْرِي أَمْرُ الْمَدكَّرِ وَالْمؤنَّثِ عَلَى قِيَاسِ مَطَّرِدٍ، وَلَا لِهَما بَابٌ

(1) - سورة العنكبوت، الآية 64.

(2) - الرَّمخسري: الكشَّاف 3/468. انظر: أبو السَّعود: إرشاد العُقل 5/160. وانظر أيضاً: طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيَّة، ص 88-87.

(3) - سورة هود، الآية 12.

(4) - الرَّمخسري: م، ص، 2/363. انظر: ابن عاشور: التَّحْريِر والتَّؤوير 11/216. وانظر: الألوسي: روح المعاني 12/19.

(5) - عبَّاس حسن: التَّحو الوافي 3/307.

يحصرهما كما يدّعي بعض الناس»⁽¹⁾، وقول برجشتراسر (1352هـ/1933م): «التأنيث والتذكير من أغمض أبواب النحو، ومسائلها عديدةٌ مُشكّلةٌ، ولم يوفّق المستشرقون إلى حلّها حلًّا حازمًا، معَ صرف الجهد في ذلك»⁽²⁾.

غير أنني سأحاول أن أُبينُ قدر المستطاع أسلوب الانزياح الصّرفيّ في التذكير والتأنيث، من خلال المعاني البلاغيّة والقيّم الدلاليّة لهذا الانزياح:

أ- الانزياح عن المؤنث والمذكر: يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿إِن نَّشَأ نُنزِّل عَلَیْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَؤُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾⁽³⁾، يظهر الانزياح في الآية على الشكل التّالي:

أ. البنية السّطحيّة: أعناقهم ← → خاضعين

↓ انزياح ↓

مؤنث ← → مذكر

ب. البنية السّطحيّة: أعناقهم ← → خاضعة

↓ تطابق ↓

مؤنث ← → مذكر

يظهر أسلوب الانزياح الصّرفيّ في هذا السياق بمجيء جمع المذكر السّالم: «خاضعين» خبرًا عن جمع تكسير: «أعناق». وإذا ما تتبّعنا تخريج المفسّرين لأسباب هذا الانزياح في هذه الآية، نرى مذاهب عدّة في ذلك. قال الزّمخشري (538هـ/1144م): «فإن قلت: كيف صحّ مجيء «خاضعين» خبرًا عن «الأعناق»؟ قلت: أصل الكلام: ظلّوا لها خاضعين، فأقحمت «الأعناق» لبيان موضوع الخضوع، وترك الكلام على أصله...»⁽⁴⁾، ودُكر في موضوع آخر للعقلاء، قيل: «خاضعين»، وكقوله تعالى: ﴿إِلي ساجدين﴾⁽⁵⁾، وقيل: أعناق النّاس: رؤسؤهم ومقدّموهم، شُبّهوا بالأعناق، كما قيل لهم:

(1) - الكاتب، ابن السّنري: المذكر والمؤنث، ص 47.

(2) - برجشتراسر: التطور النحويّ للغة العربيّة، ص 112.

(3) - سورة الشعراء، الآية 4.

(4) - الزّمخشري: الكشاف 3/305. وانظر: النيسابوري: غرائب القرآن وרגائب الفرقان 5/264.

(5) - سورة يوسف، الآية 4.

هم الرؤوس والنواصي والصُدور، «وقيل: جماعات الناس»⁽¹⁾.

وذهب التّوحيديّ (414هـ/1023م)، مذهب الرّمخشريّ في تفسير الانزياح في هذه الآية، وأضاف آراء أخرى، فقال: «هو على حذف المضاف: أي: أصحاب الأعناق، ورُوعي المحذوف في قوله: «خاضعين»، حيث جاء جمعًا للمذكّر العاقل، أو لا حذف، ولكنّه اكتسى من إضافته للمذكّر العاقل وصفه فأخبر عنه إخباره، كما يكتسي المذكّر التّأنيث من إضافته للمؤنّث»⁽²⁾. وذكر الرّكشيّ (794هـ/1392م) أنّ هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين؛ لكون الآخر تبعًا له، ومعنى من معانيه، فاستغنى عن خبر «الأعناق» بخبر أصحابها»⁽³⁾.

نستنتج من الآراء السّابقة تقدّم رأي التّوحيديّ عمّا سواه، ذلك أنّ التّشكيل الصّياعي جاء بصيغة جمع المؤنّث: «أعناق»، وأضافها إلى ضمير جمع المذكّر: «هم»، ثمّ انتقلت الصّياعة إلى جمع المذكّر: «خاضعين»، فحدث الانزياح عن المطابقة بين اسم «ظُلّ» المؤنّث، وخبرها المذكّر على المستوى السّطحيّ للصّياعة، ولكن هذه المفارقة الصّياعيّة تقلّ حدّتها إذا علمنا أنّ اسم «ظُلّ» المؤنّث: «أعناق» قد اكتسب التّذكير من إضافته إلى الضمير المذكّر «هم»؛ لأنّ تذكير المؤنّث من الأشياء التي يكتسبها الاسم بالإضافة، فعملت المفارقة الصّياعيّة على تأكيد الامتزاج والتماهي بين المضاف والمُضاف إليه، ممّا سوّغ الانزياح عن المطابقة بين اسم «ظُلّ» المؤنّث وخبرها المذكّر. وهو انزياح يلفت انتباه المتلقّي إلى أنّ الخضوع ليس جزئيًّا، بل خضوعٌ مطلق، ولهذا أُخبر عن «الأعناق» بجمع المذكّر العاقل: «خاضعين»، للإشارة إلى خضوع الأشخاص بكليّتهم، بيانًا لعظم الآية الملحّنة للإيمان، والله أعلم.

ومثل ذلك جاء في سور عديدة من القرآن الكريم، منها: سورة الأعراف⁽⁴⁾، وسورة يس⁽⁵⁾، وسورة الأعراف⁽⁶⁾، وسورة المزمل⁽⁷⁾، وسورة الانفطار⁽⁸⁾، وسورة الأنبياء⁽⁹⁾، وسورة

(1) - الرّمخشريّ: الكشّاف 3/305. وانظر: ابن عاشور: التّحرير والتّوير 19/113.

(2) - التّوحيديّ: البحر المحيط، 8/140.

(3) - الرّكشيّ: البرهان في علوم القرآن 3/415.

(4) - سورة الأعراف، الآية 56.

(5) - سورة يس، الآية 78.

(6) - سورة الأعراف، الآية 56.

(7) - سورة المزمل، الآيتان 17-18.

(8) - سورة الانفطار، الآية 1.

(9) - سورة الأنبياء، الآية 32.

القمر (1)، وسورة الأنبياء (2)، وسورة البقرة (3)، وسورة النازعات (4)، وسورة الأعراف (5)، وسورة الذاريات (6)، وسورة الصّف (7)، وسورة الأنعام (8).

ب- الانزياح عن المذكر إلى المؤنث: هذا النوع من الانزياح نادر الوقوع في القرآن الكريم، والشعر وكلام العرب، في حين أنّ الانزياح عن المؤنث إلى المذكر واسعٌ وكثير، وفي هذا يقول ابن جنّي (392هـ/1002م): «وتذكير المؤنث واسعٌ جداً، لأنّه ردٌّ إلى أصل، لكنّ تأنيث المذكر أذهبُ في التناكر والإغراب» (9). ومن أمثلته في النصّ القرآنيّ، قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (10)، ويظهر الانزياح الصّرفيّ على الشكل التالي:

أ. البنية السّطحيّة: جاءه ← → موعظة

↓ انزياح ↓

مذكر ← → مؤنث

ب. البنية العميقة: جاءه ← وعظ

↓ تطابق ↓

مذكر ← مؤنث

وردت الآية الكريمة، في معرض الحديث عن الرّيا، وتحذير آكله من مغبّة التماذي وسوء المصير، وقد بدا السّياق بصيغة المذكر «جاءه»، وانتقل إلى صيغة المؤنث «موعظة». وكان يجب المطابقة في التّعبير بين الفعل وفاعله على النحو الآتي: «جاءه وعظ»، ولكنّ السّياق خالف بين الفعل وفاعله في الجّنس، فانزاح عن الفعل

(1) - سورة القمر، الآية 20.

(2) - سورة الأنبياء، الآية 32.

(3) - سورة البقرة، الآية 22.

(4) - سورة النّازعات، الآيتان 27-28.

(5) - سورة الأعراف، الآية 40.

(6) - سورة الذاريات، الآية 47.

(7) - سورة الصّف، الآية 4.

(8) - سورة الإنعام، الآية 78.

(9) - ابن جنّي: الخصائص 2/415.

(10) - سورة البقرة، الآية 275.

المذكّر «جاءه» إلى الفاعل المؤنث «موعظة»، لتبنيه المتلقّي إلى خصوصيّة هذه الموعظة، وأنها موعظةٌ شديدة اللّجة، تحمل معنى الرّجر والتّهديد، لكي يرتدع أكل الرّبا، ويبتعد عن المصير المظلم. قال سليمان بن عمر العجيلي الشّافعي الشّهير بالجمل (1204هـ/1789م) في كتابه «الفتوحات الإلهيّة»: «الموعظة والعظة والوعظ معناهما واحد، وهو الرّجر والتّخويف، وتذكير العواقب»⁽¹⁾. ومثله في سورة فُصِّلَتْ⁽²⁾.

5- الانزياح في إسناد الفعل

يتمثّل هذا الانزياح في المحافظة على نسبة الفعل إلى فاعله، وذلك بأن يردّ الفعل مسنداً إلى فاعل ما، ثمّ يتحوّل إسناده إلى فاعلٍ آخر؛ كما يتمثّل هذا الانزياح في التّحوّل عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول أو العكس. ومما لا شكّ فيه أنّ هذا الانزياح يلفت انتباه المتلقّي، ويثير اهتمامه وتأمّله، بحثاً عن ضلاله الدّالّية الخاصّة في السّياق. وسنتوقّف عند بعض الشّواهد القرآنيّة التي تمثّل هذا النّوع من الانزياح:

أ- **الانزياح في الإسناد:** في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُتُوسَّأً﴾⁽³⁾، نلاحظ أنّ السّياق القرآنيّ أسند فعل النّعمة إلى الله عزّ وجلّ: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا»، لكنّه انزاح عن نسبة فعل الشرّ إليه -عزّ وجلّ- فلم يقل: إذا مسّنا الشرّ على سبيل مشاكلة الإسناد لما سبق، إنّما قال: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ»، و«سرّ ذلك أنّ أفعال الخير والإحسان والنّعمة تُسند إلى الله تعالى، في حين أنّ أفعال الشرّ لا تسند إليه على سبيل التّأدب والتّنزيه له»⁽⁴⁾، ومثله في قوله تعالى في سورة آل عمران⁽⁵⁾، سورة الشعراء⁽⁶⁾، سورة الكهف⁽⁷⁾، وسورة الأعراف⁽⁸⁾، وغيرها من السّور...

ب- **الانزياح عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول والعكس:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ

(1) - العجيلي الشّافعي: الفتوحات الإلهيّة 1/288.

(2) - سورة فُصِّلَتْ، الآية 37.

(3) - سورة الأعراف، الآية 83.

(4) - الرّزكشي: البرهان في علوم القرآن 4/59، وابن القيم: بدائع الفوائد 19-18/2.

(5) - سورة آل عمران، الآية 26.

(6) - سورة الشعراء، الآيات 75-80.

(7) - سورة الكهف، الآيات 79-82.

(8) - سورة الأعراف، الآيات 28-29.

مَدِينٍ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١﴾، فالانزياح الصَّرْفِيُّ في هذا السِّيَاق يظهر على الشَّكْلِ التَّالِي:

1- البنية السَّطْحِيَّةُ المخالفة لمقتضى الظَّاهِر:

كُذِّبَتْ ← → كُذِّبَ

↓ انزياح ↓

مَبْنِيٌّ لِلْمَعْلُومِ ← → مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ

ب. البنية العميقة حسب مقتضى الظَّاهِر:

كُذِّبَتْ ← → كُذِّبَ

↓ تطابق ↓

مَبْنِيٌّ لِلْمَعْلُومِ ← → مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ

لماذا انزاحت صيغة الفعل «كُذِّبَ» من المَبْنِيِّ لِلْمَعْلُومِ إلى المَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ في السِّيَاق نفسه؟

أجاب الرَّمْخَشَرِيُّ (538هـ / 1144م) عن هذا السَّوَالِ بقوله: «فإن قلت: لِمَ قيل: «كُذِّبَ موسى»، ولم يقل: «قوم موسى»، قلتُ: لأنَّ موسى ما كَذَّبَهُ قَوْمُهُ بنو إسرائيل، وإِنَّمَا كَذَّبَهُ غير قومه، وهم القبط. وفيه شيء آخر، كأنَّه قيل بعدما ذكر تكذيب كلِّ قومٍ رسولهم، وكُذِّبَ أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته، فما ظنُّكَ بغيره؟»⁽²⁾.

نستنتج من قول الرَّمْخَشَرِيِّ أنَّ الانزياح الصَّرْفِيَّ عن البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول، في هذا السِّيَاق، جاء للدلالة على المبالغة في التَّكْذِيبِ لموسى عليه السَّلَام، مع ظهور معجزاته الباهرة وآياته الظَّاهِرة، فهو أكثر الرِّسْلِ السَّابِقِينَ معجزاتٍ وآياتٍ، ومع ذلك كُذِّبَ، فهو ليس وحيداً في التَّكْذِيبِ، فقد كُذِّبَ الرِّسْلُ قبله، وكُذِّبَ موسى القبط، فلا عجب إذن في تكذيب قومه له، فإنَّ تلك عادة أمثالهم. وجاءت نماذج هذا الانزياح في

(1) - سورة الحج، الآية 44-42.
(2) - الرَّمْخَشَرِيُّ: الكشَّاف 3/162.

سورة هود⁽¹⁾، وسورة الإنسان⁽²⁾، وسورة التوبة⁽³⁾.

خامساً: خلاصة البحث

تناولتُ في هذا البحث ظاهرة «الانزياح الصرفي في الخطاب القرآني» تناولاً أسلوبياً، محاولاً الوقوف على أبرز صوره، مبيّناً جماليّاتها، ودورها الدلاليّ والبلاغيّ، عن طريق تحليل البنية اللغويّة تحليلاً يبيّن تحولاتها من صيغة إلى أخرى، محاولاً الكشف عن المفارقة بين دلالة البنية السطحية الظاهرة ودلالات البنية العميقة؛ عسى أن نصل إلى فهم النصّ القرآنيّ وبيان إعجازه، خصوصاً أننا نواجه صعوبة تتمثّل في التّعامل مع نصّ قرآنيّ ليس من إنتاج البشر، تحدُّ حرية التّأويل لأمثلة الانزياح الصرفيّ في الخطاب القرآنيّ..

ويمكن القول: إنّ الانزياح الصرفيّ في النصّ القرآنيّ لا يكون إلا لغرض بلاغيّ، وأراده الحقّ تبارك وتعالى. فالتعبير القرآنيّ، عندما يُغايّر بين الصيغ الصرفيّة، ينزاح عن صيغة إلى أخرى، ويكشف لنا عن المعاني في البلاغة والإيحاءات الدلاليّة التي تدلُّ على الإعجاز البياني لهذا الكتاب الخالد.

وأشير إلى أنّ تفسيرات القدماء للانزياحات الصرفيّة في الخطاب القرآنيّ لم تكن، في أغلب الظنّ، وفي معظمها، إلا حملاً على المعنى، أو محاولة لتثبيت القاعدة النحويّة التي وضعها النحاة، وإنّني أرى - والله أعلم - أنّه لم يكن الاهتمام عندهم منصباً على المعاني الدقيقة، والأسرار الدفينة لتلك الانزياحات، ولم يلتفتوا إلى أثر السياق في هذه الانزياحات، كما لاحظنا عند تحليل الأمثلة القرآنيّة.

وفي الختام، أرجو من العليّ القدير أن أكون وُفِّقت في هذا البحث، وقدمت ما فيه الخير والفائدة، والله وليّ التوفيق.

(1) - سورة هود، الآيات 108-105.

(2) - سورة الإنسان، الآيات 19-15.

(3) - سورة التوبة، الآيات 93-87.

سادساً: المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: محمد بن مصطفى العمادي الحنفي أبو السّعود، وضع حواشيه، عبد اللطيف عبد الرحمن، 1999م، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1.
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيّة: حسن طبل، 1981م، منشورات الجامعة التّونسيّة، تونس، ط1.
- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني، تحقيق السيّد أحمد صقر، د.ت، دار المعارف، القاهرة، ط5.
- الإيضاح في علل النّحو: الرّجائيّ، د.ت، شركة الفجر العربي، بيروت، د.ط.
- البحر المحيط: أبو حيان التّوحيديّ، 1951م، دار الفكر، بيروت، ط2.
- بدائع الفوائد: شمس الدّين أبو عبد الله ابن القيم الجوزيّة، ضبط نصّه وخرّج آياته أحمد عبد السلام، 1994م، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1.
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدّين محمد بن عبد الله الرّزكشيّ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ت، دار المعرفة، بيروت، ط2.
- التّحرير والتّنوير: محمد الظّاهر ابن عاشور، 2000م، مؤسّسة التّاريخ، بيروت، ط1.
- التّطور النّحويّ لّلغة العربيّة: سرجشتراسر، محاضرات ألّقاها في الجامعة المصريّة 1929م، أخرجها وصحّحها وعلق عليها رمضان عبد النّواب، 1982م، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط.
- تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار: محمد رشيد رضا، د.ت، دار المعرفة، بيروت، ط2.
- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النّجار، 1989م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط3.
- روح المعاني في تفسير القرآن السّبع المثاني: شهاب الدّين السيّد محمود الألوسي، د.ت، إدارة الطّباعة المنبريّة، دار إحياء التّراث العربي، دم، د.ط.
- ظاهرة التّحويل في الصّيب الصّرفيّة: محمود ياقوت، 1985م، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، د.ط.
- الفتوحات الإلهيّة بتوضيح تفسير الجلالين لّلآفاق الخفيّة: سليمان بن عمر العجيلي الشّافعي الشّهير بالجمال، د.ت، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، د.ط.
- الفروق اللّغويّة: أبو هلال العسكريّ، ضبطه وحقّقه حسام الدّين القدسي، 1981م، دار الكتاب العلميّة، بيروت، د.ط.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في جودة التأويل: أبو القاسم محمود عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرزاق عبد الهادي، 2001م، دار إحياء التراث، بيروت، ط.2.
- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، 2001م، دار صادر، بيروت، د.ط.
- المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 1939م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر، د.ط.
- مدارك التنزيل وخصائص التأويل: أبو البركات عبد الله النسفي، د.ت.، دار الفكر، دم، د.ط.
- المذكر والمؤنث: ابن التستري، تحقيق عبد المجيد هريدي، 1983م، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1.
- موسوعة علوم اللغة العربية: د. إميل بديع يعقوب، 2006م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1.
- النحو الوافي: حسن عباس، د.ت، دار المعرفة، القاهرة، ط.4.
- النكت في إعجاز القرآن "ضمن رسائل في إعجاز القرآن": أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى، تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، 1968م، دار المعارف، مصر، ط.2.

القضايا الاجتماعية في مطولة جوزف حرب «المشهد الأصفر»

دورين نصر (1)

مقدمة

يتناول هذا البحث موضوع الصّراع الإيديولوجي في المستوى الاجتماعيّ في شعر جوزف حرب⁽²⁾، ويتجلى في ظواهر اجتماعية إنسانية، وهي الأكثر بروزاً في ديوان «مملكة الخبز والورد» الذي شملته الدراسة، كما يظهر الصّراع بين الفئات المسيطرة والفئات المسيطر عليها. ولتمثيل هذا النزاع بشكل معمق، اخترنا «المشهد الأصفر» نموذجاً، إذ إنّه يسلط الضوء على مظاهر متعدّدة من الصّراع. فأيّ قضايا طرح الشاعر؟ أهي محلية اجتماعية أم إنسانية عامّة؟

سنوضح، من خلال هذا البحث، التّوجهين الماركسيّ والوطنيّ لدى حرب، المتجلبين بظاهرة الصّراع بين الشعب والحكّام. ففي خطابه الشعريّ دعوة إلى تبيين ثقافة السلام، ومحو الحدود بين الدّول، ونقمة على الحرب، وثورة على الأنظمة القمعية. من هنا تبرز المواجهة بين قوى النّصر وقوى الانهزام.

وقد عمدنا إلى تحليل مطولة جوزف حرب «المشهد الأصفر» استناداً إلى المنهج السيميائيّ الخطابيّ الاجتماعيّ. فما هي خصائص هذا المنهج؟

أولاً-خصائص المنهج

رأى بيار زيمّا (Pierre ZIMA)⁽³⁾ أنّ النّصّ بصفته بناء لغويّاً يستدعي تسرّب

(1) - حائزة شهادة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها من معهد الآداب الشّرقية-جامعة القديس يوسف، بعنوان: الوطن في تحولاته عبر القصيدة مضموناً وبناء عند الشعراء الثلاثة: الشاعر القرويّ وخليل حاوي ومحمّد الماغوط. تدرّس في الجامعة اليسوعية مادة تحليل النصوص، وفي جامعة البلمند. وهي عضو في تحرير المعجم التاريخيّ للغة العربية في الشارقة، ورئيسة رابطة المثقفين العرب في لبنان، وعضو اللجنة العلمية للمؤتمر الدوليّ الثامن للدراسات العلمية. لها العديد من المؤلفات المنشورة، منها: شربل داغر: قصيدتي، معهم، وبلساني (2020)، قصيدة النثر: محمّد الماغوط أنموذجاً، وإصدارات شعرية، وقراءات نقدية عديدة، وأبحاث منشورة في مجلات محكمة.

(2) - جوزف حرب (1944-2014): شاعر لبنانيّ. ولد في بلدة المعمريّة جنوبيّ لبنان. درس الأدب والحقوق في الجامعة اللبنانية. شغل منصب المدير العامّ لاتحاد الكتّاب اللبنانيين منذ 1997. غنى كبار المطربين قصائده كفيروز ومارسيل خليفة. نال الكثير من جوائز التّكريم. ترك دواوين شعرية بالفصحى والعامية (m.marefa.org).

(3) - بيار زيمّا: ولد في براغ عام 1946. درس علم الاجتماع والأدب في جامعة إينبرج بباريس. علّم في عدد من الجامعات. من كتبه: «النقد الاجتماعيّ: نحو علم اجتماع للنصّ الأدبيّ» (1986) (t436-topic.you7.com).

الإيديولوجي إليه عبر اللّغة التي تسمّى لغة الفئة الاجتماعية الخاصّة أو السّوسيوكتيّة (sociolecte). إذ لكلّ طبقة أو فئة اجتماعيّة معجمها اللّغوي الخاصّ. من هنا تبرز النّزاعات الاجتماعية بعد استخراج اللّغة العائدة إلى كلّ جماعة بشريّة مختصّة في النّصّ. والسّوسيوكتيّة لغة إيديولوجيّة مرتبطة بفئة اجتماعيّة ما، تتخذ في أغلب النّصوص شكل خطابات، ويمكن وصفها معجمياً ودلالياً وفي التّركيب السّردّي. وتبغى تصنيف القضايا الاجتماعية من خلال المستوى المعجمي وإبراز المحاور المتقابلة. ومن ثمّ تجسيد النّزاعات في مستويي التلقّف والملفوظات. وقد تبنّى زيمّا حوارية ميخائيل باختين (Mikhail BAKHTINE)⁽¹⁾ وكارنفاليتيه⁽²⁾ من حيث المفارقات وازدواجية القيم واللامبالاة والمحاكاة الساخرة.

يفترض زيمّا ضرورة اعتماد علم اجتماع النّصّ على نظريّتين متكاملتين: الأولى تقول بعدم وجود قيم اجتماعيّة مستقلّة عن اللّغة، والثانية ترى أنّ الوحدات المعجميّة والدلاليّة والتّركيبية تجسّد مصالح جماعيّة وصراعات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة. وقد تبنّى قول جوليا كريستيفا (Julia KRISTEVA)⁽³⁾ بأنّ كلّ ملفوظة مكتملة تتحوّل إلى إيديولوجيّة (ZIMA, 1955, p. 120).

وتبقى البنى النّحويّة الكبرى، أي البنى السّرديّة، الأكثر أهميّة عند زيمّا بكونها تشكّل عالمًا متجانسًا نسبيًا.

نستنتج إذًا أنّ السّؤال الأساسيّ عنده يختصر بالتّالي: كيف تتجسّد القضايا الاجتماعية والمصالح الجماعيّة في المستويات المعجميّة والدلاليّة والتّركيبية في النّصّ الشعريّ؟ يعتمد هذا السّؤال على اعتبار العالم الخارجيّ الاجتماعيّ مجموعة من لغات فئات اجتماعيّة تمتصّها النّصوص الأدبيّة وتحلّها (ZIMA, 1955, p. 120).

وقد عمدنا بداية إلى عرض الإطار الذي يحدّد القصيدة وتقطيعها كي نحدّد معالمها

(1) - ميخائيل باختين (1895-1975): «فيلسوف ولغويّ ومنظر أدبيّ روسيّ (سوفييتيّ). ولد في مدينة أريول. درس فقه اللّغة [...] وعمل في سلك التّعليم وأسّ «حلقة باختين» النّقديّة عام 1921» (author/foulabook.com).
(2) - الكارنفال: هو حدث شعبيّ يتوجّه ضدّ الثقافة الرّسميّة والسّائدة. وسماته الازدواج القيميّ وتعدّد الأصوات والضّحك، وهو ثقافة فرعيّة نقديّة تشكك طقوسها وأنشطتها في الأخلاق السّائدة والمعايير المتبعة (Pierre ZIMA, Manuel de sociocritique, pp. 106-109).

(3) - جوليا كريستيفا: فيلسوفة فرنسيّة من أصل بلغاريّ. أستاذة بجامعة باريس السابعة، ديدرو. كما درّست في عدّة جامعات عالميّة. نشرت العديد من الدراسات في السيميائيّة والرواية والنّقد والفنّ والفلسفة والتّحليل النّفسي (www.kristeva.fr).

ونلج إلى دراسة الألفاظ والدلالات.

ثانياً - تأطير القصيدة وتقطيعها

النصّ قصيدة طويلة تتوافر فيها عناصر السرد والوصف والخطاب. وقد حملت الضمائر والأفعال وأساليب النداء والاستفهام...، فضلاً عن الشكل الطباعيّ وتقطيع النصّ، الكثير من الدلالات التي حاكت المعنى وعبرت عن اندماج حالة الشاعر بالحالة الشعريّة التي نستشققها من القصيدة. وقد ظهر لنا ذلك من خلال عناصر عديدة سنعالجها في ما يأتي.

1- تأطير النصّ

يفترض تأطير النصّ الجواب على الأسئلة التالية: من المتكلم؟ من يكلم؟ أين؟ متى؟ علام؟ لم يتكلم؟

ينكشف المؤول المباشر أنّ «الأنا» الراوية والمتكلّمة تعود إلى الشاعر نفسه «جوزف حرب». وهي تتكشف مباشرة من خلال ورود ضمير المتكلم المفرد في «قلْتُ، قرعْتُ، التفتُ، سأسكن، أغمضتُ، شاهدتُ، اغمريني، بيتي، لي، وجهي، عيني»... وضمير المتكلم للجمع: «نثرنا، شاهدنا، نصعد، بلغنا، فرشنا، انحنينا، نمسح».

كما تتكشف بطريقة غير مباشرة من خلال النداء: «يا شمس، يا قامتي، يا إلهي»، والاستفهام: «إلى أين تمضون؟، فأيهما الليل؟»، والإيعاز: «اجعلينا، فلنذهب، اذهبي، اغمريني»، وكلها تحيل إلى الشاعر المتكلم كون النداء يتطلّب سائلاً والإيعاز يتطلّب داعياً هو الشاعر في كلّ هذه الحالات.

إذاً، إنّ انتشار ضمير المتكلم على امتداد أسطر النصّ يدلنا على أنّ الشاعر عينه يمثل فرداً متكلماً في إطار جماعة هي جماعة الشعب المتمثلة في المنبوذين والمنسيين والجياع. وإنّ اقتران فعل الذهاب بلام الأمر (فلنذهب) يشير إلى أنّ الشاعر في الوحدة الأولى من النصّ هو المحرك العمليّ الأوّل لهذه الجماعة. وهو كذلك الموجّه الفكريّ لها لأنّ في الاستفهام والتساؤل عمل فكريّ وعقليّ خالص. وفي جمع المشاعر لهذين الدورين في ذاته التحريك العمليّ والتوجيه الفكريّ، ما يشير إلى تلازم الفكر والعمل في عمليّات التوعية والتوجيه التي تهدف إلى إنهاء الشعوب وتحريها.

أما من ناحية المؤول الدينامي، فنراه يتغير بحسب ماهية المرسل إليه؛ فثارة يحاكي الشمس بـ«اجعلينا»، وطورا يتوجه إلى جماعته داعيا إياهم للتحرّك، وأحيانا أخرى نراه يستعطف النجمة: «آه، اغمريني».

أما بالنسبة إلى الزمان، فبمعزل عن تواتر الكلمات العائدة إلى أوقات النهار: «الصباح، الليل، المساء»، يبقى زمن القضية مفتوحا وغير محدد.

كذلك بالنسبة إلى المكان، فعلى الرغم من ورود بعض الدلالات المكانية التي تحدّد ماهية طبقة البائسين والمنبوذين (أهل القرية، سكان الأكواخ، الغرف المتواضعة)، يبقى مجال هذا المكان مفتوحا بين الأرض «السهل» والسماء «النجوم».

نستنتج إذا، أنه نظرا لاتّصاف القضية بطابع إنساني شمولي، تتخطى أحداث القصيدة إطار الزمان والمكان.

وقد أضفى الحوار والأسلوب السردّي والوصفي شاعرية على قصيدة النثر، كما ساهمت هذه العناصر في إيضاح عملية تأطير النصّ.

تُستهلّ القصيدة بحوار بين الشمس وذات الكاتب:

«قالت لنا الشمس».

«قلت».

وترافق مع هذا الحوار صيغة فعل الأمر: «أحبّا، اجعلينا». يبدأ السرد من بعدها انطلاقا من مشهد القرية، ويتداخل فيها الوصف للغرف والأشجار. وداخل هذا المشهد السردّي الوصفي، تظهر في كلّ مرّة مقتطفات الحوار بين الشاعر والشمس، أو بينه وبين النجمة، أو بينه وبين الغيمة. وتتقاطع مشاهد السرد والوصف بالاستفهامات الاستنكارية للشاعر: «إلى أين يمضون؟»، «أكان جميلا من الأرض أنّ الصلّاة أحبّ إلى الله من قطع رأس الملوك، وكهّان كلّ الكنائس؟».

هذه الاستفهامات تتشكّل وقفة فكرية تأملية للشاعر في الواقع الذي شكّل المحرك الأساسي للقضية التي تبناها، والذي خضع لزمنية مفتوحة مستمرة.

2- تقطيع النَّصِّ

تتوزَّع القصيدة وفقاً لإخراجها الطباعيِّ على ثماني وحدات مرقّمة من 1 إلى 8. سنتناول دراسة أول وحدتين منها بالتفصيل.

الوحدة الأولى تتألّف من 48 سطرًا، تتواتر داخلها كلمتان مفتاح: «القمح» و«الشمس»، ويلاقيان عنوان النّموذج من خلال توحد اللون الأصفر. أمّا مستهلّ الوحدة الثّانية فيكمن في مصطلح «السّماء»، ثمّ تتواتر داخل هذه الوحدة المصطلحات الثّالية: «النّجوم»، و«الأرض»، و«الشمس». وتشكّل هذه الأخيرة الكلمة المفتاح المشتركة بين الوجدتين. وتنفصل الوحدة الأولى عن الثّانية من خلال المستويات النّحويّة والمعجميّة والدّلاليّة.

ففي الوحدة الأولى يهيمن مشهد البؤس والجوع الذي يشكّل المحرّك لثورة الشّاعر وجماعته ضدّ الظلم.

أمّا في الوحدة الثّانية، المستقاة من معاناة المتروكين، فيتجسّد فكر التّطلّع نحو التّغيير والأمل من خلال استدعاء السّماء والنّجوم للنّحرّك بوجه مأساة الأرض.

تتألّف الوحدة الأولى من ثلاث حركات متكاملة متوافقة يحددها التّبديل في المستويين النّحويّ والمعجميّ:

-الحركة الأولى (1- 8): الحوار بين الشّاعر والشمس.

-الحركة الثّانية (9- 36): مشهد القرية الرّازحة تحت وطأة الجوع.

-الحركة الثّالثة (37- 48): حركة العلوّ والانحناء.

تتألّف الوحدة الثّانية من 6 حركات متكاملة يحددها التّغيير في صيغة المخاطب:

-الحركة الأولى (49- 64): النّجوم ما قبل الصّباح وما بعد الغروب.

-الحركة الثّانية (65- 79): السّنوات بين الوقت ومطر الدّموع.

-الحركة الثّالثة (80- 105): الشّمس المنطفئة وقت الجنّازة.

-الحركة الرّابعة (106- 124): حركة الرّحيل والهروب من اليأس.

-الحركة الخامسة (125- 149): الدّيانات العاجزة تبكي وجع المهمّشين.

-الحركة السادسة (150-154): الشمس تمدّ يدها لتغذي بذور التحوّل.

ثالثاً - المستوى المعجمي

يتجلى في مطوّلة جوزف حرب صراع بين فئتين: فئة مسيطرة قويّة (الحكّام وأهل السلطة) وفئة مسيطر عليها ضعيفة (الشعب، الشّاعر وجماعته). وقد تمظهر ذلك من خلال صراع السوسيوولكتات المتحكّمة ببنية النّص الكليّة، وهي تعود، في هذه القصيدة، إلى السوسيوولكتة الخاصّة بكلّ فئة، وقد توزّع ذلك على الشّكل التّالي:

جدول السوسيوولكتات الخاصّة بالشّعب	جدول السوسيوولكتات الخاصّة بالمستبدين
الحرمان والجوع: جياح الأرض، أكوأخهم، جسمًا ناحلاً، الجائع العاري، نواح ضعيف، سراج شحيح، جائعو الأرض، النّواح، رحيل الجياح، ناي الضّريح، أكفّ المساكين، حشرات.	التّعم والشّبع: بلاط الحصاد، الملوك، القضاة، قليل من النّاس، رأس الملوك، كهّان كلّ الكنائس، الخليفة، الصّولجان.
الأرض: سهل، شيطانها، جياح الأرض، تراب، السّهل، صفصاف، العشب، زيزفون.	السّماء: الغيم، الغيمة، غمامات، مطر، نجوم، مطر مالح، دخان، سماء الموت.
الموت: اللّيل، العنمة، المساء، نؤاسة، الغروب، سراج شحيح، ليلهم، نوم، موتي، المرثي، نعش، جنازة.	الحياة: الشّمس، أشعلت، أشرق، الصّبح، تشرق، لمع الفجر، قمح، سهل، ذهب، فضّة.
التّضحية: طحيّنًا، قنلت شيطانها، نثرنا الشّمس قمحًا، سهل، قمح، معصرة للغيم، جسمًا ناحلاً، يسقط دمعي، صارت طحيّنًا، تتكوّن يد وأصابع.	الاستغلال: يطردهم الملوك، العصي، حفروا نوم كلّ المناجم، رموهم مع الأحجر الفقراء، يغلق في وجههم، امتصّهم ورق أو تراب.

1- وظيفة الحقول المعجميّة

تؤدّي الألفاظ التي تشكّلت منها الحقول المعجميّة وظيفة بارزة في الكشف عن الصّراع بين ممثلي العوامل التي كوّنّت المحور الأساسي في عمليّة الإبداع الشعريّ، والأبعاد المختلفة التي يحملها. وقد تبيّننا ذلك من خلال الحقول المتضادّة التي هيمنت على النّصّ.

وقد حلّلت كلّ متقابلين انطلاقًا من كلمات تنتمي إلى حقول أخرى أحيانًا، من خلال

تفاعل الألفاظ مع بعضها بعضاً في إطار إظهار الترابط بين العناصر التي تشكل الموضوع الأساس في النصّ، والكشف عن المعاني التضمينية التي تحملها.

1-أ- التنعم والشبع # الحرمان والجوع

يُعتبر الجوع المظهر المحسوس الأبرز في حياة الطبقة الفقيرة المعتمدة. إذ إنّ الفقير لا يلقى من المجتمع سوى الألم والويلات والجفاء والدّموع. وإذ تكرّرت كلمة غيم ومرادفاتها في القصيدة في الأسطر التالية: 14، 62، 73، فلنتحوّل في علاقتها مع الشمس إلى عنصر سلبيّ، لأنّ الغيوم هي التي تتسبّب بالأمطار، وهي العنصر الطبيعيّ الأساسيّ لنماء الحياة على الأرض، إلّا أنّها تسهم شيئاً فشيئاً في تدارك الحياة على المستوى الطبيعيّ، كما على المستوى الإنسانيّ النفسيّ الداخليّ. وبذلك، يتبيّن أنّ الشمس في ثباتها ونشاطها الحركيّ الثاريّ المتواصل، قد انسجمت ومطلب الجائع بالثبات والاستمراريّة وانتزاع الاعتراف بالوجود وبالفاعليّة وقدرة التغيّير: «يا شمس اجعلينا سهل قمع». في حين أنّ الغيوم في ترحالها الدائم، وتبدّل أحوالها الفجائيّ من عنصر الهواء إلى عنصر الماء، وفي خضوع حركيّتها لتأثيرات مناخيّة خارجة على إرادتها، إنّما تنسجم والواقع الذي يعيشه الجائع، وهو التشرّد والقلق.

ولعلّ ما يزيد من تقاوم هذه المعاناة وحدّتها إدراك الفئة المهمّشة المتمثّلة بالشعب (جياح الأرض) أنّ ثمة خللاً في تقييم الطّاقات وفي كفيّة تطبيق مبدأ الحقوق والواجبات. فالعمل والكّد والاجتهاد (حفروا نوم كلّ المناجم) تقابل كلّها بالنّبذ وعدم التقدير (رموهم مع الأحجر الفقراء). كلّ هذه المعاناة النّاتجة عن غياب العدل تسهم في بلورة حالة اليأس والانهيّار على المستوى النفسيّ المتمثّل بالاستسلام.

فمقابل الأفعال المضارعة التي تدلّ على بطش الحكّام (يطردهم، يغلق في وجههم)، نلاحظ وجود الأفعال الماضية التي ترمز إلى المستضعفين (أتوا، مضوا، ليسوا سوى، ماتوا). إضافة إلى الأفعال المضارعة الواردة في صيغة النّفي (لا نراهم) التي جاءت لتوكّد غياب العدل ولتكرّس واقع السلب والعدميّة. كما أنّ تكرار الاستفهام الإنكاريّ «إلى أين يمضون؟» جاء ليؤكّد المصير المجهول الذي ينتظر «جياح الأرض».

إنّ الصّراع بين قوى الظلم والقهر والتّجويّع وما يقاومها من أشواق الإنسان إلى التّحرّر والشّبع والكفاح.

1-ب- الأرض # السماء

إنّ الشاعر متمسك بهذه الأرض إذ يعتبرها الحقيقة الأولى والأخيرة. فهو يرى السعادة في الجسد لا في النّسامي والكتب، في الأرض وليس في السماء. فما يتمناه حرب هو العيش بسلام على هذه الأرض شريطة أن تتأى عنه عاهات الرّوح والجسد، على أنّ هذا التّمني نابع من جزع الرّحيل، وهو شعور صادق طبيعيّ. بالنسبة إليه، لا يمكننا الإيمان بما هو فوق المحسوس ما دمنا أسرى هذا المحسوس. فكيف نتقلّت من قيد الزّمان والمكان ونحن قد كبلنا أنفسنا بهما؟

ويتجلّى شكّ الشاعر بالتصوّرات الدّينيّة من خلال السّؤال الاستنكاريّ الذي طرحه في الوحدة الثّانية من القصيدة: «وأنّ الصّلاة أحبّ إلى الله من قطع رأس الملوك وكهّان كلّ الكنائس؟». وتغدو الأرض مطلقاً جديداً، وتراجع الدّوافع الرّوحيّة، وإذا بالإنسان نفسه حفنة تراب تأويه في قبر تنتهي فيه الآمال.

تلك هي فلسفة الشاعر الذي يعتبر أنّ الأرض هي باعثة الحياة في كلّ شيء، في حين أنّ التّصوّر الدّينيّ يعزو قوّة الخلق إلى الله.

كما أنّ الأرض تمثّل جدليّة الصّعود والهبوط التي تعبّر عن حركة الطّاعة وحركة التّمرد (BACHELARD, 1982, pp. 46, 47). وقد تجلّى هذا الأمر في نهاية الوحدة الأولى من المشهد:

«وصعدنا

كانت الأرض جياعاً، فانحنينا نمسح

الدّمع عن الأرض. وكانت دائماً

أعيننا في الشّمس».

فعملية الصّعود هذه رافقها الانحناء، إذ يجب أن نتعامل برفق مع الأرض. وكأنّ الشاعر يردّد مع أبي العلاء⁽¹⁾:

خفّف الوطء، ما أظنّ أديم الـ
أرض إلّا من هذه الأجساد

(1) - أبو العلاء المعريّ (979-1058): «ولد في معرّة النّعمان. شاعر ومفكّر فقد بصره في الرّابعة من عمره [...]». سافر إلى بغداد ثمّ عاد إلى المعرّة فعاش فيها معتزلاً العالم متزهداً [...] من مؤلفاته: سقط الزند وهو مجموعة قصائد واللّزوميّات ورسالة الغفران» (لويس معلوف، المنجد (الأعلام)، ص 503).

(المعري، 1957، ص 7، 8).

إلا أنّ التّحديق في الشّمس هو الذي يولّد الانبعاث. وتتمظهر من خلال الأسطر المذكورة أعلاه شهوة الأرض للاتّحاد بالشّمس التي لا يمكن فصلها عن النّار. وهذه الأخيرة كائن حيّ واجتماعيّ، «كما أنّها تخرج من أعماق المادّة في القلب وفي السّماء وتحصل على تقويمين: الخير (النّعيم) والشّرّ (الجحيم)، هذا فضلاً عن أنّها تجمع بين المادّة والرّوح» (BACHELARD, 1982, p. 19).

هكذا نرى الأرض امرأة تعاني شبق الشّهوة. وربّما أوما الشّاعر إلى عمليّة الخصب في الطّبيعة، فكأنّ موليدها (أشجار، عشب، عريش...) لا يخلقون إلّا بعد شهوة جنسيّة كالمرأة تماماً، إلى أن تحين لحظة الوضع. وهذا هو سرّ نداءات الأرض العطشى وهي تبتهل إلى السّماء. وقد افتتحت هذه الكلمة الحركة الثّانية من المشهد، إلّا أنّ السّماء تحمل في طيّاتها ملوحة المطر، وبدل أن توحى المياه بالعذوبة والنّظهر، تحوّلت إلى نذير شؤم يولّد السّوداويّة (CHEVALIER et GHEERBRANT, 1982, p. 374).

وقد جاء رمز «البومة» في القصيدة ليزيد من السّلبيّة على معنى الرّمز. أمّا الغيم، فتتساقط منه قطرات من ماء حاملة صوت الألم. كأنّ الغيم هو سجلّ الموتى: «غيمة من عيون ترغرن بالدمع». وحين تلامس القطرات العشب، تسكب فيه أنين الأرواح. وتبقى السّماء تتضمّن رمزاً سلبياً، إذ إنّ كلّ العناصر المنتمية إليها تحمل معاني تضمينيّة للتّعاسة والكآبة:

«نجوم معلّقة في بيوت بنتها الدّموع»، «التفتّ إلى نجمة بابها مغلق»، «فالتفتنا إلى غيمة من عيون ترغرن بالدمع».

نلاحظ إذًا أنّه بعكس ما اعتدنا رؤيته لدى تحليل مصطلحات السّماء، الشّمس والنّجوم التي تحمل في معناها المألوف مشاعر الأمل والانفتاح واللامحدود، ترتبط في قصيدة حرب هذه المفاهيم بمشاعر الألم والأسى والانغلاق. فحتّى الغيوم التي ترسل عادةً المطر لتروي الأرض أصبحت قطراته مالحة لا تثبت زرعاً يُطعم الجياع.

1-ج-الموت # الحياة

لقد تمّ جمع الحاوي «سهل» بالمحتوى «القمح» مرتين في الوحدة الأولى من النصّ:

«يا شمس اجعلينا سهل قمح»، «نثرتنا الشّمس قمحاً في تراب السّهل».

وفي اجتماعهما ما يحيل إلى خصب الحياة وامتلاء الكينونة، وهذا ما يفتقد إليه الجياح. فحقول القمح غالباً ما تكون شاسعة ممتدّة، تحتلّ مساحات كبيرة من الأرض، وبامتلائها بالقمح توحى بامتداد الحياة، ذلك أنّ القمح، وقد حملته السّنابل، تضمّن في المستوى التّعيينيّ، سمة العنصر النّباتيّ المنبثق من تحت التّراب، والمرتفع والمستقيم فوقه، والذي يكتسب أهميّة كبرى على الصّعيد الحيويّ المعيشيّ، كونه المادّة الأولى لصناعة الخبز الذي يعتبر الغذاء الأساسيّ للإنسان. هذا فضلاً عن أنّه يرمز، في المستوى التّضمينيّ، إلى دورة الحياة، أي إلى الموت والتّلاشي اللّذين يعقبهما انبعاث وقيامه (CHEVALIER et GHEERBRANT, 1982, p. 128).

وتتسم هذه الحياة بفضائل مستمدّة من رمزيّة معدن الفضة، كونه من أكثر المعادن استعمالاً في أدوات الزّينة والحلي التي تلجأ إليها المرأة لإبراز جمالها الخارجيّ: «في معصمها فضة من أقحوان». ومعدن الفضة يحمل في دلالاته الثّانية رمزيّة الصّراحة والاستقامة، وحسن النّيّة والصّفاء (p. 75)، وهي كلّها مقوّمات العيش الهانئ الكريم التي تبعد عن الأفراد، وتاليّاً عن المجتمعات، أشباح الفتنة والصّراع.

إلا أنّ غياب عناصر العيش الأساسيّة وانسحاب هذه الحالات على المستويات النّفسيّة والطّبيعيّة والاقتصاديّة يولّدان الحزن والألم والاكتئاب. فالدمع هو المظهر الحسيّ الخارجيّ:

«بنتها الدّموع لبعده المساء الأخير

يسقط دمعى فوق زجاج شبابيكك البيض

غيمة من عيون ترغرغن بالدمع».

والنّعش هو المكان المملوء بالأحياة. والعمل بالسّخرة هو الانعكاس المادّي لترديّ الوضع الاقتصاديّ: «حفروا نوم كلّ المناجم».

من هنا شيوع حالات الفقر والبؤس والحرمان:

«تنتقل الخطو

مثل الكتابة

مثل المراثي».

«نعشاً من النّوم».

«هذي جنازة من لم يمّت».

«ماتوا وليس لهم لغة في المراثي

ولا وردة قرب ناي الضّريح».

«وغاب الجياح».

إنّ هؤلاء الجياح اختاروا الموت بكرامة. فهم لم يسرقوا ولم يقتلوا ولم يفتشوا عن لقمة العيش خارج نطاق أرضهم، ورغم عملهم بالسّخرة لم يستسلموا لظلم القدر ولا واجهوا السّوء بالإساءة، بل غابوا بجسد جائع، أمّا روحهم فكانت شبعى من الكرامة، فرحلوا إلى «حسرات التّراب»، وغادروا من جحيم الأرض إلى جحيم الموت تحت التّراب.

فناحظ إذاً عالم التّناغم والانسجام الذي أشاعه تلازم معجمي الطّبيعة والحياة من جهة، وعالم الغرائز والشّهوات المدمّرة من جهة ثانية. فحمل معجم الطّبيعة وما يرافقه من سهول القمح سمات الدّلالة الإيجابية، ومعجم الموت الدّلالة السّلبية.

1-د- الاستغلال وتصلّب المشاعر الإنسانيّة # التّضحية وفيض المشاعر الإنسانيّة

تتمثّل معاناة الجماعات البشريّة الفقيرة في قيامها بأعمال مضنية مرهقة (العمل في المناجم)، وهنا يكمن الاستغلال لأنّ المردود الماليّ لهذا العمل لا يكفي لتأمين أدنى مقومات العيش. وهذا ما يزيد من آلام هذه الجماعات الكادحة. وهنا يجدر القول إنّ هذه الجماعات لم تختر عملها ولم تقرّر واقعها بل كانت ضحيّة مسببات اجتماعيّة ظالمة. وما يعزّز هذه الفكرة أنّ هؤلاء البائسين كانوا حجر الأساس في بناء البيوت والسّفن والتّقيب عن الدّهب. وقد استغلّ الأقبياء جهودهم وقوّة أجسادهم للتّعمّم بما

صنعته أيديهم. أمّا هم، فلم يتمكنوا من التّعمّ ولو بجزء بسيط ممّا ولّده عرق جبينهم وتعب سواعدهم.

وهذا المصير المُستغلّ تجسّد نحوياً من خلال تناوب الجمل المثبتة والمنفيّة:

«شادوا خصور البيوت» # «ولم يسكنوا».

«غطّوا بمحبرة السّفر الحلو كلّ المراكب» # «لم يبحروا»

«حفروا نوم كلّ المناجم» # «ليس في يدها ذهب أو عريس».

انطلاقاً من هذا المشهد الظّالم، برز مصباح التّضحية لدى الجماعة التي لم ينضب من قلبها شعور الأخوة، فحاولت استقاء دفاء الشّمس لكي تُثبت القمح من أجل إشباع الجياح، والتي تخلّت عن ملذّاتها الشّخصيّة ومصّلحتها الفرديّة فداء للأغليبيّة الرّازحة تحت وطأة الظّلم.

«كلّ روح قتلت شيطانها في جسمها صارت طحيئاً».

تتجلّى في هذه الأفكار فكرة التّرفّع عن الذات والشّهوات الشّخصيّة فداء لمصلحة الجماعة. وهي تصوّر بامتياز مفهوم التّضحية:

«ولم تشرق الشّمس إلّا وقد

بدأت تتكوّن فينا لأجل الجياح

يدّ

وأصابع».

وقد ألحّ المضحّون (الشّاعر وأتباعه) على زرع بضعة بذور للأمل متجلّية بالفعل «بدأت». كذلك كلمة «لأجل» تحمل معنى التّقاني من أجل الآخر. وهنا بدأت إذًا حركة التّغيير والتّحوّل من وضع المنسيين والمتروكين إلى قضيّة «الشّاعر وجماعته» التي تقوم على التّضحية بالذّات لأجل الجياح:

«يا شمس اجعلينا سهل قمح».

إذًا، إنّ مصدر الحياة والصّحة والشّبع لا يتحقّق سوى بتصفية النّفس من نوازعها

الدائية، فتصير عندها طحيئا، أي غذاء للبشر. وتصفية النفس تكون بإشباعها بمشاعر الحب التي منها ننطلق نحو التّضحية.

2- في المخطّط العالمي

إنّ الصّراع الإيديولوجي على المستوى الاجتماعيّ بين ممثلي الفئات المسيطرة وممثلي الفئات المسيطر عليها «قد تمثّل من خلال صراع السوسيوولكاتات، كما تمثّل من خلال عوامل متعدّدة انكشفت تباعاً في النّصّ، وكشفت بدورها عن صراع المفاهيم والقيم المحرّكة لكلتا الطبقتين» (عويجان، 2009-2010، ص 69).

لما كان الشّاعر الثّورويّ وجماعته يَعمون (العامل الذات في هذا النّصّ) واقع شعور الإنسان بالضعف والعجز في هذا العالم الكبير المظلم، ويَعمون كذلك استعدادهم لتقديم المساعدة والتّضحية من أجل البائسين وانتشالهم من الظلم تطبيقاً لمتسرّيات الماركسيّة، فقد هدفوا إلى إطعام الجياع ولو على حساب أنفسهم (العالم الموضوع) فداء لمشاعر الإنسانيّة الواحدة (المرسل إليه). أمّا هؤلاء المنبوذون، نبات الأرض وعمّالها، فببساطتهم وطبعهم المسالم قرّبوا المسافات بينهم وبين الأصابع الممدودة إليهم، فشكّلوا بذلك العامل المساعد. في حين أنّ طبقة الحكّام والظّالمين من ملوك وقضاة ومسخرّين للعمّال، فقد مثّلوا العامل المعاكس الذي حوّل حياة الفقراء إلى جحيم على الأرض باستبدادهم.

العامل المرسل (Destinateur)	العامل الموضوع (Objet)	المرسل إليه (Destinataire)
تسرّيات الماركسيّة والحسّ الإنسانيّ	إشباع الجياع ومدّ يد العون إليهم من أجل تحسين أوضاعهم ورفع الظلم عنهم	الإنسانيّة الواحدة
العامل المساعد (Adjuvant)	العامل الذات (Sujet)	العامل المعاكس (Opposant)
المنبوذون الجياع نبات الأرض طبقة العمّال الأصابع واليد	الشّاعر الثّورويّ وأتباعه ويمثّلهم القمح الذي يحمل دلالة ثانية تتجلّى بالتّضحية	الملوك القضاة مسخرّو العمّال

3- في المستوى الموضوعاتي (دمج المحاور)

بعد الكشف عن التّقلابات الصّغرى أو المحاور الدّلالية، يتوجّب دمجها: الشّبع # الجوع، السّماء # الأرض، الحياة # الموت، الاستغلال # التّضحية.

يمكن الاستدلال على تلك البنية الدّلالية الكئيّة عبر المستوى المعجمي، وذلك بإجراء مسح للمفردات التي تنتمي إلى شبكة سلب الحياة من مثل: قنلت، اللّيل، العتمة، موتي، المرثي، نعش، جنازة. ويقابلها الحقل المعجمي الدّلاليّ للتّضحية في سبيل الحياة، مثل: الشّمس، أشعلت، أشرقت، ذهب، فضّة، طحينًا، صارت طحينًا، يد وأصابع.

ويرتبط مفهوم الاستغلال الذي يختزل ممارسات الطبّقة المستبّدة بعلاقة تضادّ غير تدريجيّ مع مفهوم التّضحية. وقد تمثّل في النّصّ بعدة إشارات (جوع، حرمان، موت). وانبتق من اشتداد الاستغلال موقف ثورويّ ولدت منه التّضحية. وقد مثلتها الإشارات الآتية: «اجعلينا، سهل قمح، صارت طحينًا»، ما عبر بالاستغلال إلى عدم التّضحية اللذين هما في علاقة تكامل في السّلب. إلّا أنّ عدم التّضحية هو الحدّ الأدنى من تقبّل الاستغلال. ثمّ انتقلت الوضعية من اللّاتضحية إلى التّضحية اللّتين هما بعلاقة تناقض تدريجيّ، فتحول الموقف من ردّ الفعل إلى الفعل بـ «وهبتنا»، فإلى التّضحية المقدّسة افتداء للجماعة.

رابعًا- في المستوى الدّلاليّ

بعد أن قمنا بتحليل الصّراع بين الطبّقة الظّالمة والطّبقة المظلومة وأبعاده، سوف نقوم بدراسة أبرز ما ورد من عناصر البلاغة التي أدّت دورًا لافتًا، كالتّشبيه والاستعارة والتّشخيص والكناية والمجاز المرسل، إضافة إلى الطّباق.

1- التّشبيه

«وهو في اللّغة التّمثيل. وعند علماء البيان: مشاركة أمر لأمر في معنى بأدوات معلومة، كقولك: العلم كالنّور في الهداية» (الهاشميّ، ص 200، 201).

وقد وردت في هذه القصيدة التّشابه الآتية:

1- «هفت نحونا كامرأة تقطر دمًا».

2- «فرشنا سهلنا كالبدو».

3- «الوردة حمراء كتاج السيف».

4- «قلت كئيبيًا كنؤاسة».

5- «يحرکن أجفانهنّ كأسراب طير».

6- «مثل الكتابة مثل المرثي».

تعكس كثافة هذه التشابيه وهيمنة معجم الكأبة فيها (دمًا، السيف، كئيبيًا، أسراب طير، المرثي) حضور المتكلم في كل تشبيه واندماج مشاعره بمشاعر الفقراء الجياع الذين جعل من وضعهم البائس قضيتيه الحياتية. وورود أداتي التشبيه «مثل» في المثال السادس والكاف في الأمثلة الخمسة الأولى، يعزّز التشابه بين أطرافه، بحيث تتناغم حرفا الميم والثاء في «مثل» مع حرف الميم في المرثي، واللام فيها مع الكتابة، وتناغم حرف الكاف مع «كئيبيًا».

أسهمت التشابيه في تقريب الصور من ذهن المتلقي، وفي توضيح الدلالة التي تحملها المفردات الموحية بالحرز.

2- الاستعارة

الاستعارة «في اصطلاح البيانين، هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي» (الهاشمي، ص 239).

تجلت الاستعارات في القصيدة من خلال الأمثلة الآتية:

1- «كلّ روح قتلت شيطانها».

2- «نمنا في سرير غطّه أيلول».

3- «نسوة تباللنا بعطر».

4- «معصرة للغيم».

5- «شيخًا يسمّونه الوقت».

6- «مرّت خيالات أضرحة من دخان».

7- «يغلق في وجههم كتب الدّم».

نلاحظ أنّ الاستعارات في هذه القصيدة قد صبغت بمعظمها بلون مأساويّ (الروح تقتل شيطانها والسّرير غطّه أيلول وبات للغيم معصرة). كلّ ذلك طرد الغبطة من القلوب والبهجة من الأرواح. وقد أظهر شهر أيلول مشاركة الطّبيعة الإنسان في حزنه، إذ يرمز إلى فصل الذّبول والأفول.

وتتكرّر بعض الأحرف عينها أو المنقارية لفظاً داخل بعض الاستعارات المستخرجة:

استعارة 1: الكاف + القاف (كلّ، قتلت).

استعارة 2: النّون (نمنا).

استعارة 3: النّون + الباء (نسوة، تبللّنا، بعطر).

استعارة 4: الميم + الميم (معصرة للغيم).

استعارة 6: النّاء (مرّت، خيالات).

الضّاد + الدّال (أضرحة، دخان).

استعارة 7: الميم (وجههم، الدّم).

يُساهم تواتر هذه الأصوات في جذب الانتباه إلى واقع الوحشة والضّياح الذي يعيشه المساكين وإلى نقله بطريقة مرهفة.

قامت شعريّة هذا النّصّ إذاً دلاليّاً في المستوى الاستعاريّ من خلال تجسيم الواقع التاريخيّ العربيّ الرّازح تحت وطأة الظلم، وذلك بوضعه في علاقة مشابهة مع الطّبيعة الحزينة المنكسرة. وهذا ما يبيّن الحضور اللافّ للخيال العلاتقيّ، ما يسهم في تكثيف التّجربة الشعريّة.

3- التّشخيص

«هو إعطاء كلمة خاصّة بالكائنات الحيّة (إنسان، حيوان، نبات) للجماذ» (الهاشميّ، ص 242). أبرز التّشخيصات الواردة في القصيدة:

«قالت لنا الشّمس، نثرتنا الشّمس قمحاً، اللّوزة بيضاء لها عينان، بيوت بنتها الدّموع». ساهمت هذه الصّور في نقل حيّز الصّراع من المستوى المجرد إلى المستوى الحسيّ، وذلك من خلال إسناد أفعال الإنسان إلى الغيب، فأصبح للشّمس لسان تنطق به، وللّوزة عينان بيضاوان، وللدّموع قدرة على بناء البيوت. وتتجانس هذه المفاهيم من خلال حاسّة البصر (دموع، عينان) وفعل النّطق (قالت).

4- الكناية

«الكناية لغة، ما يتكلّم به الإنسان ويريد به غيره، وهي مصدر كنييت، أو كنوت بكذا عن كذا، إذا تركت التّصريح به. واصطلاحاً لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصليّ» (ص 272).

وتجلّت الكنايات في هذه القصيدة من خلال الصّور الآتية: «في كلّ عين سراج شحيح»، كناية عن انطفاء الأمل. و«المطر المالح» كناية عن الشّؤم والسّوداويّة والعقم ومرارة العيش. أمّا «أيّامها الكحليّة» فهي الأيام الموحية بالموت لاقترابها من السّواد.

5- المجاز المرسل

المجاز المرسل «وجه بلاغيّ يقوم على استعمال كلمة تدلّ على حقيقة (أ). هذه الكلمة تحلّ محلّ كلمة ثانية تدلّ على حقيقة (ب). وجاءت عمليّة الاستبدال هذه نتيجة للمجاورة أو للتواجد أو للارتباط الذي يجمع (أ) و(ب) في الواقع أو في الفكر» (البستاني، 1986، ص 115).

بعض الأمثلة الواردة في القصيدة:

1- «فلنذهب إلى أكوأخهم».

2- «يد وأصابع».

فقد قام على أساس العلاقة المكانية مجاز (1)، فقد تمّ استبدال مكان المكان بالمكان عينه، إذ قصد الشاعر زيارة الشعب الفقير، فدعا إلى الذهاب إلى أكوأخهم، وذلك إسناد عفويّ وتلقائيّ لأنّ السّاكن (الفقراء) والمسكون (الأكوأخ) هما في نظر المتكلّم كلّ واحد متماسك غير منفصل.

كذلك في المجاز (2) تمّ التّعبير عن الكلّ بواسطة الجزء، لأنّ الأشخاص أصحاب الفكر الثّورويّ/ التّهضويّ قد قرّروا إعانة الفقراء وإطعامهم ومساعدتهم على التخلّص من الظلم.

وتمثّلت كلّ هذه التّواحي بالجزء من الجسد الذي يرمز إلى العون والمساعدة، ألا وهو اليد والأصابع. فنحن نقول عن كلّ من ساعد الآخر إنّّه مدّ له «يد العون». وبذلك، من خلال رمزيّة اليد تجلّت قضيّة الشاعر وأتباعه الرّغبة بتغيير الواقع المرير من خلال إطعام الجياع كمرحلة أوّليّة.

6- الطّباق

«وهو الجمع بين الضدّين أو بين الشّيء وضدّه، في النثر والشعر» (ص 274). ظهر الطّباق في هذه القصيدة من خلال الرّحلة الرّمزيّة من باطن الأرض إلى ظاهرها، وحركة العلوّ فيها، تعادل نموّهما الرّوحيّ وهما يكتشفان «نواح جائي الأرض» الذين أغلقت في وجوههم بلاطات الملوك ومحاكم القضاة:

«أتوا،

لا نراهم

مضوا،

لا نراهم».

إلّا أنّ هذا الطّباق وُلد النّتيجة نفسها، ألا وهي: غياب البائسين: أتوا + مضوا = الغياب.

لقد شغلت الصّور في هذا النّصّ حيّزاً أساسياً عمل على الكشف عن الصّراع الإيديولوجيّ وانشقاق المجتمع. وهذه الصّور البلاغيّة أسهمت في الكشف عن ذات الشّاعر المتحمّسة. وهذا ما مثّل انزياحاً أسلوبياً على مستوى الصّور الشعريّة ودوراً بارزاً في رسم صورة الواقع المرير الذي أثقلت كاهله مصائب الحياة. وهذا ما تسبّب بنشوء مستوى علائقيّ على صعيد الإنسانيّة. وانطلاقاً من هذا الواقع المأسويّ، انبعثت في داخل اشاعر وأتباعه روح التّفاني في المحبّة والتّضحية والعطاء وتأمين الحماية والرّعاية للضعفاء.

7- التكرار

على مستوى الفعل، لقد اتّضح بروز جسر العبور من إطار الاستكانة وتقبّل واقع الظلم والقهر والاستغلال إلى إطار التّغيير والوصول إلى الحالة الإنسانيّة التي كانت مُستغابة. على مستوى الحالة الشعوريّة، اتّضح الانتقال من المشاعر السّليبيّة السّوداويّة إلى المشاعر الإيجابية، أي من الحزن والضّياع إلى التّجدد.

وهذا الانزياح على المستويين المذكورين تمثّل في تكرار المشهد عينه ثلاث مرّات:

«ولم تشرق الشّمس إلّا وقد

بدأت تتكوّن فينا لأجل الضّياع

يدّ

وأصابع» (س 80-83، 102-105، 151-154).

في أوّل تكرارين كنّا نشهد الفعل «بدأت تتكوّن لأجل الجياح»، وهذا ما يدلّ على بداية الرّغبة بالتّحوّل. أمّا في التّكرار الثّالث الختاميّ، فقد استبدل الفعل «بدأت تتكوّن» بـ «وهبتنا». من هنا، تمّ الانتقال من الحالة الفرضيّة إلى التّأكيد.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّه من ناحية التّوزيع الطّباعيّ للكلمات، فقد تمّ رصف اليد والأصابع بطريقة عموديّة مساوية بالطّول لكلمة الجياح، أي كالتّالي:

الجياح

يد

أصابع

فالجملة لم تكتمل بطريقتها الأفقيّة الاعتياديّة، وإنّما أراد الشّاعر التّشديد على أهميّة دور اليد التي شكّلت جسر العبور من حالة الظلم إلى ضوء الأمل. تشابكت إذًا الخطوط وتعدّدت الأصوات في حركة صراعيّة نامية.

8- رمزيّة الألوان

يعتبر جان كوهين (Jean COHEN) ⁽¹⁾ أنّ «اللّون هو إحدى الخصائص التّجربيّة الأكثر وضوحًا التي تمتلكها أشياء هذا العالم. فإعطاء المادّة لونًا لا تملكه أصلًا، ومنح الأشياء المعنويّة أيضًا لونًا يبدو تحديًا متعمدًا للعقل. فالعالم الرّمزيّ عالم محير. فهوذا القمر زهريّ، ولون الأعشاب أزرق، والشّمس سوداء، واللّيل أخضر. والأكثر غرابة من ذلك لون النّسوة الأحمر، والوحدة الأزرق، والنّدم الأخضر. هذه هي الألوان التي لم تر مطلقًا، والتي بخلطها بأشكال غريبة، وبأصوات غامضة، توفّ عالم الشّاعر العجيب» (COHEN, 1966, p. 133).

ومكوّنات القصيدة هي في الواقع لون يترافق مع المادّة: فالسماء زرقاء، والأرض (التراب والصّخور)، حمراء عند المساء وبيضاء عند الصّباح، وهكذا... وهذا هو سرّ نداءات الأرض العطشى وهي تبتهل الآن إلى السماء الزّرقاء كي تردّها امرأة بيضاء.

لهذا نرى قاموس الشّاعر اللّغويّ التّصويريّ حافلًا بكلّ الألوان. وهذه الأخيرة «تمثّل قوى النّور والظلام، كما تمثّل التّضادّ بين الدّكورة والأنوثة. تنتج الألوان من تذبذبات الصّوّء، وبالتالي فهي حركة، والحركة فعاليّة إيجابيّة أو سلبية. وعلى هذا فلألوان تأثير في مستويات الشّعور والشّكل المادّي» (صبحي، 2008، ص 89).

وقد تمظهرت الألوان في القصيدة عبر اللّوحة الآتية:

(1) جان كوهين (1919-1994): فيلسوف وأستاذ فرنسيّ في جامعة السوربون. يعرف بكتابة: بنية اللّغة الشّعريّة (Structure du langage poétique) (areq.net.)

الأصفر	الأسود	الأبيض	الأخضر	البنّي	الأحمر
الشمس (6 مرّات)	اللّيل (مرّتين)	طحينًا	العشب	تراب (4 مرّات)	وردًا
القمح (5 مرّات)	المساء	بيض	الأوراق	سهلنا	سيف
مناديل صفراء	مسائي	باسمين (مرّتين)	حقول	سهل	الدم
ذهب		اللوزة بيضاء	خضراء		وردة
أشرقت			الطبّق الأخضر		
تشرق (مرّتين)			عشب		
يصفرّ			الشجر		
زهر ليمون					

مثّل اللون الأصفر النّقطة المحوريّة في هذه القصيدة، إذ رمز إلى الشمس، وهو لون الإشراق الرّوحيّ. كما ارتبط هذا اللون ارتباطاً مباشراً بعنوان المشهد «المشهد الأصفر». ففيه تحقيق للرّؤيا ضمن رؤيا احتفاليّة تنثر البذور في الأرض والرّحم فيشيع الحبّ والخصب والولادة والحصاد.

أمّا اللون الأسود فقد مثّل القوى السّليبيّة، إذ رمز إلى الانحلال والدمار والموت، وإلى مرحلة القهر والتّفكك التي يبرز تحت وطأتها الجياح.

ويقابله اللون الأبيض، لون الصّفاء والنّقاء والقداسة والانبعاث، كما أنّه لون النّشوة والبهجة والبراءة والحياة. وقد رُمز إليه بالطحين (مادّة التّحوّل: الجوع- الشّبع).

والأخضر هو لون النّمّو والأمل والتّجدّد. وإذا كان الأخضر هو جسر الانتقال إلى لون آخر، فقد مثّل في هذه القصيدة الانسجام والانتعاش والانتقال من مرحلة الجوع إلى مرحلة الشّبع.

والبنّي يحمل لون الأرض وصفاتها، وقد دلّ على الموت والانحلال الرّوحيين.

أمّا الأحمر فهو الدم، الحياة، قوّة الحياة. وقد اقترن في هذه القصيدة بالنّار ليصير لون الفعاليّة والطّاقة، لون الشّهوة والخصب.

تداخلت هذه الألوان وانسجمت مع بعضها البعض لتشكل لوحة حيّة ناطقة نابضة.

وهكذا استطاع المستوى الدلالي أن يكشف عن عملية الإبداع التي تميّز بها الشاعر، والتي ترافقت مع الأبعاد التي حملتها الكلمات والتعابير.

الخاتمة

يتبين مما سبق أنّ الصّراع الإيديولوجي على المستوى الاجتماعيّ الإنسانيّ تمظهر، في هذه القصيدة، من خلال صراع السوسولوجية من صراع المفاهيم والرؤى والقيم وأساليب العيش، وقد وظّفت في الكشف عليها، وبطريقة عفوية تلقائية، مستويات اللّغة المختلفة على صعيد الدلالات والصورة والبناء. ولم يستطع الإيديولوجي، على الرّغم من بروزه، إقصاء الشاعرية عنها، فارتقى بدوره، ما جعل من «المشهد الأصفر» في قدرته على احتواء هذا الكمّ الإيديولوجي في قالب هو شعريّ محض. وما أضفى على هذه النّزعة عمقها هو التّناصّ مع لغة الحكّام والسائدين والقضاة ورجال الدّين من جهة، ومع لغة المنبوذين والمنسيين والعمّال والمستغلّين والجائعين من جهة أخرى.

كما أظهرت هذه الدّراسة بشكل جليّ اندماج الشّعر اللّبنانيّ المعاصر في صميم الحياة الاجتماعيّة مع ما تضمّنته من نواح إنسانيّة وطبيعيّة ووجوديّة. فقد برزت قضية الطبقة وحقوق المستضعفين إزاء قضايا الطبقة السائدة القمعيّة.

وبرزت على المستوى الوجوديّ قضايا الحرّيّة والعلاقة مع الآخر وإشكاليّة الحياة والموت، وكذلك قضايا الكآبة والغربة عن الذات والاستسلام. وقد تبيّنت لنا ماهيّة الصّراع بين الفئات المسيطرة، وتصلّب مشاعرها الإنسانيّة، والفئات المستضعفة التي تعيش واقع التّسرّد والجوع وواقع القهر والدّل، المحتاجة إلى حرارة الشّمس لكي تدفئ صقيع وجودها.

وقد برز تواصل قويّ بين الشّاعر والطبيعة التي منها استقى أفكاره وانتقى مفرداته وتعابيره. كما برز أيضاً وعي الشّاعر العميق الذي تمثّل في أسئلة متعدّدة وفي سعي دائم إلى تحقيق أهداف قضيّته من خلال التّضحية والتّرفع عن الذات والمصالح الشّخصيّة.

وقد عكس المكان والزّمان بطبيعتهما المفتوحة غير المتحدّدة في هذا المشهد، الرّؤية الماركسيّة التي لا تعترف بالحوّاجز بين البلدان وتتنظر إلى شعوب الأرض على أنّها

كلّ منسجم وواحد.

وقد أراد حرب وأتباعه تعميم تجربة المستضعفين الباحثين عن شمس الأمل إلى نموذج تحرريّ عالميّ يبعد شبح الظلم والظلمة والظلام عن كلّ أبناء الأرض.

لائحة المصادر والمراجع

أولاً- المدونة الشعرية

-حرب، جوزف (1991)، مملكة الخبز والورد (ط1)، بيروت، دار الآداب.

ثانياً- المصادر والمراجع العربية

-أيوب، نبيل (2011)، نصّ القارئ المختلف وسيميائية الخطاب النقديّ (ط1)، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون.

-البيستاني، صبحي (1986)، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية: الأصول والفروع، بيروت، دار الفكر اللبناني.

-صبحي، محيي الدين (2008)، جوزف حرب وأمطار الورد السوداء: دراسة نقدية (ط1)، بيروت، رياض الرئيس للكتب والنشر.

-عويجان، بولين (2009-2010)، الإيديولوجي والجماليّ في الشعر اللبناني المعاصر (أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بإشراف د. نبيل أيوب)، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

-المعريّ، أبو العلاء (1957)، ديوان سقط الزند (ط1)، لبنان، دار بيروت.

-معلوف، لويس (1966)، المنجد في اللغة والأدب والعلوم: الأعلام (ط 19)، بيروت، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية.

-الهاشميّ، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديح (ط6)، لبنان، دار الكتب العلمية.

ثالثاً- المراجع الأجنبية

-BACHELARD, Gaston (1982), La terre et les rêveries de la volonté, Paris, Librairie José Cortis.

-CHEVALIER, Jean et Alain GHEERBRANT (1982), Dictionnaire des symboles, Paris, Éditions Robert Laffont, S. Act éditions Jupiter.

-COHEN, Jean (1966), Structure du langage poétique, Paris XI, rue Racine, éditeur 26, Flammarion.

-ZIMA, Pierre (1955), Manuel de sociocritique, Paris, Gallimard.

ملحق

المشهد الأصفر (1)

عندما قالت لنا الشمس: أحبًا

ما تكونانِ أمامي،

قلتُ:

يا شمسُ اجعلينا سهلَ قَمَحٍ.

كلُّ روحٍ قَتَلَتْ شَيْطَانَهَا فِي جَسْمِهَا صَارَتْ طَحِينًا.

ولقد مَلَّتْ يدانا جَسَدِينَا، وبنا شَوْقٌ إِلَى كَلِّ

جِياعِ الأَرْضِ، فَلنَذْهَبْ إِلَى أَكْوَاحِهِمْ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ

طَحِينًا.

نَثَرْتَنَا الشَّمْسُ قَمَحًا فِي تَرَابِ

السَّهْلِ. شاهدنا جمالَ العُرفِ الخُضراءِ فِي العِتمَةِ. نِمْنَا

فِي سَرِيرِ عَطَّةٍ أَيْلُولُ بِالماءِ. وَعِنْدَ الصَّبْحِ رُحْنَا

نصعدُ النَّسْمَةَ فِي بَطْنِ جَمِيلٍ، فبِبلغنا قَرْيَةً يَدْعُونَهَا

أَيَّارَ، فِيهَا نِسْوَةٌ بَيْضٌ تَبْلَلْنَ بِعَطْرِ، وَمَغْنُونٌ بِنَايَاتِ،

وفَلاحونَ مِن نَحْلِ، وَفِي سَاحَاتِهَا مَعْصَرَةٌ لِلغَيْمِ، عَلَيَاتُ

صَفْصَافٍ قَدِيمٍ سَاكِنٌ فِيهَا سَنُونُو.

كَانَتِ القَرْيَةُ فِي أَشْجَارِهَا لَمَّا

وصلنا. ففَرَعْتُ العُشْبَ، قالت: مَنْ؟ فقلتُ: القَمَحُ. قالت:

(1) - جوزف حرب، مملكة الخبز والورد، ص 87-99.

«باركي

يا شمس بيتي».

ودخلنا غرفة الحور، فهتت نحونا

كامرأة تقطرُ وردًا، خصرها شبابةً، في معصمها فضةٌ

من أقحوانٍ، وعلى قامتها شهرُ يمامٍ.

وجلسنا. نادت الأوراق. جاءت. نادت

الجدول، حيانا بموج أبيض الصوت. ونادت:

يا -

تراب، القمح عندي.

فمشت كل حقول الأرض، خضراء،

عليها أزر من زهر ليمون، عبااث عريش، وكفافي

ياسمين. كانت الوردة حمراء كتاج السيف، واللوزة

بيضاء لها عينان قد شعت بأعماقهما نجمة رؤيا،

كرسولة.

وفرشنا سهلنا كالبدو. لا جار

لنا إلا غمامات تُحيينا بكفي مطر يسقط فضيًا،

وتمضي. يترك العصفور عند الباب مؤالًا، ويمضي. تضع

الأشجار فوق الطبق الأخضر تفاح نسيم، عسلًا من

زعتير الظهر، وتمضي

وعلونا عن تراب الأرض جسمًا

ناحلًا، يَصْفُرُّ يَوْمًا بعدَ يَوْمٍ. إِنَّا نَصْعُدُ نحو
القمحِ فينا. دائِمًا كانَ ذهابُ الجائعِ العاريِ إلى
الخبزِ نحيلاً. فاذهبي يا قامتي للقمحِ

صفراءِ

نحيلاً

وصعدنا.

كانتِ الأرضُ جياعًا. فانحنينا نمسحُ
الدمعَ عن الأرضِ. وكانت دائِمًا أعينُنا في الشَّمسِ، فامتدَّتْ

على أجفاننا في السَّهلِ

أهدابُ

طويلةُ

2

سماءُ

كانَ قُرَى أشعلتْ عندما أقبلَ

الليلُ كلَّ قناديلها:

يا

إلهي!

نجومٌ مُعلَّقةٌ في بيوتِ بَنَّتْها

الدموعُ لبعدِ المساءِ الأخيرِ. التفتُ إلى نجمةٍ بأبها

مُغلقٌ بانتظارِ مسائي، وقلتُ كئيبًا كَنُؤاسَةٍ: ليتها هي

بيتي الذي بعد موتي سأسكنُ فيه.

-وبيتي؟

-نراه متى أشرقت نجمة الصبح.

آه اغمريني. فبيتي وبيتك بعد الوداع بعيدان. بيتك

قبل الصبح، وبيتي بعد الغروب، ولا شيء إلا

مروري غمامًا ببيتك يبكي، فيسقط دمعي فوق زجاج

شبابيكك البيض يرسم وجهي، وتدرين كم أنا بعد

يديك وحيدًا.

وأغمضت عيني، شاهدت شيخًا يسمونه

الوقت. مدّ يديه إلى سنة من سنيني فصارت

عصًا،

واختفى.

وهب علينا نواح ضعيف، يمرُّ

بنا واهيًا مثل خيط قديم إذا طال يقطعُه

طوله.

وهمى مطرٌ مالح، فالتفتنا إلى

غيمة من عيون ترغرغن بالدمع، في كل عين

سراج شحيح، يطرن وهنَّ يُحرِّكن أجفانهنَّ كأسراب طير

تفتش في الليل عن رزقها.

قلت لي:

-إنهم جائعوا الأرض في ليلهم،

يرسلون النواح،

ويستقظون المدامع

ولم تشرق الشمس إلا وقد

بدأت تتكون فينا لأجل الجياح

يدُّ

وأصابع.

وبات النواح قريباً من السهل

حتى فرشنا له سمعنا كيساط إذا ما مشيت

عليه وصلت إلى العين فينا.

ومرت خيالات أضرحة من دخان،

لها أرجل تنقل الخطو

مثل الكتابة،

مثل المرابي،

عليها معاطف من زيزفون وعشب،

وقاماتها من هياكل فيها نعاس وبؤم، وقد حملت فوق

راحاتها الزرق نعشاً من النوم، أيامها فيه كحلية

ذات رائحة من تراب نما فوقه الدمع، والحسرات

الطويلة.

- هذي جنازة من لم يمُتْ

بعدُ. هذا رحيلُ الجياح.

وتابعتِ السَّيرَ عمياءَ. أعيُنُها فوقها

ممطراتٌ، وكلُّ خطاها البطيئاتِ

ليلٌ

وضائعٌ.

ولم تُشرقِ الشمسُ إلا وقد

بدأت تتكوّنُ فينا لأجلِ الجياح

يدُ

وأصابعُ.

إلى أينَ يَمضونَ؟

شادوا خصورَ البيوتِ، ولم يَسكنوا

الرقصَ فيها. وغطّوا بمحبرةِ السَّفرِ الحلوِ كلَّ المراكبِ

عندَ هبوبِ الكلامِ، فسألتُ على ورقِ البحرِ من

أولِ السَّطرِ عندَ السَّواجِلِ حتّى نهاياته عندَ شمسِ

الغروبِ، ولم يُبحروا. حَفروا نَوْمَ كلِّ المناجِمِ حتّى

إذا لمعَ الفجرُ فيها، رموهُم معَ الأحجرِ الفقراءِ

التي ليس في يديها ذهبٌ أو عريسٌ.

إلى

أين يمضون؟

يَطْرُدُهُمْ مِنْ بَلَاطِ الْحَصَادِ الْمَلُوكِ

وَيُغْلِقُ فِي وَجْهِهِمْ كُتُبَ الدِّمِّ كُلِّ الْقَضَاةِ. لَهُمْ

عَرَقٌ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَزْرَعُ الشَّجَرَ الْعَسَلِيَّ يَذُوقُ

مَرَارَ كُلِّ الْعَصِيَّةِ. وَلَا شَيْءَ مَنْ عَمَّرُوا كُلَّ شَيْءٍ!

أَتُوا،

لا نراهم

مَضُوا،

لا نراهم.

وليسوا سوى حجرٍ أو هواءٍ.

كَأَنَّ قَلِيلًا مِنَ النَّاسِ جَاءُوا إِلَى الْأَرْضِ. أَمَّا

الجياعُ فقد وُلِدُوا مِنْ نِسَاءٍ فَقَدْنَ السَّنُونُو إِذَا

صَارَ أَمَّا. وَمَاتُوا وَلَيْسَتْ لَهُمْ لُغَةٌ فِي الْمَرَاثِي،

وَلَا وَرْدَةٌ قَرِيبَ نَائِي الضَّرِيحِ.

بَكَتْ عَيْنُ بُوَذَا، وَظَلُّوا جِياعًا.

وساروا وراءَ المسيحِ، وظلُّوا جِياعًا. وَأَلْهَبَ سَيْفُ النَّبِيِّ

رِقَابَ قُرَيْشٍ، وَظَلُّوا جِياعًا. وَكَلَّ الْعَصُورِ قَضَتْ عَرَقًا

فِي دِمَاءِ الْجِياعِ، وَظَلُّوا جِياعًا.

أَكَانَ جَمِيلًا مِنَ الْأَرْضِ أَنْ

السَّمَاءُ الَّتِي تَنْشُرُ الْخَبْزَ فَوْقَ أَكْفِ الْمَسَاكِينِ لَيْسَتْ
عَلَيْهَا، وَأَنَّ الصَّلَاةَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْعِ
رَأْسِ الْمَلُوكِ، وَكُفَّانِ كُلِّ الْكِنَائِسِ؟
مَا جَاعَ يَوْمًا فَقِيرٌ وَكَانَتْ
يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى بِخَبْزٍ. وَمَنْ خَطَأَ اللَّهُ أَنْ
النَّبِيِّنَ لَمْ يَرِسْمُوا وَجْهَهُ فِي الرَّغِيفِ، وَلَمْ يَجْعَلُوا
الْأَرْضَ بَيْتًا تَزِينُ بِالزَّرْعِ وَالنَّوْلِ لِلْفُقَرَاءِ، وَأَنَّ
الْخَلِيفَةَ لَيْسَ الْمَتَوَجَّعَ بِالشَّعْرِ، فِي يَدِهِ صَوْلَجَانُ الْكَلَامِ،
رَعَايَاهُ لَيْسَ لَهَا وَطَنٌ أَوْ جَنُودٌ، وَيَزْرَعُ فِي الْخُودِ
الْيَاسْمِينَ، وَيَرْفَعُ رَايَةَ قَمْحٍ عَلَى كُلِّ يَوْمٍ،
وَيَنْسُجُ كُلَّ السَّنِينَ مَنَادِيلَ صُفْرًا تُلَوِّحُ لِلْقَادِمِينَ إِلَى
الْوَقْتِ، لِلرَّاحِلِينَ إِلَى حَسْرَاتِ التَّرَابِ، وَمَا مِنْ جَحِيمٍ
سِوَى الْأَرْضِ، مَا مِنْ سَمَاءٍ سِوَى الْأَرْضِ، لَا
نُضَلَّ رَمَحٍ عَلَيْهَا،
وَلَا
كَفَّ جَائِعٌ.
وَوَغَابَ الْجِيَاعُ، فَأَيُّهُمَا اللَّيْلُ؟ غَابُوا
كَمَا امْتَصَّهَمُ وَرَقٌ أَوْ تَرَابٌ. وَلَمْ تَشْرِقِ الشَّمْسُ
إِلَّا وَقَدْ وَهَبْنَا لِأَجْلِ الْجِيَاعِ
يَدًا
وَأَصَابِعَ.

مدى مساهمة المرأة في التنمية المستدامة في قرى المتن الأعلى

نموذج قرى (القصبية، دير الحرف، كفرسلوان) - قضاء بعيدا

الدكتور إيلي شديد¹

ملخص

تعدّ قضايا المرأة من المواضيع الأساسية في مواضيع التنمية البشرية المستدامة وآلية إدماجها في المجتمع، فالتنمية البشرية المستدامة تقوم بدور أساسي في تقليص عدم المساواة بين الرجل والمرأة. من هنا جاءت أهمية هذا البحث حول دور المرأة في العملية التنموية في منطقة المتن الأعلى، والتركيز على مؤشري تعليم المرأة ونسبة مشاركتها في سوق العمل.

الكلمات المفتاحية: التنمية المستدامة - المساواة - الاندماج في المجتمع - العادات والتقاليد - البطالة

1- المقدمة

تعدّ المرأة نصف الموارد البشرية التي يعتمد عليها برنامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بالإضافة إلى دور المرأة في تنمية الموارد البشرية الصغيرة². فتعليم المرأة وتدريبها يؤدي إلى إحداث التغيير الاجتماعي، والإسهام في تحقيق درجة ما من التقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي³.

2- إشكالية البحث

بما أنّ المرأة في منطقة الدراسة تتأثر بعوامل عدة تختلف عما تعانيه المرأة في المدينة، لذلك كان لا بدّ لنا من أن ننظر إلى وضع المرأة في تلك المنطقة ونطرح التساؤلات التالية:

- إلى أي مدى يسهم كلّ من التعليم والعمل في تحقيق تغيير واقع المرأة المرير،

- (1) - أستاذ مساعد لمادة الجغرافيا في الجامعة اللبنانية -كلية التربية- الفرع الثاني
- (2) - تانيا، علي فاعور: التنمية البشرية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، دار المؤسسة الجغرافية، بيروت 2014.
- (3) - سعد خليل إسماعيل، تعليم المرأة في الدول العربية، السكان والتربية والتنمية، مكتب الإقليمي للأونيسكو، 1975.

وهل يؤثر إيجاباً على مكانتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؟

- كيف باستطاعتها ردم الفجوة بينها وبين الرجل في عملية التنمية، تلك الفجوة التي اختلقها التخلف الثقافي والعادات والتقاليد والسلطة الأبوية، والتي تؤثر سلباً على قدراتها وإبداعاتها وارتقائها؟
- البعد الجغرافي للأماكن التي تتوافر فيها فرص العمل. هل تؤثر سلباً على قدرة المرأة لانخراطها في سوق العمل، وفقاً للثقافة السائدة بعدم السماح للمرأة الخروج من دائرة مجتمعها؟
- هل الانتماء الطائفي والمذهبي للمرأة يؤثر في عملية توظيفها؟ وكذلك مظهرها الخارجي وطريقة اللباس هل يشكّلان عائقاً لعدم انسجامه مع بعض الوظائف؟

3- الفرضيات

- إنّ ارتفاع المرأة بمستويات التعلّم والعمل يمثل دعامة التحوّل لها، بالنسبة إلى وضعها على كافة الصعد.
- إنّ عدم المساواة بين المرأة والرجل يتأثر بشكل مباشر بالعادات والتقاليد، وكذلك بالتربية الأسرية والسلطة الأبوية، واللتين تدفعان المرأة المتعلّمة إلى التخلّي رغماً عنها عن أهدافها التنموية لذاتها ولمجتمعها، لكي ترضي السلطة التي تخضع لها.
- إنّ مركزية الكثير من المؤسسات العامة والخاصة في مدينة بيروت، تؤثر سلباً على تنمية المناطق الداخلية والمناطق البعيدة عن العاصمة، ويجعل المتعلّقات عاطلات عن العمل.
- النّظام الطائفي السياسي يؤثر في عملية التوظيف نسبة للانتماءات الطائفية والمذهبية، فبعض الوظائف حكرٌ لطائفة معينة على أخرى.

4- المناهج المتبعة

المنهج التحليلي: فهذا المنهج له إفادة كبيرة في القسم التطبيقي، حيث إنّ بعد حصولنا على معطيات إحصائية يتم فرزها وتحويلها إلى جداول، ثم تحليل النتائج لكي تصبح خلاصات تلقي الضوء على هدف الدراسة، والتحقّق من الفرضيات المطروحة،

كما تمّ الاعتماد على برنامج نظم المعلومات الجغرافية لتنفيذ الخرائط arc gis10.8 وبرنامج spss لتنفيذ الرسوم البيانية والعمليات الإحصائية.

5- تقنية البحث

أ- العينة:

لقد اعتمدنا عينة 700 امرأة من ثلاث قرى في المتن الأعلى. قرية في المتن الأعلى الأسفل وهي القصيبة (150 امرأة)، قرية في المتن الأوسط وهي دير الحرف (150 امرأة)، وقرية في القسم الأعلى من المتن الأعلى وهي بلدة كفرسلوان (400 امرأة) وسبب ارتفاع عدد سكان العينة في كفرسلوان يعود إلى ارتفاع نسبة السكان في هذه البلدة مقارنة مع القصيبة ودير الحرف. والاختيار لأفراد العينة كان عشوائياً من حيث التنوع والاختلاف لدى أفرادها من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتّحصيل العلمي، وبأعمار مختلفة للكشف عن مدى التّغيير في التّحصيل العلمي عبر التاريخ، ونظرة المجتمع لذلك المتغيّر ومدى تأثيره.

ب- الاستمارة:

تصاغ بشكل يتناسب مع موضوع البحث، للكشف عن معطيات تساعد في فهم وإيضاح الظاهرة المدروسة، وهي عبارة عن مجموعة من الأسئلة، تساعدنا في الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات المتعلقة بالمرأة.

6- دراسات ذات صلة

أ- فرص التّميّة المستدامة في قرى القصيبة، قرطاضة، زندوقة والكنيسة؛ وهي رسالة دراسات عليا في الجغرافيا من الجامعة اللبنانيّة من إعداد إيلي شديد، حيث تناولت الأوضاع الاقتصادية والبيئية في هذه القرى.

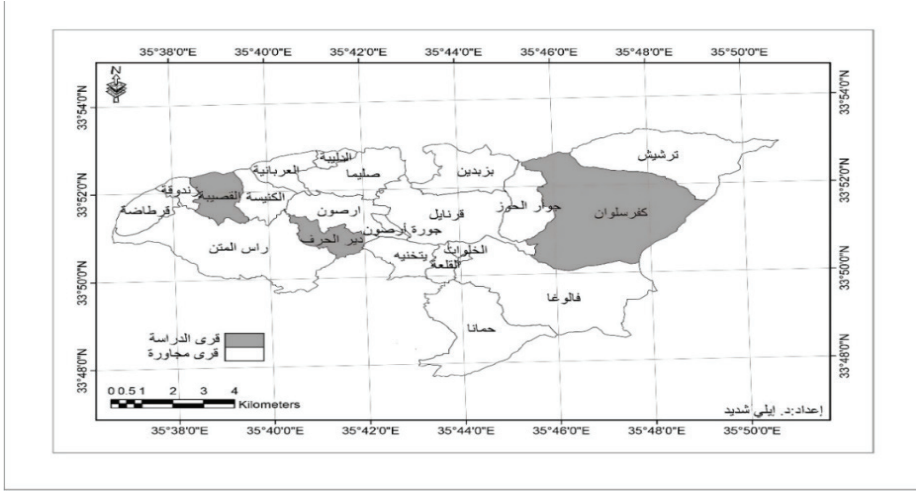
ب- تنظيم المجال الجغرافي والتّميّة الريفية المستدامة في قرى شمال اتحاد بلديات المتن الأعلى؛ وهي أطروحة دكتوراه في الجغرافيا من الجامعة اللبنانيّة من إعداد إيلي شديد، حيث تناولت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية في هذه المنقطة من لبنان.

ج- احتياجات التنمية المستدامة في حمّانا؛ وهي رسالة دراسات عليا في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية من إعداد أنور خوري، حيث تناولت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلدة حمّانا.

7- حدود البحث

تمّ اختيار منطقة المتن الأعلى ك مجال لتنفيذ البحث، فهي تشكل القسم الأعلى من قضاء بعبدا، كما تنتمي في خريطة لبنان الإدارية إلى محافظة جبل لبنان، حيث تحتل جزءاً أساسياً من السفح الشرقي لحوض نهر الجعماني، الذي يشكّل بدوره جزءاً أساسياً من أعالي حوض نهر بيروت.

خريطة رقم (1): قرى الدراسة والقرى المجاورة¹



8- مفهوم التنمية المستدامة:

هي تنمية لا تكفي بتوليد النمو، بل توزع عائدته بشكل عادل، وتجدد البيئة بدل تدميرها، وتمكّن الناس بدل تهميشهم، وتؤهلهم للمشاركة في القرارات التي تؤثر في حياتهم².

(1) - تنفيذ الباحث

(2) Sustainable human development :from concept to operation :a guide to the practitioner, new York , august1994 .

9- العينة

9-1- أفراد العينة وتوزيعهم الجغرافي

يهدف هذا البحث إلى تبيان بعض المعطيات بين القرى الثلاث وفقاً لأماكن سكن النساء، والنظر في أوضاعهنّ التي تتأثر بالبيئة الحاضنة لها، والتي تؤدي دوراً مهماً في أسلوب وتنشئة المرأة. وجاء توزيع العينة بين القرى على الشكل التالي:

جدول (1): توزع أفراد العينة بحسب مكان السكن ومتوسط ارتفاعها وبعدها عن العاصمة

ومساحتها¹

إسم القرية	المجموع	النسب المئوية	متوسط الارتفاع (متر)	متوسط البعد عن العاصمة	المساحة (كلم2)
القصبية	150	21.43	600	كلم20	2.82
دير الحرف	150	21.43	1000	كلم40	2.34
كفرسلوان	400	57.14	1400	كلم60	17.99
المجموع	700	100			

9 - 2- جدول أعمار أفراد العينة ومستواهم التعليمي

يتبين لنا من خلال الدراسة الميدانية (جدول 2 و 3) أنّ نسبة اللواتي في الفئة العمرية (أقل من 20) بلغت نسبة اللواتي يقرأن ويكتبن 1،1 %، أما اللواتي بلغن المرحلة المتوسطة فبلغت نسبتهنّ 22،7%، وفي المرحلة الثانوية فقد بلغت نسبتهن 34،1%، وفي المرحلة الجامعية بلغت نسبتهن 39،8%؛ وهذه النسب دليل خير وصحة، ووعي المجتمع في هذه المرحلة لتعليم الفتاة ورفع مستواها الثقافي، ومدى أهمية هذا المتغير في تطورها، وإيجابية التعليم للفتاة لتلعب دوراً ناشطاً في حياتها الخاصة والأسرية والمجتمعية، أما في التعليم المهني فقد بلغت نسبتهن 2،2%. إنّ نساء العينة اللواتي هنّ في الفئة العمرية (20 إلى 30) واللواتي يقرأن ويكتبن، يتبين لنا من الدراسة الميدانية أنّ نسبتهن بلغت 0،7%، أما اللواتي بلغن المرحلة المتوسطة فبلغت نسبتهن 24%، وفي المرحلة الثانوية فقد بلغت نسبتهن 39%، وفي المرحلة الجامعية بلغت نسبتهن 32،2%، وفي مرحلة الدراسات العليا بلغت نسبتهن 2،7%، وفي التعليم المهني

(1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى دراسة نظم المعلومات الجغرافية

1,4% . أما في الفئة العمرية (40-31) فيتبين لنا أن نسبة اللواتي يقرآن ويكتبن بلغت 0,4%، أما اللواتي بلغن المرحلة المتوسطة فبلغت نسبتهن 21,4 %، وفي المرحلة الثانوية فقد بلغت نسبتهن 30,3 %، وفي المرحلة الجامعية بلغت نسبتهن 45,4%، وفي التّعليم المهني 2,5%. إنّ نساء العينة (50-41) بلغت نسبة اللواتي يقرآن ويكتبن 0,6%، المرحلة المتوسطة بلغت 21,8%، وفي المرحلة الثانوية فقد بلغت نسبتهن 35,6 %، وفي المرحلة الجامعية بلغت نسبتهن 38,5%، وفي مرحلة الدراسات العليا 2,3%، وفي التّعليم المهني 1,1%. أمّا مرحلة ما فوق الخمسين عامًا، فقد تأثرت بالأوضاع الأمنية التي كان يعاني منها لبنان، وهي الحرب الأهلية، حيث كان لها تأثير سلبي على نسبة المستويات التعليمية، فكانت النسبة الأكبر منهنّ في مرحلة التّعليم الثانوي (50%) و (25%) في المرحلة المتوسطة، و (25%) في المرحلة الجامعية، وغياب تام في كلّ من التّعليم الجامعي والمهني، وذلك لأسباب أمنية من جهة، والفكرة السائدة عند الأجيال السابقة أن دور المرأة ينحصر فقط في الأمور المنزلية. وانطلاقاً من الجدول (3) يتبين لنا أنّ النسبة الأكبر من النساء قد بلغت مرحلة التّعليم الجامعي، حيث بلغت نسبتهن 38,9%، وهذه النسبة دليل وعي المجتمع في هذه المرحلة لتعليم الفتاة ورفع مستواها الثقافي، ومدى أهمية هذا المتغير في تطورها، وإيجابية التّعليم للفتاة لتؤدي دورًا نشطاً في حياتها¹.

(1) - المساواة بين الجنسين في لبنان واقع، تحديات وآفاق (2000-2018) قراءة من منظور الهدف الخامس للتنمية المستدامة 2030، بيروت، حزيران 2013.

جدول (2): توزيع النساء حسب العمر ومستواهن التعليمي¹

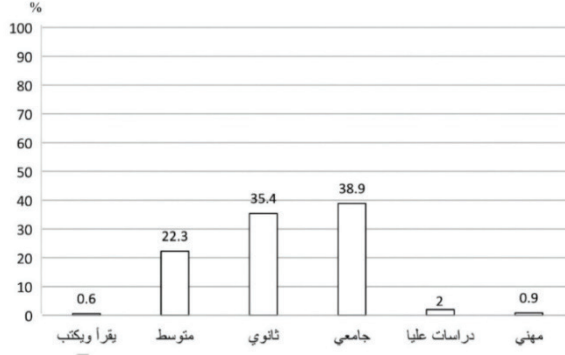
المجموع	مهني	دراسات عليا	جامعي	ثانوي	متوسطي	تفوق أو تكتب	التحصيل العلمي العمر	
							العدد الكلي	%
88	2	0	35	30	20	1	أقل من 20 سنة	
100	2.2	0	39.8	34.1	22.7	1.1		%
12.6	0.3	0	5	4.3	2.9	0.1		% للمجموع
146	2	4	47	57	35	1	30 - 20 سنة	
100	1.4	2.7	32.2	39	24	0.7		%
20.7	0.1	0.6	6.7	8.1	5	0.1		% للمجموع
238	0	6	108	72	51	1	40 - 31 سنة	
100	0	2.5	45.4	30.3	21.4	0.4		%
34.1	0	0.9	15.4	10.3	7.3	0.1		% للمجموع
174	2	4	67	62	38	1	50 - 41 سنة	
100	1.1	2.3	38.5	35.6	21.8	0.6		%
24.9	0.3	0.6	9.6	8.9	5.4	0.1		% للمجموع
54	0	0	15	27	12	0	وما فوق 50	
100	0	0	27.8	50	22.2	0		%
7.6	0	0	2.1	3.8	1.7	0		% للمجموع

جدول (3): المجموع العام لعدد النساء ومستواهن التعليمي²

المجموع	المجموع العام لعدد النساء ومستواهن التعليمي ²							
	العدد الكلي	% للمجموع	4	156	248	272	14	6
		0.6	22.3	35.4	38.9	2	0.8	100

- (1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية
(2) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

رسم بياني (1): النسبة المئوية للتوزيع نساء العينة حسب مستواهنّ التعليمي¹.



3-9- الوضع الاجتماعي لنساء العينة ومستواهنّ التعليمي

يبين الجدول (4) العلاقة بين متغيرين، الحالة الاجتماعية لنساء العينة ومستواهنّ التعليمي؛ ومن خلال الجدول يتبين أنّ النسبة الأكبر من نساء العينة هنّ متزوجات 58،1%، وكانت نسبة مستوياتهنّ التعليميّة على النحو الآتي: 0% تقراً وتكتب، وهناك نسبة 14،4% مستواهنّ التعليمي متوسط. فالزواج المبكر له تأثير واضح على المرحلة التعليميّة التي وصلن إليها، والعادات والتقاليد تفرض واقعها في ثقافة القرى حول الأولويات التي تخضع لها الفتاة، وعليها التقيد بأراء الأهل ورغباتهم، وأنّ التعليم شيء ثانويّ لهم، لا أهميّة له للفتاة مثل تهيئتها للزواج، وتخضع للسلطة الذكوريّة سواء الأب أو الأخ أو الزوج. ونجد أنّ النسبة ارتفعت في المرحلة الثانويّة، إذ سجلت 20،1% منهنّ وصلن لهذه المرحلة، وهذا يؤكّد زيادة نسبة اللواتي لم يتزوجن في سن مبكر، ووصلن إلى هذه المرحلة التي تعدّ مرحلة جيّدة جدّاً في الرّؤية النظريّة لدى الثقافة القرويّة حول تعليم الفتاة، وفي مرحلة التّعليم الجامعي وصلت النسبة إلى 22،4%، وهذا ما يرمز إلى ارتفاع نسبة الوعي وتبيان أهمية التّعليم بالنسبة إلى المرأة؛ أمّا بالنسبة إلى الدراسات العليا والتّعليم المهني فقد انخفضت النسبة إلى ما دون 1%، وذلك إمّا لانخراط المرأة في الحياة الزوجية وما ينتج عنها من مسؤوليات، ممّا يعيق إمكانية الاستمرار في الدراسات العليا، فضلاً عن عدم توفر وسائل نقل مشترك يربط القرى بالطرق الرئيسيّة؛ أمّا انخفاض الرقم بالنسبة إلى التّعليم المهني فيعود لعدم توفر معهد

(1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدّراسة الميدانيّة

يضم جميع الاختصاصات في المنطقة. أمّا النسبة الثّانية للمستجوبات فكن عازيات أي 26.2%، وتتوزّع حسب المستويات التّعليميّة كالتّالي: متوسّطي نسبتهنّ 9.5%، وهذا شيء مؤسف، أي أنّهنّ لم يتزوجن، وكذلك لم يكملن دراستهنّ، وهذا مؤشّر على مدى التّخلف في تعليم الفتاة، وكذلك أحياناً كثيرة تفرض الأوضاع الماديّة نفسها على وضع الفتاة في أسرتها، وتدفع بها إلى العمل خارجاً ضمن مؤسّسات إنتاجيّة تحتاج لليد العاملة، وليس للكفاءة التّعليميّة، ويعملن أيضاً من أجل مساندة الأهل في تأمين المعيشة، وتأمين حاجاتها الشّخصيّة دون النّظر إلى مدى أهميّة العلم في ارتقائها نحو مستويات تعليميّة عالية، من أجل بناء شخصيّة تعتمد على نفسها في المستقبل لتحديّ الحياة. وكذلك يكون المستوى التّعليمي أحياناً ضعيفة في التّحصيل الدّراسي، ممّا يؤثّر سلباً على نسبة التحاقهنّ بالدراسة. نجد بالمقابل النسبة نفسها 9.5% للواتي وصلن إلى المرحلة الجامعيّة، أي أنّ المجتمع ينقسم إلى قسمين: قسم لا يهتم بتعليم الفتاة، وقسم مهتم بتغيير واقع الفتاة وتحديدها للعادات والتقاليد، ونجد أنّ نسبة الفتيات العازيات الرّاغبات في الالتحاق بالمرحلة الثّانويّة كانت 4.8%، وهذا يعتمد على مدى ثقافة أهلها ومدى رؤيتها للمستقبل، وكيفيّة اكتفائها بهذه المرحلة، وذلك يعود إلى أمرين: إمّا التّقافة السّائدة في أسرتها وهي عدم إعطاء أهميّة للتّعليم الجامعيّ للفتاة، وعدم الالتحاق بها خاصة إذا كانت بعيدة عن أماكن السّكن، وأحياناً تكون لأسباب ماديّة منها عدم قدرة الأهل على تعليم أبنائهم لا سيما في ظل الأوضاع الاقتصادية الصّعبة¹. أمّا بالنسبة إلى الدراسات العليا فهي 2.4%، وهذا المستوى التّعليمي غير موجود إلاّ عند العازيات منهنّ، الأمر الذي يدلّ على أنّ الزّواج المبكر له تأثير سلبي في التّحصيل الدّراسي للفتاة، وأنّها كلّما امتنعت عنه في سن مبكر وصلت إلى مراحل تعليميّة ودراسات عليا في التّعليم، وتحديّ واقعها من أجل تحقيق أهدافها، والاعتماد على ذاتها، وتحقيق استقلالها النّفسي والمعنوي والمادي². النسبة الثّالثة للمستجوبات تراوحت أعدادهنّ بين الأرامل وغير ذلك؛ مثلاً مخطوبة وما شابه، وهذه النسبة بالتّساوي بينهما أي 3.6% لكلّ حالة، أمّا المرحلة التّعليميّة التي وصل إليها الأرامل فكانت 1.2% تقرّأ وتكتب، حيث لا نجد أيّ نسبة في المرحلة المتوسّطة، وكانت نسبة «غير ذلك» في هذه المرحلة

(1) - هيئة الأمم المتحدة للمرأة، تمكين المرأة وصلته بالتنمية المستدامة، مارس، 2016

(2) - المرجع نفسه

1.2%. ووجدنا النسبة 1.2% من الأرامل حصلن على شهادات جامعيّة، وأحياناً يكون التّحصيل العلمي بعد تعرضها لوضعها المأساوي أي التّرمّل، وخاصة إن لم يكن هناك أطفال يعيقون التّحصيل الدّراسي، أمّا المهني فنجد 1.2% من الأرامل و2.4% «غير ذلك» حصلنا على شهادات مهنيّة، وذلك لاحتجّهنّ إلى العمل، فيتوجّهنّ إلى دراسات سريعة من حيث الوقت في التّحصيل العلمي لتعلّم حرفة ما أو مهنة معيّنة، كالسكرتاريا أو دورات في الكمبيوتر والمحاسبة، من أجل العمل في مؤسّسات تحتاج إلى مستوى بسيط من الخبرات. فهذا الجدول أثبت لنا أنّ نسبة الحاصلات على دراسات جامعيّة ودراسات عليا هنّ 36.9%، أقلّ من اللّواتي حصلن فقط على مراحل متدنيّة من التّعليم المتوسّطي أو الثّانوي أو المهني، وكذلك اللّواتي لم يتعلّمن والتي بلغت نسبتهنّ 53.1%.
جدول (4): توزّع العيّنة بحسب الحالة الاجتماعيّة والتّحصيل العلمي¹

الحالة الاجتماعيّة التّحصيل العلمي	لا تدرّج	متردّدة	أرمله	غير ذلك	المجموع
تقرأ وتكتب	العدد الكلي	4	0	0	4
	%	100	0	0	100
	% للمجموع	0,6	0	0	0,6
متوسّطي	العدد الكلي	54	101	1	156
	%	34,6	64,7	0,7	100
	% للمجموع	7,7	14,4	0,1	22,3
ثانوي	العدد الكلي	107	141	0	248
	%	43,1	56,9	0	100
	% للمجموع	15,3	20,1	0	35,4
جامعي	العدد الكلي	114	157	1	272
	%	41,9	57,8	0,3	100
	% للمجموع	16,3	22,4	0,1	38,8

(1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدّراسة الميدانيّة

14	0	0	6	8	العدد الكلي	دراسات عليا
100	0	0	42,9	57,1	%	
2	0	0	0,9	1,1	% للمجموع	
6	0	0	2	4	العدد الكلي	مهني
100	0	0	33,3	66,7	%	
0,9	0	0	0,3	0,6	% للمجموع	
700	0	2	407	291	العدد الكلي	المجموع
100	0	0,3	58,1	41,6	% للمجموع	

9-4- أفراد العينة الجامعيين وكيفية اختيارهم للاختصاصهم

جدول (5): توزع نساء العينة حسب كيفية اختيارهم للاختصاص¹

النسبة المئوية	المجموع	كيفية اختيار الاختصاص
76	532	بموافقة شخصية
16,3	114	رغبة الأهل
6,3	44	تأثر بجهة ما
1,4	10	لا جواب
100	700	المجموع

يتبين لنا من هذا الجدول أنّ النسبة الأكبر لنساء العينة اخترن الاختصاص بإرادتهنّ، إذ بلغت 76 % وهي نسبة مرتفعة بالنسبة إلى بقية الأجوبة، أمّا بالنسبة إلى رغبة الأهل فكانت أقل وبلغت 16,3 %، فلأهل دور في توجيه أبنائهم، وذلك يعود إلى نظرتهم الخاصة بمستقبلهم، وأحياناً الإمكانيات المتوفرة لديهم تفرض واقعاً يتناقض مع الرغبات، أمّا لجهة التأثير بشخص ما فبلغت نسبتها 6,3 %، حيث تتأثر الفتاة بشخص ما قد تضطر لدراسة مثله، أمّا نسبة لا جواب فبلغت نسبتها 1,4 %.

9-5- الأسباب التي حالت دون انتساب الجامعيّات للاختصاص المفضّل

يتبين لنا من الجدول (6) أنّ النسبة الأكبر التي حالت دون انتساب الجامعيّات للاختصاص المفضّل هو الوضع الاقتصادي المتدنّي، الذي يعدّ معوّقاً كبيراً في اختيار

(1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

الاختصاص ونسبته 33,3%. فبعض الاختصاصات الموجودة في الجامعات الخاصة تتطلب أقساطاً كبيرة، لا يمكن لمواطن الطبقة الوسطى وما دون تحمل تلك الأقساط، وحتى لو كان الاختصاص متوقفاً في الجامعة اللبنانية (الرسمية) وبعيداً عن السكن. هذا يتطلب أيضاً مصاريف إضافية كمصاريف بدل سكن. أما نسب الأجوبة لمعارضة الأهل الانتقال إلى بيروت فبلغت 21,4% تحت سقف المحافظة والثقافة السائدة، بعدم تحرر الفتاة وذهابها بحجة الدراسة إلى العاصمة، وعدم مراقبتهم لها، أما لعدم توقّر الاختصاص في المنطقة فبلغت 12,4 %، وهذه نسبة لا بأس بها في تسليط الضوء على مشكلة تؤثر سلباً على الحياة التعليمية والتطويرية في اختيار الاختصاص المناسب، والذي من شأنه ارتفاع المستوى التعليمي بمختلف الاختصاصات لزيادة الإنماء المتوازي في المنطقة بما يتناسب مع حاجات سوق العمل فيها¹. أما بقية النسب فهي تعود لأسباب وقدرات البعض منهن التعليمية، حيث جاءت 8,2 % لعدم نجاحهن في امتحان الدخول لبعض الاختصاصات المحببة لهنّ، أو 6,7 % لعدم النجاح في الدراسة، وجاءت نسبة 1,1 %، أما لا جواب فبلغت 1,5%.

جدول (6): الأسباب التي حالت دون انتساب الجامعيات للاختصاص المفضل²

النسبة المئوية	المجموع	الأسباب التي حالت دون انتساب الجامعيات للاختصاص المفضل
33.3	233	مالية
21.4	150	معارضة الأهل للانتقال إلى بيروت
15.3	107	معارضة الأهل للاختصاص
12.4	87	غير موجود في المنطقة
8.2	57	عدم النجاح في امتحان الدخول
6.7	47	عدم النجاح في الدراسة
1.1	8	غير ذلك
1.5	11	لا جواب
100	700	المجموع

(1) - تمكين المرأة الريفية بين برامج التنمية الوطنية وأجندة التنمية المستدامة 2030، مجلة الناقد للدراسات السياسية، المجلد 6، العدد 2، الجزائر 2022
 (2) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

9-6- المستوى الاقتصادي لأسرة أفراد العينة

يسهم هذا الجانب في دعم المرأة في تحقيق ترميتها لذاتها¹، من أجل الصمود في وجه كلّ المشكلات التي يعاني منها البلد، والأزمات التي تعترض مستقبل أبنائه من تحقيق طموحاتهم والارتقاء نحو إنماء متوازٍ بالصّعد كافة².

جدول (7): توزّع العينة بحسب المستوى الاقتصادي للأسرة³

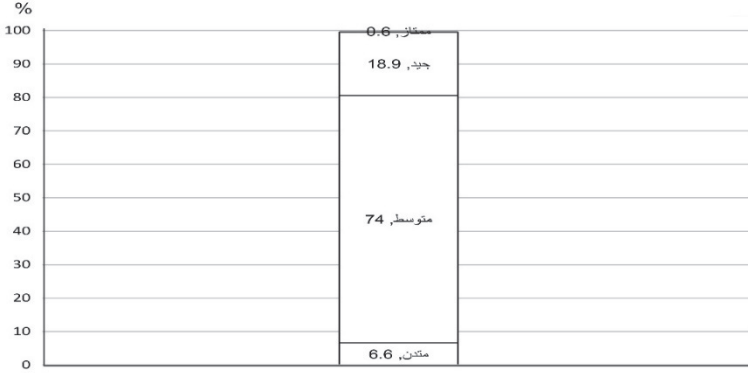
النسبة المئوية	المجموع	المستوى الاقتصادي للأسرة
6,6	46	متدنّ
74	518	متوسّط
18,9	132	جيد
0,6	4	ممتاز
100	700	المجموع

يتبين لنا من خلال الدّراسة الميدانيّة (الجدول 7) أنّ 74% حالتهم الاقتصاديّة متوسّطة، وهذا معدّل جيد إذا كانت الأجوبة صحيحة لديهم، ويعود ذلك إلى وعيهم جيّدًا لهذا المستوى المعيشي، أما النسبة الثّانية من الإجابات فهي 18,9% لوضع الاقتصاديّ جيّد لأسر نساء العينة، ومدى أهميّة ذلك على الدّخل. و6,6% من الإجابات كانت حالتهم الاقتصاديّة متدنّية، كحالة البلد في الظروف الاقتصاديّة الصّعبة التي نمرّ بها، وعدم وجود فرص عمل كافية، وغلاء للمعيشة في كافة الموارد الشّرائيّة، و0,6% ممتاز هي النسبة الأقلّ بين الإجابات، وهذا يدلّ على الأعداد القليلة من المواطنين الذين حافظوا على مستواهم الماديّ في ظلّ الأزمات.

(1) - www.un.org

(2) - تمكين المرأة الريفية، مرجع سابق
(3) - تنفيذ الباحث استنادًا إلى الدّراسة الميدانيّة

رسم بياني (2): النسبة المئوية للتوزع نساء العينة حسب مستوى الاقتصادي للأسرة¹.



9-7- وضع أفراد العينة لناحية انخراطهم سوق العمل

نسبة العاملات	المجموع	النسبة المئوية
نعم	526	75,1
كلا	165	23,6
ليس دائماً	9	1,3
المجموع	700	100

جدول (8): مدى انخراط نساء العينة في سوق العمل²

تبين لنا من (جدول 8) أن العاملات منهنّ 75,1 % أيّ أكثر من النّصف وهذا ما يدل على نسبة كبيرة من الانخراط في المجتمع، أما اللواتي لا يعملن بلغت 23,1% ولعدم مشاركة المرأة في العمل أسباب عديدة منها العادات والتقاليد وكانت نسبة 1.3% منهن يعملن ولكن ليس بشكل دائم.

(1) تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية
(2) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية.

9-8- المرأة ومدى انخراطها بسوق العمل

جدول (9): توزع العينة بحسب التحصيل العلمي ومشاركتها في سوق العمل¹

سوق العمل التحصيل العلمي	نعم	كلا	ليس دائماً	المجموع
تقرأ وتكتب	العدد الكلي	4	0	4
	%	100	0	100
	% للمجموع	0.6	0	0
متوسطي	العدد الكلي	138	14	156
	%	88.5	9	2.5
	% للمجموع	19.7	1.3	0.6
ثانوي	العدد الكلي	180	65	248
	%	72.6	26.2	1.2
	% للمجموع	2.6	9.3	0.4
جامعي	العدد الكلي	190	80	272
	%	69.8	29.4	0.8
	% للمجموع	27.1	11.4	0.7
دراسات عليا	العدد الكلي	10	4	14
	%	71.4	28.6	0
	% للمجموع	1.4	0.6	0
مهني	العدد الكلي	4	2	6
	%	66.7	33.3	0
	% للمجموع	0.6	0.3	0

يتبين لنا من خلال (جدول 9) أن النسبة الأكبر للنساء العاملات من المستويات التعليمية في الدراسات الجامعية بلغت 39,2%، وهذا يؤكد على مدى الترابط بين الارتفاع بالمستوى العلمي، وبين زيادة إمكانية الحصول على فرص للعمل². نسبة العاملات من

(1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

(2) - دور الإدارة المحلية في تمكين المرأة وإدماجها في عملية التنمية المحلية، مجلة التميز الفكري للعلوم الإنسانية والإجتماعية، العدد السادس، نيسان 2022

نساء العينة ذات المستوى المهني بلغت نسبة خفيفة 0,9%، فمنهنّ، فهذا النوع من التعليم يهدف إلى إكساب الفرد قدرًا من الثقافة والمعلومات الفنية، والمهارات العملية التي تمكنه من إتقان أداء عمله وتنفيذه على الوجه الأكمل. لذلك يقتضي العمل على تحسين النظرة العامة لهذا النوع من التعليم بحيث يلقى الدعم والمساندة من الوزارات المعنية¹، التي عليها أن تحسّن الخطط والسياسات التربوية والتعليمية لرفع مستواه²، وتنويع اختصاصاته بما يتناسب وحاجات سوق العمل والقطاعات الاقتصادية كافة³.

9-9- مكان السكن والانخراط بسوق العمل

بالنسبة إلى العينة حول مشاركتهنّ سوق العمل، نجد أنّ هناك نسبة 1,75% و 6,26% لا يعملن، وهذا يشكل عبئًا في الاقتصاد العام لهنّ، ويحسبنّ مستهلكات لما ينتجه الرّجل والمعيّل لهنّ⁴، وهناك نسبة ضئيلة من نساء العينة 1.3% يعملن أحيانًا وليس دائمًا، وهذا يثبت ضآلة فرص العمل المتوقّرة في منطقة الدّراسة، وهنّ لا يشكّلن عنصرًا مهمًا في إعالة أنفسهنّ أو أسرتهنّ. وبالنسبة إلى توزّع هذه المجموعة حسب القرى فتبين لنا أنّ هناك تفاوتًا بين القرى على الشكل التالي: في بلدة القصبية بلغت نسبة العاملات اللواتي يعملن 3,13%، و 4,14% في دير الحرف، و 6,47% في كفرسلوان.

- (1) - تقرير اللّجنة الوطنيّة للتّحضير والمشاركة في مؤتمر « بكين » (بيروت: اللّجنة الوطنيّة، 1995).
- (2) - شديد، إيلي: تنظيم المجال الجغرافي والتّنمية الريفية المستدامة في قرى شمال اتحاد بلديات المتن الأعلى، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا من الجامعة اللبنانيّة بيروت (2018).
- (3) - فهميّة شرف الدّين، المرأة والتّنمية المستدامة في ظروف لبنان، بيروت مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2004، ط 2.
- (4) - فهميّة شرف الدّين، المرأة والتّنمية المستدامة في ظروف لبنان، مرجع سابق

جدول (10): مكان السكن والانخراط بسوق العمل¹

عمل النساء سكن النساء	نعم	كلا	ليس دائماً	المجموع
القصبية	العدد الكلي	92	56	2
	%	61,3	37,3	1,4
	% للمجموع	13,1	8	0,3
دير الحرف	العدد الكلي	101	45	4
	%	67,3	30	2,7
	% للمجموع	14,4	6,4	0,6
كفرسلوان	العدد الكلي	333	60	3
	%	83,25	15	1,75
	% للمجموع	47,6	8,6	0,4
المجموع	العدد الكلي	526	165	9
	% للمجموع	75,1	26,6	1,3

9-10- الحالة الاجتماعية للمرأة ونشاطها الاقتصادي

يظهر لنا الجدول (11)، أنّ النسبة الأكبر لنساء العينة المتزوجات هنّ عاملات بنسبة 72.5%، وهذا يدلّ على الوضع الاقتصادي الصّعب للأسر الذي يدفع الفتاة إلى الانخراط في سوق العمل من أجل دعم الأسرة مادياً ومعنوياً في ظل الأعباء المعيشية المتراكمة على الأسرة²، وتخلّي الدولة عن دعمها لشرائح المجتمع التي تعاني من غلاء المعيشة³. وهذا الأمر يدفع بأفراد الأسرة أجمعين إلى طلب العمل، وذلك لتلبية الحاجات الضرورية لعيش كريم مهما كانت أنواع هذه الحاجات. أمّا نسبة العازبات اللواتي لا يعملن كانت 14,9%. لهذه النسبة أسباب عديدة؛ إمّا ثقافية فتمنع المرأة من الخروج من المنزل وانخراطها في سوق العمل الذي لا يعدّ من شأن المرأة، لا بل يعدّ إساءة اجتماعية ومعنوية لأسرتها، وإمّا بسبب متابعتها للدراسة والوقت غير كاف للعمل الإضافي⁴. ولا

- (1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية
- (2) - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 1996 (نيويورك، البرنامج 1996).
- (3) - الخوري، أنور: احتياجات التنمية المستدامة في حمانا، دراسات عليا في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية (2015)
- (4) - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 1995 (نيويورك، البرنامج 1995).

ننسى أنّ هناك أسراً ميسورة، حيث يعدّ عمل الفتاة غير ضروري لناحية زيادة الدّخل، بالرّغم من أنّ هدف العمل ليس مادياً في أغلب الأحيان¹.

جدول (11): توزّع العيّنة بحسب الحالة الاجتماعية ووضعها الاقتصادي²

وضعها الإنتاجي الحالة الاجتماعيّة	نعم	كلا	ليس دائماً	المجموع
عازية	العدد الكلي	104	56	161
	%	64.6	34.8	100
	% للمجموع	14.9	8	23
متروّجة	العدد الكلي	368	85	457
	%	80.5	18.6	100
	% للمجموع	52.6	12.1	65.3
أرملة	العدد الكلي	36	22	62
	%	58	35.5	100
	% للمجموع	5.1	3.1	9.8
غير ذلك	العدد الكلي	18	2	20
	%	90	10	100
	% للمجموع	2.6	0.3	2.9
المجموع	العدد الكلي	526	165	700
	% للمجموع	75.1	26.6	100

9-11- عوائق عديدة تعترض المرأة في مساهمتها العمل خارج منزلها.

يتبين لنا من الجدول أنّ عدم توفر وسيلة نقل تشكّل نسبة 23,1%، ويلبها عدم رغبة الزوج أو الأب أو الأخ بنسبة 21%، حيث ينظر إلى المرأة بأنّها قاصر لا يمكن الاعتماد عليها في الشؤون الاقتصادية. أما التّخلف، وعدم المساواة بين الجنسين، وتأثير الشّكل الخارجي على عمل المرأة، فهذه النّسب جاءت انعكاساً لبعض المجتمعات التي تنتمي إليها نساء العيّنة حيث بلغت 7,5%. فالمرأة إذا خرجت للعمل زاحمت الرّجال. أمّا

(1) - www.ilo.org

(2) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدّراسة الميدانيّة

الوضع الاقتصادي فله تأثير على حاجة العمل أو الاستغناء عنه إذ سجل (4%)، فعندما تكون العائلة ميسورة تكتفي بمعيل واحد فقط لا غير، وتركز المرأة مسؤوليتها على الشؤون المنزلية، ويكون العمل الخارجي من صلاحية الرجل. وجاءت نسبة 5,9% لعامل الزواج المبكر الذي من شأنه تقليل الفرص لإيجاد المرأة عملاً يناسبها في سوق العمل، وذلك لعدم حصولها على شهادات من شأنها المساهمة في تنمية قدراتها¹.

جدول (12): عوائق تعترض عمل المرأة خارج منزلها².

العوائق	المجموع	النسبة المئوية
عدم الرغبة في ذلك	32	4.6
صعوبة الملاءمة بين الاهتمام بالأسرة والعمل	88	12.6
عدم توفر وسيلة نقل	162	23.1
عدم رغبة الأب/ الزوج/ الأخ	160	22.9
العادات والتقاليد	58	8.3
الوضع الاقتصادي	28	4.0
الزواج المبكر	41	5.9
التخلف الثقافي	78	11.1
تأثير الشكل الخارجي (الحجاب)	52	7.5
عدم المساواة بين الجنسين	1	0.1
المجموع	700	100

9-12- المستوى التعليمي ومدى تأثيره في الحصول على العمل خارجاً بالنسبة إلى آراء العينة

(1) - شديد، إيلي: فرص التنمية المستدامة في قرى القصيبة، قرطاضة، زندوقة والكنيسة، رسالة دراسات عليا في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية، بيروت (2012).
(2) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية.

جدول (13): تأثير المستوى العلمي في الحصول على الوظيفة¹

النسبة المئوية	المجموع	تأثير المستوى التعليمي بالحصول على وظيفة
88.4	619	نعم
8.3	58	ليس دائماً
1.1	8	في بعض الأحيان
1.7	12	كلا
0.4	3	لا جواب
100	100	المجموع

كما تبين بالجدول (13) أنّ النسبة الأكبر 88,4 % كانت إجابتهنّ بنعم، أي أنّ هناك علاقة وطيدة بين الارتقاء بالمستوى التعليمي وبين تأمين فرص العمل بشكل أسهل؛ فالعلم يجعل مكانة المرأة بمستوى يحوّلها أن تتحمّل المهام. ومن ضمنها الدخول في معترك سوق العمل، وخاصة في عصر العولمة واستخدام تقنيات وتكنولوجيا جديدة وحديثة، فعليها أن تواكب كل ما هو جديد ومتطور. أمّا النسبة الثانية لهذا الجدول فتراوحت ما بين (ليس دائماً) 8,3 %، وفي (بعض الأحيان) 1,1 %، وهذا يعود إلى حاجة المتخرّجين إلى فرص للعمل، ولم تتوفر لهنّ هذه الفرص لتأمين حاجاتهنّ الاقتصادية والمعنوية والنفسية بهذا العمل². فإجابة « ليس دائماً » لدى المستجوبات تدل على قناعتهم بوجود الوساطة التي تؤدي دوراً مهماً في عملية التوظيف، إذ تكون الأولوية للواتي تدعمهنّ إحدى الجهات دون النظر إلى الكفاءة العلمية.

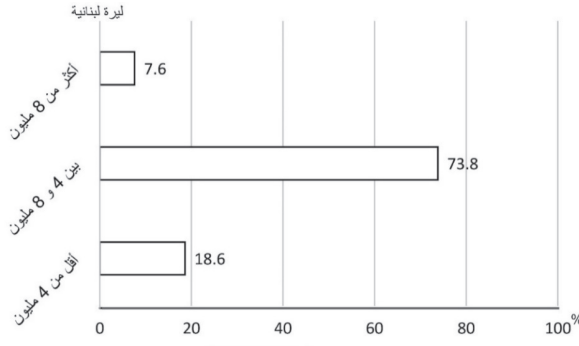
9-13- دخل العاملات لدى نساء العينة

جدول (14): راتب نساء العينة³

النسبة	العدد	الراتب (ليرة لبنانية)
18.6	98	أقل من 4 مليون
73.8	388	بين 4 و 8 مليون
7.6	40	أكثر من 8 مليون
100	526	المجموع

- (1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية
 (2) - فاعور، علي تانيا: «تمكين المرأة في إطار التنمية البشرية في لبنان»، أطروحة دكتوراه اللبنانية في العلوم الاجتماعية، بيروت (2005).
 (3) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

من نساء العينة اللواتي يتقاضين أجوراً أقل من 4 مليون بلغت نسبتهن 18,6% وهذا يظهر مدى الإجحاف في حقّ المرأة إذا ما نظرنا إلى حقوقها المكرّسة بقانون العمل والضمان الاجتماعيّ، أمّا اللواتي يتقاضين بين 4 و 8 مليون ليرة فقد بلغت نسبتهن 73,8% وهن يشكلن النسبة الأكبر أمّا نسبة 7,6% فكانت للواتي يتقاضين أكثر من 8 مليون.



رسم بياني (3): توزيع نساء العينة حسب مدخولهم باليرة اللبنانية¹

- تقديرات عاملات العينة من خلال عملهن 14-9

جدول (15): تأثير المستوى العلمي في الحصول على الوظيفة²

النسبة المئوية	المجموع	الحصول على تقديرات
27,8	146	كلا
67,3	354	نعم
4,9	26	لا جواب
100	526	المجموع

وجاءت نتيجة الجدول كالتالي: 67,3% منهنّ يحصلن على تقديرات في عملهن، وهذا أمر طبيعي أن تحصل العاملة على الحقوق المكرّسة لها في قانون العمل والضمان، أمّا النسبة الكبرى اللواتي لا يحصلن على تقديرات فهي نسبة عالية 27,8%، تخالف في ذلك أحكام القوانين، وتكون ظالمة بحقّ المرأة نتيجة إصرار أرباب العمل على عدم

(1) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

(2) - تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

تقيدهم بالقوانين النافذة بهذا الخصوص.

9-14- أسباب عمل المرأة خارجاً وفقاً لآراء أفراد العينة

إنّ الأسباب التي تدفع بالمرأة للعمل خارج المنزل هي لرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للأسرة، وكانت النسبة 33,7% إذ لعمل المرأة خارج المنزل مردود اقتصادي يساعد على تأمين المداخل للأسرة، أمّا النسبة الثانية فجاءت لعدم كفاية الدّخل وكانت 24,3%، وهذا شيء واضح أنّ حاجات الأسرة في أيامنا هذه لمداخل متعدّدة من أجل تحقيق التوازن ما بين المداخل والمصاريف اللازمة للأسرة. 16,4% منهم علّن عملهم بعدم وجود معيل آخر للأسرة، سواء بغياب الأب أو الرّوج. وفي هذه الحالة تضطر المرأة إلى العمل خارجاً من أجل كسب العيش الكريم. ونجد أنّ هناك عدداً لا بأس به من اللواتي يعملن من أجل تحقيق الذات، وهذه النسبة هي 12,4%. وهذا يدلّ على رغبة المرأة رغبةً شديدةً في تحقيق ذاتها. هناك 8,7% يرغبن في تحقيق المساواة بينهنّ وبين رجالهنّ، ورفع إمكانيّاتها بكافة الصّعد لتحقيق ذاتها والشّعور بالرّضى، ونسبة 1,9% كانت إجابتهنّ أن لا وجود لسبب محدّد كي يعملن.

جدول (16): الأسباب التي دفعت المرأة للعمل خارج المنزل¹

النسبة المئوية	المجموع	الأسباب التي دفعت المرأة للعمل خارج المنزل
33.7	177	لرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للأسرة
24.3	128	عدم كفاية الدّخل
16.5	87	عدم وجود معيل آخر للأسرة
12.4	65	تحقيق ذاتها
8.7	46	تحقيق المساواة بينها وبين الرّجل
2.5	13	غير ذلك
1.9	10	لا جواب
100	526	المجموع

(1) - استناداً إلى الدّراسة الميدانية

9-15 - مساواة المرأة بالرجل

النسبة الأكبر من الإجابات كانت 89 ٪ وجاءت «بالطبع»، أي أنّ المساواة مع الرجل هو حقّ من حقوقها، بحيث ينبغي أن تعطى المرأة كامل حقوقها المكرّسة لها في الدساتير والقوانين. النسبة الثانية 8،1 ٪ وهي ب « ليس دائماً »، وهنا تبدأ الثقافة التقليديّة الموروثة تظهر في عقليّة المستجوبات، حيث إنّ طلب المساواة مع الرجل ليس دائماً محقاً. والنسبة الأقل للإجابات كانت 2،9 ٪ وهي «لا»، أي أنّ طلبها بالمساواة ليس محقاً، فهذا يثبت أنّ هناك شريحة من النساء اللواتي يجهلن حقوقهنّ بالكامل، ويعشن حياة دونيّة.

جدول (17): المساواة بين الجنسين¹

النسبة المئوية	المجموع	رأي النساء حول طلب المرأة المساواة مع الرجل هل هو حق من حقوقها الشرعية
89	623	بالطبع
8،1	57	ليس دائماً
2،9	20	كلا
100	700	المجموع

9-16 - إيجابية خروج المرأة للعمل خارجاً:

إن النسبة الأكبر للدعم المالي للأسرة 42،9 ٪ برأي نساء العينة لإيجابية العمل خارجاً، وزيادة الدخل في الأسرة، أمّا النسبة الثانية وكانت 14،6 ٪ بأنّ عمل المرأة يحقق لها «الثقة بالنفس». 11،7 ٪ كانت نسبة الإجابات «بالشعور بالاستقرار» حيث إنّ لعملها دوراً في التعلّب على المشاكل التي يمكن أن تصادفها بثقة أكبر. 11،4 ٪ يشعرون «بالسعادة» وهذا مؤكّد. إنّ لعمل المرأة دوراً إيجابياً في تحسين وضعها، وهذا كلّه يولّد سعادة ذاتية. أما اتّخاذ القرار فبلغت نسبتها 11،7 ٪، وتحقيق المساواة مع الرجل 8،6 ٪؛ فالمرأة تسعى جاهدة من أجل رفع الهيمنة عنها من قبل الرجل. أمّا نسبة 0،1 ٪ فكانت «لغير ذلك»، وهذا أمر طبيعي خاصة وأنّ هناك نسبة من المستجوبات لا يعملن، وغير قادرات على تحديد النتائج الإيجابية لخروج المرأة للعمل.

(1) - استناداً إلى الدراسة الميدانية

جدول (18): النتائج الإيجابية لخروج المرأة للعمل¹

النسبة المئوية	المجموع	النتائج الإيجابية لخروج المرأة للعمل
42.9	300	الدعم المالي للعائلة
14.6	102	الثقة بالنفس
11.7	82	الشعور بالاستقرار
11.4	80	الشعور بالسعادة
10.7	75	يمكنك اتخاذ القرار
8.6	60	تحقيق المساواة بالرجل
0.1	1	غير ذلك
100	700	المجموع

9-17 - انعكاس المرأة العاملة ولدى أفراد العينة بعملها في رفع المستوى المعيشي لعائلتها

انطلاقاً من الجدول (19) تبين لنا أن النسبة الأكبر كانت 28,9 % لتأمين الحاجات اليومية للأسرة، النسبة الثانية كانت 23.8% لاستئجار منزل وبلغت نسبتهم 19,6%، أما تعليم الأولاد فقد سجل نسبة 18,4% وبخاصة في الأسر التي تعيش حياة اقتصادية دون الوسط، وأكثر ما نجد هذه الحالة عند الأمهات الملمات. والاهتمام بالمستوى الصحي 16,3%، فهذا الضمان الصحي يعدّ من أولويات العائلة ضمن الحاجات المهمة في ظل الظروف الاقتصادية وخاصة في غياب الدولة في التغطية الصحية، 9,1% كانت للنساء اللواتي يزدن من الترفيه والسفر بعملهن، وخاصة في الأسر المتوسطة والميسورة، وفي هذه الحالة فإنّ عمل المرأة يشكّل دعماً للأسرة وإنشاء المنزل 7,6%.

(1) - استناداً إلى الدراسة الميدانية

جدول (19): دور المرأة في رفع المستوى المعيشي للعائلة¹

النسبة المئوية	المجموع	كيفية المساهمة في رفع مستوى المعيشة العائلي في عملهن
28.9	152	تأمين الحاجات (مأكل، مشرب وملبس)
19.6	103	استئجار منزل
18.4	97	تعليم الأولاد
16.3	86	الاهتمام بالمستوى الصحي
9.1	48	الترفيه والسفر داخلاً وخارجاً
7.6	40	إنشاء منزل
100	526	المجموع

9-18 - سلبية خروج المرأة للعمل خارجاً:

انطلاقاً من الجدول (20) تبين لنا رأي أغلبية النساء أنّ عمل المرأة يؤثر سلباً على صحتها، إذ إنّ النسبة الأكبر من النتائج وهي 68،1% كانت للتعب الجسدي والنفسي. فتكوين المرأة من النواحي السيكلوجية والفيزيولوجية يجعلها حساسة جداً، وهي تتأثر سريعاً بمحيطها، وهذا التأثير ينعكس سلباً على شخصيتها ونفسيته بشكل كبير. أمّا النسبة الثانية فكانت 21،6% لإجابة إهمال الأسرة وزيادة الخلافات الزوجية. فخوض المرأة ميدان العمل يعرضها إلى الكثير من الضغوطات والمصاعب، ممّا يؤثر سلباً على إهمالها لأسرتها وسلوكها وانفعالاتها وطرق معاملتها لزوجها، أمّا بالنسبة إلى السلوك فقد جاءت المعدلات 4،3% منهم يتعرضن لضغوطات نفسية تؤثر سلباً على انفعالاتهن غير الطبيعية، وهذا بالطبع يؤثر على طريقة تعاملهن مع الآخرين بأسلوب غير طبيعي. وقد سجلت 1،7% من نسبة الإحصاء للإجابة بسلبية عمل المرأة، وتأثيره في زيادة الخلافات في أسلوب الإنفاق. كما أنّ محاولة المرأة توزيع الأدوار بينها وبين زوجها داخل الأسرة ينتج عنه صراعات، سيما وأنّ المرأة تعتبر في هذه الحالة أنّ من واجب الزوج أن يشاركها الأعباء المنزلية وتربية الأطفال، كما تشاركه هي في أعباء الأسرة المادية، وكذلك تزداد الخلافات في طريقة إنفاق المداخيل وفق أولويات حاجات

(١) - استناداً إلى الدراسة الميدانية

الأسرة بين الرّجل والمرأة. ولعدم متابعة أولادهنّ من حيث التّحصيل العلمي ورعايتهم، فقد بلغت %1،9. ونوع العمل المهني الذي تمارسه الأم له انعكاسات سلبية على أولادها، ومدّة عملها المهني الذي يتطلّب وقتاً طويلاً يرهقها ولا تستطيع بالتّالي القيام بواجباتها الأسريّة، ولا حتى الإشراف على تدريس أبنائها. و%1،4 كانت لاعتتراف بعض نساء العيّنة حول السّلبات التي تعترض المرأة في أثناء عملها خارجاً، وأهمها الابتزاز الجنسي الذي يعدّ من المشكلات المعاصرة، نتيجة احتكاكها المباشر مع الرّجل وخاصة مع أرباب العمل.

جدول (20): النتائج السلبية لخروج المرأة للعمل خارج المنزل¹.

النسبة المئوية	المجموع	النتائج السلبية لخروج المرأة إلى العمل خارج المنزل
68.1	477	تعب جسدي ونفسي
21.6	151	إهمال الأسرة وزيادة الخلافات الزوجية
4.3	30	سلوك وانفعال غير طبيعي
1.7	12	زيادة الخلافات في أسلوب الإنفاق
1.9	13	عدم متابعة أولادها من حيث التّحصيل العلمي
1.4	10	الابتزاز الجنسي
0.9	6	غير ذلك
0.1	1	لا جواب
100	700	المجموع

10- استنتاج واقتراحات:

تبين لنا من خلال هذه الدّراسة أنّ التّعليم شهد تطوراً ملحوظاً، وبعدّ التّعليم المصدر الأساسي لتطور المجتمعات الفكرية والثقافية، مما يعطي مردوداً اقتصادياً. وهذا ما انعكس بشكل واضح، حيث ساهمت المرأة من خلال المردود الاقتصادي لعملها في مصاريف المنزل المتنوعة.

(1) - استناداً إلى الدّراسة الميدانيّة

فكلما تطور المستوى التعليمي للمرأة ارتفع معها مستوى الدخل، كما بدا جليا العقدة الذكورية بعد المساواة بين الرجل والمرأة، ومدى تأثير العادات في توظيف النساء، إذ هناك عدد من الرجال يرفضون مشاركة زوجاتهم العملية الإنتاجية، وانحسار دورها في الأعمال المنزلية، يعني أنّ تتلقى الدعم من زوجها دون الإعتماد على عملها ومدخولها، وهذا ما دفع بعدد كبير إلى زيادة مستوى تحصيلهن العلمي، والعمل خارج القرى أو خارج البلد من أجل اكتساب نوع من الاستقلالية، ورفع مستواها الاقتصادي وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل.

تعاني المرأة من الظلم وعدم المساواة، فلعملها خارجا انعكاسات سلبية عليها، فهي عرضة للتعصب الجسدي والنفسي، إضافة إلى زيادة الخلافات الزوجية بسبب ضغوطات العمل وإهمالها لعائلتها. فهي تحاول في شتى الوسائل وشتى المجالات إلى إثبات وجودها وفعاليتها على كافة الصعد، لكن ظروف الحياة تقف في وجهها، لا سيما أنّ الأولويات في الحياة للرجل الذي ما يزال ينظر إلى المرأة نظرة دونية، ولا يمكنها أن تصل إلى مراكز مرموقة وأنها غير قادرة على تحمل المسؤوليات خارج المنزل.

فعدم المساواة بين الرجل والمرأة أضعف من طموحها، وجعلها لا تؤمن بقدراتها وتبقى راضخة لسلطة الرجل، دون تحدي واقعها بواقع جديد مليء بالنقّة بالنفس والشعور بالاستقلالية وتحقيق الذات، وتنمية شخصيتها على صعيد التطور الذي وصل إليه العالم اليوم، فلكي تكتسب المرأة الثقافة بطريقة علمية وموضوعية، لا بدّ من تأهيل ثقافي؛ وهي إشكالية جديدة تقف في وجه إنماء المرأة وتطورها.

كما على السلطات المحلية في منطقة المتن الأعلى بشكل عام، وبالقرى المدروسة بشكل خاص، العمل مع المؤسسات المعنية في الدولة على تنظيم قطاع النقل المشترك الذي يعدّ ضعيفاً وجزئياً ويقتصر على بعض القرى، مما يحدّ من قدرة انتقال العاملات اللواتي لا يملكن وسيلة نقل خاصة، فضلا عن خلق فرص استثمار في المنطقة، ما يساعد في خلق فرص عمل والحد من نسبة البطالة لدى النساء.

المراجع:

أولاً: الكتب بالعربية

- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 1995 (نيويورك، البرنامج 1995).
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 1996 (نيويورك، البرنامج 1996).
- تانيا، علي فاعور: التنمية البشرية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، دار المؤسسة الجغرافية، بيروت 2014.
- تقرير اللجنة الوطنية للتحضير والمشاركة في مؤتمر بكين « (بيروت: اللجنة الوطنية، 1995).
- تمكين المرأة الريفية بين برامج التنمية الوطنية وأجندة التنمية المستدامة 2030، مجلة الناقد للدراسات السياسية، المجلد 6، العدد 2، الجزائر 2022
- دور الإدارة المحلية في تمكين المرأة وإدماجها في عملية التنمية المحلية، مجلة التميز الفكري للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السادس، نيسان 2022
- سعاد خليل إسماعيل، تعليم المرأة في الدول العربية، السكان والتربية والتنمية، مكتب الإقليمي للأونيسكو، 1975
- فهمية شرف الدين، المرأة والتنمية المستدامة في ظروف لبنان، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، 2004، ط2.
- المساواة بين الجنسين في لبنان واقع، تحديات وآفاق (2000-2018) قراءة من منظور الهدف الخامس للتنمية المستدامة 2030، بيروت، حزيران 2013
- هيئة الأمم المتحدة للمرأة، تمكين المرأة وصلته بالتنمية المستدامة، مارس، 2016
- نظم المعلومات الجغرافية
- دراسات جامعية:
- الخوري، أنور: احتياجات التنمية المستدامة في حمانا، دراسات عليا في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية (2015)
- شديد، إيلي: تنظيم الجبال الجغرافي والتنمية الريفية المستدامة في قرى شمال اتحاد بلديات المتن الأعلى، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية بيروت (2018).
- شديد، إيلي: فرص التنمية المستدامة في قرى القصيبة، قرطاضة، زندوقة والكنيسة، رسالة دراسات عليا في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية، بيروت (2012).
- فاعور، علي تانيا: «تمكين المرأة في إطار التنمية البشرية في لبنان»، أطروحة دكتوراه اللبنانية في العلوم الاجتماعية، بيروت (2005).

مراجع باللغة الأجنبية

- 16.Sustainable human development: from concept to operation: a guide to the practitioner, new York , august 1994

مواقع إلكترونية

- 17.www.ilo.org
- 18.www.un.org

التّلاعب بالعقول:

دراسة تداوليّة في ضوء نظريّة التّحليل النّقدي للخطاب

د. كميل مخايل

1. ملخص

يعدّ التّلاعب بالعقول ووفقاً لبعض العلماء إجراءً لغويّاً، ويصفه آخرون بأنّه إجراء غامض لم تُحدّد طريقة حدوثه تحديداً دقيقاً نظراً إلى أنّه يرتبط باللّغة ويتخطّأها في الوقت نفسه. فطرح الباحثون مقارباتهم لتحليل التّلاعب بالعقول، منهم من ذكر أنّه إجراء لسانيّ، ومنهم من ذكر أنّه إجراء إدراكيّ يستغلّ الذاكرة العاملة. ولما كانت نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب والتّداوليّة تتشاركان الاهتمام بتحليل السّلطة والهيمنة والتّضليل في الخطاب السّياسيّ وغيره، فإنّ هذا البحث يقدّم دراسة تداوليّة للخطاب السّياسيّ للإضاءة على دعائمه الأيديولوجيّة والمعرفيّة، وللكشف عن دور الممارسات الخطابيّة في تطويع اللّغة لممارسة السّلطة وتعزيز الهيمنة على الآخرين والتّلاعب بعقولهم. تظهر نتائج الدّراسة أنّ السّياسيّ المتلاعب بالعقول يسعى دائماً إلى توظيف استراتيجيّات معقّدة وجديدة لا يدركها المتلقي، ووسيلته لتظهير ذلك لا يمكن أن تكون إلا لغويّة وبخاصة خطابيّة، وهذا ما قد يغني الدّراسات الخطابيّة ويوسع آفاقها التّحليليّة.

- **الكلمات المفاتيح:** تلاعب بالعقول، تداوليّة، أفعال الكلام، استنباع تحاوريّ، تحليل نقديّ للخطاب، سلّطة، أيديولوجيا.

2. مقدّمة

تطوّرت دراسات الحجاج والتأثير في الآخريّن تطوّراً ملحوظاً في العقود الثّلاثة الأخيرة، وترافق ذلك ازدهار العمل السّياسيّ، وبخاصة في الدّول الديمقراطيّة، وازدادت أنشطة الأمم المتّحدة السّياسيّة وتنوّعت قراراتها وازدهر التّواصل بين الأمم، ما أدى إلى مضاعفة الأنشطة السّياسيّة والانتخابيّة والإعلاميّة لترويج سياسات الدّول الكبرى وأيديولوجيّتها. زد على ذلك، تطوّرت التّجارة العالميّة واحتدمت المنافسة بين الدّول، فظهرت الحاجة إلى تطوير نظريّات الحجاج والتّرويج الإعلاميّ. هذا كله حدا المؤسّسات الإعلاميّة المعنيّة بالحملات التّرويجيّة على استغلال كل فكرة خلاقة، ومنها الفكرة التي

كشفتها دراسات فلسفة التفكير والتحليل؛ أشارت هذه الأخيرة إلى أنّ الخطاب يمكن الإنسان من اختبار العالم الماديّ وفهمه بوسائل غير مباشرة⁽¹⁾.

استغلت هذه الفكرة أيضاً الأحزاب السياسيّة والدول الكبرى، نظراً إلى ما تقدّمه من فرص متنوّعة لإدراك العالم المادي. استهدفت الأولى السيطرة على عقول مؤيديها واستخدمت لأجل ذلك تارة خطاباً حجاجياً وطوراً خطاباً تضليلياً⁽²⁾. أما الثّانية فاستهدفت مضاعفة قوتها وتعزيز هيمنتها وإقناع شعوبها بنظريّات اقتصاديّة وسياسات توسعيّة بالإضافة إلى التّلاعب بعقول الآخرين. أثار هذا الأخير اهتمام كثير من العلماء، وذكر بعضهم أنّ التّلاعب بالعقول إجراء إدراكي يستغل عمل الذاكرة، وذكر آخرون أنّه إجراء لساني يستغل آليات عمل الخطاب واستراتيجياته، ما أدى إلى بروز إشكاليّة رئيسة في هذا الموضوع؛ فتعدّدت الدّراسات وسعت لتحديد أصوله المعرفيّة، وحقّقت اكتشافات عديدة، منها ما سبر أسرار العقل وكفاءته الإدراكيّة والإبداعيّة المرتبطة باللّغة، ومنها ما سبر تراكيب الخطاب ودلالاتها السياقيّة. هذه الدّراسات، وعلى الرّغم من أهميتها، افتقرت أحياناً إلى الاستعانة بالمنهج النّداوليّ لتفسير طريقة عمل التّلاعب بالعقول واستراتيجياته الخطابيّة.

في المقابل كان الباحثون الغربيون يطوّرون المنهج النّداوليّ، فدرسوا أسلوب استعمال اللّغة وآفاق هذا الاستعمال في عملية التّواصل متأثرين بمقولة الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein): يتحدّد معنى كلمة ما في طريقة استعمالها في اللّغة⁽³⁾، ما أدّى إلى دراسة الأداء الكلاميّ للمتكلّمين ووظيفته، فظهرت نظريّتا أفعال الكلام ومبادئ الحوار، ودرستا تحليل المعاني المقصودة الموازية للمعاني المعجميّة الظاهرة. هذه الثّنائيّة الدّلاليّة هي أيضاً ركن من أركان استراتيجيّات التّلاعب بالعقول، لذا فإنّ المنهج النّداوليّ يستطيع الإسهام في تحليل استراتيجيّات التّلاعب بالعقول، وحلّ بعض المسائل العالقة في الخطاب السياسيّ، لأنّ إنتاج المعاني المقصودة وتحليلها

(1)- Johnson-Laird, P. N. (2012) "Inference in Mental Models", In Keith J. Holyoak & Robert G. Morrison (eds) The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning, Oxford: Oxford University Press, p. 136.

(2)- Van Dijk, Teun A. (1997) "What is Political Discourse Analysis?", Belgium Journal of Linguistics 11, p. 25.

(3)- Wittgenstein, Ludwig (1958) Philosophical Investigations. Translated by G.E. Anscombe. Oxford: Basil Blackwell, p. 20.

كثيرًا ما يرتكز على ثنائيات دلالية.

يبرز مجددًا شأن المنهج التداوليّ في تحليل الخطابات وبخاصة السياسيّة، إذ إنّ الرّبط بين الأداء الكلاميّ وسياقات التّواصل أثبت أنّه يحترم المبادئ الفلسفيّة التي يقوم عليها تحليل الخطاب؛ فالبحث اللّسانيّ في القرن الحادي والعشرين يتجه نحو الواقعية التّجريبية وسيطرة الدّراسات التّخاطبية وتحليل النّص، لأنّ هذه الأخيرة تهتم بدراسة الأصول التّخاطبية المفسرة لمقاصد المتكلّمين⁽¹⁾. ويضاف إلى ذلك، تتشارك التّداوليّة ونظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب الاهتمام بتحليل المعتقدات السياسيّة والسلطة في الخطاب السّياسيّ⁽²⁾، ما يضيفي صلاحية على هذه الدّراسات المعاصرة.

انطلاقًا مما ورد، يقدّم هذا البحث دراسة تداوليّة لموضوع التّلاعب بالعقول في ضوء نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب، وستلقي هذه الدّراسة الضّوء على مفاهيم التّداوليّة، ثم ستعرض المبادئ الرّئيسة لنظريّة أفعال الكلام وتعديل الفعل الإنجازيّ ومبادئ الحوار، وستتناول الدّراسة مفهوم التّحليل النّقديّ للخطاب والتّلاعب بالعقول وعلاقة الأخير بالتّداوليّة. وأخيرًا سيتم تحليل خطاب سياسيّ لجأ فيه كاتبه إلى ممارسة السّلطة بالتّباس وإلى التّلاعب بعقول الآخرين.

3. التّداوليّة

يُعنى علم الدّلالة بدراسة مستويات المعنى قبل تحقّقها سياقيا في الخطاب، أما التّداوليّة فتعنى بدراسة

مستويات المعنى بعد أن تصير قصداً فعلياً تبعاً للقرائن التي ينصبها المتكلّم⁽³⁾، وقد عرّف أحد الباحثين المعاصرين التّداوليّة بأنها الدّراسة المنهجية للمعنى الذي نتج عن استخدام اللّغة أو بالاعتماد عليها، أي اللّغة. تشمل موضوعات البحث الرّئيسة للتّداوليّة دراسة الإحالة، والاستتباع التّحاوريّ، والافتراض المسبّق، وأفعال الكلام، والإشاريّات⁽⁴⁾. يحدد هذا التعريف مسائل عديدة، أهمها علاقة اللّغة بإنتاج المعنى والقصد في الكلام،

(1) - علي، محمد محمد يونس (2003) «أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة»، عالم الفكر، 1ع، م 32، ص 164-168.

(2) - Trappes-Lomax, Hugh (2004) "Discourse Analysis", In Alan Davies & Catherine Elder (eds) The Handbook of Applied Linguistics, Oxford: Blackwell Publishing, p. 139.

(3) - علي، محمد محمد يونس (2007) المعنى وظلال المعنى، بيروت، دار المدار الإسلامي، ص 8.

(4) - Huang, Yan (2014) Pragmatics. Oxford: Oxford University Press, p. 2.

وإمكانية استخدام اللغة لتأويل المعاني الصادرة عن إشارات غير لغوية، زد على ذلك أن إنتاج المعاني إجراء تشترك فيه عوامل لسانية وغير لسانية.

لذلك تعدّ القصدية (Intentionality) عاملاً مشاركاً في عملية التّواصل الخطابية، أي أنّ القصدية تتضافر والدلالة والسياق ومستعملي اللغة لإنتاج المعنى المقصود وفهمه. وفي هذا السياق أسهمت دراسات تحليل الخطاب في تطوير الجوانب العامة للتداولية كنظرية تعنى بتحليل عملية التّواصل⁽¹⁾، سواء أكان ذلك يتعلّق بنظرية أفعال الكلام أم بمبادئ الحوار. لذلك تختلف التداولية عن دراسات المعنى، فالتداولية تركز أحياناً في دراسة العوامل غير اللسانية المؤثرة في إنتاج المعنى وفهمه وطريقة استعماله وما يضمّره استعمال بعض الألفاظ وعلاقة السياق بذلك، أما دراسات المعنى فلا تراعي المفاهيم المذكورة آنفاً⁽²⁾. لذلك ينبغي للباحثين هنا أن يميزوا بين نوعين من المعنى، المعنى اللغوي والمعنى المقصود⁽³⁾، وبخاصة المعنى المقصود في الخطاب الذي قد يستغله كل خطيب أو سياسي يريد تضمين خطابه مقاصد خبيثة أو غامضة⁽⁴⁾.

وهنا يمكن شرح الأفكار الواردة أعلاه على النحو الآتي: لما كان المرسل في عملية التّواصل لا يكتفي باستعمال الكفاية اللغوية استعمالاً حرفياً لأنها لا تسعف وحدها في إنتاج معاني الرموز اللغوية المستخدمة وفهمها، فإنّ هذا ما يجعل المرسل إليه يوظف قرائن متنوّعة تساعده على فهم محتوى الكلام، أو مقاصد المتكلّم، ومنها السياق الثقافي والاجتماعي والمعارف الموسوعية. وإذا كان هذا الإجراء نمطياً لأنه نوع من أنواع الممارسة المنتشرة في العالم، فإنّ ذلك يفترض أنّ المرسل يستعين أيضاً بأنواع السياق المذكورة سالفاً والمعارف الموسوعية وغيرها لإنتاج المعنى الذي يقصده؛ لذا تبرز قيمة التداولية كنظرية ترمي أولاً إلى البحث في إسهام السياق والعرف اللغوي في أسلوب إنتاج المعنى وفهمه في الوقت نفسه⁽⁵⁾. وعلى سبيل المثال، إنّ الإعلان الآتي من سياسيّ مسؤول في دولة مثل لبنان:

(1) – Pearson, B. & De Villiers, P. (2009) "Discourse, Narrative and Pragmatic Development", In Jacob L. Mey (ed) Concise Encyclopedia of Pragmatics, Oxford: Elsevier, p. 207.

(2) – Cruse, Alan (2006) A Glossary of Semantics and Pragmatics. Edinburgh: Edinburgh University Press, p. 136.

(3) علي، المعنى وظلال المعنى، ص 141.

(4) – Gruber, Helmut (1993) "Political Language and Textual Vagueness", Pragmatics 3(1), p. 2.

(5) – Senft, Gunter (2014) Understanding Pragmatics. New York: Routledge, p. 2.

(1) سأشعر الزّواج المدنيّ بعد شهرين.

يصبح من الصعب جداً التّصريح به، وسيستخدم هذا السّياسي خطاباً مراوغيّاً للوصول إلى غايته، وبخاصة إذا كان هذا النّوع من الخطابات يستخدم بغية المناورة للوصول إلى غايات أحرّ ملتبسة. ويصبح التّصريح الآتي لوزيرة الدّاخلية السّابقة في لبنان رياء الحسن:

(2) إنني اعتقد شخصياً بضرورة أن يكون هناك إطار للزّواج المدنيّ وسأسعى إلى فتح باب حوار جدي وعميق حول هذه المسألة مع كلّ المرجعيّات الدّينيّة وبدعم من رئيس الحكومة⁽¹⁾.

يصبح أكثر مقبوليّة من وجهة نظر المتلقي كمرحلة أولى، لأنّ منتج النّص يتمتّع بكفاية تداوليّة وسياسيّة جعلته يتدخّل عمداً لإنتاج خطاب يتميز بالخصائص التّداوليّة الضرورية.

يبرز هنا دور المقبولية (Acceptability) كخصيصة تداوليّة تتيح للخطيب ترميز النّص بأسلوب يسمح أيضاً للمتلقي باستخراج المعلومات أو تفعيلها في عقله مثل ما افترضت الدّراسات الإدراكية، وهي كثيراً ما تكون مرمزة بطابع أيديولوجي، أي ذات طابع محلي. فالخطيب أو السّياسي الحذق يعي مهاراته اللّغويّة ويعلم كيف يستغل التّمثيلات المعرفيّة لدى الآخرين، ووسيلته الأولى لتحقيق ذلك استخدام الرّموز اللّغويّة، أي الكلمات، لأنها تتيح لمستخدمها التحكم بسلوك الآخرين في الأغلب⁽²⁾.

والجدير ذكره هنا أنّ استخدام هذا النّوع من الرّموز لا يكفل للسياسي دائماً النجاح بمهمته، لكن قد يمنحه هامشاً كبيراً للمناورة، وقدرة كبيرة على التّفاوض، وعدم الالتزام بوعده، أو عدم صياغة وعود واضحة في خطابه السّياسي⁽³⁾. لذلك حاول الباحثون تطوير مناهج حديثة لتحليل الخطاب، مناهج تجمع بين تفسير العلاقات الشّخصيّة والاجتماعيّة لعمليات التّفاعّل الإنسانيّ وتوضيح المعاني المضمرّة، والإتكاء على الاستنتاجات

(1) - <http://www.alhurra.com/a/> (Accessed 1 February 2020) /الزواج المدني في لبنان

(2) - Morris, Charles W. (1938) "Foundations of the Theories of Signs", In otto Neurath, Charles Morris & Rudolf Carnap (eds) International Encyclopedia of Unified Science, Illinois: The University of Chicago Press 1(2), p. 39.

(3) - Gruber (1993) "Political Language and Textual Vagueness", Pragmatics, pp. 3-5.

المنطقية والحجاج السليم⁽¹⁾، ما أدى إلى ظهور نظريتي أفعال الكلام ومبادئ الحوار.

1.3 أفعال الكلام

تعد نظرية أفعال الكلام دراسة نسقية للعلاقة بين العلامات ومؤوليها، وتتعلق المسألة بمعرفة ما يقوم به مستعملو التأويل وأي فعل ينجزون باستعمالهم لبعض العلامات⁽²⁾، وهي تركز في وظيفة الخطاب، وتعمل أيضا كإطار للإشارة إلى العلاقة بين الشكل والوظيفة وبين التعبير (المفوض) والفعل الإنجازي في سياق معين⁽³⁾. والمقصود بمفهوم الخطاب المذكور أنفا كل ملفوظ (Utterance) يشير إلى معنى محدد، وجعل الشخص الآخر ينفذ عملا ما انطلاقاً من أنّ عملية التلّفظ سلوك تواصلية⁽⁴⁾، أي أن وحدة التواصل الإنساني هي إنجاز بعض أفعال اللّغة في سياقات معينة⁽⁵⁾. لذلك ميّز الفيلسوف الإنكليزي جون أوستن (John Austin) بين ثلاثة أنواع من الأفعال في داخل كل ملفوظ:

· الفعل الكلاميّ (Locutionary act) أو الفعل التعبيريّ أو الماديّ أو الفيزيائيّ لإنتاج الملفوظ.

· الفعل الإنجازيّ (Illocutionary act)، ويقصد به المعنى المقصدي لملفوظ ما، أو الفعل الذي ينجز بواسطة إنتاج الملفوظ كالوعد والتّهديد وغيره. ويعد الفعل الإنجازيّ ركيزة نظرية أفعال الكلام.

· الفعل التّأثيريّ (Perlocutionary act)، ويقصد به إنتاج الفعل التّأثيريّ بواسطة الفعل الفيزيائيّ أو التعبيريّ أو الإنجازيّ، فالمتلقي ينجز حدثاً أيضاً، أي أنّه يفتتح مثلاً⁽⁶⁾. وفي عبارة أكثر وضوحاً، يتيح الفعل الإنجازيّ التّأثير في مشاعر المرء وأفكاره

(1) - Sbisà, Marina (2011) "Introduction", In Marina Sbisà, Jan-Ola Östman & Jef Verschueren (eds) Philosophical Perspectives for Pragmatics, Amsterdam: John Benjamins, pp. 8-9.

(2) - أرمينكو، فرنسواز (1986) المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص 60.

(3) - Renkema, Jan (2004) Introduction to Discourse Studies. Amsterdam: John Benjamins, p. 16.

(4) - Littlejohn, Stephen W. (2009) "Speech Act Theory", In Stephen W. Littlejohn & Karen A. Foss (eds) Encyclopedia of Communication Theory, London: Sage Publications, p. 918.

(5) - أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 60.

(6) - Austin, John L. (1978) Quand dire c'est faire. Paris: Seuil, pp. 109-114.

وأفعاله⁽¹⁾، كإقناع المرء أو تضليله أو تخويفه⁽²⁾. واستخدم أوستن مصطلحين اثنين لوصف الاختلاف بين الأفعال الإنجازية الواردة في الجملتين أدناه:

(3) إنها تمطر.

(4) أنا اعدك.

وأولها هو الفعل الخبري، ويعني أنّ هناك شيئاً ما قد قيل عن واقع ما مثل ما ورد في المثال رقم (3). والثاني هو الفعل الإنجازي، وفي هذه الحالة ينجز الفعل بواسطة عملية التلّفظ نفسها كالوعد مثلاً⁽³⁾. وإذا كان بالإمكان للأفعال الخبرية أن تكون صادقة أو غير صادقة، فإن الأفعال الإنجازية لا يمكنها أن تكون صادقة أو غير صادقة، بل إما أن تحقّق شروط الاستخدام الصّحيح وإما لا⁽⁴⁾.

يلاحظ هنا أنّ هناك احتراماً لقواعد التّواصل المتداولة في مجتمع ما والتزاماً بحدّ معين من المبادئ التّواصلية التي أقرّها المجتمع في مرحلة ما من مراحل تطوّره. كتب أحد الباحثين شارحاً أنّ فعل الكلام لا يمكن أن يكون فعلاً فكرياً صامتاً أو مضمراً، بل يكون فعلاً واضحاً ويذكر علانية، لأنّ تأثيره يراد به أن يكون علانية⁽⁵⁾. أما جون سيرل (John Searle) فقد ربط المرء بمحيطه الاجتماعيّ قائلاً: لكي تنجز فعلاً ما فمعنى ذلك أن تشارك في شكل من أشكال السلوك الاجتماعيّ الخاضع للقوانين⁽⁶⁾؛ ومعنى ذلك أن إنجاز الأفعال الكلامية هو جزء من عملية التّواصل الإنسانيّة، وإن الطّلب إلى الشّخص الآخر القيام بفعل إنجازيّ هو أشبه ببيان يؤسّس واقعاً اجتماعياً⁽⁷⁾، أي يفترض وجود شروط معينة للدخول في عملية التّواصل. ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

(1)– Sadock, Jerrolds (2006) "Speech Acts", In Laurence R. Horn & Gregory Ward (eds) The Handbook of Pragmatics, Oxford: Blackwell Publishing, p. 55.

(2)– Sbisà, Marina (2013) "Locution, Illocution, Perlocution", In Marina Sbisà & Ken Turner (eds) Pragmatics of Speech Actions, Berlin: De Gruyter Mouton, pp. 34–35.

(3)– Renkema (2004) Introduction to Discourse Studies. p. 16.

(4)– Leech, Geoffrey (1990) Principles of Pragmatics. London: Longman, p. 176.

(5)– Capone, A. (2009) "Speech Acts Classification and Definition", In Jacob L. Mey (ed) Concise Encyclopedia of Pragmatics, Oxford: Elsevier, p. 1015.

(6)– Searle, John R. (1991) "What is Speech Act?", In Steven Davis (ed) Pragmatics: A Reader, Oxford: Oxford University Press, p. 255.

(7)– Engelstad, Fredrik (2009) "Culture and Power", In Stewart R. Clegg & Mark Haugaard (eds) The Sage Handbook of Power, London: Sage Publications, p. 214.

(5) أنا جائع.

إذا افترضنا أنّ هذه الجملة قالها طفل لوالدته في المنزل وقالها أيضاً لصديقه في المدرسة، فسيكون المعنى القضوي للجملة في الحالتين هو التعبير عن حالة الجوع وهو المعنى الناتج عن الفعل التعبيري؛ لكن جون سيرل يلاحظ معنى آخر في الحالة الأولى، وهو فعل إنجازي للجملة⁽¹⁾، ألا وهو (طلب الطعام)، فالطفل يطلب طلباً واضحاً، ووالدته قادرة أن تلبّي الطلب في هذه الحالة لأنها تستطيع ذلك في الأغلب، وهذا هو السلوك الاجتماعي التقليدي والمتوقع، وليس من الضروري أن يصح ذلك في الحالة الثانية. وهنا يبرز أيضاً أسلوب صياغة كل من الخطاب والانحراف الخطابي معاً في عملية التواصل التقليدية والسياسية.

لهذا السبب تبرز قيمة نظرية أفعال الكلام والحاجة إليها، فهي تهتم بطرائق إنتاج تراكيب ذات دلالات معجمية محددة وتضم بموازاة ذلك مقاصد متباينة ومتنوعة بالإضافة إلى الاهتمام بوظائف هذه المقاصد في الخطاب، أي أنها قادرة أن تفسر السلوك اللغوي للإنسان⁽²⁾. وقد أضاف تون فان دايك (Teun van Dijk) إليها أنّ النص يستخدم كفعل من أفعال الكلام، يقول: إذا كانت النصوص تتصف بأنها متواليات من الجمل فإنّ تحليلها أيضاً تحليلاً تداولياً يعد أمراً ممكناً بوصفها متواليات مؤلفة من أفعال اللغة⁽³⁾. هذه الفكرة تعني أنّ المقولات والجمل والنصوص لا تستعمل فقط للتعبير عن القضايا، بل تستعمل أيضاً في إنجاز بعض أفعال الكلام، مما يكشف آفاقاً جديدة وواسعة أمام من يريد استغلالها في معظم الخطابات السياسية، فكيف يجري استغلال أفعال الكلام وتعديلها في الخطابات؟

كتب كل من دي بوجراند ودريسلر أنّ التداولية كمنهج تعنى بدراسة الخطط والأهداف، ويقصد بذلك دراسة الإجراءات التي تسمح بتقديم جميع العناصر نحو الغاية الموضوعية من قبل منتج النص أو الخطيب⁽⁴⁾.

(1)- Searle, John (2011) Speech Act: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge: Cambridge University Press, p. 24.

(2)- Mey, Jacob L. (2001) Pragmatics: An Introduction. Oxford: Blackwell Publishing, p. 12.

(3)- فان دايك، تون أ. (1996) «النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص»، في العمري، محمد (تحرير) نظرية الأدب في القرن العشرين، أفريقيا الشرق، ص 67.

(4)- De beaugrande, Robert & Dressler, Wolfgang (1981) Introduction to Text Linguistics.

تتأثر قوّة الأفعال الكلاميّة بالخطط والأهداف المذكورة أعلاه والغاية منها؛ وتندرج القدرة التّعبيريّة للأفعال الإنجازيّة من الأمر المباشر إلى التّمني⁽¹⁾، نحو:

(6) سأسعى إلى فتح باب حوار...

الفعل (سعى إلى) هنا يعني اهتم بتحصيله⁽²⁾، وعندما استخدمت الوزيرة السّابقة رياء الحسن هذا التّركيب خفّفت من تأثير قوّة الفعل الإنجازيّ، ولو حذف فعل (سعى) واستخدمت تركيباً من التّركيبين المذكورين أدناه:

(7) سأفتح باب الحوار...

(8) افتحوا باب الحوار...

لكان وقع الفعل الإنجازيّ أكثر قوّة وتأثيراً من التّركيب الوارد في المثال رقم (6) لأنّه يخلو من دلالات السعي والمحاولة، وكان ربما أثار معارضة أكثر حدة، لأنّه صادر عن وزيرة تمارس سلطة معيّنة. فالعلان الإنجازيّان أعلاه يختلفان في القوّة التي يعرض بها غرض إنجازيّ واحد، ألا وهو الطّلب. فالتركيّب السّابع عرض بقوّة التّوكيد، والثّامن بقوّة الأمر؛ هذا يعني أنّ القوّة الإنجازيّة تختص بالمنطوقات لا بالجملة كنظام⁽³⁾.

يفترض المحتوى القضوي الذي ورد في الجمل المذكورة سالفاً أنّ قوّة الأفعال الإنجازيّة نسبيّة، ومعنى ذلك أنّ تعديل القوّة الإنجازيّة لفعل كلاميّ أو أفعال كلاميّة في سياق ما أمر جائز، وعبقرية اللّغة العربيّة تجيز استعماله، ولا سيما أنّ اللّغات تتميز بخصيصة المراوغة (prevarication) التي يقصد بها إمكانية استخدام اللّغة في الخداع أو التّضليل أو الكذب⁽⁴⁾. أما عن أسباب تعديل قوتها فهي:

· إبلاغ المرسل إليه الطّريقة التي قيلت بها بعض الأفعال، أو موقف المتكلّم النّفسيّ من موضوع كلامه.

London: Longman, p. 91.

(1) - العبد، محمد (2014) «تعديل القوة الإنجازية: دراسة في التحليل التداولي للخطاب»، في علوي، حافظ إسماعيلي (تحرير) التداوليات: علم استعمال اللّغة. إريد: عالم الكتب الحديث، ص 312.

(2) - المنجد في اللّغة والأعلام (1986)، بيروت، دار المشرق، مادّة (سعى).

(3) - العبد، «تعديل القوة الإنجازية: دراسة في التحليل التداولي للخطاب»، في علوي، التداوليات: علم استعمال اللّغة، ص 312.

(4) - محاسب، محي الدين (2008) انفتاح النسق اللساني: دراسة في التداخل الاختصاصي، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص 22.

· إظهار التعاطف أو الموقف النفسي للمتكلّم المتضامن مع المرسل إليه في سياق ما (1).

· تحاشي تأثيرات قوّة الفعل الكلامي، وبخاصة إذا كانت غير مرحب بها عند المرسل إليه، وفي هذه الحالة يلجأ الخطيب أو المرسل إلى استخدام استراتيجية تخفيف قوّة الفعل الكلامي (2).

2.3 مبادئ الحوار

لم يقتصر الاهتمام بتحليل الخطاب وعملية التفاعل اللغوي على اللسانيين، بل اهتم بهما أيضا فلاسفة اللغة، ولاحظ هؤلاء أنّ عملية التفاعل الخطابي تقوم على أسس وقواعد واضحة متأثرين بالأسس والقواعد التي ترعى عملية التنظير في الفلسفة. هذا التصور قاد اللسانيين لاحقاً إلى ربط عملية التفاعل الخطابي وإنتاج المعنى بمعايير سلوكية واضحة توارثتها الأجيال وعملت بها. ويرى أحد فلاسفة أوكسفورد بول غرايس (Paul Grice) أنّ المرء عندما يقصد من ملفوظ ما أن يعني شيئاً ما فإن ذلك يساوي إحداث تأثير ما في الآخرين، وذلك بتمكينهم من اكتشاف هذا القصد (3).

ولا يقصد بالتأثير هنا إجراء الحوار والتواصل مع الآخرين أو الاقتصار على إجراء تبادل تقليدي للمعاني، التأثير يقصد به إضافة معانٍ سياقية موازية للمعاني الظاهرة ومتباينة عنها في الأغلب، ولقد سماها غرايس الاستتباع التحاوري (Implicature)، ويحدث ذلك بواسطة خرق المبادئ الأربعة المتفرعة عن مبدأ التعاون في الحوار وهي مبدأ الكمية والنوعية والملاءمة والكيفية (4). وأضاف إليها كثير من الباحثين المهتمين بدراسات التداولية مبدأ التآدب؛ يُعرّف هذا الأخير بأنه استراتيجية ترمي إلى تجنب النزاعات مع الآخرين، أما براون وليفنسون فيعرفانه بأسلوب أكثر تفصيلاً، يقولان: إنّ التآدب فعل استدرائي، أي أنّه سلوك تواصل يراعي احترام المخاطب، لذا فإنّ التآدب

(1) – Holmes, Janet (1984) "Modifying Illocutionary Force", Journal of Pragmatics 8, p. 348.

(2) – Fraser, Bruce (1980) "Conversational Mitigation", Journal of Pragmatics 4, p. 342.

(3) – Grice, H. Paul (1957) "Meaning", The Philosophical Review, Cornell University 66(3), p. 385.

(4) – Grice, H. Paul (2006) "Logic and Conversation", In Adam Jaworski & Nikolas Coupland (eds) The Discourse Reader, London: Routledge, pp. 68–69.

سلوك تواصلِي يتبعه المخاطب ليتجنب احتمال الإساءة إلى كرامته(1).

4. التحليل النقدي للخطاب

بادئ ذي بدء الخطاب هو تخاطب أو تحادث وهو مجموعة من الملفوظات المتبادلة في موقف تواصلِي اختص لتعيين الحديث المنطوق(2). والخطاب السياسي هو الخطاب الذي ينتجه الفاعلون أو مؤلفو الخطاب، أي السياسيون(3). أما بالنسبة إلى نظرية التحليل النقدي للخطاب فيقول تون فان دايك: إن التحليل النقدي للخطاب هو دراسة الطريقة التي يقوم بها النص والكلام بتفعيل اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولامساواتها وإعادة إنتاجها ومقاومتها في السياق الاجتماعي والسياسي. إن المحلل الناقد للخطاب يسعى لفهم اللامساواة الاجتماعية والكشف عنها تمهيدا لمقاومتها؛ التحليل النقدي للخطاب هنا هو دراسة الخطاب وتحليله برؤية نقدية(4).

يلاحظ هنا أنّ الخطاب يفترض وجود تفاعل ما مع متلقٍ ما في سياق اجتماعي، لذلك تستهدف مناهج التحليل النقدي للخطاب توعية البشر بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والبنى الاجتماعية، تلك التأثيرات التي لا

يعيها البشر في الأغلب(5). فما المقصود هنا بالتأثيرات؟

تفترض نظرية التحليل النقدي للخطاب أنّ العلاقات الاجتماعية التي تظهرها الظاهرة اللغوية تمثل جزءاً من نظام شامل يتميز بعلاقات غير متكافئة للسلطة، فبدأ الاحتكام إلى النظرية الاجتماعية والسياسية ينظر في اللغة لا في حد ذاتها، لكن بوصفها دلالة على ما يعتمل في إطار أوسع(6). كتب نورمان فاركلوف (Norman Fairclough)

(1) – Brown, Penelope & Levinson, Stephen C. (1987) Politeness: Some Universals in Language Use. Cambridge: Cambridge University Press, p. 69.

(2) – أيوب، نبيل (2011) النقد النصي (2) وتحليل الخطاب، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ص 231.

(3) – Van Dijk (1997) "What is Political Discourse Analysis?", Belgium Journal of Linguistics, p. 12.

(4)– Van Dijk, Teun A. (2015) "Critical Discourse Analysis", In Deborah Tannen, Heidi. E. Hamilton & Deborah Schiffrin (eds) The Handbook of Discourse Analysis, Oxford: Wiley-Blackwell 1, p. 466.

(5)– عبد اللطيف، عماد (2014) «التحليل النقدي للخطاب من السياق الغربي إلى السياق العربي»، في فوداك، روث؛ ماير، ميشيل (تحرير) مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شيل محمد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ص 7.

(6) – Breeze, Ruth (2011) "Critical Discourse Analysis and its Critics", Pragmatics 21(4), p. 496.

في هذا السياق موضحاً: تسعى دراسات التحليل النقدي للخطاب إلى لكشف عما هو مسكوت عنه في النص، وتأويل المقاصد المضمرة، لأنّ الوعي يعدّ الخطوة الأولى نحو التحرّر (1).

تدور هذه المقاصد حول دراسة ما تستهدفه الخطابات من سوء استعمال للسلطة والهيمنة واللامساواة وكيف يجري استغلال اللغة لتجسيد ذلك في الخطابات، أو الطريقة التي تعزز بها الجماعات البشرية مصالحها بواسطة الخطاب (2). يجري تأويل هذه المقاصد وتحليلها بواسطة دراسة ثلاثة مستويات رئيسة يستغلها منتج الخطاب للتأثير في غيره، وهي:

· **المستوى النصي للخطاب:** يشمل هذا البعد دراسة اختيار المفردات والاستعارات، وصيغة التعبيرات النحوية والتعدية، والسبك، وبنية النص مثل دراسة تبادل أدوار الكلام وال فقرات النص والأسلوب والبلاغة وأفعال الكلام والاستراتيجيات التداولية.

· **المستوى الخطابى كمارسة خطابية:** ويقصد بالمارسة الخطابية كيف يجري إنتاج الخطاب ونشره وتوزيعه وتلقيه في المجتمع. يشمل هذا البعد دراسة أفعال الكلام والحبك والتناص، وهي أبعاد تربط النص بالسياق. ويجب هنا التفريق بين التناص التقليدي والتناص البنوي، أي المؤلف من الأعراف اللغوية المتداولة ونمط الخطاب أو النص والسجل اللغوي.

· **المستوى الاجتماعي للخطاب:** يشمل هذا البعد دراسة التأثيرات الأيديولوجية في إنتاج الخطاب وممارسته والإجراءات الخطابية المسيطرة على الإجراءات الشبيهة بها. ويقصد بها الإجراءات التي تمارسها السلطة الناتجة عن إجراء التحالفات السياسية والاجتماعية وتجعل منه خطاباً بارزاً (3).

يكن شأن هذه المستويات بأنها متنوعة ويجمع بينها التحليل النقدي، أي أنها تمثل معياراً لتقييم النشاط السياسي والأخلاقي، وتحليلها يجب أن يؤثر في المجتمع، لأنّه من الضروري أن يؤدي ذلك إلى نصره الضعفاء وإلى سماع من لا صوت لهم، وكشف

(1) – Fairclough, Norman (1989) Language and Power. London: Longman, p. 1.

(2) – Breeze (2011) "Critical Discourse Analysis and its Critics", Pragmatics, p. 497.

(3) – Blommaert, Jan & Bulcaen, Chris (2000) "Critical Discourse Analysis", Annual Review of Anthropology 29, pp. 448-449.

إساءات السّلطة واعتداءاتها، وحث المواطنين على إصلاح الأخطاء الاجتماعيّة⁽¹⁾. وفي هذا السّياق ربط الباحثون بين الخطاب والممارسة الاجتماعيّة، والخطاب هنا نمط من أنماط الممارسة الاجتماعيّة⁽²⁾؛ وهذه الأخيرة هي بدورها سلوك إنساني يفترض اتباع بعض الأعراف الاجتماعيّة المتداولة التي تتيح وجود هامش من الحرية والفرص الجديدة لاتباع سلوك استثنائي⁽³⁾.

أما بالنسبة إلى الممارسة الخطابيّة فهي تكشف جوهر الممارسات الاجتماعيّة أو هوية المرء، نحو: أي نوع من الناس هو؟⁽⁴⁾؛ أي ما هو مضمّر، أو ما هذا السلوك الاجتماعيّ الاستثنائي؟ نحو: أزيد طبيب؟ أزيد مهندس؟ أو أزيد وزير جيد أم وزير فاسد؟ فعندما يتكلم الطبيب على سبيل المثال يظهر أسلوبه الكلامي ما قد اختاره من أساليب تواصلية متداولة ومقبولة اجتماعيا، لكن قد تختلف قليلا أو كثيرا عن أساليب الشرطي والمهندس؛ والخطاب هنا ذو بعد علائقي وتداولي، ويساعد على قبول ذلك الفرضيات الآتية:

· إن الخطاب نفسه كنصّ هو فعل من أفعال اللّغة، لذا يمكن أن يستخدم لأغراض عديدة حدّدت بعضها نظريّة أفعال الكلام؛ زد على ذلك، أنّ الكلام كثيرا ما يتميز بخصيصة المقبوليّة.

· إنّ الخطاب نفسه لا يمكن أن يكون دائما بريئا⁽⁵⁾، وبخاصة إذا استخدم من سلطة سياسية أو غيرها تعتمد سياسات إمبريالية تسعى لتحقيق مصالحها الاستعماريّة.

· إن التّخاطب (Discourse)، ومثّل ما كُتِبَ بحرف (D) الكبير، لا يفترض فقط التّواصل مع الآخرين بواسطة الرّموز اللّغويّة، بل كثيرا ما يستعمل أو يوجد غير اللّغة

(1) - Blommaert & Bulcaen (2000) "Critical Discourse Analysis", Annual Review of Anthropology, p. 449.

(2)- Fairclough, Norman; Jane Mulderrig & Ruth Wodak (2011) "Critical Discourse Analysis", In Teun A. Van Dijk (ed) Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction, London: Sage Publications 2, p. 357.

(3)- Bloor, Meriel & Bloor, Thomas (2007) The Practice of Critical Discourse Analysis: An Introduction. London: Routledge, p. 8.

(4) - Gee, James Paul (2011) "Discourse Analysis: What Makes it Critical?", In Rebecca Rogers (ed) An Introduction to Critical Discourse Analysis in Education, London: Routledge, p. 37.

(5) - Hall, Stuart (1992) "The West and the Rest: Discourse and Power", In Stuart Hall & Bram Gieben (eds) Formations of Modernity, Oxford: Blackwell Publishing, pp. 293-295.

في التّخاطب، هناك هوية المرء الاجتماعيّة أو هوية الخطيب التي تنتقل مع التّخاطب عمدًا أو عن غير عمد، أي السلوك الإنساني والقيم وأساليب التّفكير، وهناك أيضًا الغرض الاجتماعيّ، وماذا يفعل المرء في أثناء الممارسة الخطبيّة⁽¹⁾.

يلاحظ هنا أنّ نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب لا ترى الخطاب غاية لتّحليل العلاقات الداخلية مثل ما جرى في علم النص، بل وسيلة لتحقيق أهداف مجموعة من الناس؛ تهتم نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب هنا بدور السّلطة والأيدولوجيا من جهة، ودور اللّغة في تحقيق أهداف السّلطة وتعزيز قوتها وهيمنتها من جهة أخرى. المنهج هنا تغير وتطور وأصبح في نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب منهاجا متداخلا ومتعددا وعابرا للاختصاصات⁽²⁾، ونظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب تأثّرت تأثّرًا ملحوظًا بالدراسات اللسانيّة والتاريخية وعلوم السّياسة والإنترولوجيا وعلم النّفوس⁽³⁾.

لهذه الأسباب تبرز نظريّة التّحليل النّقديّ للخطاب التي تطوّرت تسميتها لتصبح الدّراسات النّقديّة للخطاب ووضعت أهدافًا رئيسة لنفسها، ألا وهي فضح الأيدولوجيات التي تساند السّياسات الإمبرياليّة للدّول والشّركات، ولا سيما الأيدولوجيات المرتكزة سلطتها على الخطاب، ومن ثمّ الإسهام في معالجة مشكلات المجتمع اليوميّة كاللاعلاقة ونقص الحرية، وهذا ما يقصد بمصطلح النّقديّ (Critical)⁽⁴⁾. يضيف نورمان فاركلوف بأن المقصود به أيضا هو جعل علاقات الأشياء المترابطة بيّنة وبخاصة في المسائل السّياسيّة⁽⁵⁾.

تبرز هنا مسألة الأيدولوجيا بروزا واضحا، إذ تضم أبعادا عديدة تجمعها أحيانا علاقة معقدة، فالأيدولوجيا التي يرتكز عليها التّفكير السّياسي ليست فكرة منطقيّة يمكن

(1) - Gee (2011) "Discourse Analysis: What Makes it Critical?", In Rogers (ed) An Introduction to Critical Discourse Analysis in Education, p. 37.

(2) - Van Dijk, Teun A. (1995) "Aims of Critical Discourse Analysis", Japanese Discourse 1(1), p. 17.

(3) - Wodak, Ruth & Meyer, Michael (2009) "Critical Discourse Analysis: History Agenda Theory and Methodology", In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, London: Sage Publications, p. 6.

(4) - Chilton, Paul (2013) "Critical in Critical Discourse Analysis", In Carol A. Chappelle (ed) The Encyclopedia of Applied Linguistics, Oxford: Wiley-Blackwell, pp. 1433-1439.

(5) -Fairclough, Norman (2010) Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language. London: Routledge, p. 39.

إدراكها كإدراك مسألة رياضية، الأيديولوجيا شيء مجرد أو أفكار، وهي مجموعة راسخة ومتوافقة من المعتقدات أو القيم⁽¹⁾. يفترض هذا المفهوم أن قدرة الأيديولوجيا قد تكون أكثر فعالية على التأثير في تصرفات المرء وآرائه من قدرة الإدراك والمنطق، لأنها أكثر ثباتاً من غيرها، وأكثر قدرة على توجيه أفعاله نحو الغاية المطلوبة من السلطة⁽²⁾، مما قد ينتج عن ذلك تداعيات خطيرة. فما أهمية هذا الافتراض؟

تُحدّد هذه الأهمية بأنّ تأثير الأيديولوجيا في أفعال المرء يختلف عن تأثير الحجاج. يرمي الأخير إلى إقناع المرء علانية باستعمال الحجج المنطقية، أما الأيديولوجيا فليس من الضروري أن ترمي إلى استخدام المنطق في التأثير في تصرفات المرء، أو إقناعه بفكرة ما، أي استخدامها لا يجري علانية، وهو ما لجأ إليه الرئيس الأميركي في خطابه المذكور لاحقاً، ولا سيما عندما استغل المربع الأيديولوجي في النصف الثاني منه.

هذه الإمكانية لتحقيق أهداف خطيرة وبخاصة في الخطاب السياسي أعطت موضوع الأفكار أبعاداً سياسية وتداولية رحيبة، ثم أفسحت المجال أمام استغلال الأفكار استغلالاً متنوعاً بغية تحقيق غايات عامة وخاصة. لذلك بدأ ينظر إلى دور الأفكار والمعتقدات أو الأيديولوجيا على أنها أكثر قيمة من دور الإدراك في دراسات التحليل النقدي للخطاب⁽³⁾، لأن المتابعين بالعقول أشخاص أذكياء ومواردهم المادية والسياسية والثقافية متنوعة، وباستطاعتهم استغلال الأفكار المسبقة للتأثير في الأفكار الحالية أو الأفعال الآتية لحرفها عن مسارها الإيجابي⁽⁴⁾. لذلك سألجأ هنا إلى أمثلة عديدة لتوضيح ما ذكرته سالفاً:

(9) الحرب على العراق

لجأ الرئيس الأميركي السابق جورج بوش (George Bush) الابن إلى استغلال

(1) – Knight, Kathleen (2006) "Transformations of the Concept of Ideology in the Twentieth Century", American Political Science Review 100(4), p. 625.

(2) – Mullins, Willard A. (1972) "On the concept of Ideology in Political Science", The American Political Science Review 66(2), p. 507.

(3) – Wodak, Ruth (2012) "Critical Discourse Analysis: Overview Challenges and Perspectives", In Gisele Andersen & Karin Aijmer (eds) Pragmatics of Society, Berlin: De Gruyter Mouton, pp. 634.

(4) – Clarke, Lee (2006) "Mistaken Ideas and Their Effects", In Robert E. Goodin & Charles Tilly (eds) The Oxford Handbook of Contextual Political Analysis, Oxford: Oxford University Press, pp. 297-299.

الأفكار السياسيّة المسبّقة عشية حربه على العراق العام 2003 واتهمه في خطابه بأنه دولة إرهابية أسوة بدولة أفغانستان! واستخدم لتبرير حربه آنذاك فكرة وجود أسلحة دمار شامل في العراق، وهي فكرة تعود إلى تسعينيات القرن الماضي، ولم تظهر صحتها قط بُعيد إنتهاء الحرب، وسأعود لاحقاً إلى تحليل خطابه تحليلاً مفصلاً.

(10) الحفاظ على السلام

استخدم رئيس الوزراء البريطانيّ السابق طوني بليز (Tony Blair) العام 2005 في خطابه مصطلحاً ذكياً وملتبساً في أثناء دفاعه أمام مجلس العموم عن مشاركة بريطانيا في الحرب على العراق، وهو مصطلح الحفاظ على السلام (Peace keeping)؛ يخفي هذا المصطلح أيديولوجيا تتلاءم والمدرسة السياسيّة البريطانيّة التي تؤمن بالديموقراطية وتهتم فقط بمصالحها في الوقت نفسه؛ وفي الواقع استبدل طوني بليز مصطلح (الحفاظ على السلام) بمصطلح (شأن حرباً)، والفروق التداوليّة والأيديولوجيّة بين المصطلحين شاسعة.

(11) الهندسة الماليّة

من الأمثلة اللبنيّة على ذلك استخدام مصرف لبنان المركزيّ لمصطلح (الهندسة الماليّة) الذي يوحي بابتكارات وحلول ماليّة استثنائيّة ناتجة عن اتباع نظام اقتصاديّ ليبراليّ، أما الواقع فيخفي وراءه إجراءات ماليّة فاسدة أثارت لاحقاً اعتراضات عنيفة ولا تزال، لأنّها لا تراعي معايير الشفافية الإداريّة والماليّة.

يتبين من الأمثلة المذكورة أنّ مهمة المحلّل الناقد للخطاب تتمحور حول كشف المواقف الأيديولوجيّة المستترة في طريقة استعمال اللّغة. لذلك أصبح اهتمام مناهج التّحليل النقديّ للخطاب ينصبّ على كشف الاستخدام الحذق والملتبس للخطاب. تتجسّد هذه المهمة في تفكيك العلاقات المعرفيّة أو العلاقة بين العمليات الإدراكيّة والمجتمع واللّغة أو الخطاب، ومرد ذلك فرض تَعود جذوره إلى المدرسة الماركسيّة ومدرسة فرانكفورت؛ ينصّ هذا الفرض، ووفقاً لتون فون دايك، على أنّ استعمال اللّغة والخطاب والتّواصل يجب أن يدرس في سياقه الاجتماعيّ والثقافيّ والسياسيّ⁽¹⁾؛ لذلك فإنّ القضايا الاجتماعيّة وما ينتج عنها وكيف تنتج في الخطاب يمكن فهمها بواسطة دراسة الخطاب

(1) – Van Dijk, Teun A. (1994) "Critical Discourse Analysis", Discourse and Society 5(4), p. 435.

دراسة نقدية من جهة، وبواسطة تحليل التخاطب والممارسات الخطابية تحليلاً نقدياً من جهة أخرى.

تتميز العلاقات الخطابية بمرونة واضحة، وكثيراً ما يستغلها السياسي أو السلطة السياسية، لأنها وسيلة ناجعة تتيح الوصول إلى الغايات السياسية المرسومة في الأغلب، وإلى السيطرة على العقول والتأثير الاجتماعي. يجري الكشف عن هذه العلاقات بواسطة اعتماد استراتيجية تحليلية بعيدة عن الجانب الخفي للتحليل، أي استراتيجية مرنة تتقدم تارة وتراجع تارة⁽¹⁾.

كتب تون فان دايك في هذا الموضوع أنه إذا استعان محلل الخطاب بمناهج التحليل النقدي للخطاب، فعليه التنبيه أحياناً إلى مستويات الخطاب السيمائية، والبنى الخطابية التي تستخدم لتعزيز السلطة أو إضعاف المقاومة السياسية في المجتمعات، وعليه التنبيه أيضاً إلى استراتيجيات التلاعب بالعقول وتشريع السياسات الملتبسة وكل الاستراتيجيات الخطابية التي تؤثر في العقل بغية الموافقة على مسائل معينة⁽²⁾.

5. التلاعب بالعقول تعريفه وشروطه وأنواعه

التلاعب بالعقول نوع من أنواع التأثير في السلوك الإنساني ولقد اهتم به علماء النفس الاجتماعيين في النصف الثاني من القرن العشرين، أما في نهايته فقد اهتم به كثيراً منظرو التحليل النقدي للخطاب، لأنه نوع من أنواع التداوليات الخطابية (Pragmatics Discursive)، ومعظم مستخدميه أو مستغليه هم من ذوي النفوذ السياسي وأصحاب السلطة، وبراعة ممارسته ترتبط بقدرة السياسي البلاغية والإدراكية وغيرها. ولقد تقصدت الكتابة عن التلاعب بالعقول لأنه يكثر في الدول النامية، حيث ينتشر الجهل السياسي واستغلال الآخرين لمنافع كثيرة ومتنوعة، زد على ذلك أن تعميم ثقافة الوعي والتحرر من سلطة الخطاب أو من استخدام اللغة بأسلوب موارد يعد أحد أهم أهداف مناهج التحليل النقدي للخطاب.

يصف نورمان فاركلوف التلاعب بالعقول بأنه الاستعمال الواعي للغة بأسلوب مراوغ

(1)- Janks, Hilary (1997) "Critical Discourse Analysis as a Research Tool", Discourse Studies in the Cultural Politics of Education 18(3), p. 330.

(2)- Van Dijk (1995) "Aims of Critical Discourse Analysis", Japanese Discourse, p. 18.

بغية السيطرة على الآخرين⁽¹⁾. يفترض هذا التعريف وجود خصيصة لسانيّة رئيسة للغة ذكرتها سابقا، ألا وهي المراوغة؛ ويسلم هذا التعريف بالأبعاد الاجتماعية للغة، فالسيطرة على الآخرين تحدث في سياقات تواصلية اجتماعية. وإذا كانت هذه المقدمات المنطقية صحيحة فإن الممارسة الخطابية في السياقات التواصلية تتصف بأنها دينامية، أي أنها ممارسة ذات أبعاد تداولية تتغير باستمرار وتتطور حيث وجدت سياقات جديدة، وهذا ما يستدعي دراستها وتحليلها للكشف عن أنواع التأثير في سلوك الآخرين والسيطرة على أفعالهم بواسطة التداولات الخطابية.

أما تون فان دايك فيصف التلاعب بالعقول بأنه إحدى الممارسات الخطابية الاجتماعية لمجموعات المهيمنة الزامية إلى استمرار سلطتها، ويعرفه بأنه السيطرة غير الشرعية على الآخرين التي ترسخ اللامساواة الاجتماعية. ويفترض التلاعب بالعقول ممارسة نوع من أنواع التأثير في الآخرين بواسطة الخطاب، أما دور المتلاعب بالعقول فهو جعل الآخرين يفعلون أشياء تصب في مصلحة المتلاعب بالعقول ولا تعد من مصلحتهم في الوقت نفسه⁽²⁾؛ لذلك شدد بعض الباحثين على أن الخطاب كثيرا ما لا يكون بريئا، بل منازلا لأشخاص معينين، ولا سيما لمصلحة الأشخاص ذوي السلطة.

يلاحظ هنا أن تون فان دايك بيّن أنّ التلاعب بالعقول يتميز بأهمية أبعاده الاجتماعية والسياسية والخطابية على حدّ سواء، ويتجسد هذا البعد الأخير بالاهتمام بأنماط الخطاب العام، وذلك للنجاح في التلاعب بعدد كبير من أفراد المجتمع⁽³⁾. زد على ذلك أن البعد الذي لا يقل شأنًا عنهم هو البعد الإدراكي، وقد عمل عليه منذ ثمانينيات القرن الماضي مع والتر كينتسش (Walter Kintsch) في كتابهما المشترك استراتيجيات فهم الخطاب (Strategies of Discourse Comprehension). فالتلاعب بالذاكرة الإنسانية وكفاءتها، ووفقا لفان دايك، يشارك في نجاح عملية التلاعب مثل ما سيتبين أدناه.

انطلاقا مما ذكرته أعلاه، إذا أراد المتلاعب بالعقول الوصول إلى أهدافه فينبغي له الالتزام ببعض الشروط والاستراتيجيات، منها ما ذكرته آنفا، ومنها أيضا ما يأتي:

(1) - Fairclough, Norman (2001) "Manipulation", In Rajend Mesthrie (ed) Concise Encyclopedia of Sociolinguistics, Amsterdam: Elsevier, p. 574.

(2) - Van Dijk, Teun A. (2006) "Discourse and Manipulation", Discourse and Society 17(2), pp. 359-363.

(3) - Van Dijk (2006) "Discourse and Manipulation", Discourse and Society, p. 362.

· ألا يعي المتلاعب به أنه ضحية لعملية التلاعب، أي أن يُنفذ التلاعب بالعقول بوسائل تداولية⁽¹⁾، كاستخدام أفعال كلامية كبرى، وهنا يبرز دور التداولية في تحليل التلاعب بالعقول.

· أن تُنفذ السيطرة على التمثيلات الاجتماعية المشتركة لمجموعات من الناس؛ لأن هذه المعتقدات بدورها تقوم بالسيطرة على ما يفعله الناس ويقولونه في مجالات عديدة.

· أن يكون التلاعب بالعقول عن طريق الخطاب.

· أن يكون المتلاعب بالعقول على دراية بماهية النماذج العقلية للمتلقين.

· أن يجري التركيز على الخصائص الإدراكية والاجتماعية للمتلقين⁽²⁾.

انطلاقاً من هذه المسألة الأخيرة ومن أن التلاعب بالعقول ليس خصيصة ملاصقة للغة، بل إجراء يرتبط بنوايا الخطيب أو المتكلم وأسلوب استعماله للغة، يقسم تون فان دايك أنواعه إلى ما يأتي:

· التلاعب بالذاكرة القصيرة الأمد المشاركة في فهم الخطاب.

· التلاعب بالذاكرة الطويلة الأمد المشاركة في فهم الخطاب، كالتلاعب بالمعارف والأيديولوجيات؛ تحافظ هذه الذاكرة على ديمومة المعتقدات العامة المشتركة واستقرارها اجتماعياً.

· التلاعب بالإدراك الاجتماعي، أي التلاعب بالطريقة التي يفهم المتلقون حدثاً أو فعلاً أو خطاباً معيناً ذي شأن⁽³⁾، وهو ما استغله الرئيس الأميركي في الخطاب الوارد في نهاية هذا البحث، ومثل المثال رقم (10).

يلاحظ هنا أن التلاعب بالذاكرة يرتبط بالتأثير في قدرة التفكير وفعاليتها على استنتاج الأحكام الصحيحة، لذا فإن التلاعب بملكة التفكير والاستنتاج أو حذف بعض المقدمات المنطقية هو ما يؤدي أحياناً إلى نجاح عملية التلاعب بالعقول⁽⁴⁾. وهنا لاحظ دانيال

(1) - Asya, Akopova (2013) "Linguistic Manipulation: Definition and Type", International Journal of Cognitive Research in Science Engineering and Education 1(2), p. 78.

(2) - Van Dijk (2006) "Discourse and Manipulation", Discourse and Society, pp. 361-376.

(3) - Van Dijk (2006) "Discourse and Manipulation", Discourse and Society, pp. 365-370.

(4) - De Saussure, Louis (2005) "Manipulation and Cognitive Pragmatics: Preliminary Hypotheses", In Louis De Saussure & Peter Schulz (eds) Manipulation and Ideologies in the

كانمان (Daniel Kahneman) في كتابه الشهير والمعنون التفكير السريع والبطيء (Thinking Fast and Slow) أنّ الدماغ يملك نظامين للتفكير، التفكير السريع والبطيء؛ يستعين التفكير السريع بالغرناز والعاطفة أما التفكير البطيء فهو متأق ويعتمد المشورة ويستعين بالمنطق لإصدار أحكامه، وهما يتصارعان أحياناً للسيطرة على سلوك الإنسان وأفعاله⁽¹⁾.

1.5 التلاعب بالعقول والتداولية

تبين مما ذكرته آنفاً أن التلاعب بالعقول استراتيجية تستهدف توجيه الانتباه إلى مسائل جانبية أو غير منطقية، ويتم ذلك غالباً باستغلال الأعراف اللغوية المتداولة والمهارات الإدراكية للأخرين استغلالاً مراوفاً. وتبين من هذه الأخيرة أن الغاية منها حث المتلقي على استخدام التفكير السريع وغيره من الإجراءات. هذا التصور ارتبط بتطور الدراسات التداولية ومنها دراسات الانحراف الخطابي التي أصبحت من أهم الدراسات التواصلية وتحليل الخطاب في العقود الأخيرة؛ ولكن لماذا تزايد الاهتمام بها؟ وما علاقة ذلك بالتلاعب بالعقول؟

تقول إحدى الباحثات عن طبيعة التلاعب التداولية إنه طريقة من طرق عدم التقيد بأنظمة قواعد التواصل، أي أنه نوع من أنواع الانحراف (Deviance) عن القواعد التواصلية المتداولة في مجتمع ما⁽²⁾. أما الانحراف الخطابي فيعد نوعاً من أنواع الإبداع الفكري، وقد خصص الباحثون الانحراف الخطابي بدراسات عديدة، ومنها ما ورد في الموسوعات المعنية بدراسات الإبداع، وسبق أن قدم بول غرايس أنموذجاً عنها، حيث درس قواعد المحادثة ودلالات الانحراف عنها، وسماها الاستتباع التحاوري. وتعد دراسة التلاعب بالعقول وتحليلها، أو علاقات الأشياء في الخطاب السياسي، نوعاً من أنواع دراسة التداوليات الكبرى (Macro-pragmatics)⁽³⁾، وهذا ما يضاعف من أهميتها.

Twentieth Century, Amsterdam: John Benjamins, p. 123.

(1) – Kahneman, Daniel (2013) Thinking Fast and Slow. New York: Farrar Straus & Giroux, pp. 20–21.

(2) – Sorlin, Sandrine (2017) "The Pragmatics of Manipulation: Exploiting Im/Politeness Theories", Journal of Pragmatics 121, p. 134.

(3) – Hoye, L. F. (2006) "Applying Pragmatics", In Keith Brown et al (eds) Encyclopedia of Language and Linguistics, Boston: Elsevier 1, p. 407.

تهتم التّداوليّات الكبرى بدراسة الشّروط التي تحدّد إمكانية قول كلام ما في سياق ما أم لا، أي مقبوليته، كالخطابات والوعود والأسئلة وغيرها. ولا يمكن حدّد هذه الشروط بسياق معين أو موضعي من الاستعمال، فالعالم الذي نعيش به مترابط، ولا يمكن فهم ظواهره بمعزل عن الظواهر الأخر⁽¹⁾. أما فيما خص استراتيجيات التّلاعب بالعقول المذكورة آنفا فهي عديدة وذات طابع تداولي، أهمها نوعان:

· **الاستراتيجيات المحلية (Local strategies):** تستخدم الاستراتيجيات المحلية في أثناء معالجة الملفوظات فقط، وذلك للحد من عملية التّأويل.

· **الاستراتيجيات الشاملة (Global strategies):** تستخدم الاستراتيجيات الشاملة لإيجاد شروط اجتماعية ونفسية ملائمة ترمي إلى الحصول على موافقة عاطفية أو موافقة غير عقلانية من الآخرين⁽²⁾.

تختصر هذه الاستراتيجيات كثيرا من العمل الذي قد يقدم عليه المتلاعب بالعقول، أكان فردا أو مجموعة ما منضوية في مؤسسة سياسية أو غيرها؛ لذلك وانطلاقا من كلام دي سوسير الذي ذكرته آنفا، ومن المسائل التّداوليّة والمعرفية الآتية:

· الخطاب يعني اللّغة المستخدمة في سياق ما، لا اللّغة بوصفها نظاما⁽³⁾.

· الإنسان يتميز بطبيعة عاطفية تحدوه على التّأثر بمحيطه.

· وسائل التسويق والإقناع تطورت وترافقت وتطور الأبحاث حول أنماط الاستدلالات والتحيّزات (Heuristics and biases) في علم النفس الإدراكي.

· التّلاعب بالعقول يتطلب إحداث فعل تأثري في المتلاعب به⁽⁴⁾، لأن المطلوب من هذا الأخير الاستجابة للمتلاعب بالعقول، كأن يقتنع بوعده ما أو أن يخاف من تهديد ما.

(1) – Mey (2001) Pragmatics: An Introduction. pp. 176-177.

(2) – De Saussure (2005) "Manipulation and Cognitive Pragmatics: Preliminary Hypotheses", In De Saussure & Schulz (eds) Manipulation and Ideologies in the Twentieth Century, p. 126.

(3) – Enani, Mohammad (1996) Modern Literary Terms: A Study and a Dictionary English-Arabic. Beirut: Librairie du Liban, p. 19.

(4) – Sorlin (2017) "The Pragmatics of Manipulation: Exploiting Im/Politeness Theories", Journal of Pragmatics, p. 135.

● التلاعب بالعقول ذو طبيعة خطابية.

يبدو لي أن هناك أكثر من استراتيجية تداولية قد تترافق والاستراتيجيات المذكورة آنفا لكي يحقق المتلاعب بالعقول أهدافه، ومنها استراتيجية استخدام مغالطات منطقية أو إشعار الآخرين بالذنب بشرط أن يكون المتلاعب به مدفوعا بغياب الحس الأخلاقي⁽¹⁾؛ ومنها أيضا أن يُحرم المتلاعب به في مرحلة ما من وسائل الدفاع النقديّة التي قد تتيح له التحقق أنه وقع ضحية لاستعمال أساليب التلاعب بالعقول الواردة في إجراء التّواصل الخطابية⁽²⁾.

هذا النوع من المغالطات استخدمه القضاء الياباني في أثناء توقيف رجل الأعمال اللبناني كارلوس غصن، حيث لجأ الأول إلى مغالطة الاحتكام إلى السّلطة (fallacy ad-verecondiam)، أي سلطته القضائية، وهي مغالطة تقوم على الاعتقاد بصدق قضية أو فكرة لا سند لها أو بينة إلا سلطة قائلها، وبخاصة إذا كان متحيزا⁽³⁾؛ فروح فكرة قيام الموقوف بإثبات براءته من التهم الموجهة إليه، بيد أن القضاء الياباني كان عليه إثبات التهم وليس غيره، وهنا حدث التلاعب بالعقول، حيث ناقض القضاء الياباني معايير العدالة وشرعة حقوق الإنسان العالمية، ما حضّ غصن على الإعلان لاحقا أنه لن يصبح رهينة نظام قضائي زائف حيث الذنب بالافتراض.

ويضاف إلى استخدام الاستراتيجيات المذكورة آنفا أن تحليل التلاعب بالعقول تحليلا خطابيا وتداوليا يمكن المحلل النقدي للخطاب من تفكيك خفايا الخطاب السياسي وتحليل تأثيراته التداولية في الآخرين. لذلك يرى مايكل هوي (Michael Hoey) أن ما يميز النص أو الخطاب هو أنه أحد المواطن التي نبدي فيها إبداعاتنا، والمقصود بهذه الإبداعات إمكانية الانحراف عن المتوقع وخرق المعتاد، وذلك للتأثير في الآخرين⁽⁴⁾. لكن ما المبادئ الراجعة لتحليل التلاعب بالعقول تحليلا تداوليا؟

(1) - Coons, Christian & Weber, Michael (2014) "Introduction: Investigating the Core Concept and its Moral Status", In Christian Coons & Michael Weber (eds) Manipulation: Theory and Practice, Oxford: Oxford University Press, p. 11.

(2) - Chilton, Paul (2011) "Manipulation", In Jan Zienkowski, Jan-Ola Östman & Jef Verschueren (eds) Discursive Pragmatics, Amsterdam: John Benjamins, p. 188.

(3) - مصطفى، عادل (2007) المغالطات المنطقية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص 85-89.

(4)- Hoey, Michael (2001) Textual Interaction: An Introduction to Written Discourse Analysis. New York: Routledge, p. 7.

لما كان التلاعب بالعقول يحظى باهتمام رئيس من العلوم الإنسانية في القرن الواحد والعشرين، وبخاصة باهتمام الدراسات المعنية بالممارسات العالمية⁽¹⁾، ولما كان يُقصد بهذه الأخيرة كل نشاط اجتماعي منظم يرتبط بموضوع السياسة، فإن مصطلح (ممارسة) يتميز هنا بخصائص عديدة، أهمها:

- الممارسة ذات طبيعة إجرائية، أي يمكن ملاحظة أدائها.
- الممارسة ذات طبيعة نمطية، أي يمكن ملاحظة انتظامها.
- الممارسة ذات طبيعة نسبية، أي يمكن ملاحظة كفاءتها.
- الممارسة ذات طبيعة خطابية ومادية، أي لا يمكن تمييز السلوك من الممارسة من دون وجود ائتلاف بين اللغة والاتصال والخطاب⁽²⁾.

هذه الخصائص مهمة وتسمح بصياغة الخطاب بطريقة مرنة تجيز استغلاله لأهداف بريئة أو خبيثة، ما يتيح تحليل التلاعب بالعقول تحليلاً تداولياً. أما الآن فسأنتقل إلى تحليل الخطاب الرئيس في البحث.

6. تحليل الخطاب⁽³⁾

2.6 المستوى النصي والخطابي والاجتماعي

1.2.6 الفقرة الأولى

الفقرة الأولى غنية جداً بالدلالات والاستراتيجيات، وبدأها الرئيس الأميركي باستخدام استراتيجية مبدأ التآذب (أيها المواطنون) وأنهى خطابه باستخدام المبدأ نفسه واستغلاله؛ وظف الرئيس الأميركي عمداً هذه الاستراتيجية لتهدئة نفوس الأميركيين المضطربين إزاء هذه الحرب، واستهدف منها إظهار الود والثقة بين الطرفين كأنه أمر طبيعي ومحاولة استبعاد أي نقد لأفكاره الحربية والسياسية. لذلك حاول الرئيس المذكور ضمان الحصول

(1) - Voeten, Erik (2011) "The Practice of Political Manipulation", In Emanuel Adler & Vincent Pouliot (eds) International Practices, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 255-279.

(2) - Alder, Emanuel & Pouliot Vincent (2011) "International Practices: Introduction and Framework", In Emanuel Adler & Vincent Pouliot (eds) International Practices, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 7-8.

(3) - ينظر الملحق في نهاية البحث للاطلاع على الخطاب.

على استتباع تحاوريّ يلائم أهدافه التّداوليّة من الخطاب مثل ما سيتضح أدناه. هذه الاستراتيجية سهلت أيضا قيام الرئيس الأميركي باستخدام استراتيجية خطابية وتداوليّة بارعة، وهي استراتيجية المشكلة والحل⁽¹⁾، المشكلة هي خطر النظام العراقي، والحل هو التخلص منه مثل ما هو مبين في متن الخطاب، وقد أسهمت بدورها في تعزيز تماسك الخطاب، وستسمح لاحقا بالسيطرة على التمثيلات الاجتماعية والنفسية للشعب الأميركي وشعوب العالم المهتمة به.

يتجلى المستوى الاجتماعي للخطاب، أو التأثير الأيديولوجي، بالتطرق إلى (نزع أسلحة العراق وتحرير شعبه وحماية العالم من خطر قاتم محقق) وذكر (قوات التحالف). يُظهر هذا المستوى الولايات المتحدة وقوات التحالف كأبطال خارقين من جهة، والنظام العراقي كنظام شرير وخطر جدا على شعوب العالم من جهة أخرى. فالأميركيون يستخدمون دائما مبدأ النقيضين في أنشطتهم الاجتماعية والسياسية (البطل والشرير) متأثرين بأيدولوجية البطولة الموروثة من نتائج الحرب الأهلية في بلادهم عندما حرروا ذوي الأصول الأفريقية من العبودية، ومن نتائج الحرب العالمية الثانية عندما ساعدوا العالم والشعب اليهودي المشتت آنذاك على التخلص من خطر النازية بالتعاون مع قوات التحالف، زد على ذلك انتصارهم في الحرب الباردة.

هذا التأثير الأيديولوجي استغله الرئيس الأميركي كأحد تجليات أنماط الاستدلالات والتّحيزات، أي أن الرئيس الأميركي استغل فكرة وجود الأميركيين في خطر محقق ليحضهم على استدلال موجّه، وهو أنه عليهم التصرف كأبطال في أوقات الشدة، ثم عليهم اتخاذ أحكام تليها تحيزات لمواقف الرئيس الأميركي الحربية والسياسية. استغل الرئيس الأميركي أيضا هذا التأثير الأيديولوجي كاستراتيجية محلية ليتلاعب بالذاكرة العاملة لمتلقي الخطاب، ولا سيما أعضاء مجلسي النواب والشيوخ، وليتلاعب لاحقا بعقولهم لأن الرئيس المذكور هو الذي يأخذ المبادرة ويشن الحرب على العراق وليس الرئيس العراقي، ولترويج أفكاره الحربية والسياسية الواردة في فقرات الخطاب المتبقية.

(1) – Salkie, Raphael (1995) Text and Discourse Analysis. London: Routledge, p. 91.

2.2.6 الفقرة الثانية

تتضمن الفقرة الثانية تفصيلاً (ضرب أهداف منتقاة، تقوم أكثر من 35 دولة بتقديم الدعم، المساعدة في المعلومات...) لما أجمله الرئيس الأميركي في الفقرة الأولى حيث ذكر (العمليات العسكرية)، مما أسهم في تماسك النص. غير الرئيس المذكور هنا أسلوبه قليلاً عما ورد في الفقرة الأولى، حيث ذكر الولايات المتحدة كدولة، أما الفقرة الثانية فبدأها باختيار متقن لمفرداته التي استغلها لإعلان نفسه القائد السياسي والعسكري للحرب على العراق (بناء لأوامري بدأت قوات التحالف)، وحدد العدو المفترض (صدام حسين) وليس العراق الذي ذكره فقط كدولة في منتصف الخطاب، وهو خرق هنا مبدأ الكيفية، وكان عليه أن يصرح بأن العدو المفترض هو دولة العراق.

قصد الرئيس الأميركي بذلك تعزيز العداوة والكراهية لشخص الرئيس العراقي وتحقيره، وهي استراتيجية كثيراً ما تستعمل في الخطاب السياسي، وقصد أيضاً جعل مسألة العداوة مسألة شخصية، وهو أمر يساعده على الظهور كقائد تاريخي في الولايات المتحدة لأسباب انتخابية وغيرها من جهة، والتخفيف من قوة الفعل الإنجازي من جهة أخرى، أي إعلان الحرب من دولة أو دول على دولة العراق في مقدمة الخطاب، ما يتلاءم واستخدام استراتيجيات الخطاب التداولية الواردة في الفقرات الثلاثة الأخيرة (6.2.6).

يتجلى المستوى الاجتماعي للخطاب، أو التأثير الأيديولوجي في هذه الفقرة بذكر أكثر من خمس وثلاثين دولة من دول التحالف تقوم بالدفاع المشترك، لا بالهجوم المشترك، وهو ما يعد استمراراً للتأثيرات الأيديولوجية نفسها التي ذكرتها سابقاً. ففي الولايات المتحدة ينتشر السلاح انتشاراً ملحوظاً، وبإمكان كل مواطن أميركي شراء سلاح فردي وفقاً لشروط ممكنة، ويعد قتل المعتدي دفاعاً عن النفس فعلاً قابلاً للتبرير في القانون. هذه الفكرة، أي فكرة الخوف والدفاع ثم القتل، هي ما يرمي إليه الرئيس الأميركي وقد استغلها في خطابه كأحد أنماط الاستدلالات الموجهة لضمان التحيز لمضمون خطابه وأهدافه.

باختصار يرمي الرئيس الأميركي إلى التلاعب بعقول الأميركيين بواسطة استخدام استراتيجيات شاملة من جهة، وإلى بسط أفكاره الحربية وترويجها بأسلوب يظهر جوهر الممارسة الخطابية من جهة أخرى، ألا وهو ما الشيء الذي قيل؟ وما القواعد التفسيرية

التي تجعل من قول شيء ما أو معرفته أمراً ممكناً؟⁽¹⁾، وذلك كله تمهيدا لاستخدام الأيديولوجيا واستغلالها بخبث في الفقرات الأخيرة من الخطاب.

3.2.6 الفقرة الثالثة والرابعة

بدأ الرئيس الأميركي الفقرة الثالثة بأسلوب شبيه بما بدأه في الفقرة الثانية، أي ضمّتها تفصيلاً لما أجمله في الفقرة الأولى (الرجال والنساء والقوات المسلحة الأميركية)، وهذا ما أدى إلى تماسك الخطاب. واستخدم أيضاً فعلاً إنجازياً في هذه الفقرة وهو فعل إعلاني (إلى جميع الرجال والنساء... أقول).

لجأ الرئيس الأميركي هنا إلى استخدام استراتيجية شاملة للتلاعب بعقول الأميركيين وللحصول على موافقة لاعقلانية منهم، وذلك عندما استخدم الرئيس الأميركي الفعل (أقول) متوجهاً إلى عاطفة الشعب الأميركي، أي إلى تفكيرهم السريع، وذلك بصيغة المتكلم في هذه المرحلة من الخطاب، لأن خطابه قصير ويريد أن يرسخ افتراضاً مُسبقاً من جهة، وهو عدم وجود سوء تفاهم بين الأميركيين ورئيسهم، زد على ذلك ضمان السيطرة على ما تبقى من استراتيجيات الخطاب بناء على مبدأ تداولي منتشر في عالم السياسة من جهة أخرى. ينص هذا الأخير على أن السيطرة على الرأي العام في السياق المجتمعي تتطلب فهم قوة المجتمع المهيمنة⁽²⁾، وهو ما يحاول الإيحاء بوجوده في الخطاب وترسيخه في ذاكرة الجمهور الأميركي.

قصد الرئيس الأميركي من ممارسته للخطاب المذكورة آنفاً أن تتعاون كل العناصر التداولية معاً، فعندما توجه (إلى جميع الرجال والنساء) احترام خصائص الخطاب العام، واستغل أيديولوجية الحضارة الغربية القائمة على احترام رأي الرجال والنساء على حد سواء، أي التزم مبدأ التأدب الذي ورد في الفقرة الأولى والثانية. والغاية من ذلك هنا التلاعب بعقول عدد كبير من الأميركيين وحث المتلقين على احترام صورته العامة، وتحقير شخصية الرئيس العراقي في الوقت نفسه؛ فتحاشى الإساءة لشخصية المتكلم العامة يعد وظيفة رئيسة من وظائف استخدام استراتيجية مبدأ التأدب⁽³⁾.

(1) – Bacchi, Carol & Bonham, Jennifer (2014) "Reclaiming Discursive Practices as an Analytic Focus: Political Implications", Foucault Studies 17, p. 180.

(2) – Mey (2001) Pragmatics: An Introduction. p. 218.

(3) – Brown & Levinson (1987) Politeness: Some Universals in Language Use. pp. 60–61.

يؤكد الرئيس الأميركي هذه الغاية، أي الإساءة إلى الرئيس العراقي وتعزيز غضب الجماهير عليه، عندما قابل بين شعبيين مستخدماً مبدأ الافتراض المُسبق (سلام العالم المضطرب) و(الشعب المقموع)، أي الشعب العراقي المقموع من رئيسه! واستمر في استخدام هذه الاستراتيجية في الفقرة الرابعة التي تعد استكمالاً للفقرة الثانية والثالثة فأسهمت في تماسك النص؛ ينسب الرئيس الأميركي فيها كثيراً من المزايا الحسنة إلى القوات المسلحة الأميركية (عمق خبرتكم وشجاعتكم)، (روح الشرف والطيبة)، وبراكم أكبر عدد من الصفات السيئة وينسبها إلى الرئيس العراقي (الأعداء)، (لا يحترم أعراف الحرب)، (لا يحترم القواعد الأخلاقية)، (وضع القوات العسكرية... في المناطق المدنية)، (الفضاعات).

يكمن شأن هاتين الفقرتين في أنهما توضحان التأثير الأيديولوجي بأفكار عديدة ومعتقدات سياسية أهمها أفكار صاموئيل هنتجتون (Samuel Huntington) الصدامية بين الحضارات في كتابه الذائع الصيت (صدام الحضارات) الذي كتب في نهايته مسألة مهمة: إن القانون والنظام هما المتطلب الأول للحضارة وهما يتلاشيان في الشرق الأوسط... وفي صدام الحضارات سوف تتساند أوروبا وأميركا معا في الصدام الأكبر،

الصدام الكوني الحقيقي⁽¹⁾، وكأنه كان ينتبأ بحرب جديدة على دولة شرق أوسطية أو يخطط لها.

هذه الأيديولوجيا أسهمت في إنتاج ممارسات خطابية تميزت بمراوغة خطابية استغلها الرئيس الأميركي للتلاعب بعقول غيره، وذلك بواسطة صياغة فقرات خطابية تتضمن في سياقها دلالات تواصلية عديدة، سواء أكانت أيديولوجية أم تداولية. بالنسبة إلى الأخيرة فإن المقابلة شبه المتوازية بين مزايا القوات المسلحة الأميركية وصفات الرئيس العراقي أدت إلى خرق مبدأ الكيفية الذي نتج عنه استتباع تحاوري يبرر العمليات الحربية ضد تصرفات الرئيس العراقي، ويمكن صياغته على النحو الآتي:

● من هو صدام حسين ليخالف إرادة المجتمع الدولي برمته ويقمع شعبه؟

(1) – Huntington, Samuel P. (1996) The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order. New York: Simon & Schuster, p. 321.

4.2.6 الفقرة الخامسة

تعد الفقرة الخامسة محورا مفصليا في هذا الخطاب، فقد بدأها الرئيس الأميركي بفعل إنجازيّ توجيهي (أريد)، وهو فعل يقدم فرصة لتأسيس واقع خطابي جديد⁽¹⁾. وذكر للمرة الرابعة والأخيرة بأسلوب صريح (قوات التحالف)، وفي المقابل ذكر فقط (الولايات المتحدة الأميركية) كدولة مرتين اثنتين في الفقرات الخمسة الأولى. وعلى الرغم من أن التكرار يساعد على تماسك النص، إلا أن تكرار (قوات التحالف) في هذه المرحلة يتميز بتأثير تداولي يرتبط بمخطط الرئيس الأميركي.

يرتبط هذا المخطط بالواقع الخطابي الجديد وباستراتيجيات الخطاب، فانقل الرئيس الأميركي فيه من ترويج أفكاره الصدامية بين الحضارات إلى ممارسة السّلطة بواسطة اللّغة ووازن نفسه بالرئيس العراقي الذي (يستخدم الرجال والنساء والأطفال دروعا بشرية لحماية قواته) موازنة ذات أبعاد سياسية وأيديولوجية مستغلا ضمير المتكلم في الفعل (أريد) ومتوجها إلى الشعب الأميركي. استهدف الرئيس الأميركي على الأرجح من هذا المخطط الوصول إلى الاستتباع التحاوريّ الآتي:

• الرئيس العراقي يريد قتل شعبه، لكن أنا أريد إنقاذ شعب العراق مع قوات التحالف.

هذا الاستتباع التحاوريّ ترافق بدوره واستدلال تحاوريّ آخر وهو:

• إنّ قوات التحالف يواجهون مشكلة صعبة، وهي شبيهة بمشكلة الحرب العالمية الثانية، وإذا كانت الحروب مع الحلفاء رابحة، فهذه الحرب رابحة.

وهذا الاستتباع التحاوريّ يعني أن قوات التحالف استدرکوا الموقف وتوافقوا على إعلان الحرب على العراق واجتياحه، وهو ما يسمّى في تحليل الخطاب السياسيّ بصناعة الإجماع على رأي واحد. لذلك أوحى الرئيس الأميركي بأن القيام بعمل عسكري بطولي ضد عدو يرتكب فظاعات هو صواب، وحاول الوصول أيضا إلى تحيز أو إجماع وطني أميركي حول مخططاته الحربية، لأن الإجماع في عالم السياسة مناورة مهمة⁽²⁾، وهي هنا مناورة نقيه شر معارضة الحزب الديموقراطي والشعب الأميركي.

(1) - Mingueneau, Dominique (1990) Pragmatique pour le discours littéraire. Paris: Dunod, p. 5.

(2) - Van Dijk, Teun A. (2005) "War Rhetoric of a Little Ally: Political Implications and Aznar's Legitimization of the War in Iraq", Journal of Language and Politics 4(1), p. 88.

تأثرت هذه المخططات آنذاك بأفكار العولمة الاقتصادية ونشر الثقافة الغربية ولا سيما الأميركية، واستغلت هذه المخططات تداعيات حادثة الاعتداء على برج التجارة العالمية عام 2001 المتمثلة بتداعياتها وتداعيات الاعتداء الياباني على القاعدة العسكرية في مرفأ بيرل هاربور عام 1941؛ ولقد حاولت الولايات المتحدة استغلال كلتا الحادثتين استغلالاً استراتيجياً للتوسع عسكرياً واقتصادياً وترويج أيديولوجيتها. كتب أحد الباحثين المعاصرين في هذا الموضوع مستغرباً أن الأسباب الرئيسية لاجتياح العراق تعود إلى أيديولوجية العولمة الاقتصادية ونشر الليبرالية الجديدة التي تحد من حرية الدول الآخر!⁽¹⁾.

هذه الاستراتيجيات قد تصطم بعوائق ثقافية واقتصادية يمثل العراق أنموذجاً ناجحاً عنها في نهاية الثمانينات من القرن العشرين، وتمثل ولاية كاليفورنيا أنموذجاً عالمياً ومعاصراً للأنموذج العراقي. وفي الواقع لم يرد ذكر اسم ولاية كاليفورنيا صدفة، إذ لا يوجد خطاب سياسي وحربي بريء، ففي هذه الولاية ساد الانصهار الحضاري والازدهار الاقتصادي ولا يزال، ولم يرد أيضاً استخدام الملفوظات اللاحقة في نهاية الفقرة الخامسة صدفة. فالسياق هنا صيغ ببراعة سياسية، ويذكر تون فان دايك عن دوره في إنتاج الخطاب السياسي وفهمه بأنه المسؤول عن تحديد أفعال الكلام وأهداف الخطاب ووظائفه ونوع المعرفة والمعتقدات⁽²⁾.

هذه الاستراتيجية أسهمت بدورها في الوصول إلى الاستتباع التحاوري الآتي:

● إن مساعدة العراقيين على تأسيس دولة موحدة ومزدهرة مثل كاليفورنيا ستطلب التزامنا الأممي المستدام.

وقد قصد الرئيس الأميركي منه إنجاز مهام عديدة، منها التأثير في عاطفة الأميركيين وتوفهم إلى مساعدة غيرهم وتحقيق إنجازات روج لها لاحقاً في الخطاب، زد على ذلك أن ما ورد في هذه الفقرة أوضح كيفية التلاعب بالإدراك الاجتماعي، أي كيفية التلاعب

(1) - Egan, Daniel (2011) "Globalization and the Invasion of Iraq: State Power and the Enforcement of Neoliberalism", In Steven Carlton-Ford & Morten G. Ender (eds) The Routledge Handbook of War and Society, London: Routledge, p. 189.

(2) - Van Dijk, Teun A. (2001) "Political Discourse and Ideology", Paper Presented at Jornadas del Discurso Politico, UPF, Barcelona: 15-34. Retrieved from: <http://www.discourse-in-society.org/dis-pol-ideo.htm> (Accessed 1 April 2020).

بالطريقة التي يفهم المتلقون بها الأحداث السياسيّة المعاصرة لهم.

5.2.6 الفقرة السادسة والسابعة والثامنة

استهل الرئيس الأميركي هذه الفقرات على المستوى النصي ببراعة، إذ استغل إمكانات اللّغة في الفقرة السادسة التي بدأها بجملة فعلية وكرر ضمير المتكلم الجمع مرات عديدة (نأتي)، (يحدونا)، (ليست لدينا)، (نزىل)، (نستعيد). والإجراء نفسه ينسحب على الفقرة السابعة، حيث بدأها بجملة فعلية مستخدماً ضمير المتكلم (أدرك)، وضمير الغائب (يصلون)، وضمير المخاطب (تحظون)، (تدركوا)، واستخدم مجدداً في الفقرة الثامنة ضمير المتكلم الجمع (بلادنا)، (هدفنا)، (بجيشنا)، (طيراننا). يرتبط هذا التناوب في استخدام الضمير على المستوى الخطابي والأيدولوجي بثلاث مسائل، أولها الأسلوب الحجاجي الذي لجأ إليه الرئيس الأميركي في الخطاب. هذا الأسلوب أخذ لاحقاً منحى تداولياً وهو يتحدد على النحو الآتي:

- استخدام الضمير في الفقرة السادسة يُقصد به الرئيس الأميركي والقوات المسلحة الأميركية معاً.
- استخدام الضمير في الفقرة السابعة يُقصد به الشعب الأميركي.
- استخدام الضمير في الفقرة الثامنة يُقصد به الرئيس الأميركي والقوات المسلحة والشعب الأميركي.

وقد قصد الرئيس الأميركي من استخدام الضمير ومن استخدام فعل (أتى) وليس (ذهب) تخفيف قوّة الفعل الكلامي، أي الإيحاء بأن الأميركيين مدعوون إلى تحرير العراق، والوصول إلى هذا الاستنتاج التحاوري:

- أيها الأميركيون عليكم أن تأتوا وتآزروا رئيسكم وبلادكم أسوة بالقوات المسلحة الأميركية، فهي سنأتي بالحرية للعراقيين.

وبعبارات أخرى، يتلاعب الرئيس الأميركي بالشعب الأميركي للتأثير في قراراته ووطنيته وشجاعته، ويتلاعب بقرارات الكونغرس الأميركي في الوقت نفسه، ويوازي أيضاً بين مهمة القوات المسلحة ومهمة الشعب الأميركي مستخدماً مبادئ الحوار وأفعال الكلام ببراعة:

- لا تكن وطنيتكم و بطوليتكم أقل من وطنية القوات المسلحة الأميركية و بطوليتها.

المسألة الثانية في هذه الفقرات هي لجوء الرئيس الأميركي إلى الربط بين استخدام القوة الناعمة، أي القيم السياسيّة والثقافية وسياسات أميركا الخارجية، والقوة القاسية أي الحرب. أما المسألة الثالثة فهي أيديولوجية وتتبع عن المسألتين السابقتين، وترتبط باستخدام المربع الأيديولوجي الذي يشبه المربع السيميائي، وقد استعان به تون فان دايك غير مرة⁽¹⁾. يرمي الرئيس الأميركي من استخدامه إلى التلاعب بعقول الأميركيين بواسطة استغلال أيديولوجية الديمقراطية المنتشرة في أميركا، والتلاعب بقدرتهم على التفكير البطيء أو التفكير النقديّ بجدوى شن الحرب على بلد آخر، أي أنه يستخدم استراتيجية شاملة، وذلك على النحو الآتي:

التشديد على حسناتنا	التشديد على سيئاتهم
التقليل من قيمة سيئاتنا	التقليل من قيمة حسناتهم

الرسم البياني رقم (1): المربع الأيديولوجي في الخطاب السياسي

- التشديد على حسنات الأميركيين: حماية الديمقراطية، حماية العالم من الأخطار، الحفاظ على السلام العالمي، خبرة القوات المسلحة الأميركية، التزام، احترام الحضارات...
- التشديد على سيئات نظام الرئيس العراقي: نظام مسلح، نظام خطر على العالم، تواجه عدوا لا يحترم أعراف الحرب والقواعد الأخلاقية، يلجأ إلى فظاعات، نظام يهدد حريات الدّول...
- التقليل من قيمة سيئات الأميركيين: لا مطامع لدينا في العراق، التردد في دخول النزاع مع...
- التقليل من قيمة حسنات نظام الرئيس العراقي: لا حسنات لنظام الرئيس العراقي.

(1) - Van Dijk, Teun A. (2011) "Discourse and Ideology", In Van Dijk, Teun A. (ed) Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction, London: Sage Publications, p. 396.

6.2.6 الفقرة التاسعة والعاشرية والحادية عشرة

ينهي الرئيس الأميركي خطابه بتأكيديه الجزء الثاني من استراتيجية المشكلة والحل، أي بإعلانه الصريح في الفقرة التاسعة عن أن الحل للمشكلة المطروحة في مقدمة الخطاب حل عسكري (بعد أن دخلنا هذا النزاع... استخدام القوة)، (لن تكون حملة أنصاف إجراءات). ويلاحظ أيضا في هذه الفقرات غياب أي ذكر للرئيس العراقي والقوات المسلحة الأميركية، واستخدام الجمل الاسمية في الفقرة الثامنة والتاسعة، ثم الانتقال بأسلوب لاقت للملاحظة إلى استخدام فعل بصيغة المجهول في الفقرة العاشرة وخمسة أفعال بصيغة المتكلم الجمع (سنبجاز)، (نواصل)، (سندافع)، (نأتي)، (ننتصر).

هذه الاستراتيجيات أسهمت في تعزيز تماسك النص وفي خرق مبدأ الكمية، ثم في إنهاء الخطاب بهذا الاستتباع التحاوري الذي يتصف بطبيعة إعلانية:

• الآن نأتي ونبنتصر في العراق

ومضمون الاستتباع التحاوري هنا شبيه بأقصر خطبة حربية في التاريخ وأشهرها، وقد قالها الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر (Julius Caesar) منذ ألفي عام ونيف بُعيد انتصاره في معركة حربية: أتيت ورأيت وانتصرت. أهذا الأمر صدفة غريبة أم تناص مقصود يراد به ممارسة السُلطة بواسطة اللّغة؟ وبخاصة أن ما ورد في هذه الفقرة يوضح أيديولوجية الحزب الجمهوري الأميركي في ممارسة السُلطة، أي الترويج لتفوق الليبرالية الجديدة، وهي تتضمن تصعيدا تدريجيا في الموقف بدأ باختيار فعل (سنبجاز) وانتهى بفعل (سنبنتصر)!

أما عن دورها الأيديولوجي الخبيث فإنها تظهر الولايات المتحدة أيضا كمصدر رئيس للديموقراطية في العالم المعاصر (سوف نأتي بالحرية...)، والعراق كمصدر للاستبداد، مما أسهم في نجاح التلاعب بالعقول. لذا يبدو موقف الرئيس الأميركي وكأنه رد فعل على فعل، الفعل هو اعتداء من النظام العراقي، ورد الفعل هو إعلان الحرب واحتلال العراق، وقد أعلنه الرئيس المذكور سابقا في مقدمة الخطاب وأكدته بأسلوب منمق في الفقرات الثلاثة الأخيرة من الخطاب؛ وهو يتلاعب هنا بالإدراك الاجتماعي لجميع المتلقين. يوضح روبرت غرين (Robert Greene) في كتاب شهير عن موضوع

استراتيجيات الحرب أنه في عالم السياسة عليك أن تسيطر على التفوق الأخلاقي، أي أن تلجأ إلى استراتيجية زعم الحق، وينبغي لك أن تبدو قضيتك أكثر عدالة من قضية العدو، وذلك عن طريق التشكيك في دوافع أعدائك وإظهارهم بمظهر الأشرار، وبذلك تضيق قاعدة دعمهم⁽¹⁾.

وهذا ما فعله الرئيس الأميركي، لقد غير منظور القضية وأظهر في خطابه المقتضب أن الحرب بين الخير والشر لا بين دولة ودولة أخرى، أو بين حضارة أو حضارات تمثل قيم إنسانية وأخلاقية وحضارية من جهة وحضارة أو نظام سياسي يمثل الاستبداد ولا يمثل شيئاً جيداً من جهة أخرى، لا بين دول تتصارع على مصالح مادية. لقد أظهر في خطابه أيضاً قدرة على ممارسة التقية السياسية التي سمحت له بأن يتلاعب بعقول كثيرين من أبناء الولايات المتحدة، وما كانت إعادة انتخابه لاحقاً عام 2004 إلا إثباتاً على نجاحاته في استغلال الأيديولوجيا بكل أبعادها، والتلاعب بها لتحقيق أهدافه السياسية والحربية.

7. آراء ختامية وآفاق جديدة للبحث

تبين من التحليل الذي ورد في متن البحث أن كاتب الخطاب استغل إنجازات الحضارة الأميركية في السياسة والاقتصاد، ولا سيما الإنجازات التي تحققت بعيد الحرب العالمية الثانية، حيث بدأ يطلق عليها القوة الناعمة. لقد ضم الرئيس الأميركي ما تعنيه هذه الأخيرة إلى القوة القاسية، ووظف مفاهيم القوة الناعمة ليتلاعب بالأميركيين ويضعف مقاومتهم لأفكاره الحربية ويغري شعوب العالم والشعب العراقي بها، واستخدم القوة القاسية لتهديد الرئيس العراقي صدام حسين والإساءة إليه، وكأن النص هنا فعل كلامي غرضه إعلان الحرب والتضليل والتلاعب بعقول الآخرين ولا سيما التلاعب بالإدراك الاجتماعي للجمهور، مستغلاً الأيديولوجيا واستراتيجية تغيير المنظور الذي ذكرته في الفقرة الأخيرة من البحث (6.2.6).

تبين في سياق الدراسة أيضاً أن الأفكار السياسية غير الشخصية أثرت في أساليب إنتاج هذا الخطاب أكثر مما أثر فيها أسلوب الرئيس الأميركي الشخصي، فآثار أفكار هنتغتون والليبرالية الجديدة ونظريات السلطة والحرب والتوسع كانت جلية في ممارسة

(1) - غرين، روبرت (2009) 33 استراتيجية للحرب، ترجمة سامر هواش، أبو ظبي، كلمة، ص 13.

السياسة الأميركية وإنتاج الخطاب السياسي آنذاك. هذه الحصيلة توحي بأن الرئيس الأميركي تأثر تأثراً ملحوظاً بأراء مستشاريه وغيرهم أو أنه ليس مثقفاً وقوي الشخصية مثل خلفه في البيت الأبيض باراك أوباما (Barack Obama).

تجسدت هذه الخصيصة الأخيرة في لجوء الرئيس الأميركي بوش إلى ممارسات خطابية نسبية، فقد تمايز استخدام الاستتباع التحويري عن استخدام أفعال الكلام، فهذه الأخيرة ذُكرت علناً وإن كان يقصد بها التلاعب بالعقول كما ذكرت في بعض فقرات الخطاب؛ أما استخدام الاستتباع التحويري فقد اقترن في معظم الفقرات بالإشارة إلى مسائل أكثر لغزاً وأكثر خبثاً. هذه الخلاصة تستدعي دراسة أنواع الاستتباع التحويري في الخطاب السياسي ووظائفه وعلاقته بأفعال الكلام وأنواع السلوك الاستثنائي وغيره من الاستراتيجيات الخطابية أو التداولية التي قد تُستخدم في الخطاب السياسي وغيره.

هذه الاستراتيجيات كثيراً ما كانت جديدة ومعقدة لم يدركها المتلقي أو لم يستطع اكتشاف غاياتها التداولية على الفور، وعلى الرغم من ذلك فإن وسيلة السياسي المتلاعب بالعقول لا يمكن أن تكون إلا لغوية وبخاصة خطابية. لذلك فإن هذا الأمر قد يمنحه امتيازاً لاستخدام سلطة اللغة ولغة السلطة معا في الخطابات السياسية. ولئن استطاع رؤساء أميركا أن يستغلوا أنواع القوة المذكورة آنفاً أو القوة الناعمة والقاسية، وأن يوظفوا الأيديولوجيا ويتلاعبوا بها بأسلوب مراوغ، فماذا يستطيع أن يفعله السياسيون في دول العالم؟ وفي عبارات أكثر وضوحاً، كيف يتلاعبون بالعقول؟ أية أيديولوجيا يستخدمون؟ أية قوة غير القوة الناعمة يستخدمون؟

أخيراً لقد سعت هذه الدراسة للكشف عن خفايا الخطاب السياسي وما يضمه من استراتيجيات تداولية وأيديولوجية مستترة، بيد أن البحث عن خطاب بديل يحترم عقول الآخرين ولا يتلاعب بها أو يهيمن عليها ربما يكون بنشر الوعي بأنواعه وبخاصة السياسي، وذلك للتحري من المتلاعبين بالعقول أو من لغة السلطة. إن خطة ترمي إلى نشر الوعي والكشف عن الهيمنة السياسية واستغلال الخطاب تحتاج إلى جهود حثيثة وتضافر الاختصاصات المعرفية. إن المكاسب الممكنة تحقيقها من جراء ذلك لا يمكن الاستهانة بها، وقد تفضي في نهاية المطاف إلى تعزيز استقلال الدول الضعيفة أو المستضعفة وتطوير اقتصادها وازدهارها.

8. نص إعلان جورج بوش الابن "الحرب على العراق" بتاريخ 19/3/2003

1. أيها المواطنون، بدأت الولايات المتحدة الأميركية وقوات التحالف في هذه الساعة المراحل الأولية للعمليات العسكرية لنزع أسلحة العراق ولتحرير شعبه، ولحماية العالم من خطر قاتم محدد.

2. وبناء على أوامري، بدأت قوات التحالف بضرب أهداف منتقاة تتمتع بأهمية عسكرية من أجل تفويض قدرة صدام حسين على شن الحرب. هذه هي مجرد المراحل الاستهلالية لما ستكون حملة واسعة ومركزة. وتقوم أكثر من 35 دولة بتقديم الدعم الحيوي من استخدام القواعد البحرية والجوية، إلى المساعدة في المعلومات الاستخباراتية والعمليات اللوجستية، إلى نشر الوحدات القتالية. لقد اختارت كل دولة من دول التحالف أن تتحمل المسؤولية وأن تشاطرنا شرف الخدمة في دفاعنا المشترك.

3. إلى جميع الرجال والنساء والقوات المسلحة الأميركية المنتشرين الآن في الشرق الأوسط، أقول إن سلام العالم المضطرب وآمال شعب مقموع تعتمد الآن عليكم. وهذه الثقة هي في محلها تماما.

4. وسيدرك الأعداء الذين تواجهون عمق خبرتكم وشجاعتكم في الحال. وسيشاهد الناس الذين ستحررون روح الشرف والطيبة التي تتسم بها القوات المسلحة الأميركية. وفي هذا النزاع تواجه أميركا عدوا لا يحترم أعراف الحرب أو القواعد الأخلاقية. فقد وضع صدام حسين القوات العسكرية والمعدات العراقية في المناطق المدنية، وهو يحاول أن يستخدم الرجال والنساء والأطفال دروعا بشرية لحماية قواته، وهي آخر الفظاعات التي سيقوم بها ضد أبناء شعبه.

5. أريد من الشعب الأميركي والعالم أن يدركوا أن قوات التحالف ستبذل كل جهد ممكن للحفاظ على المدنيين الأبرياء من الأذى. إن حملة في بلد ذي طبيعة جغرافية صعبة بمساحة ولاية كاليفورنيا يمكن أن تكون طويلة وأصعب مما توقع البعض.

كما أن مساعدة العراقيين على إقامة دولة موحدة، مستقرة، وحررة ستنتطلب التزامنا المستدام.

6. نأتي إلى العراق والاحترام يحدونا لمواطنيه ولحضارته العظيمة ولمعتقداته الدينية التي يمارسونها، ليست لدينا أي مطامع في العراق سوى أن نزيل التهديد ونستعيد السيطرة على تلك الدولة إلى شعبها.
7. أدرك أن أسر أفراد قواتنا المسلحة يصلون الليلة بأن يعود أحببهم الذين يخدمون في القوات المسلحة إلى ذويهم بسلامة وبسرعة. إن ملايين الأميركيين يصلون معكم من أجل سلامة أحببتكم وحماية الأبرياء. ولتضحياتكم، فإنكم تحظون بامتنان وتقدير الشعب الأميركي. وعليكم أن تدركوا أن قواتنا المسلحة ستعود فور انتهاء مهمتها.
8. إن بلادنا تدخل هذا النزاع بتردد، ومع ذلك فإن هدفنا واضح تماما، إن شعب الولايات المتحدة وشعوب أصدقائنا وحلفائنا لن يعيشوا تحت رحمة نظام خارج على القانون يهدد السلام بأسلحة القتل الشامل. سنتصدى لهذا التهديد الآن بجيشنا وسلاح طيراننا وبحريتنا وحرس سواحلنا وقوات مشاة بحريتنا، وذلك لكي لا نتصدى له بجيوش مكافحة الإطفاء والشرطة والأطباء في شوارع مدننا في المستقبل.
9. والآن، وبعد أن دخلنا هذا النزاع، فإن الطريقة الوحيدة لخفض مدته تتمثل في استخدام القوة الحاسمة. وأؤكد لكم أن هذه الحملة لن تكون حملة أنصاف إجراءات، ولن نقبل أي نتيجة إلا النصر فيها.
10. أيها المواطنون: إن الأخطار التي تتهدد بلادنا والعالم سيتم التغلب عليها. وسنجتاز أوقات الخطر هذه ونواصل عمل السلام. سندافع عن حريتنا، وسوف نأتي بالحرية إلى الآخرين، وسوف نتصر.
11. ليبارك الله بلادنا ومن يدافعون عنها⁽¹⁾.

(1) - <http://www.aljazeera.net/encyclopedia/events/2016/9/2/>

نص إعلان بوش الحرب على العراق (Accessed 20 February 2020)

المصادر والمراجع العربية:

- أرمينكو، فرنسواز (1986) *المقاربة التداولية*، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي.
- أيوب، نبيل (2011) *النقد النصي (2) وتحليل الخطاب*، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.
- عبد اللطيف، عماد (2014) "التحليل النقدي للخطاب من السياق الغربي إلى السياق العربي"، في فوداك، روث؛ ماير، ميشيل (تحرير) *مناهج التحليل النقدي للخطاب*، ترجمة حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ص 7-12.
- العبد، محمد (2014) "تعديل القوة الإنجازية: دراسة في التحليل التداولي للخطاب"، في علوي، حافظ إسماعيلي (تحرير) *التداوليات: علم استعمال اللغة*. إريد: عالم الكتب الحديث، ص 306-348.
- علي، محمد محمد يونس (2003) "أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة"، *عالم الفكر*، ع1، م 32، ص 176-127.
- علي، محمد محمد يونس (2007) *المعنى وظلال المعنى*، بيروت، دار المدار الاسلامي.
- غرين، روبرت (2009) *33 استراتيجيات للحرب*، ترجمة سامر هواش، أبو ظبي، كلمة.
- فان دايك، تون أ. (1996) "النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص"، في العمري، محمد (تحرير) *نظرية الأدب في القرن العشرين*، أفريقيا الشرق، ص 90-45.
- محسب، محي الدين (2008) *انفتاح النسق اللساني: دراسة في التداخل الاختصاصي*، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- مصطفى، عادل (2007) *المغالطات المنطقية*، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
- المنجد في اللغة والأعلام (1986) بيروت، دار المشرق.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- 1- Alder, Emanuel & Pouliot Vincent (2011) "International Practices: Introduction and Framework", In Emanuel Adler & Vincent Pouliot (eds) *International Practices*, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 3-35.
- 2- Asya, Akopova (2013) "Linguistic Manipulation: Definition and Type", *International Journal of Cognitive Research in Science Engineering and Education* 1(2): 78-82.
- 3- Austin, John L. (1978) *Quand dire c'est faire*. Paris: Seuil.
- 4- Bacchi, Carol & Bonham, Jennifer (2014) "Reclaiming Discursive Practices as an Analytic Focus: Political Implications", *Foucault Studies* 17: 173-192.
- 5- Blommaert, Jan & Bulcaen, Chris (2000) "Critical Discourse Analysis", *Annual Review of Anthropology* 29: 447-466.
- 6- Bloor, Meriel & Bloor, Thomas (2007) *The Practice of Critical Discourse*

- Analysis: An Introduction. London: Routledge.
- 7- Breeze, Ruth (2011) "Critical Discourse Analysis and its Critics", *Pragmatics* 21(4): 493–525.
 - 8- Brown, Penelope & Levinson, Stephen C. (1987) *Politeness: Some Universals in Language Use*. Cambridge: Cambridge University Press.
 - 9- Capone, A., (2009) "Speech Acts Classification and Definition", In Jacob L. Mey (ed) *Concise Encyclopedia of Pragmatics*, Oxford: Elsevier, pp. 1015–1017.
 - 10- Chilton, Paul (2011) "Manipulation", In Jan Zienkowski, Jan–Ola Östman & Jef Verschueren (eds) *Discursive Pragmatics*, Amsterdam: John Benjamins, pp. 176–189.
 - 11- Chilton, Paul (2013) "Critical in Critical Discourse Analysis", In Carol A. Chappelle (ed) *The Encyclopedia of Applied Linguistics*, Oxford: Wiley–Blackwell, pp. 1433–1439.
 - 12- Clarke, Lee (2006) "Mistaken Ideas and Their Effects", In Robert E. Goodin & Charles Tilly (eds) *The Oxford Handbook of Contextual Political Analysis*, Oxford: Oxford University Press, pp. 297–315.
 - 13- Coons, Christian & Weber, Michael (2014) "Introduction: Investigating the Core Concept and its Moral Status", In Christian Coons & Michael Weber (eds) *Manipulation: Theory and Practice*, Oxford: Oxford University Press, pp. 1–16.
 - 14- Cruse, Alan (2006) *A Glossary of Semantics and Pragmatics*. Edinburgh: Edinburgh University Press.
 - 15- De beaugrande, Robert & Dressler, Wolfgang (1981) *Introduction to Text Linguistics*. London: Longman.
 - 16- De Saussure, Louis (2005) "Manipulation and Cognitive Pragmatics: Preliminary Hypotheses", In Louis De Saussure & Peter Schulz (eds) *Manipulation and Ideologies in the Twentieth Century*, Amsterdam: John Benjamins, pp. 113–145.
 - 17- Egan, Daniel (2011) "Globalization and the Invasion of Iraq: State Power and the Enforcement of Neoliberalism", In Steven Carlton–Ford & Morten G. Ender (eds) *The Routledge Handbook of War and Society*, London: Routledge, pp. 189–199.
 - 18- Enani, Mohammad (1996) *Modern Literary Terms: A Study and a Dictionary English–Arabic*. Beirut: Librairie du Liban.
 - 19- Engelstad, Fredrik (2009) "Culture and Power", In Stewart R. Clegg & Mark Haugaard (eds) *The Sage Handbook of Power*, London: Sage

- Publications, pp. 210–238.
- 20- Fairclough, Norman (1989) *Language and Power*. London: Longman.
 - 21- Fairclough, Norman (2001) “Manipulation”, In Rajend Mesthrie (ed) *Concise Encyclopedia of Sociolinguistics*, Amsterdam: Elsevier, pp. 574–575.
 - 22- Fairclough, Norman (2010) *Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language*. London: Routledge.
 - 23- Fairclough, Norman; Jane Mulderrig & Ruth Wodak (2011) “Critical Discourse Analysis”, In Teun A. Van Dijk (ed) *Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction*, London: Sage Publications 2, pp. 357–378.
 - 24- Fraser, Bruce (1980) “Conversational Mitigation”, *Journal of Pragmatics* 4: 341–350.
 - 25- Gee, James Paul (2011) “Discourse Analysis: What Makes it Critical?”, In Rebecca Rogers (ed) *An Introduction to Critical Discourse Analysis in Education*, London: Routledge, pp. 23–45.
 - 26- Grice, H. Paul (1957) “Meaning”, *The Philosophical Review*, Cornell University 66(3): 377–388.
 - 27- Grice, H. Paul (2006) “Logic and Conversation”, Adam Jaworski & Nikolas Coupland (eds) *The Discourse Reader*, London: Routledge, pp. 66–77.
 - 28- Gruber, Helmut (1993) “Political Language and Textual Vagueness”, *Pragmatics* 3(1): 1–28.
 - 29- Hall, Stuart (1992) “The West and the Rest: Discourse and Power”, In Stuart Hall & Bram Gieben (eds) *Formations of Modernity*, Oxford: Blackwell Publishing, pp. 275–331.
 - 30- Hoey, Michael (2001) *Textual Interaction: An Introduction to Written Discourse Analysis*. New York: Routledge.
 - 31- Holmes, Janet (1984) “Modifying Illocutionary Force”, *Journal of Pragmatics* 8: 345–365.
 - 32- Hoyo, L. F. (2006) “Applying Pragmatics”, In Keith Brown et al (eds) *Encyclopedia of Language and Linguistics*, Boston: Elsevier 1, pp. 406–409.
 - 33- Huang, Yan (2014) *Pragmatics*. Oxford: Oxford University Press.
 - 34- Huntington, Samuel P. (1996) *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*. New York: Simon & Schuster.

- 35- Janks, Hilary (1997) "Critical Discourse Analysis as a Research Tool", *Discourse Studies in the Cultural Politics of Education* 18(3): 329–342.
- 36- Johnson–Laird, P. N. (2012) "Inference in Mental Models", In Keith J. Holyoak & Robert G. Morrison (eds) *The Oxford Handbook of Thinking and Reasoning*, Oxford: Oxford University Press, pp. 134–154.
- 37- Kahneman, Daniel (2013) *Thinking Fast and Slow*. New York: Farrar Straus & Giroux.
- 38- Knight, Kathleen (2006) "Transformations of the Concept of Ideology in the Twentieth Century", *American Political Science Review* 100(4): 619–626.
- 39- Leech, Geoffrey N. (1990) *Principles of Pragmatics*. London: Longman.
- 40- Littlejohn, Stephen W. (2009) "Speech Act Theory", In Stephen W. Littlejohn & Karen A. Foss (eds) *Encyclopedia of Communication Theory*. London: Sage Publications, pp. 918–920.
- 41- Mangueneau, Dominique (1990) *Pragmatique pour le discours littéraire*. Paris: Dunod.
- 42- Mey, Jacob L. (2001) *Pragmatics: An Introduction*. Oxford: Blackwell Publishing.
- 43- Morris, Charles W. (1938) "Foundations of the Theories of Signs", In otto Neurath, Charles Morris & Rudolf Carnap (eds) *International Encyclopedia of Unified Science*, Illinois: The University of Chicago Press 1(2): pp. 1–59.
- 44- Mullins, Willard A. (1972) "On the concept of Ideology in Political Science", *The American Political Science Review* 66(2): 498–510.
- 45- Pearson, B. & De Villiers, P. (2009) "Discourse Narrative and Pragmatic Development", In J. L. Mey (ed) *Concise Encyclopedia of Pragmatics*, Oxford: Elsevier, pp. 206–213.
- 46- Renkema, Jan (2004) *Introduction to Discourse Studies*. Amsterdam: John Benjamins.
- 47- Sadock, Jerrolds (2006) "Speech Acts", In Laurence R. Horn & Gregory Ward (eds) *The Handbook of Pragmatics*, Oxford: Blackwell Publishing pp. 53–73.
- 48- Salkie, Raphael (1995) *Text and Discourse Analysis*. London: Routledge.
- 49- Sbisà, Marina (2011) "Introduction", In Marina Sbisà, Jan–Ola Östman & Jef Verschueren (eds) *Philosophical Perspectives for Pragmatics*, Amsterdam: John Benjamins, pp. 1–10.

- 50- Sbisà, Marina (2013) "Locution, Illocution, Perlocution", In Marina Sbisà & Ken Turner (eds) *Pragmatics of Speech Actions*, Berlin: De Gruyter Mouton, pp. 25–76.
- 51- Searle, John R. (1991) "What is Speech Act?", In Steven Davis (ed) *Pragmatics: A Reader*, Oxford: Oxford University Press, pp. 254–264.
- 52- Searle, John (2011) *Speech Act: An Essay in the Philosophy of Language*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 53- Senft, Gunter (2014) *Understanding Pragmatics*. New York: Routledge.
- 54- Sorlin, Sandrine (2017) "The Pragmatics of Manipulation: Exploiting Im/Politeness Theories", *Journal of Pragmatics* 121, pp. 132–146.
- 55- Trappes-Lomax, Hugh (2004) "Discourse Analysis", In Alan Davies & Catherine Elder (eds) *The Handbook of Applied Linguistics*, Oxford: Blackwell publishing, pp. 133–164.
- 56- Van Dijk, Teun A. (1994) "Critical Discourse Analysis", *Discourse and Society* 5(4): 435–436.
- 57- Van Dijk, Teun A. (1995) "Aims of Critical Discourse Analysis", *Japanese Discourse* 1(1): 17–27.
- 58- Van Dijk, Teun A. (1997) "What is Political Discourse Analysis?", *Belgium Journal of Linguistics* 11: 11–52.
- 59- Van Dijk, Teun A. (2001) "Political Discourse and Ideology", Paper Presented at *Jornadas del Discurso Politico*, UPF, Barcelona: 15–34. Retrieved from:
1. <http://www.discourse-in-society.org/dis-pol-ideo.htm> (Accessed 1 April 2020).
- 60- Van Dijk, Teun A. (2005) "War Rhetoric of a Little Ally: Political Implicatures and Aznar's Legitimatization of the War in Iraq", *Journal of Language and Politics* 4(1): 65–91.
- 61- Van Dijk, Teun A. (2006) "Discourse and Manipulation", *Discourse and Society* 17(2): 359–383.
- 62- Van Dijk, Teun A. (2011) "Discourse and Ideology", In Van Dijk, Teun A. (ed) *Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction*, London: Sage Publications, pp. 379–407.
- 63- Van Dijk, Teun A. (2015) "Critical Discourse Analysis", In Deborah Tannen, Heidi. E. Hamilton & Deborah Schiffrin (eds) *The Handbook of Discourse Analysis*, Oxford: Wiley–Blackwell 1, pp. 466–485.
- 64- Voeten, Erik (2011) "The Practice of Political Manipulation", In Emanuel

- Adler & Vincent Pouliot (eds) International Practices, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 255–279.
- 65- Wittgenstein, Ludwig (1958) Philosophical Investigations. Translated by G.E. Anscombe, Oxford: Basil Blackwell.
- 66- Wodak, Ruth & Meyer, Michael (2009) “Critical Discourse Analysis: History Agenda Theory and Methodology”, In Ruth Wodak & Michael Meyer (eds) Methods of Critical Discourse Analysis, London: Sage Publications, pp. 1–33.
- 67- Wodak, Ruth (2012) “Critical Discourse Analysis: Overview Challenges and Perspectives”, In Gisele Andersen & Karin Aijmer (eds) Pragmatics of Society, Berlin: De Gruyter Mouton, pp. 627–650.

المراجع الإلكترونية:

- 68- http://www.alhurra.com/a/الزواج_المدني_في_لبنان/ (Accessed 1 February 2020)
- 69- [http://www.aljazeera.net/encyclopedia/events/2016/9/2/نص_إعلان_بوش/](http://www.aljazeera.net/encyclopedia/events/2016/9/2/نص_إعلان_بوش/2016/9/2/نص_إعلان_بوش/) (Accessed 20 February 2020)

إشكالية ازدواجية اللغة العربية بين العامية والفصحى للمتخصّصين وغير المتخصّصين

د. جورج إبراهيم حدّاد¹

ملخّص البحث

تُعدّ اللغة وسيلة اتّصال بين أبناء المجتمع الواحد، بعضهم ببعض من جهة، وبينهم وبين أبناء الأمم الأخرى من جهة أخرى؛ لذا يمكن النّظر إلى أنّ تأليف الكتب اللغويّة بكلّ اختصاصاتها وتوجّهاتها، هو أمر يتخطّى المؤلّف كشخص، إلى الأمّة بأكملها، إذ إنّها تحفظ تراثها، وتعبّر عن حضارتها، وتتقلّ ملامح تكوين تاريخها ومسيرتها في الحياة عبر السّنين والقرون، إلى الأمم الأخرى.

وبقدر ما تهتمّ الأمم بلغتها، بقدر ما تُرغب الأجنبي عنها، والنّاطقين بلغات أخرى، في دراسة لغتها على الرّغم من اختلافها عن لغتهم، سواء المحكيّة أو الفصيحة، وإن كُنّا ننمّن توجّه الجامعات، الرّسميّة والخاصّة، إلى تدريس اللغات العربيّة لغير المتخصّصين، كأن يدرس النّحو طلّابُ الحقوق وطلّابُ الصّحافة، ويتعلّموا أسس الكتابة الصّحيحة والسّليمة.

لكنّ، تعترض هذه الأمور صعوبات كثيرة، إذ نرى تحوّل اللغة العربيّة لغير المتخصّصين من مادّة هيّئة ميسّرة إلى تعقيد الأمور، ووقوع الطّلاب في المسائل النّحويّة والصّرفيّة المعقّدة أحياناً، كما أنّنا نرى أمرين يلفتان الاهتمام، الأوّل على الرّغم من تعلّم غير المتخصّصين اللغة العربيّة بقواعدها، إلّا أنّ الأخطاء النّحويّة كثيرة في الرّسائل العلميّة مثلاً، ثمّ إنّ طلّاب الجامعة درسوا اللغة العربيّة في مراحل التّعليم قبل الجامعيّ، لكننا نلاحظ ضعفاً شديداً عند الكثيرين منهم، في إدراك أبسط قواعد هذه المادّة.

تنوّعت مناهج الدّراسة بين المقارن والاستقرايّي والوصفيّ-الارتباطيّي، خلصنا من خلالها إلى نتائج متعدّدة، لعلّ أبرزها أنّ الازدواجيّة اللغويّة ليست بالمشكلة الحقيقيّة، إنّما المشكلة في تضخيم أثر العاميّة السّليبيّ، والمشكلة الأشدّ ضرراً مهاجمة اللغة

(1) - محاضر في الجامعة اللبنانيّة

العربية الفصحى من أبناء اللغة العربية؛ لذا قدّمنا توصيات متعلّقة بنتائج الدّراسة وإشكاليّاتها وفرضياتها، بتعميد الطّالب أنّ لغته مادّة أساسية لا يمكن له التّرقّع الدّراسي بدون النّجاح فيها، ثمّ إنّ على مدرّسي اللغة العربية أن يُعدّوا أنفسهم الإعداد الصّحيح، ومن يكتب لغير المتخصّصين فعليه بالتّرقّق وعدم الاندفاع في الأوزان الصّرفية المعقّدة.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية – الازدواجية اللغوية لغير المتخصّصين – طلاب الجامعات – اللغة العامية.

Research summary

Language is a means of communication between members of a society, on the one hand, among themselves, and on the other hand, between them and the peoples of other nations. It follows from this that the writing of language books with all its features and directions is something that transcends the author himself and encompasses the entire nation, because it preserves its heritage, represents its civilization, and conveys the features of its history and way of life over the years and centuries to other nations.

And as much as nations care about their language, as much as foreigners who speak other languages want to study their language despite its difference from theirs, whether it is spoken or classic, even if we value the tendency of public and private universities to teach Arabic languages to non-specialists, such as teaching grammar to law students and journalism students and learning the foundations of correct and sound writing.

And even though we value the tendency of public and private universities to teach Arabic languages to non-specialists, such as teaching grammar to law students and journalism students and learning the fundamentals of correct and sound writing, as much as nations care about their language, as much as foreigners who speak other languages want to study their language despite its difference from theirs, whether it is spoken or classic.

The Arabic language for non-specialists has changed from a simple, straightforward subject into a complication of issues, and students occasionally run into complex grammatical and morphological issues. Two things in particular stand out: the first is that despite non-specialists learning the Arabic language with its grammar, there are still numerous grammatical errors in practical messages, for instance. The study's methodologies included comparative, inductive, and descriptive-relational

methods. Through these methods, we came to several conclusions, the most notable of which is that linguistic duality is not the real issue; rather, the issue is exaggerating the detrimental effects of colloquialism, and the most harmful problem is the assault on the standard Arabic language by speakers of Arabic. As a result, we made recommendations in light of the study's findings. Additionally, Arabic language instructors should adequately prepare themselves, and anyone writing to non-specialists should be considerate and avoid diving headfirst into complicated morphological scales.

Keywords: Arabic language – bilingual non-specialists – university students – colloquial language.

المقدمة

لا شك في أنّ اللغة هي أساس هويّة كلّ إنسان، على الصّاعدين الفرديّ والاجتماعيّ، ثمّ إنّ اللغة تُشكّل هويّة المجتمعات المحليّة، عدا عن الأُمَّة بشكل عامّ، فمثلاً اللغة العربيّة مشتركة لكُلّ الأمم العربيّة، لكنّ، لكلّ أُمَّة مفرداتها المحكيّة المحليّة التي لا تستوعبها الأمم الأخرى، بل وتشارك الكلمة ذاتها بين أُمَّتين عربيّتين، ونكون في كلّ أُمَّة بمعنّى مختلف، مثال كلمة «بخيل»، التي تعني من يرضنّ بالمال في بعض مجتمعاتنا، لكنّها في تونس تُطلق فقط على المقصّر في عمله؛ أي الكسول.

لكن، هل من أُمَّة لغويّة مثل أُمَّتنا العربيّة تخرع المسوّغات لأبنائها، تبريراً منها لضعفهم في امتلاك لغتهم وتوظيف مفرداتها ومعانيها، نطقاً وكتابةً؟ ما كان تأليف الكتب في اللغة العربيّة، سواء النحو والأدب، كذلك اللغة التعلّيميّة، ليقدم الإفادة المرجوّة، ما لم نبدأ مع الطّفل من مبدأ واضح أساسي، أن لا مسوّغات له في فشله في إتقان لغته، لكن، إن كان هناك تقصير من الأهل في إدراك أهميّة هذا الأمر، فإنّ التقصير قد يكون أشدّ في المناهج التعلّيميّة في المدارس، خاصّة عند بعض الأساتذة في إعطاء مادّة النحو وشرحها.

أسباب اختيار البحث

يُشكّل التّراجع الملحوظ في أداء اللغة العربيّة، صوتاً وكتابةً، سواء فيما نسمعه ونقرأه في وسائل الإعلام، وفي بعض رسائل البحوث العلميّة، ولا نعمّم، السّبب الأوّل والمباشر

في اختيارنا هذا البحث، كذلك الهجوم المستمر على اللغة العربية الفصيحة، والدعوة إلى إحلال العامية مكانها تحت ذرائع مختلفة، وحتى في الكلام باللغة الفصحى وكتابتها نجد تهاوناً كبيراً، وكأنّ اللغة الفصحى قيدٌ ثقيل على أبناء الأمة العربية، يجدون أنفسهم مضطرين إلى استخدامها في مواضع معينة، وبالتالي لا ضرورة لإتقانها.

كذلك من الأسباب في هذا الخصوص، ما نشهده من التوجّه إلى حماية اللغة الفصحى، كتابة على الأقلّ، بتعليم طلاب الجامعات اللغة العربية لغير المتخصّصين، وإنتاج كتب لتعليم اللغة العربية لغير المتخصّصين، وفي ذلك يستوي المتكلّم باللغة العربية، والمتكلّم بغير اللغة العربية، وفي الحالتين نرى الانطلاق من بعض القواعد المبسّطة إلى الإغراق في النحو المعقّد والصّرف.

الإشكاليّات

مما تقدّم بيانه، نطرح الفرضيات الآتية:

- هل قواعد اللغة العربية مادّة جافّة، ينبغي العمل على تيسير مفرداتها والإتيان بقواعد جديدة رديفة؟

- لماذا نرى عدم المبالاة في بعض وسائل الإعلام باللغة العربية الصّحيحة، ما يملأ كلماتها بالأخطاء النحويّة والتركيبيّة، والأخطاء الشائعة؟

- هل الكتب التعلّيميّة لغير المتخصّصين تُراعي فعلاً أنّ الدارسين فيها هم غير المتخصّصين؟

- أين يكمن السّبب الحقيقيّ في تراجع مستوى أبناء اللغة العربية في امتلاكها، نطقاً وكتابة وتعبيراً؟

- هل الازدواجيّة اللغويّة، من ناحية اللغة العاميّة كونها اللغة المحكيّة في البيئة المنزليّة، هي السّبب في عدم تملك اللغة الفصحى بشكل صحيح؟

الفرضيات

انطلاقاً من الإشكاليّات، نطرح ما يأتي من الفرضيات:

- لا شكّ في أنّ النحو مادّة جافّة، ينبغي تيسير بعض قواعده، لنتمكّن من إكسابها

للمتعلم.

- ربما لا نلوم وسائل الإعلام كثيراً في كثرة الأخطاء اللغوية، ذاك أنّ هدفها يكمن في تقديم المعلومات الإعلامية فحسب، لا في تعليم المستمعين اللغة العربية.

- تُراعي الكتب التعليمية لغير المتخصصين مستوى الدارسين فيها، كونهم غير متخصصين فعلاً، أو حتى غير ناطقين باللغة العربية، لكنّ هذا في قسم منها، ربما في بدايتها، لكنّها تُغرق بعد ذلك في أوزان وقواعد صرفية، معقدة وجافة، تدعو إلى نفور القارئ لا إفادته.

- إنّما يكمن السبب الحقيقي في تراجع مستوى أبناء اللغة العربية في امتلاكها، نطقاً وكتابةً وتعبيراً، إلى غياب التأسيس المنزلي تماماً، وإلقاء العبء كلّه على المدرسة من جهة، وإلى بعض الضعف في المدارس، إنّ من ناحية المعلمين أحياناً، وإنّ من ناحية المتعلمين أنفسهم أحياناً.

- يجب أن تكون الازدواجية اللغوية من ناحية العامية، كونها اللغة المحكية في البيئة المنزلية، عاملاً مساعداً لتعلم اللغة العربية الفصحى، وإتقانها إتقاناً تاماً.

مناهج البحث

لقد استدعى بحثنا التتبع بين عدّة مناهج، تتوزع وفق ما يأتي، على اختلاف في استخدامها، وفق ضرورة البحث:

أ_ المنهج المقارن: ما بين واقع اللغة العربية قديماً وحاضراً، ما بين آثار اللغة العامية ومحاولة الإمساك بالفصحى التي تنفّلت من أيدينا، وما بين تقديم مادّة اللغة العربية إلى غير المتخصص بها، وتقديمها إلى غير الناطقين بها.

ب_ المنهج الاستقرائي: في دراسة الظاهرة من ناحية أسبابها ومكوناتها التي أدّت بها إلى هذه الحالة الجديرة بالملاحظة والتحليل.

ج- المنهج الوصفي الارتباطي: بتوصيف الحالة، وربط النتائج والمسببات في أكثر من اتجاه، بعضها ببعض.

البحث

بما أنّ اللغة هي التي تربط أواصر المجتمعات والأمة، فإنّ ما يُصنّف من الكتب في ما يتعلّق بهذه اللغة، بمستويات التّعليم، أو بمستويات الأدب والشعر والحضارة، ليس لمجرد الكتابة، وإضافة كتب جديدة إلى المكتبة العربيّة، بل إنّنا بذلك نحفظ تاريخ أمّتنا من الضياع، ونُسهّم في نشره عبر التّاريخ، ليعبّر عن تراثنا وحضارتنا، ولغتنا جزء لا يتجزأ من التّراث والحضارة العربيّة، ثمّ إنّها لغة القرآن الكريم (الفوزان، 2007، ص 15)، وهذا سبب جوهري من أسباب إقبال الأعاجم على تعلّمها، سواء فيهم المستشرقون، والمسلمون من الأجنبيّ الذين يريدون تلاوة آيات القرآن، كونها شرطاً من شروط صحّة الصّلاة عند المسلمين.

الأمر الذي قد يدعو إلى الحيرة قليلاً، أنّ لغتنا العربيّة كانت قويّة عند أبناء الأجيال السّابقة، لا ينفي هذا وجود ضعف ما، وانتشار اللحن في اللغة العربيّة، لكن ربّما لو نظرنا إلى مستوى الكتب التّحويليّة في مصر مثلاً، وأسئلة الاختبارات الموجهة إلى الطّلبة، للمساواة متوقّعة عند الطّلاب في إتقان لغتهم، غير أنّه على الرّغم من ذلك، تمّ إنشاء أوّل مجمع لغويّ في العالم العربيّ، في دمشق، سنة 1919م، وتشير الدّراسات إلى أنّ هذا أوّل مجمع لغويّ رسمي، وكان قد سبقه مجامع غير رسميّة ومؤسّسات، وجهود كبيرة من بعض الأفراد، في محاولة للحفاظ على قوّة اللغة العربيّة وتماسكها. (حلمي، 1985، ص 586).

ولئن التمسنا الأسباب في هذا الأمر، لوجدنا أنّ العهد العثمانيّ في آخر فترات حكمه، عرض اللغة العربيّة إلى التّهميش، وصل به الأمر إلى عدم الاعتراف بها لغة رسميّة، ومحاولة تحويل خطب الجمعة المقدّسة ذاتها لتكون باللّغة التّركيّة، في مسعى واضح لفرض اللغة التّركيّة لغة رسميّة وحيدة، يتمّ استخدامها في كلّ التّعاملات الرّسميّة والدينيّة (أحمد، 1956، ص 3).

هذا الأمر لم يقتصر فقط على الاستعمار التّركيّ، بل سعى إليه الانتداب الفرنسيّ، بجعله اللغة الفرنسيّة اللغة الرسميّة، وإحلاله اللغة العربيّة في مرتبة ثانية أقلّ أهميّة، لعلّ ذلك يعود إلى محاولتهم طمس ثقافتنا التي نشأت من اللغة العربيّة، وتطوّرت بها عبر السنين والعقود، ولا شكّ في أنّ الأعجميّ الذي يحاول أن يدرس لغتنا العربيّة، قد يتمكّن

من إدراك بعض قواعدها، لكنّه لن يفهمها حقّ الفهم ما لم يفهم ثقافتها المرتبطة بها، على اختلاف أنواعها، الدّينيّة فيها واللّغويّة والأدبيّة والحضاريّة (طعيمة، 1982، ص 34)، ذلك أنّ اللغة هي «صورة وجود الأُمَّة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجوداً متميّزاً، قائماً بخصائصه... تتحدّ بها الأُمَّة في صور التّفكير وأساليب أخذ المعنى من المادّة». (الرافعي، 2002، ص 28).

لا شكّ في أنّ اللغة مادّة لها أسس ومرتكزات، تعليمها يحتاج إلى فنّ ودراسة بأساليب التّعليم، وأوّل هذه الأساليب وعي البيئة التي جاء منها المتعلّم، ومدى قدرته على الاستيعاب والتّركيز، فحين نتعامل مع المتعلّم، وقد حقّقنا «إدراك سيكولوجيّته»، كان ذلك في تعليمنا إيّاه اللغة العربيّة «أدعى إلى حسن تعليمها وتعلّمها»، (مجاور، لا.ت، 360)، فليس من الصّواب أن نتعامل مع الطّالب الأجنبيّ الذي يريد دراسة لغتنا العربيّة، بإغراقه في بحر طويل من الأوزان الصّرفيّة، ونعتقد أنّنا بذلك نقدّم له تعلّماً صحيحاً، بل ليس من الصّواب أن نتعامل مع الطّالب العربيّ غير المتخصّص، الذي بالكاد يُجيد شيئاً بسيطاً من قواعد اللغة العربيّة بهذا الأسلوب.

يتعلّم الطّفل اللغة العاميّة في محيطه المنزليّ ويتعامل بها، وحين يأتي إلى المدرسة يجد أمامه مقرّرات باللغة الفصحى، فهل هذا عائق أمامه في درب إتقان هذه اللغة الفصحى؟ قطعاً لا، فلو كان هذا عائقاً فعلياً لكان الطّفل عاجزاً عن تعلّم اللغة الفرنسيّة، أو الإنكليزيّة، بحسب المعتمد في المدرسة، كما أنّ هذا الأمر ليس قيّداً ثقيلًا على الطّفل؛ لأنّه لن يكون ملزماً بالانتقال إلى التّكلّم باللغة الفصحى في مدرسته وبيته، فهذه الحجة لا تثبت في عين التّدقيق والتّمحيص.

إذا، الازدواجيّة اللّغويّة ليست إشكاليّة معقّدة في درب تعلّم اللغة الفصحى وإتقانها، ولا يمكن أن نعتبرها عائقاً، لكنّ المشكلة الحقيقيّة هنا، في معرض الكلام عن العاميّة، ذلك أنّ العاميّة تختلف بين الدّول، بل بين المناطق في الدّول نفسها، وحين نقول العاميّة الشّاميّة أو المغربيّة، أو العاميّة بين الشّمال والجنوب، فإنّنا تلقائياً نتكلّم عن كلام له صلة وثيقة باللغة العربيّة الفصحى، ذلك أنّ العاميّة ليست إلّا جزءاً من اللغة العربيّة (عائشة، 1969، 96).

والدليل على هذا، أننا تكلمنا بالعامية، وكنا لا نجد شيئاً من قواعد النحو العربي، إذا قُدمت إلينا استمارة ما، أو قرأنا قصة ما، وكنناهما باللغة الفصحى، فإننا نفهم معانيها فهماً تاماً، بدون أي لبس أو غموض، ما يؤكد لنا أن الكلام العامي ليس خطأ مطلقاً، ولا بدّ من صلة الوصل بين العامية والفصحى (النكدي، 1969، ص 59).

غير أن لوسائل الإعلام دوراً كبيراً في نشر العامية، ذلك أن معظم المسلسلات والأفلام يتم إنتاجها بالعامية، وأغاني شاراتها يتم تقديمها بالعامية كذلك، فلننظر هنا إلى غير المتخصصين أو الأعجمي الذي يريد تعلّم اللغة العربية، كم سيكتسب من اللغة اكتساباً صحيحاً، إذا ما اكتفى بمتابعة وسائل الإعلام، سواء حين تقدّم محتواها بالعامية، وحين يتكلم المذيع، في نشرة الأخبار مثلاً، يجرّ الفاعل والمفعول، وينصب المضاف إليه، ذلك أن الدراسات تذهب إلى نتيجة واضحة، مفادها أن «الإنسان ينطق ما يسمع». (حسني، 1987، ص 118).

ثم إن الاستعمار الأجنبيّ أدى دوراً سلبياً في مهاجمته اللغة العربية الفصحى، فلم يكتفِ فقط بفرض لغته هو كلغة رسمية، كما أنه لم يكتفِ كذلك بإحلال اللغة العربية لغة ثانية مهمّشة، بل أولى اهتماماً كبيراً للغة العامية، وذلك عبر اعتمادها في تعليم الطلاب، بإنشاء «مدارس خاصة لذلك» (يونس، 1974، ص 124).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد برز بعض المفكرين العرب الذين يدعون إلى قتل اللغة العربية تماماً بتحويلها إلى حروف لاتينية، أو الكتابة بالعامية كما نطق بها، وقد قاموا بما لم يقدّم به الاستعمار، إذ إنهم من أبناء أمتنا العربية، ولهم صوتهم ومتابعوهم، بخلاف الاستعمار، ومن هؤلاء: سعيد عقل الذي دعا إلى الكتابة باللاتينية، «عبد العزيز فهمي»، و«سلامة موسى»، (العناتي، 2003، ص 226).

ولئن لم نصل إلى هذه المرحلة بعد، لكننا نلاحظ الشغف بلغة الاستعمار عند أبناء الأمم العربية والناطقين بهذه اللغة، لم يعد الأمر في الازدواجية اللغوية مقتصرًا على مبدأ الصراع ما بين العامية والفصحى، بل وصل بنا الأمر إلى حدّ انبهار أبناء اللغة العربية بلغات الغرب، معنقدين أنها دليل على الحضارة والمدنية، فباتوا يخلطون في كلامهم ما بين العامية والأجنبية لإبراز ثقافتهم، ولئن حاولنا التعمق في التحليل حول سبب هذا الأمر، فلن نجد أمامنا سوى عاملين اثنين، أولهما الاختراعات العلمية التي

تغزو بلادنا، وكلها إنتاج غربيّ، ومسمّياتها غربيّة، وثانيهما سبب مرتبط بالأوّل ونتيجة منطقيّة لوجوده، ويتمثّل في «شعورنا بالدونيّة الحضاريّة... ونعني به ما نراه من رغبة طاغية لدى كثير منهم في أن يُقحموا في كلامهم أو كتاباتهم... مصطلحات أعجميّة لا تتطلّبها مناسبة ولا تقتضيها ضرورة... وإنّما هو شعور الضّعف الذي سرى فينا واستحوذ علينا». (جمعة، 2000، ص 22).

بالعودة إلى عامل لغة الاختراعات العلميّة، هؤلاء المفكّرون العرب دعوا إلى إحلال العاميّة مكان الفصحى، مرتكزين إلى مسوّغات متعدّدة، فهم يهاجمون الفصحى، بدعوى أنّها تسبّبت في تخلف العرب علميًّا، وقتلت روح الاختراع عندهم، بينما العاميّة تتميّز بالغنى اللغويّ، وهي لغة ثقافيّة بامتياز، لها قواعد وأصولها (النحاس، 1977، ص 86).

هنا نسأل ما هي قواعد العاميّة هذه؟ كلمة «ماشي» نستخدمها هنا بمعنى الموافقة على الأمر، كذلك في بلاد المغرب العربيّ، أمّا في اليمن فهي تعني المخالفة والاعتراض، كلمة «بيسة» عندنا تدلّ على القطّة، بينما هي ليست كلمة مفردة في تونس، بل جمع «بيس»، وهي «البلي» التي يلعب بها الأطفال، ولأطفال تونس هنا أغنية شهيرة لمن يمتلك «البيسة»: «أيّامات وأنا عايش كالبايات في مكتوبي خمسة بيسات ونحسب روعي ثروة معايا»، كذلك في مدن مصر ينطقون الجيم قريبًا من حرف القاف، أمّا في الصعيد فالجيم جيم، لكن القاف ينطقونها جيمًا، والاستشهاد هنا يطول ويكاد لا ينتهي، فأين يتبيّن لنا صحّة الادّعاء أنّ العاميّة لها قواعد؟ ولئن كان لها قواعد فعلاً، فمن باب أولى أن نقول إنّ اللغة الفصحى هي اللغة الثقافيّة بامتياز؛ لغناها اللغويّ، ولما تتميّز به من قواعد تحتاج إلى قوّة في التّركيز والإدراك لإتقانها جميعها.

وبما أنّنا نتحدّث عن القواعد، فربّما من الخطأ ما نشهده عند بعض أساتذة هذه المادّة في تحويل النّحو إلى مسألة «يفهمها» الطّالب، بدون أن يحفظ القاعدة، اسمها قاعدة؛ لذا لا بدّ من حفظها أوّلاً، ثمّ التّمرّس بها بعد ذلك، ولا ينفع تحقّق أمر واحد من هذين الأمرين بمعزل من الآخر، وهنا يرجع الأمر إلى خبرة المدرّس وأسلوبه في شرح معاني العبارات انطلاقاً من القاعدة النّحويّة التي يريد أن يتعلّمها طالب اللغة العربيّة، ليحدّد له لماذا وضعنا هذه الكلمة في هذا الموضع، ولماذا حركتها الإعرابيّة بهذا الشّكل؛ ليخفّف

من الجفاف في مادّة قوامها الحفظ قدر المستطاع.

نلاحظ في موادّ أخرى، مثل الرياضيات والكيمياء والفيزياء، أنّ الطالب العربيّ يحفظ القاعدة ويطبّقها، فلماذا يُصبح هذا مستحيلاً ومعقّداً حين نريد تطبيقه في اللغة العربيّة؟ الأمر لا يرجع هنا إلى الازدواجيّة اللغويّة وإشكاليّاتها، بل إلى مدى استطاعة مدرّس اللغة العربيّة الوصول بقواعدها إلى ذهن المتعلّم وقلبه، هنا لبّ الموضوع وأساس المشكلة، وإلّا لما كان من أهداف مجمّع اللغة العربيّة الذي أنشئ في القاهرة سنة 1932: «إعادة النّظر في قواعد اللغة العربيّة وتيسيرها»، (ضيف، 1984، ص 11)، هذا في ذلك التّاريخ، فماذا عن الآن، وكثير من اللغات العجيبة تغزو العالم العربيّ، مثال لغة الإنترنت، إضافة إلى الازدواجيّة اللغويّة ما بين الفصحى والعاميّة؟

وفي معرض الحديث عن المجامع اللغويّة، نذكر أنّ لبنان لم يقدّم دوراً هنا، بل إنّ له دوراً بالفعل، لكنّه دور سلبيّ، إذ كان من الرّواد في إنشاء المجامع اللغويّة، حين أنشأ مجمّعه اللغويّ في العاصمة بيروت، بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى بسنتين، استمرّ المجمع اللغويّ اللبنانيّ سنتين، وانتهى عمله وأُغلق من دون أن «يُذكر له جهد» من أيّ نوع كان. (فايد، 2004، ص 50).

إذا أردنا أن نحلّل ما يذهب إليه الرّافعي في هذا الخصوص، بتحديد صورته وجود الأُمّة، أنّ ذلك هو اللغة التي تُعطي الأُمّة القوميّة الفكرية (الرّافعي، 2002، ص 28)، فإنّنا نجد أنّ هذا الأمر تندرج فيه الازدواجيّة اللغويّة، الفصحى والعاميّة، سواء بسواء، فاللغة الفصحى هي التي تُعطي الأُمّة العربيّة بأكملها القوميّة الفكرية، أمّا العاميّة فهي التي تُعطي القوميّة الفكرية للأُمّة العربيّة، لكلّ أُمَّة على حدة، وفقاً للهجاتها المحكيّة المحليّة.

ونرى ضرورة عدم إهمال العاميّة في هذا المجال، فالأعجميّ القادم إلى بلاد عربيّة بغية الإقامة مدّة من الزّمان للعمل، هل يكفيهِ فحسب أن يتعلّم اللغة الفصحى؟ سيجد صعوبة كبيرة في التّواصل مع أبناء المجتمع الذي سيعيش فيه، حتّى لو أنّه أفهمهم ما يريد، باللغة العربيّة الفصحى التي تجمع كلّ دول العرب، فسيجد صعوبة كبيرة في التّأقلم، وهو يستمع في كلّ مكان إلى الكلام العاميّ، ولا يكاد يفهم منه شيئاً.

تكلّمنا عن العاميّة وقيمتها، لغويًا بتشكيلها مع الفصحى ظاهرة الازدواجيّة اللغويّة، واجتماعيًّا، إذ إنّ الفصحى تغيّرت حين تغيّرت الأجيال، وذابت بعض كلماتها، وكلّ قواعدها، فباتت العاميّة ظاهرة اجتماعيّة، يرتبط تطوُّرها بتطوُّر المجتمع، وتتغيّر حين تغيّرت الظروف الاجتماعيّة. (نفوسة، 1964، ص 3)، ولا تبقى على حالها دائمًا وأبدًا، بل تتغيّر مع الزّمان، ويلين الخشن والمستغرب من ألفاظها وكلماتها (مهين، 1390هـ، 25).

يدلّنا هذا الكلام على أنّ اللغة الفصحى هي الأساس؛ لأنّها تسبق العاميّة، فاللغة العربيّة قديمًا لم تكن سوى الكلام الفصيح، ومع الفتوحات الإسلاميّة آنذاك، واختلاط المجتمعات ببعضها، ودخول الأعاجم إلى البلاد العربيّة، تسبّب في أن «فسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجم والأقباط وسائر الأجناس» (الحاج، 1995، ص 31).

لكنّ هناك آراء أخرى تذهب إلى خلاف ذلك، وتقول إنّ العاميّة هي الأساس، بعد ذلك نشأت الفصحى. يستدلّون على ذلك بأنّ اللهجات قديمًا كانت متعدّدة بتعدّد القبائل، وإدّا هذه اللهجات هي محكيّات محلّيّة عاميّة، يتمثّل فيها «انحراف نوعي عن الفصيحة» (العود، 1977، ص 20)، وإد مرّت هذه العاميّة بالصقل والانتقاء والنّهذيب، بإهمال المفردات النادرة، والوحشيّة، وصلت إلى مستوى رفيع المستوى «من دقّة الدلالة، وإحكام الصياغة والتعبير»، (عبد الرحمن، 1991، ص 43)، فكان أن نشأت اللغة الفصحى لتكون اللغة الجامعة، لكنّ العاميّة تظلّ هي الأسبق.

ولا يمنع هذا وجود رأي توفيقيّ بين الرّأيين، يقتضي بوجود طرفي ظاهرة الازدواج اللغويّ معًا في آن واحد، باعتبار الفصحى هي اللغة المثاليّة، والعاميّة أو ما يمكن لنا تسميته «مستوى أدنى من البلاغ اللغويّ المباشر» (إبراهيم، 1973، ص 34).

وسواء أسبقت الفصحى العاميّة أو العكس، أو أنّهما نشأتا معًا، فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة، والمجتمعات ليست على درجة واحدة في المستوى اللغوي، ولا الثقافي، ووجود العاميّة والفصحى، كلغتين لأية أمة من الأمم، يعني أنّ لهذه الأمة مستويين لغويين مختلفين، وهذا ما نسمّيه بالازدواجيّة اللغويّة، التي هي ظاهرة حضاريّة وليست مشكلة من مشاكل التّواصل اللغويّ والاجتماعيّ.

لكن المشكلة في أساليب التّعليم عند بعض المدرّسين، فمنهم من يعتمد الشّرح بالعاميّة؛ ليخفّف عن نفسه عناء قيود الفصحى، أو لأنّه لا يُجيدّها تمامًا، والأسوأ إذا تكلم بالفصحى بالضّبط الخاطئ للكلمات، ومنهم من يحوّل اللغة الفصحى إلى مشكلة كبيرة في نفوس الطّلاب، من ناحية التّعبير الشّفهيّ، والحوار والنّقاش.

ولا ندعو هنا إطلاقاً إلى اعتماد العاميّة في هذا المجال، بل إنّنا ندعو إلى التّرقّق، إذا ما تعثّر الطّالب في النّطق، أو أخطأ في ضبط كلماته، وليتمّ تجزئ العلامة بين رأي الطّالب وأسلوبه وحضوره ولغته؛ كي لا يرى أنّ الفصحى ستعني خسارته لهذه العلامة بالكامل، فيهمل الفصحى؛ لأنّه في الحالتين خاسر علامته، ويكتفي بها فحسب في الإجابات الكتابيّة بدون ضبط، ما يأتينا بجيل لا يُجيد لغته، لا كلاماً ولا كتابة.

فالتّعليم مرآة للتّعلّم، لكنّها ليس مرادفاً لأمر واحد، بل إنّنا أمام عمليّة تعتمد التّأثير والتّأثير، ما بين المتعلّم والمتعلّم، وفي هذه العمليّة نرى عمق الهوة التّواصلية بين معلّم اللغة العربيّة والمتعلّم، المعلّم يرفض العاميّة التي يرتاح إليها المتعلّم رفضاً قاطعاً، والمتعلّم ليس من السّهل عليه «تقبل الأوّل في كلّ ما تحمّله لغته من صعوبة وتعقيد وثقل». (الحاج، 2018، مقالة إلكترونيّة).

أمّا إذا أردنا تعليم اللغة العربيّة لغير الناطقين بها، والوصول بذلك إلى نتيجة إيجابيّة، فلا بدّ لنا من «تسليط الضوء على عقليّة العاميّة، وتوفير إدراكهم، وتضييق الهوة بينها وبين الفصحى، وإلى تفصيح العاميّة بالتجسير بينهما». (حسني، 1987، 107)، وفي الحالتين، في تعليم اللغة العربيّة لغير الناطقين بها، وللناطقين بها من غير المتمرّسين بها، ندعو إلى الانطلاق من ثقافة المتعلّمين ومقدرتهم الفعلية الواقعيّة، ومدى استعداد ذهنيهم للتلقّي، من مبدأ «القافلة تسير على مقدار احتمال أضعفها»، نرسم خطّ التّعليم انطلاقاً من الفوارق الفرديّة، بما يناسب إمكانات الجميع «الذّكي، والمتوسّط، والضعيف منهم»، (شحاته، 1993، ص 14)، فالتّعليم يتأثّر بالعوامل الخارجيّة والداخليّة، ليس فقط أدوات التّعليم التي بين يدي الطّالب، بل لا بدّ من النّظر إلى ما يميّز به المتعلّمون «من الكفاءة أو القدرة أو الاستيعاب». (أفندي، 2005، ص 10).

هذا، ولا شكّ في أنّ الازدواجيّة اللغويّة ليست بين أمرين متناقضين، بل بين رديفين لهما صلة وثيقة حضاريّة ببعضهما، (الحاج، 1994، ص 222)، ما بين العاميّات

العربية المتعدّدة، واللغة الفصحى الموحّدة، فالعاميّة جزء لا يتجزأ من الفصحى (الفصل، 2010، ص 16)، والازدواجيّة اللغويّة لا تعني وجود فصحى وعاميّة فحسب، بل هي وجود مستويين من اللغة في إطار لغويّ واحد، حتّى لو وجدنا ذلك في اللغة الفصحى نفسها، فإنّنا أمام ظاهرة ازدواج لغويّ كذلك، كأن تكون لنا لغة محكيّة فصيحة بمفردات مبسّطة، ولغة أخرى مثلاً تختصّ بها المدرسة الأدبيّة الرّمزيّة القائمة على استخدام بعض المفردات في غير مواضعها، كما نلاحظ ذلك في قصائد النثر المرتكزة على الرّموز المضطربة، فقد نقرأ عبارات بأكملها، نفهمها وفق إدراك معيّن، ويفهمها غيرنا وفق إدراك آخر، الكلمات نفسها والعبارات نفسها، لكنّ مستوياتها لغويّاً ليست واحدة في أذهان الكلّ.

وقد أوضحت لنا الباحثة الفرنسيّة سوزان برنارد هذا المستوى اللغوي الجديد، الذي يندرج في إطار اللغة الفصحى نفسها، بالمصطلحات الآتية: «شيء مضطرب، إحياءاته لا نهائيّة»، (برنارد، 1993، ص 136)، «قطعة نثر موجزة بشكل كاف، موحّدة ومقتضبة مثل قطعة من الكريستال يتلاعب فيها مائة انعكاس متنوّع... خارج كلّ التّحديدات، لا تنتهي فيه الإحياءات». (برنارد، 2000، 154).

ولا نعم لغة شهدت حدّة في إشكاليّة ازدواجيّتها مثل اللغة العربيّة، ذلك أنّ الازدواجيّة ظاهرة طبيعيّة في اللغات، ولم تكن اللغة العربيّة متفردة بها. (الموسى، 1409هـ، ص 83)، أمّا أسباب الازدواجيّة في لغتنا العربيّة، فيمكن لنا أن نوجزها بالعوامل الآتية:

أولاً: البيئة المنزليّة، حيث العاميّة هي اللغة المحكيّة من دون غيرها.

ثانياً: الغياب التّوعوي، يتمثّل ذلك في السّخريّة من الطّفّل إذا أراد أن يطبّق ما يتعلّمه في مدرسته، ويتكلّم بالفصحى في بيته، نجد الأهل هنا يُخبرون الجيران والأقارب، بل ربّما يدعونهم إليهم فقط لينفّرّجوا على الولد وهو يتكلّم بالفصحى، ما يُشعر الولد بأنّه ارتكب خطأ فادحاً، وأنّ كلامه بالفصحى نوع من الجريمة!

ثالثاً: آثار الاستعمار المباشرة، وقد عمل هذا الاستعمار على تهميش لغتنا الفصحى وتمجيد العاميّة، بدلاً من أن يسعى إلى تأصيل الازدواجيّة بينهما، ما يُعزّز مكانة كلّ منهما.

رابعًا: آثار الاستعمار غير المباشرة، وقد حمل لواء دعوة الاستعمار المناهضة للغتنا الفصحى أناس من أبناء أمتنا، هاجموا الفصحى ودعوا إلى تركها بمبررات واهية.

خامسًا: التبعية الحضارية في نفوسنا، نحن نشعر بالضعف أمام الحضارة الأعجمية، بالتالي نشعر بأن لغتنا ضعيفة أمام لغتهم، وأن مفاهيم الثقافة والفهم تستدعي إقحام لغتهم حيث ينبغي وحيث لا ينبغي، في كلامنا.

سادسًا: وسائل الإعلام، بتقديمها المحتوى بالعامية، أو بفصحى عجيبة لا تمت إلى الفصحى بأية صلة كانت.

أما آثار هذه الازدواجية السلبية فهي أوضح من أن نخضعها للتحليل والتدقيق، يكفي ما نشهده من ضياع جهود المخلصين في حماية اللغة العربية الفصحى، وتميز بعض المدرسين الذين يحاولون جهدهم غرس الفصحى السليمة في أذهان الطلاب، إذ إن العامية تنتشر انتشارًا كبيرًا، كذلك اللغة العربية الفصحى الخاطئة نطقًا وكتابةً، فدور المدرس محدود بزمان ومكان معينين، والعامية تنتشر في نفوس المتكلمين باللغة العربية في كل زمان ومكان.

الخاتمة

في الختام، تبين لنا مرتكزات هذا البحث أن قواعد اللغة العربية تحتاج إلى فنّ تعليمي خاص بها، ليسهل تقبلها في نفوس المتعلمين، ويتمكنوا من إتقانها أولاً، واستخدامها في كلّ المجالات ثانياً، خاصة في وسائل الإعلام، المسموعة والمرئية، التي يتابعها الملايين عبر العالم، بدلاً من أن نُحصي الأخطاء اللغوية التي تبرز في وسائل الإعلام، سواء المواد الإخبارية، أو حتى «الإنمي المدبلج» والمترجم، فكلاهما يهدف إلى تقديم شيء خاص، إما معلومات وإما تسلية، ولا يهدف إلى تقوية المستمع باللغة العربية، بل ربما لا يبالي بهذا الأمر من عين أصله.

أما الكتب والمقررات المتوجهة إلى غير المتخصصين في اللغة العربية، لكنهم ناطقون بها، وإلى غير الناطقين باللغة العربية، فهي مما يستحق أن نُثمن جهود أصحابه الكبرى، لكننا نلاحظ في بعضها جنوحًا من السهل المبسط إلى الصعب المعقد في علوم الصّرف التي قد يصعب امتلاكها بقوة حتى على بعض المتخصصين!

غير أن تعامل بعض الأساتذة مع اللغة العربية على أنها مادة شبه تعجيزية، وتدوينهم لكل خطأ يرتكبه الطالب في التقنيات الحديثة، مثل فهم المسموع، قد أوجد نوعاً من العداوة ما بين الطالب ومادة اللغة العربية، وفي المقابل، لو وجد الطالب المساعدة المنزلية فهي فقط لتأمين نيله العلامة لا أكثر، هذا ويغيب الدعم المنزلي بشكل يدعو إلى الاستغراب، كما حصل في الترفيع التلقائي، وجدنا تلامذة في الابتدائي الزابع لا يجيدون كتابة حرف واحد حتى.

أمّا الازدواجية اللغوية فهي مسوّغ، قد يلجأ إليه بعضنا، لتبرير عدم إتقان طلابنا اللغة الفصحى، غير أن العكس هو الصحيح، فالعامية تساعد أكثر على تملك اللغة الفصحى، لكنها قد تكون العائق فعلياً، وذلك في حالة واحدة، أن نتبنى إحلالها مكان اللغة الفصحى، وهذا ما دعا إليه الاستعمار في وجوده، وقام بعض رجاله من أبناء أمتنا بمحاولة تحقيقه من بعد رحيله.

لذا نوصي ببعض التوصيات:

- التركيز على اللغة العربية كمادة أساسية، لا يمكن ترفيع الطالب من صف إلى آخر إن لم ينل 12/20 على الأقل في هذه المادة، بهذا سنتلاشى مع الزمان مفاهيم تعليم اللغة العربية لأبناء الأمة العربية الذين يدرسون تخصصات غير اللغة العربية في الجامعة؛ لأنهم يمتلكون لغتهم تلقائياً، ما يؤدي لاحقاً إلى اختفاء الأخطاء التي نلاحظها في المحتوى الذي تقدمه إلينا وسائل الإعلام، أو تخفيفها كثيراً في أقل الاحتمالات.

- سعي أساتذة هذه المادة إلى تأسيس الطلاب، وأن يكون هذا هو هدفهم الأساسي، وصولاً بعد ذلك إلى تقييم الطلاب بالدرجة الصحيحة العادلة، لكن بدون وضع هذه الدرجة كسيف مسلط فوق الطلاب يُنذرهم بالرسوب الحتمي، ما يدفع بهم إلى كراهية مادة اللغة العربية وكل ما يتعلّق بها.

- عدم التدرّج بالازدواجية اللغوية، كسبب لوقوع ابن اللغة العربية في الأخطاء الفادحة، ولو كانت هذه الحجة صحيحة لما تمكّن الطالب من اكتساب اللغة الإنكليزية أو الفرنسية؛ لأنه يتكلّم في لغته البيئية والاجتماعية بالعربية العامية، كونه يستطيع

امتلاك اللغات، هذا يؤكد لنا أنّ انتشار العامية العربية في محيط الطالب هو دافع مهمّ ومميّز له لدراسة لغته الفصيحة وتمكّنها.

- على من ينبري إلى تقديم المحتوى اللغويّ لغير المتخصّصين في اللغة العربية، كذلك لغير الناطقين بها، أن يتفرّق في ذلك، بتقديمه القواعد المبسّطة، ولا ينجرّف في الأوزان الصرفيّة المعقّدة، وليكثر من الشواهد والأمثال التّطبيقية، وعلى مثالها شواهد يتركها للطالب ليطبّق، انطلاقاً من القاعدة وقياساً، بذلك يتحقّق الهدف، حفظ القاعدة والتّمرّس بها من ناحية التّطبيق.

مصادر البحث

- أفندي، أحمد فؤاد (2005). نظريات علم النفس وتأثيرها في تعليم اللغة العربية في كتاب **Metodology Pengajaran Bhasa Arab**، مشكات - مالانج.
- برنارد، سوزان (1993). قصيدة النثر من بودلير إلى أتياننا، ترجمة د. زهير مجيد مغامس، مراجعة د. علي جواد الطاهر، ط2، آفاق الترجمة - شهرية الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- برنارد، سوزان (2000). قصيدة النثر، ترجمة راوية صادق، مراجعة وتقديم رفعت سلام، ج2، دار شرقيات للنشر والتوزيع.
- الحاج، كمال (1995). دفاعاً عن اللغة العربية، منشورات عويدات - بيروت.
- الحاج، كمال (1994). في فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت.
- الحاج، هناء (2018). الهوة بين الفصحى والعامية... من يردمها؟ الميادين نت، 18 كانون الأول.
- الرفاعي، محمد صادق (2002). وحي القلم. المكتبة العصرية-بيروت.
- السامرائي، إبراهيم (1973). تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، جامعة الدول العربية - القاهرة.
- شحاته، حسن (1993). تعليم اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية - بيروت.
- العناتي، وليد (2003). اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، الجوهرة للنشر والتوزيع - عمان.
- فتحي، جمعة (2000). اللغة الباسلة، دار النصر للتوزيع والنشر - القاهرة.
- الفتيح، أحمد (1956). تاريخ المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقّي - دمشق.
- الفوزان، عبد الرحمن بن إبراهيم (2007). إعداد مواد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها،

- معهد اللغة العربيّة في جامعة الملك سعود - الرياض.
- الفيصل، سمر روجي (2010). الفصيحة والعامية: الازدواجية والتحديات المعادية، دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة، المجلد الثالث.
- القعود، عبد الرحمن (1997). الازدواج اللغوي في اللغة العربية، جامعة الإمام - الرياض.
- النحاس، مصطفى (1977). مشكلة العامية والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب، مطبعة التمدن المحدودة - الخرطوم - السودان.
- النكدي، عارف (1969). العربية بين الفصحى والعاميّة، مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، المجلد 44.
- حاجي، زادة مهين. وشهرستاني، فريدة (1390هـ). صلة اللهجات المعاصرة بالفصحى وأثرها فيها، فصيحة دراسات الأدب المعاصر، العدد 11.
- حسني، محمود (1987). ظاهرة الازدواجية في العربية بين الماضي والحاضر، ندوة الازدواجية في اللغة العربية.
- حلمي، خليل (1985). المولد في العربية، دار النهضة - بيروت.
- ضيف، شوقي (1984). مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا، مجمع اللغة العربية - القاهرة.
- طعيمة، رشدي أحمد (1982). الأسس المعجمية والثقافية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، معهد اللغة العربية في مكة المكرمة - جامعة أمّ القرى.
- عائشة، عبد الرحمن (1969). لغتنا والحياة، دار المعارف - مصر.
- فايد، وفاء (2004). المجامع العربية وقضايا اللغة، عالم الكتب - القاهرة.
- مجاور، محمد صلاح الدين (لا. ت). تدريس اللغة العربية بالمرحلة الابتدائية: أسسه وتطبيقاته، دار القلم - الكويت.
- الموسى، نهاد (1409هـ). الازدواجية في العربية ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون - ندوة الازدواجية في اللغة العربية.
- نفوسة، زكريا (1964). تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة - الإسكندرية.
- يونس، فتحي (1974). الكلمات الشائعة في كلام تلاميذ الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس - القاهرة.

نضالات لرجال منسيين في جبل عامل

د. هاني حسن حوماني¹

المقدمة

اختلفت الذاكرة التاريخية مع الكتابة التاريخية « العلمية » اختلافا يصعب تمييز مستوياته، بين « الذاتي » و « الموضوعي »، وبين ما جرى فعلا وما نتخيله أنه جرى، وبتعبير آخر بين « الحقيقة » التاريخية والصورة التي تتولد في الذهن عن الماضي، انطلاقا من حوافز وتحديات وأحداث راهنة في الحاضر.

ولعلّه من المفيد في هذه الدراسة أن نستحضر نضالات لرجال منسيين في جبل عامل، كانوا أبطالا ورموزا؛ من أدهم خنجر وصادق حمزة ومحسن الأمين وعبد الحسين شرف الدين، إلى الحلقة الواصلة (وليست الأخيرة) موسى الصدر.

وما يبعث على الدهشة والاستغراب والحيرة والافتخار معا، أنّ هذه البقعة « جبل عامل » ذات ماضٍ مجيد، وتاريخٍ مفعم بالبطولات، التي أنبتت أبطالا أشداء، وقادة حكماء، وعلماء بررة، وثوارا مقاومين ضدّ الاحتلال الأجنبي، ثاروا ضد الظلم والاستبداد واغتصاب الحق والحقيقة.

لكن السؤال الأبرز: هل ثوار جبل عامل هم لصوص وعصابات وقطاع طرق فعلا كما يدعي البعض؟ وكيف لثائر أن يعتدي على أبناء جلدته من أهل الأرض؟

أولاً: النضال العمالي ضد الاحتلال الغربي

أ - الكفاح السياسي

إنّ الحياة تتازعُ وخصامُ
العدلُ كالعنقاء فينا فالذي
هيئات ما سوى السيوف سلامُ
لم ينفِ عنه الضيمَ فهو يُضامُ

(1) - التاريخ في الجامعة الإسلامية

قالوا السلامُ نريده بفعالنا
 إن كان هذا منكمُ وسلامكم
 قالوا الشعوب نفعها من رقها
 هبوا بني قحطان طال رقادكم
 بالأمْن تدركُهُ بنا الأُفؤامُ
 فعلى السلام تحيةً وسلامُ
 كلاً بل استعبادها قد راموا
 فالإمّ أنتم غافلون نيامُ
 بحقّ لكم وتدوسكم أقدامُ
 باسم الحماية والوصاية يُحتوى

السّيّد محسن الأمين

بهذه الأبيات الشعرية كشف الإمام السّيّد محسن الأمين، أحد رجالات جبل عامل وعلمائه، عن أطماع ونوايا الغرب الاستعمارية، مبيناً اللغو الذي راوغ الاستعمار به مع العرب، وعلى رأسهم مرشحهم فيصل بن الحسين، داعياً عرب بني قحطان إلى الثّورة والتمرد ضدّ مخططات الاستعمار.

ويؤكد حسن الأمين نجل السّيّد محسن أنّ هذه القطعة الشعرية العاملة كانت أول صوت شعري عربي، بعد الحرب العالمية الأولى، يندّد بالمستعمرين ويستصرخ العرب.. وإذا ألقينا نظرة على الوضع العام أيام الانسحاب العثماني الكلي من البلاد، وانشغال الجماهير في هموم المرحلة، مع توجيه الأنظار إلى فيصل بن الحسين، وما سيلاقيه الوضع من غض نظر عن أطماع الغرب، تأكّد لدينا هذا الكلام. وإذا كانت فكرة الدعوة للتّصال قد عبّر عنها بأبيات شعرية، فهي لن تكون إلّا موقفاً سياسياً عبّر عنه الأمين باسم العاملين والعرب.

ب- الولاء العاملي للوحدة العربيّة

عبّر إنشاء الإدارة الحكوميّة العربيّة في مدن جبل عامل في صيدا وصور والنبطية عن ولاء سياسي مباشر للحكومة العربيّة في دمشق، كتمسك وحدوي بالسيادة العربيّة. ومع التدخّل الاستعماري السريع لقوات الغزو الفرنسي، عندما عمدت، بعد الجلاء العثماني عن البلاد بثمانية أيام فقط، إلى احتلال الساحل السوريّ، نشطت الاتصالات السياسيّة بين جبل عامل ومركز الوحدة دمشق، وقاد النّشاط السياسيّ على أرض الجبل عدد من الرجال العاملين، على رأسهم علماء الدّين أمثال: السّيّد محسن الأمين،

والسيد عبد الحسين شرف الدين، وعضو المؤتمر السوري الشيخ عبد الحسين صادق، والسيد عبد الحسين نور الدين وغيرهم .

كما لعب آل الصلح دوراً طليعيًا - بادىء ذي بدء - في النشاط السياسي العالمي الموالي للحكومة العربية، وانتخب عدد من أفرادها أعضاء في المؤتمر السوري، إضافة إلى عضو آخر من مرجعيون هو السيد مراد غلمية.

أما رجال الإقطاع في الجبل فقد حاولوا البروز مجددًا على أكتاف المواطنين، وعمدوا إلى أداء عدّة أدوار موالية للحكومة العربية، ثم للسلطات الفرنسية، إلا أنهم لم يفلحوا في تمثيل الجبل. وكانت التظاهرة الشعبية التي دعا إليها السيد محسن الأمين قد حسمت كلّ المواقف المتأرجحة، وجسدت طموحات وتأييد العاملين لمقررات الحكومة العربية في دمشق.

كما جاءت المشاركة العملية في عضوية المؤتمر السوري العام، كممثلين عن ولاية بيروت، تؤكد على تأييد مشاريع الحكومة الإدارية، وما صرخه أحد ممثلي الجبل الشيخ عبد الحسين صادق، التي بايع فيها فيصل ملكا على سوريا، إلا مبايعة لمبادئ الوحدة العربية، وضربة للمراهنين على التواجد الغربي.

ت- المؤتمر السوري ومبايعة فيصل

مع عودته من أوروبا، أجرى فيصل عدة اتصالات مع زعماء البلاد، واطّلع على تطوّرات الأمور في أثناء غيابه عن المنطقة. وفي خطابات ألقاها أمام أعضاء المؤتمر، تحدث فيصل عن عدّة مشاريع جديدة في البلاد، شارحًا ما لقيه خلال رحلته في أوروبا .

ولسباق التطوّرات السريعة على أرض البلاد، بدأ المؤتمر السوري العام أعماله في السادس من شهر آذار 1920 مفتحًا دورة جديدة. مثلّ جبل عامل في تلك الجلسات من المؤتمر الهامّ كلّ من رضا الصلح ورياض الصلح والحاج عبد الله يحيى. وعشية المبايعة أعطيت الأوامر لرضا الركابي بتشكيل حكومة معجلة، فتشكّلت برئاسته، وأعطيت وزارة الداخلية لرضا الصلح.

وفي اليوم التالي خرج المؤتمر بعدة قرارات جديدة مهمة، عندما أعلن الوحدة السوريّة، ورشّح فيصل بن الحسين ملكًا على سورية، وفي اليوم التالي، الثامن من آذار نصّب

فيصل ملكًا على سوريا، وعمّت الفرحة معظم أرجاء المنطقة التي رفعت أعلام الثورة تعبيرًا عن الابتهاج.

وكان الاحتفال شائقًا رائعًا والابتهاج عامًا، وكان المنتدب لإعلان ذلك صادق الحمزة الزعيم الثائر، فقد دخل ناحية جبل هونين، واستقبله الناس بالبشرى.

ومع الحديث الجديد والهام عن إعلان فيصل ملكًا على سوريا، نشطت أعمال الثوار ضدّ جنود الاحتلال، وتصدّوا لهم في أكثر من موقع.

وفي أثناء عودة الوفد العاملي من دمشق، أجرت سلطات الاحتلال الفرنسي معه تحقيقًا حول مشروعية تمثيلهم لبيروت ومدن الساحل، وهدّدت بالوعيد تكرار مثل هذه المشاركة في دمشق.

أمّا أهم حدث سياسي عرفه جبل عامل بعد ذلك فكان اللقاء العاملي لعلماء ومفكري وسياسيي الجبل، والذي أكّد سياسة الجبل الصريحة المتمثلة بالوحدة والمقاومة.

ثانيًا: مؤتمر وادي الحجير

جاءت أحداث شهري آذار ونيسان 1920 بمفاجآت على السّاحة، وبمواقف جديدة بشرّت بأحداث خطيرة للغاية. فقد شهد هذان الشهران تصاعدًا في عمليات المقاومة في جبل عامل مع سوء في الأحوال العامّة، خصوصًا أثناء مبادرة قوات الاحتلال بتسليح ميليشيا محلية تابعة لها لصدّ أعمال الثّوار، عندها تفجّر نزاع أهلي بين الثّوار والموالين لقوات الاحتلال، لم يسفر إلا عن سفك دماء وطنية، في حين دفعت القرى الموالية ثمن الرد على الثّوار دماء وأمنًا بدلًا من الفرنسيين.

مقابل هذا، شهد الجبل ضغوطات ضدّ مواطنيه، قمعية وإرهابية، خصوصًا أنّه أصبح محاصرًا بحرا وجنوبًا وشمالًا، هذا في ظلّ الضعف الاقتصادي العربيّ، ممّا أدخل الجبل في أزمة اقتصادية كانت قاسية لولا اعتماد السكان على الزراعة كمورد أساسي، وأمام كلّ هذه التغيّرات وجد العاملون أنفسهم في موقف حر، كان لا بدّ من حسمه بإعلان الولاء التامّ للحكومة العربيّة.

كانت السّلطات العربيّة في دمشق قد وسّعت من اتصالاتها مع زعماء الجبل، وأجرت لذلك حوارات مختلفة، مرسلة شخصيات عدّة للتباحث في قضايا مصيرية، وللتأكّد من

التأييد العامي للحكومة العربيّة بعد إعلان فيصل بن الحسين ملكاً على سورية، وقد وردت آنذاك عدة برقيات إلى جبل عامل ترمي إلى إجراء استفتاء لسانعي القرار فيه، لتكون ورقة ضغط بيد الملك وحكومته. وكان لا بدّ من عقد مؤتمر عام في جبل عامل يقرر ويبحث في كلّ أمور السّاحة. وهكذا وجّهت دعوات إلى العلماء والمتقنين ورجالات جبل عامل، لعقد المؤتمر وللتشاور في أمور الجبل، حيث تقرّر عقده على نبع وادي الحجير، وهو وادٍ يتوسط الجبل، وذلك في الرابع والعشرين من شهر نيسان 1920.

أ - وفود المؤتمر

وفي اليوم المحدّد الرابع والعشرين من نيسان، لبّت الدعوة الشخصيات المدعوّة ووفود شعبيّة، والتي بدأت بالوصول إلى الوادي من الصباح الباكر. أمّا أبرز الذين حضروا المؤتمر:

- من العلماء ورجال الدّين: السيّد عبد الحسين شرف الدّين، السيّد عبد الحسين نور الدّين، الشيخ عز الدّين عز الدّين، السيّد عبد الحسين محمود، الشيخ موسى قبلان، الشيخ حبيب مغنية، الشيخ حسين سليمان والشيخ يوسف آل فقيه.
- من زعماء الثّورة: صادق الحمزة، أدهم خنجر، محمود الأحمد البزي.
- من الزعماء السّياسيين: الحاج إسماعيل الخليل، الحاج خليل عبد الله، محمود الفضل، محمد التامر، الحاج عبد الحسين بزي، عبد الحميد بزي، كامل الأسعد، سعد الدّين فرحات، عبد اللطيف أسعد، محمد الفضل، توفيق حلاوي، حسن مهنا ومحمود مراد .
- ومن المفكرين والمتقنين: الشيخ أحمد رضا، الشيخ سليمان ظاهر، المؤرخ محمد جابر آل صفا والشاعر محمد علي الحوماني.

كما حضر المؤتمر العديد من الوفود الشّعبيّة التي وصلت من كلّ حذب وصوب.

ب - أعمال المؤتمر

بعد حضور كلّ المدعوين افتتح المؤتمر أعماله بكلمة ألقاها السيّد عبد الحسين شرف الدّين. جاء في كلمة الافتتاح سرد وتعليق للمشاكل التي تقع بين الحين والآخر

بين الثوار والموالين لقوات الاحتلال، والتي كان آخرها حادثة في صور وقعت في الثامن عشر من نيسان، أي قبل انعقاد المؤتمر بأقل من أسبوع، بين متطوعين موالين للاحتلال، وبعض الشباب من مدينة صور، بحيث أخذت أبعادا طائفية تضرّ بسمعة المقاومة والمقاومين.

وكان كامل الأسعد من المتحدثين في المؤتمر، وشرح في كلمته الافتتاحية أسباب الدعوة للمؤتمر. ثم بحث المجتمعون قضايا عديدة، على رأسها قضية الوحدة السورية وتنصيب فيصل ملكا عليها، والولاء العاملي للوحدة.

وفُتح الملف الأمني، فسردت مواقف المؤتمر تجاه ما يجري على الساحة من أعمال عنف، وما اتخذته من لباس طائفي، وتداولوا مع زعماء الثورة شؤون المقاومة وما آلت إليه الأوضاع في الأيام الأخيرة.

واستدعي النائب صادق الحمزة، فدخل السرداق حيث انعقد المؤتمر، يحفّ به رجاله شاهرين بنادقهم حوله، فجلس أمام العلماء والقرآن بين أيديهم، فأخذوا عليه وعلى رجاله الأيمان المغلظة أن لا يتعرض لأحد من المواطنين، أبناء جبل عامل، مسلمين كانوا أو مسيحيين، بسوء أو أذية، فأقسم بذلك واستثنى من كان منهم البأ (موالياً) للفرنسيين على حساب الوطن واستقلاله، مجاهرًا بذلك للغاصبين المحتلين، مسلمًا كان أو مسيحيًا أو من أي مذهب كان، لأنّ جهادنا سياسي لا ديني.

ومما لا شك فيه أنّ القضايا التي تخصّ المقاومة المسلحة كانت بأيدي الثوار ذاتهم، خصوصا إذا علمنا أنّ هؤلاء الأبطال ينفقون رغباتهم ومبادئهم، دون أن يأخذوا أي إذن من رجالات الجبل، ولذا حرص المؤتمر على عدم الخوض في موضوع النضال العسكري على شكل موسع كباقي القضايا كي لا تثير جدالاً، بل دعوا إلى تشجيع المقاومة وتنظيم أمورها.

ت - مقررات المؤتمر

كان المحور السائد خلال محادثات المؤتمر قضية الولاء العربي، مع الرفض المطلق للانداب الفرنسي، إلا أنّ المجتمعين تطرّقوا-كما رأينا- إلى عدة قضايا، وقرروا فيها آراءهم.

بعد الانتهاء من المباحثات، دعي كلّ من الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر والحاج إسماعيل الخليل والشيخ عز الدين عز الدين، لوضع المقررات وكتابتها.

وجاءت هذه المقررات على الشكل التالي، وبالإجماع:

1. طلب الانضمام للوحدة السّوريّة.
 2. المناداة بفیصل بن الحسين ملكا على سورية، وفق ما قرره المؤتمر السّوريّ العام في السابع من شهر آذار، على أن یقدّم، باسم المؤتمرين وجبل عامل عامّة، التهنئة لملك سوريا بما قرره المؤتمر السّوريّ من إعلان الاستقلال وملكية فیصل، ويحمل الوفد هذا القرار للملك.
 3. الرفض المطلق لكلّ ما تدّعيه فرنسا في محاولة لتحقيق أطماعها في المنطقة، ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب الفرنسيين.
 4. لزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور، والمحافظة على أموال وأملاك المواطنين المسيحيين وأرواحهم ودفع الأذى عنهم، وإنذار المعتدين والمخالفين شرّ الجزاء .
 5. تفويض السّيّدين عبد الحسين شرف الدّين وعبد الحسين نور الدّين السفر إلى دمشق، والاجتماع بالسّيّد محسن الأمين، نزيل دمشق، لمقابلة الملك فیصل وإبلاغه قرارات المؤتمر .
- هذا إضافة لقرارات سرّية تجاه زعماء الثّورة في الجبل .

ث - سفر الوفد إلى دمشق

حمل الوفد العاملي مقررات مؤتمر « وادي الحجير»، وسافر السّيّدان شرف الدّين ونور الدّين إلى دمشق، وهناك نزلا عند السّيّد محسن الأمين، وأطلعاه على الأمر والتفويض من جبل عامل لمقابلة الملك فیصل.

كان السّيّد محسن الأمين قد هنأ الملك فیصل أثناء تنويجه في آذار، ولمّا وصل الوفد إليه توجهوا جميعا لمقابلة فیصل. وفي هذا الخصوص يقول السّيّد الأمين: ودخلنا على الملك فیصل فقال لي: كيف الحالة عندكم؟ فقلت: أنا قاطن هنا، والجماعة عندهم

الخبر، وهم موفدون من قبل أهل جبل عامل لأخذ رأي جلاتكم فيما يصنعونه، لأنّ أهل المنطقة الشرقية يقولون لهم إما أن تكون معنا أو علينا. فقال: بعد الغداء سيأتيكم رأيي، وكان قد دعانا إلى الغداء عنده، فلما تغدينا خرج ثم دعانا إليه، فقال: «إنكم سألتموني عن رأيي فأقول: إنّ أهل جبل عامل يعزّون عليّ، ولا أريد أن يصيبهم بسببي سوء؛ فليزموا السكون».

ومن خلال هذا الردّ تبدو صورة واضحة عن علم فيصل الأكيد بمخططات الاستعمار، ولربما راهن على المنطقة التي تسيطر عليها قوات الحكومة العربيّة، على أن لا ننسى علمه بقدرة جنود العرب القتالية، والتي ينفصها المعدات الكثيرة، ما يؤكد هزيمته أمام الآلة الحربية الفرنسيّة.

وهكذا ستفرد كلّ منطقة في مواجهة قوى الاحتلال التي ستعمل على تطهير المنطقة السوريّة منطقة وراء منطقة من الثّوار، لبط نفوذها الاستعماري عليها واحدة بعد أخرى، وتعمل وفق معاهدة سايكس - بيكو على تقسيم البلاد إلى دويلات عدة، تستطيع من خلالها تنفيذ سياسة الانتداب.

إذاً ستشهد البلاد حملات إرهابية تطال المنطقة الغربية الخاضعة للسيطرة الفرنسيّة كعملية «تطهير»، كما أشرنا، لتواصل من بعدها عملية السيطرة على كلّ سوريا. وكونه منطقة ثورية أساسية في البلاد، سيشهد جبل عامل حملة إرهابية من هذا النوع، تقضي على نواة الثّورة في الجبل، والتي ستعود وتقرّخ في المنطقة الشرقية.

ثالثاً: النّضال العاملي المسلّح

كان ساحل جبل عامل إحدى المناطق الأولى التي احتلتها فرنسا إثر انتشار جيشها في بيروت يوم 8 تشرين أول 1918، وبدئها عملية احتلال الساحل السوريّ .

ثم بدأت قوات الاحتلال الفرنسي بتوسيع نفوذها شرقي الساحل، إلا أنّها كانت تصطدم بعمليات المقاومة والنّضال التي حدّت من تقدمها. وظلّت المناطق الداخلية من جبال العلويين ولبنان الجنوبي خارج السيطرة الفرنسيّة، وكانت محاولتهم لفرض سلطتهم تواجه بأعمال مقاومة وصلت حدّ القتال المسلّح.

وفي غياب فيصل بن الحسين عن البلاد لانشغاله في مفاوضات مؤتمر الصلح في فرساي، شهدت البلاد حملات تنظيم تدعو للانخراط في صفوف الثورة للتصدي لكل مشاريع الاستعمار، خصوصا أثناء الإفصاح عن مقررات المؤتمر.

أ - بدء تشكيل المجموعات المسلحة

نشرت صحف تلك الأيام على صفحاتها الرئيسية دعوات حماسية للتطوع والتصدي، لتنظيم الكفاح على شكل عصابات مسلحة.

إذا، فالموقف الإيجابي للثورة لن يستطع أن يتمثل إلا بمجموعات وعلى أشكال مقاومة فردية، توقد في البلاد شرارة حرب العصابات. فالحكومة العربيّة لا تملك جيشاً يتصدى لأطماع الغرب، إنما ستعتمد هذه الحكومة حتماً نشاطات مواطنيها، كلّ حسب حماسه وقوته. وبالفعل قام فريق من الزعماء والقادة الوطنيين بالجهاد الحربي على رأس عصابات وطنية، من خلال هجمات متعدّدة على المنطقة الغربية، حيث تتمركز مفرزات من الجيش الفرنسي».

أمّا في المناطق التابعة للحكومة العربيّة فإنّ جوا من الحماس العام كان يعمّ المنطقة هناك، واكتفى المواطنون بالجهاد السلمي في هذا السبيل بمختلف الطرق السياسيّة والتظاهرات، تأييدا لممثلي الأمة السوريّة وحكومتها. وهذا ليس دليلا على عدم تقديم المساعدات لأفراد المقاومة، فإثر بدء النضال على الحدود الغربية، استقال كثير من الضباط السوريّين من الجيش، وانضمّوا إلى الثوّار المناضلين في جبل عامل وجبال العلويين وأنطاكية».

هكذا بدأت قضية الثوّار تتبلور في فرق منظمة وعصابات مسلّحة. فمثل هذه الحرب معروفة، في كل الأرض، تشهدها المناطق المحتلة في حال عدم وجود جيش منظم. إنّ حرب العصابات نموذج للمقاومة الشّعبيّة، اعتمدتها معظم الشعوب في حروبها عندما تنهار المجموعات المنظّمة. والعصابات المسلّحة التي ولدت على الأراضي السوريّة، كتصدٍ لمشروع الهيمنة الفرنسيّة، لم تكن إلاّ كميّلاتها في معظم بقاع الأرض.

ب - النضال العسكري في جبل عامل

شهد جبل عامل قبل وصول الحلفاء جموداً في علاقاته المحليّة، عندما كان معظم

مواطنيه شبانًا وشيوخًا، يشاركون في الحرب العالمية إلى جانب الأتراك الذين نظموا صفوف الجيش من أبناء البلاد، وما عدا ذلك استمر بعض الاقطاعيين في سياستهم الاضطهادية، محاربين حركة التحرير والتقدم داخل الجبل.

شهدت الاسابيع الأولى للاحتلال الفرنسي جوًّا من الفوضى عمَّ معظم أنحاء الجبل. ولتتمرير مخططاتهم الفاشية، بدأ الفرنسيون يمارسون سياسة التّرعيب، بحيث يقرّبون إليهم زعامات محلية للوظائف الصغيرة إضافة لمواطنين آخرين، متّبعين سياسة فرّق تسد، هذا في ظلّ التّطعّ الشعبي نحو قلب العاصمة العربيّة دمشق التي صبّ العاملون عليها كل آمالهم.

ومع توالي الأيام أصبح كلّ شيء مؤاتياً لانطلاقة الثّورة والتمرد، واستاء الناس واشتدّ سخطهم لانفراد الحكّام الفرنسيين بإدارة البلاد، ممّا دفع في تزايد عملية الانتقام، وازداد الأمر سوءا عندما راجت سوق الجواسيس، وكثرت تقاريرهم بحقّ الأحرار الوطنيّين.

أمّا المثقفون في الجبل، فقد أعلنوا مرارا معارضتهم لأي سياسة تتطلق من جانب جيش الاحتلال، غير أنّ الفرصة لم تكن لتسمح بأن يتسلم هؤلاء زمام الأمور على السّاحة، ولا حتّى رجال الدّين، فالبلاد تحت نير الاحتلال، إضافة لوضع خاص متمثّل بخروجها من حرب عامة ومن سلطة الدولة العثمانية، إذ إنّ المرحلة الانتقالية قصيرة الأمد، هذا إذا لم نغفل عن السياسة الوحديّة، والمرتبطة مصيرياً مع الحكومة العربيّة في دمشق.

وبالنسبة إلى المواطنين، فقد كانوا يعيشون تحت ظلّ نظام إقطاعي رهيب، تمثّل في حملات القمع التي مارسها رجال الإقطاع ضدّهم، كلّ هذا في غياب الوعي الاجتماعي.

ولم يبق من عناصر الثّورة سوى بعض الزعماء وأبنائهم، وبعض العناصر المتمرّدة «قبضيات القرى»، إضافة إلى الفلاحين الهاربين من بطش الإقطاع. ومع الوقت تطوّرت هذه المجموعات على أشكال مجموعات منظمّة على رأسها قياديون أبطال، نسّقوا فيما بينهم، واتصلوا مع زعماء الحركة العربيّة في دمشق، فيما عمل بعض الثّوار تحت لواء الأمير محمود الفاعور في الحولة.

وعلى رأس المقاومة المسلحة برز المناضلان صادق الحمزة وأدهم خنجر، هذا إضافة إلى عدد من الثّوار الذين جمعوا حولهم عشرات الشباب، وساهموا في عمليات التّصدي

لقوات الاحتلال الفرنسيّة.

فمن هما هذان البطلان؟ وكيف قادا المقاومة في جبل عامل؟

رابعًا: أبرز عصابات المقاومة العاملة

أ- صادق الحمزة: أحد قياديي الثورة في جبل عامل.

ولد المناضل صادق الحمزة في قرية دبعال من أعمال صور، وفيها عاش سنواته الأولى، والده شيخ البلدة وأستاذاها.

البيئة التي عاش فيها صادق الحمزة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية بيئة فلاحين بسطاء ورعاة فقراء، نالهم من مظالم العهد التركيّ أضعاف ما نال غيرهم من أبناء السلطنة. وإذ ساعدت البيئة المحليّة في زرع بذور الثورة في نفس هذا الثائر العربيّ، ودفعته للانخراط في حركات التمرد ضدّ التسلّط الاقطاعيّ باديء الأمر. ومع التواجد الفرنسيّ على أرض الوطن، أكمل صادق الحمزة عمله النضاليّ بالتصدي المباشر لسلطات الاحتلال وعملاتها في الداخل، ومع توالي الأيام استطاع المناضل حمزة قيادة مجموعة ثورية شملت أعمالها معظم أراضي الجبل.

يوم انطلقت حركة المناضل الحمزة بأعمالها الثورية، وصفته الصحف الموالية للاحتلال بقاطع طريق، وأشارت إحدى هذه الصحف لذلك بقولها: «أصبح الأمن مفقودًا في نواحينا، فإنّ رجلا اسمه صادق من دبعال ألف عصابة من الأشقياء عددها نحو «العشرين» تطوف القرى للسلب والنهب..» أجل، هكذا كانت تريد سلطات الاحتلال أن تصف الأعمال البطولية، لتضعف نفوس الثوّار وتوجد الخلاف بينهم وبين المواطنين.

استقطبت مجموعة صادق الحمزة العشرات من المواطنين الكادحين في صفوفها، ممن اعتمدوا في تأمين قوتهم اليومي على المساعدات التي تردهم من الفلاحين.

بدأت مجموعة صادق الحمزة، بعد تنظيم صفوفها، حربا مباشرة ضد جنود الاحتلال، وتمثلت أعمالها بحرب عصابات، أخذت تنتقل من قرية إلى أخرى، وتطارد الجنود الفرنسيين حيثما وجدوا على أرض الجبل. اتصل المناضل الحمزة بمعظم ثوار الجبل، وأجرى محادثات عدة مع المناضل أدهم خنجر للتنسيق فيما بينهما. ومع تصاعد عمليات مجموعته البطولية، نجح صادق الحمزة في تطهير منطقتي صور وبننت جبيل

عندما بدأ بتسلّم قراهما واحدة تلو الأخرى، وممّا كان يفعله رفع العلم الشريفي في كلّ بلدة يحررها، كتعبير عن تطهير الجبل وإخضاعه للسلطة العربيّة الشرعية، وهذا ما فعله عندما دخل إلى بلدة العديسة ورفع عليها العلم السّوريّ، ثم فعل ذلك بقرية بليدا بعد أن مرّ بقرية الطيبة ومعه مائة وخمسون من رجاله ما بين راكب وراجل.

ووفق هذه التّرتيبات، استطاع صادق الحمزة تأمين منطقة آمنة ينطلق منها الثّوار، بعيدة من تسلط السّلطات الاجنبية وعملائها، وهذا ما شجّع على تصاعد عمليات المقاومة، مع تأمين حماية تامة لأيّ تآثر قد يضطر للفرار من منطقتة (وسط وشمالى الجبل)، فيأمن بدخوله جنوبي الجبل حيث إنّ حكومة سلطة الاحتلال لم يبقَ لها أدنى أثر ولا سلطة، حتّى أنّ مأموري الضرائب والدرك لا يقدرّون على التجول فيها، وهي أشبه بحالة العصيان التام.

وفي المنطقة التي طهرها الثّوار، أمل المناضل حمزة تجسيد أحلام الثّورة مباشرة على أرضها، إلا أنّ أسباباً عدة حالت دون ذلك، وعلى رأسها ضعف الإمكانيات المادية والعسكريّة، مع نقص في الكوادر المطلوبة، إضافة إلى سبب مباشر أوّل وهو عدم استطاعة الحكومة العربيّة دعم الثّوار العاملين، وهي التي كان المناضلون يضعون آمالهم عليها. إنّ أعداد مهمة في صفوف الثّورة كانت تطلب دعماً مادياً مباشراً لسدّ حاجات عائلاتها لتستمر الانتفاضة.

وخلال تسلّمه الأمن في منطقتة المحرّرة، حرص صادق الحمزة على حفظه بأقصى درجة، حتى لا تلاقي حركته أيّ عداء أو كره من المواطنين. ذات يوم خرج عبد الغني الدح مع اثنين من الجندرية إلى تبنين لتحصيل أموال الحكومة الفرنسيّة، فقابلهم صادق وقبض على الخيل والمال والدفتري، فأخذ الخيل لنفسه، أما المال فعاد فوزعه على كلّ من كان جمع منه طبقاً لما هو مذكور في الدفتري، وتهدّد الأهلين بالويل إذا ما عادوا إلى دفع الدراهم للحكومة الفرنسيّة؛ وفي هذا العمل الناجح أنهى الحمزة عملية تحصيل الضرائب التي تستفيد منها قوات الاحتلال، هذه القوات المعتدية التي لا يعرف صادق الحمزة التفاهم معها إلا بلغة البندقية، وما تهديده للمواطنين الفلاحين بعدم دفع الضرائب إلا حرص على هؤلاء الكادحين الذين تضيع أموالهم بين طلبات الإقطاع والضرائب.

وتجسيدا لقسمه في مؤتمر وادي الحجير بعدم الإضرار بأي مواطن حرّ، رفض ذات يوم دخول مدينة صور التي يتواجد فيها جنود فرنسيون كي لا يزعج أهلها من جراء تصديّه للجنود، فقد « أبي معتذراً بأنه إنّما جاء لمحاربة القوات الفرنسيّة لا ليذعر الأهالي الآمنين. فإذا دخل البلد أدخل الذعر إليهم بدخوله.

لقد حمل العاملون، إضافة لإخوانهم في الكفاح بالمنطقة، هموم القضية العربيّة، ودفعوا ثمن الخطابات التي ألقاها رجال الحركة في دمشق، من حياتهم وحريرتهم واستمروا. وقد عبّر الحمزة عن موقفه من كل أحداث المنطقة بالرصاصه والتصدي المباشر للاحتلال. وحاولت سلطات الاحتلال التقرب من زعماء الثّورة، فكتبوا إلى صادق الحمزة ورفاقه للكفّ عن الثّورة، فكان أن أرسل كتابا سخر فيه من منطق الثّورة.

كلّ هذه التحدّيات لم تؤثر على سير حركة المناضل صادق الحمزة، بل أدت إلى دفعه لإكمال المسيرة. وأكمل الطريق إلى أن فوجئ الجبل بالحملة الإرهابية التي سيرها الفرنسيون ضد جبل عامل، والتي أمعنت بالأرض قتلا وهدما وإفقاراً ..

فأمام ضخامة عدد أفراد الحملة (4000 مقاتل)، إضافة إلى ميليشيا محلية من المتعاملين مع الاحتلال، تصدّى صادق الحمزة لجنودها بقدر المستطاع مع رجاله الثّوار، فصدوها عن النّقْدَم بما كان مع الثّائرين من الذخيرة مدة سبع ساعات، حتّى إذا نفذت ذخيرتهم ولم يمدهم أحد، تراجعوا ولم يفقد منهم أحد.

وأمام الإرهاب الذي مارسه الحملة ضد مواطني جبل عامل، فرّ العديد من رجاله إلى خارج الجبل، فيما فرضت غرامات باهظة ضدّ أبنائه، بينما واصل الثّوار حركاتهم النضالية، حيث كانوا يعودون للجبل لضرب جنود الاحتلال فيه. وهناك وجد صادق الحمزة نفسه مضطراً للرحيل إلى خارج الجبل، أي إلى المنطقة التي لا زالت غير خاضعة للحكومة الفرنسيّة، ووصل إلى الحولة، ثمّ انتشرت أعماله في سوريا والأردن. وبعد أن ذاع صيت صادق في الجولان وما وراءه حتّى الأردن، والتي كان ملكها يوطد لملكه ويبسط نفوذه على أطرافها، تمردّ على الملك بعض مارقة البدو، وكان زعيمهم رجل طاغية يدعى (كليب)، فما كان من ملك الأردن عبدالله بن الشريف حسين إلّا أن انتهز الفرصة مرسلًا صادقًا وعصابته لتأديبه، فانقضّ على كليب هذا مخمداً ناره ومشتتاً أواره، فلم يكن للبدو في تلك النواحي إلّا الإطراء والمديح بصادق، حتّى خشي

الملك من نفوذه، فدبّر للصادق مقتلاً فلم يعرف له أثر! .. كان ذلك عام 1926م؛ وكان له من العمر إثنتان وثلاثون ربيعاً لم يذق فيها طعم السكون.

ب- أدهم خنجر

هو أدهم بن خنجر بن محمد بن علي الشبيب. زعيم الحركة الوطنية المسلحة في جبل عامل سنة 1920 م، والتي عرفت حيناً باسم حركة «أدهم وصادق».

ولد أواخر القرن التاسع عشر في بلدة المروانية إحدى قرى الزهراني، وفيها عاش سنوات الطفولة والشباب. جدّه لأبيه الثائر محمد بن علي الشبيب، الذي قاد مع أخيه حسين الشبيب حركات التمرد ضدّ تصرفات جنود إبراهيم باشا القمعية (1836 - 1839). ينتمي أدهم خنجر لأسرة آل صعب حكّام الشقيف في التاريخ العاملي، والتي اقطعتها الدولة أراضي في إقليم الشومر (حالياً قرى محافظة النبطية) مكافأة لتمردّها على قوانين إبراهيم باشا.

إذاً تربى أدهم في بيت إقطاعي، سمحت فيه الظروف المعيشية بممارسة هواية الصيد التي أخذ بها وأتقنها ببراعة. تلقى أدهم خنجر علومه الأولى في المنطقة على أيدي مشايخ القرى، ثمّ أكمل دروسه في صيدا حتّى اندلاع الحرب العالمية العامّة، أتقن خلال دراسته (العربيّة - الانكليزية والفرنسيّة) وعاد إلى قريته مع اندلاع الحرب، وأثناءها فجع باغتيال والده الذي تركه مسؤولاً عن العائلة، وعمل أدهم على إسراف ورثته من أبيه دون عمل.

أكمل أدهم خنجر سنوات شبابه في المنطقة حتى رحيل الأتراك عن البلاد. وكان قد اشترك مع المناضل أحمد مريود «في حمل ما استطاع حمله من القمح على الخيول إلى القرى اللبنانية في الجنوب (جبل عامل) عندما منعت الحكومة العثمانية إصدار الحبوب (الحنطة وأشباهها)، من ولاية سوريا إلى لبنان. وكانت تباع الحنطة بالثمن الذي نقلت من أرضها. فأنقذ بهذا العمل الوطنيّ الجليل عائلات لبنانية كثيرة كانت معرضة للموت جوعاً.

وبعد رحيل الأتراك عن البلاد، ووقوعها تحت الاحتلال الفرنسي، اختار أدهم خنجر الكفاح المسلّح كأغلب شباب الجبل. ومع براعته في إصابة الهدف، ونجاحه في عدة

كمائث نصبها لجنود الاحتلال، شاع خبر حركته واستقطبت المواطنين من كل الطبقات، وأصبح قائداً لمجموعة ثوار بدأت توسع عملياتها في أنحاء المنطقة.

انخرط عشرات الشباب في صفوف مجموعة أدهم خنجر الذي اتخذ قلعة الشقيف مركزاً لانطلاقه عملياته، وساعده مركزها الاستراتيجي المشرف على مساحات واسعة من أراضي الجبل على ربط الطرق، ومراقبة تحركات جنود الاحتلال للنيل منها ومنعها من إكمال مهماتها .

أمّا السلاح الذي عرف بحوزة هذه المجموعة فكان بادئ الأمر موروثاً عن الأتراك، وازداد مع الوقت كغنائم من جيش الاحتلال الذي يفرّ معظم الوقت من ساحة المعركة تاركاً وراءه السلاح والعتاد.

استطاع أدهم خنجر خلال أعماله العسكرية إنزال الهزيمة بجيش الاحتلال في مناطق مختلفة.

ت- معركة المصليح

المكان: طريق عام الزهراني - النبطية قرب مفرق قرية « الحجة ». عرف أدهم خنجر بمسير قافلة من الجيش الفرنسي باتجاه منطقة النبطية. استعد بعد أن جمع رجاله وهياً سلاحه، وسلك درباً وعرة بين منطقة «الظهور» و « الداودية » القريبة من بلدة المروانية، ونزل قرب شجرة (جميز) مشهورة في المنطقة، ثم صعد إلى التلال المواجهة للطريق العام، وربض هناك كامناً منتظراً قدوم القافلة، وفق أخبار معظم معاصري المناضل خنجر، واستعمل في هذا الكمين (تكتيكا) عسكرياً عندما قسم مجموعته، واحدة لمقدمة القافلة الفرنسيّة، وأخرى لمؤخرة الجندل. انحصرت القافلة بين المجموعتين، أطلق الرصاص باتجاه المقدمة حيث قائد القافلة، ثم باتجاه المؤخرة، وبدأ الرصاص في كلّ الاتجاهات يحصد جنود القافلة الفرنسيّة، ومن بقي على قيد الحياة فرّ من ساحة المعركة تاركاً وراءه السلاح والعتاد. وبقي السلاح مرمياً في ساحة المعركة، وعاد أدهم إلى قريتي زفتا والمروانية، وطلب من شبابهما الذهاب للساحة وجلب السلاح، هذه المعركة يسردها معظم معاصري تلك الحقبة من أبناء المنطقة، ويشهدون على براعة المناضل أدهم خنجر في إصابة الأهداف. معارك عدّة خاضها مناضلو جبل

عامل وعلى ضخامة أكبر من معركة المصليح، إنّما هذا ما بقي في ذاكرة معاصري تلك الأحداث في ظلّ التعظيم العام على أعمال الثوّار.

وبالحديث عن معركة المصليح، لا بدّ من بعض الكلمات إنصافاً للتاريخ، مصليح العريزة على قلب الرئيس نبيه بري، تلك الأرض التي أنبتت ثمرة أدهم خنجر الثائر الجنوبي العمالي، الذي ثار ضد الاحتلال والظلم والاستبداد واعتصاب الحق والحقيقة، وكأنّ تلك البقعة الجغرافية ارتقت لأن تكون دائماً مركزاً للانتصارات...

أدهم خنجر لم يُعطَ حقه، ولكن دولة الرئيس نبيه بري يعدّ الوحيد الذي أنشأ في مكان رسمي أو شبه رسمي في دارته قاعة أسماها قاعة أدهم خنجر.

ت - مواجهات أدهم خنجر للاحتلال وأعماله النضالية

وعلى جسر الخردلي في منطقة الشقيف، حصل صدام بالأسلحة الرشاشة بينه ورفاقه من جهة، وبين جنود الاحتلال من جهة أخرى، عندما نصب لهم كمينا مسلحا، أنزل خلاله هزيمة بجيش الاحتلال وانسحب بعدها إلى قلعة الشقيف مركز العمليات، عندها عمدت قوات الاحتلال الفرنسي إلى قصف القلعة مباشرة من إحدى تلال النبطية كرد على نجاح الكمين، إلا أنّ أدهم خنجر لم يبال، بل دعا رفاقه إلى حلقة الدبكة، وأخذوا يدبكون على دوي القنابل تعبيراً عن فرحة النصر .

ولم تتحصر أعمال الثوّار بجنود الاحتلال، بل تعدّتها إلى العملاء والمتعاملين معهم. وقد شهدت الساحة آنذاك، عدة صدامات بين أهالي القرى الموالية ورجال الثّورة. وأمام أذى أزلام الاحتلال نفّذ أدهم خنجر حكم الإعدام بحق أحد المتعاملين معهم المدعو يوسف شداد، عندما قتله في منطقة جسر القاععية، واستولى على سيارته.

وبين الحين والآخر كان يزور قريته المروانية، ينام في منزله الذي ما يزال قائماً فيه، يحثّ المواطنين على النّضال، ولطالما كان الشّعب النائم على السياسة الإقطاعية التي كانت سائدة داخل البلدة يلتف حوله، يشكون له سوء حالهم وكأنّهم يجدون به مخلصهم من الظلم.

كما طالت من أعماله النضالية مرافق اجتماعية مهمة. ففي المدرسة الرسمية في قريته أصرّ المدرس الحكومي على فرض برنامج للطلاب يزيد خلاله من ساعات اللغة

الفرنسيّة، ويقدمها على حساب دروس القرآن الكريم التي يدرسها شيخ القرية. علم الثائر أدهم بالأمر، زار المدرسة، وطلب من المدرّس الحكومي تقديم دروس القرآن على دروس اللغة الفرنسيّة، وهدده بمسدس حربي، أي بالقتل إذا ما عاود الكرّة وزوّر البرنامج .

استمر أدهم خنجر يناضل داخل جبل عامل متنقلاً من منطقة إلى أخرى، وأثناء حملة «نيجر» الإرهابية، خرج ورجاله إلى الحدود ونزح إلى شرق الأردن، واتصل هناك بزعماء الثّورة في المنطقة وبالأمير عبد الله، وأكمل من هناك عمله العسكري... .

ومن المعروف الشّائع في كثير من المصادر وفي الأوساط العامليّة، أنّ أدهم خنجر كان أحد أبطال محاولة اغتيال «غورو». وفيما بعد لوحق أدهم بهذه التّهمة واعتقل في بيت سلطان باشا الأطرش، وسيق إلى بيروت وحكم وأعدم عام 1923م بصفته «مقاوماً» للفرنسيين.

خامساً: الإمام موسى الصّدر وجبل عامل

ولد الإمام الصّدر في مدينة قم في ايران عام 1928 ، وتلقى علومه الدّينيّة فيها ثم الدّراسة الجامعيّة في القانون والاقتصاد بجامعة طهران.

زار الإمام الصّدر لبنان أواخر حياة الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدّين أحد علماء ومجاهدي جبل عامل، والذي وجد في الإمام الصّدر أملاً لإكمال طريقه، ممّا دفع بالعملين إلى طلب مجيئه من إيران عقب وفاة الإمام عبد الحسين شرف الدّين (قدّس سرّه). ولأنّ جبل عامل شكّل ابتداءً من عام 1920 إحدى محافظات الجمهوريّة اللبنانيّة، فقد وعى السيّد موسى الصّدر وحدة هذا الوطن، وعمل من خلاله ببعث شاسع عن آفاق الطائفية، والتي أجبرته، بعد إدراكه الفراغ الشاسع بين أبناء الوطن الواحد، على العمل لتثبيت دعائم الجماهير المحرومة داخل الدولة .

فبعد مدّة قصيرة تعرّف خلالها على واقع الشّعب، بدأ الإمام الصّدر مسيرته الشجاعة بوعي وحدوي في شكل لم يعرف جبل عامل ولا حتى لبنان مثيلاً له من قبل، حيث كانت صرخته تتطلق من كلّ الجهات، من النّادي والمسجد والكنيسة. وكانت إصلاحات الدولة السياسيّة الشغل الأساسي لفكر الإمام، فالنّظام المعمول به لم يكن ليخصّ معظم المواطنين، إضافة لهشاشته الداخلية التي عرضته في فترات متلاحقة لضربات قاسية،

في حين شكّلت المؤسسات الاجتماعية المسؤولية والهدف الأول في فكره التقدمي. قبل الإمام الصدر لم يكن العاملون ليشعروا بتلك الأحاسيس الوطنية التي تربطهم بمصير شعب وأرض واحدة، حيث كانت معظم حقوق أبناء الجبل وإخوانهم في باقي المناطق مهدورة ولا أحد يسأل عنها.

لقد كان الشعب في الدولة الجديدة يتعطش للفكر الوطني، عندما بدأ الإمام الصدر يبثه فيه، مولدًا آفاقًا جديدة من التطلع للأمام، ووعي أسس مشاركته في بناء هذا الوطن. وأمام مصداقية قراره وروحه الثورية، التف المواطنين من معظم الطوائف حول القائد الجديد الذي جاوز في طرحه وحدة الوطن إلى وحدة القرار العربي.

لم تخلُ كلمة أو خطاب أو ندوة عقدها الإمام الصدر إلا وتحدّث خلالها عن جبل عامل الذي شكّل همّة الأول. كانت الهموم التي تراود الإمام الصدر حول الجبل تستوعب معظم قضاياها، بدءًا من الهاجس الأمني أمام الاعتداءات الصهيونية، مرورًا بالقضية الاقتصادية الحياتية، وصولًا إلى هوية الجبل الوطنية والعربية. أراد الإمام الصدر تحصين مواقع جبل عامل، وإيجاد الشخصية العسكرية القادرة على الوقوف أمام اعتداءات الحركة الصهيونية. ففي أول بيان وجهه إلى أبناء الوطن بعد انتخابه رئيسًا للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، أكد الإمام الصدر أنّ « محنة الجنوب اليوم هي محنة لبنان كلّها، وهي محنة العرب جميعًا، هي محنة فلسطين الجريحة، هي محنة الإنسانية في كلّ زمان ومكان » هذا في وقت كان يعمل فيه لإعداد النفوس وتهيئتها للنضال على أرض الجبل، بعد أن أكّد أنّ القضية على أرض جبل عامل مصيرية لهذا الوطن اللبناني يوم قال: «أطفئوا نار الجنوب قبل أن تحرق لبنان».

واتسعت دعواته للكفاح والنضال يوميًا بعد يوم، وأعطاهها شرعية القرار الوطني في مذكرة قدّمها باسم المجلس الذي يرأسه، عندما وضع اللبنانيين بعامة والعاملين بخاصة أمام مسؤولياتهم تجاه تزايد اعتداءات اليهود على الوطن، محددًا أمور القضية وفق نهج علمي جاء فيه: « يرى المجلس نفسه ملزمًا بالتوجه إلى المسؤولين مطالبًا باتخاذ تدابير سريعة وواقية من الأخطار، وبالإسراع في تنفيذ التدابير المتخذة سابقًا مؤكّدًا على ما يلي:

1 - بناء شعب يفهم المواطنة في أرقى مستوياتها، يحسّ بوجود دفع ضريبة الدّم، ويشعر بواجب الفداء وذلك بإقرار قانون الخدمة الإلزامية.

2 - تدريب أبناء الجنوب للقيام بواجبهم المقدس وإعدادهم لما يلي:

أ - حمل السلاح بحيث يستكمل جميع شروطه الفنية.

ب - الدفاع المدني بمختلف القدرات المطلوبة.

ت - بناء الملاجئ وتعميمها.

1 - بذل جميع الإمكانيات التي من شأنها أن ترفع المستوى الاجتماعي لأبناء الجنوب؛ وهذا يساعد على ضمان رفع معنوياتهم ويزور مظاهر ولائهم، ويشدهم إلى الأرض شداً مصيرياً، بعد أن يعوا بحسّهم الوطني ولمسهم المادي الفرق بين التزام الأرض والضّياع في التّشرد.

وعندما صعّدت الحركة الصهيونية من اعتداءاتها على جبل عامل، وعلى قرى منطقة العرقوب خصوصاً كفر شوبا، كتّف الإمام الصّدّر لقاءاته مع القيادات الدّينية والسياسيّة في البلاد، وأسفرت اتصالاته عن إنشاء «هيئة نصره الجنوب» عام ١٩٧٠، والتي ضمّت رؤساء الطوائف الدّينية في جبل عامل، وهدفت إلى تأمين مستلزمات الصمود لأبناء تلك المناطق، وإطلاق حقوقهم في المحافل المحليّة والدولية.

لقد حمل الإمام الصّدّر محنة الجنوب، وعمل كل ما بوسعه لوضع العالم بأسره أمام صورة حيّة عن ذلك، وهمّه الوحيد إيجاد الروح الثورية في نفوس مواطني جبل عامل، تستطيع الصمود أمام رياح العدو الصهيوني .

وأكمل نداءاته محدّراً من أخطار العدوان، وحثاً على إعداد الشّخصيّة المناضلة، داعياً إلى حمل السلاح في مواجهة المخططات، حيث عبّر في صرخته الشهيرة في مهرجان الشهيد معروف سعد «السلاح زينة الرجال» عن آلية التصدي للمشروع الصهيوني .

الخاتمة

إنّ هذه الصفحات التي تؤرخ نضالات لرجال عاملين، في جبل من جبالنا وبقعة أرض من وطننا، تؤدي إلى إبراز هوية جديدة، وإن كان تاريخ جبل عامل لم يُدرس بتأنٍ وموضوعية كغيره بعد، فإنّ كلّ ما أردناه إعطاء عينة موجزة وواضحة عن تاريخ ونضال أهلنا وقضاياهم، مسلّطين الضوء على روح الثّورة والمقاومة عندهم، لكلّ أنواع الظلم والتسلّط والاحتلالات، بما تمثله من مشاكل اجتماعية خطيرة هدّدت وتهدد المجتمعات البشرية منذ وجدت.

النّضالات الثّوريّة في جبل عامل، هي التسمية التي كانت تطلقها بلا وجل أو خجل «العاصمة الدمشقية»، صحيفة الحكومة العربيّة الرّسميّة على «عصابات» المقاومة المسلحة للاحتلال الأجنبي، أمّا في جبل عامل، ونظرًا إلى جهل العامّة بالكثير من حقائق تلك الحركة النّضالية العامليّة، ونظرًا إلى بعض المثالب السلوكيّة التي اقترفها بعض الملتحقين بها، ظلّت تلك الظّاهرة إشكالية تاريخيّة حتى لدى بعض العامليين، فكادوا يتماهون مع الفرنسيين وإعلامهم الموجّه من «قلم المطبوعات»، الذي كان يسمي الثّوار «أشقياء»، و«عصابات» المقاومة «عصابات» سلب ونهب، ويسميها بالطائفية، وينزع عنها أيّ طبيعة نضاليّة وطنيّة.

ولعلّ أفسى ما اقترّف بحق المقاومة من ظلامه، هو محاكاتها من قبل البعض بمنطق الربح والخسارة، وتحميلها مسؤولية ما اقترفه العسكر الاحتلال الفرنسي وامتطوعته بحق العامليين، من قتل وتشريد وغرامات وأتاوت. وبهذا المنطق يصبح الخنوع والخضوع أفضل السلوكيات وأشملها لأيّ استعمار أو احتلال.

إنّ المسؤولية العلميّة ترتّب علينا القيام بقراءة معمّقة لتلك الظاهرة النّاريخيّة أيّا كانت أثقالها، لتبيان ما لها وما عليها، على ضوء المصادر والوثائق الأصيلّة، لا المرويّات الشّعبيّة التي يعبث بها الزمان والنسيان. كما ينبغي محاكاتها بظروفها وأحوال زمانها، لا بروى الحاضر ومعايير ومسالحة، فلا يكون تضخيم من هنا، ولا تضئيل أو تهميش من هناك، وذلك أفضل من الهروب من الحقيقة، أو تركها لعبث العامة. فالتاريخ حافظ أمين للمحادثات.

وفي الخلاصة يمكن القول: إنّ العاملين كانوا في كلّ المراحل ملتزمين بالدولة كمشروع، سواء الدولة العربيّة الوجودية التي لم يُكتب لها الاستمرار، أو دولة لبنان «العربيّ الهوية والانتماء وطنًا نهائيًا لجميع بنيه». وهم لم يكونوا مجرد «عصابات مسلحة» أو أفرادًا - ثوارًا، بل هم جماعة ثائرة على الدوام على الاحتلالات الأجنبية، والإسرائيليين منها بخاصة.

• قائمة المراجع:

- أبو صالح، عباس، تاريخ الموحدين الدروز السّياسيّ في المشرق العربيّ، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، د.ت.
- الإمام موسى الصّدر، منبر محراب، دار الأرقم، 1981.
- الأمين، السيّد محسن، «خطط جبل عامل»، ج1، مطبعة الإنصاف، بيروت، د.ت.
- - إيمان الشيعة، دار التعارف، بيروت، 1983.
- الأمين، حسن، «ذكريات من الطفولة إلى الصب»، ج1، دار الغدير، بيروت، 1971.
- بزّي، حكمت، «من حقيقتي التاريخيّة، جبل عامل في تاريخه وقصصه التاريخيّة، دير بورن - ميشيغن، الولايات المتحدة الأمريكيّة، الناشر حسن جمعة، 1998.
- بنوت، جهاد، «أدهم خنجر»، 1895 - 1923»، نشر الحركة الثقافية في لبنان وجمعية أدهم خنجر الاجتماعية، بيروت 1998.
- بيهم، محمد جميل، «النزاعات السّياسيّة بلبنان»، عهد الاستقلال أو الانتداب والاحتلال، 1918 - 1945»، طبع دار الأحد، بيروت 1977.
- جابر منذر محمود، «مذكرات للتاريخ»، حوادث جبل عامل 1914 - 1920»، دار النهار، ط1، بيروت، 2009.
- جابر، ممد آل صفا، تاريخ جبل عامل، دار النهار للنشر، بيروت، 1981.
- جورج انطونيوس، يقظة العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1982.
- الحكيم، يوسف، سوريا والعهد الفيصلي، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1980.
- خليفة، د.عصام، «الحدود الجنوبية للبنان، بين مواقف نخب الطوائف والصراع الدولي (1908 - 1936)»، بيروت، 1985.
- الراسي، سلام، لثلاث تضييع، مؤسسة نوفل، بيروت، ط4، 1985.
- الزين، علي، فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1979.
- سعد، محمد محسن، جبل عامل بين الاتراك والفرنسيين، دار الكاتب، بيروت، 1980.

- ظاهر، الشيخ سليمان، جبل عامل في الحرب الكونية، المطبوعات الشرقية، بيروت، 1986.
- قدورة، زاهية، الصراع الدولي في الشرق وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، بيروت، 1977.
- قاسمية، خيرية، الحكومة العربيّة في دمشق، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1982.
- قلعجي، قدري، جبل الفداء قصة الثورة الكبرى، ونهضة العرب، دار المتاب العربيّ، د.ت.
- كوثراني، وجيه، «بلاد الشام: السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسيّة في مطلع القرن العشرين»، ط1، معهد الإنماء العربيّ، بيروت، 1980.
- لونغريغ، ستيف هامسلي، Stephen Hamsly Longrigg «تاريخ سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي»، ترجمة بيار عقل، دار الحقيقة، ط1، بيروت، 1978.
- محمد، بسام، جبل عامل، بني سوريا ولبنان الكبير، 1918 - 1920، دار الكوكب، بيروت، 2011.
- مصطفى، قيصر، الشعر العاملي الحديث، دار الاندلس، بيروت، 1981.
- المظفر، محمد حسين، تاريخ الشيعة، دار الزهراء، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983.

• جرائد ومجلات:

- البشير 22/10/1919، و 3 نيسان و 20 أيار 1920.
- المقتبس، 28 تموز، 1922.
- البرق، تاريخ 30 و 31 أيار 1932.
- النهار، 15/10/1984.
- العرفان، م 33 ج 3 - 7 - 9 - 10 م 34 ج 2، م 56 ج 4 و 5، م 61، ج 3، 1973.

المشكلات الحدودية في منطقة الخليج العربي

د. سمر يونس

تعريف الدراسة

هذه الدراسة تعمل على تقصي أسباب وتداعيات المشكلات الحدودية في منطقة الخليج العربي من الناحية السياسية والقانونية، وتوضح طبيعة النظم السياسية الحاكمة، والإشكالية التي تتعلق بالجانب التشريعي، ونظرتها لموضوع الحدود السياسية لدول المنطقة، والسلوك السياسي الخارجي.

حيث تركّز هذه الدراسة على جانبين أساسيين لمشكلة الحدود في المنطقة، أولها داخلي مرتبط بالدولة ونشأتها، أما الجانب الثاني فهو خارجي يرتبط بالنظام العالمي وطبيعة علاقته بالنظم السياسية الحاكمة... حيث إنّ هذه النزاعات الحدودية في هذه المنطقة الحيوية من العالم لها حضور وأهمية متفاوتة وغير مستقرة في إطار السياسة الدولية والإقليمية.

The Abstract

Instructor:

This research seeks to find out the consequences of the political and legal problems of the borders of the Arab gulf region, and their internal and external determinations itdea is with the nature of the ruling political systems, the concept of legitimacy and their relation with the political borders for the states of the region and the foreign political behavior.

Therefore, the research focuses on two major dimensions, the first is the internal which is related to the existance of the state and its establish mena while the second is external which is related to the global system, and its ability to interefere in these political systems. The latter dimension plays a great role in making decisions of its foreign policy as the disputes on borders gain certain significance according to the regional and international interests.

المقدمة

إنّ مشكلات الحدود تُعدّ ظاهرة عالمية، وأكثر النزاعات التي تطوّرت إلى حروب وكان لها تأثيرٌ في السّياسة الدّوليّة، قد نشأت بسبب مسألة الحدود وإشكالياتها، وفي منطقة الخليج العربيّ كانت مشكلة الحدود حاضرة بقوة... وتكاد تكون من أبرز جوانب الحياة السّياسيّة تعقيداً، وذلك بسبب ارتباطها الوثيق بقضايا نشوء الدّولة الحديثة في الشرق الأوسط، حيث يعدّ موضوع الحدود أحد أهمّ الأسس التي يستند إليها كيان الدّولة وشرعية النّظام السّياسيّ فيها.

اكتسبت النزاعات الحدوديّة في منطقة الخليج العربيّ أهميّة متفاوتة في إطار السّياسة الدّوليّة والإقليميّة، وظهرت أكبر تلك المشكلات في النزاعات التي كان أحد أطرافها غير عربية مثل إيران، وأخرى عربية على أطراف الخليج مثل العراق واليمن.. هذا ما سوف نركّز عليه في هذه الدّراسة، من أجل الإحاطة بجوانب القضية الحدوديّة في الخليج العربيّ.

تمّ اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في إطار هيكلية تنطوي على ثلاثة مباحث:

الأول: النزاعات الحدوديّة حسب إطار القانون الدّوليّ .

الثاني: البيئة الاجتماعيّة وبنية النّظام السّياسيّ.

الثالث: القوانين الدّوليّة والتدخّل الخارجيّ.

المبحث الأول: النزاعات الحدوديّة حسب إطار القانون الدّوليّ

إنّ المشكلات الحدوديّة تعدّ من أبرز مظاهر الحياة السّياسيّة في النّظام العالميّ، ولها بعدٌ شديد الظهور في منطقة الشرق الأوسط، وأكثر تعقيداً في منطقة الخليج والجزيرة العربيّة.

إنّ إلقاء الضوء على المشكلات الحدوديّة في هذه المنطقة الحيويّة من العالم، يعدّ مدخلاً مهماً لدراسة السياسات الإقليميّة.

لقد برزت المشكلات الحدوديّة في منطقة الخليج العربيّ قبل تشكّل الدّول والإمارات، وهذا يشير إلى عمق المشكلة، وعلاقتها بالجانب السّياسيّ والتّاريخيّ، وفي ذهنيّات

الحكام فيها، والتي تدور حول إشكالية الحدود، تلك المعضلة التي تجاوزت ميدان السياسة إلى ميادين أخرى، كالدين والاجتماع والاقتصاد والثقافة¹.

كما أنّ المشكلات الحدودية قد ارتبطت بجميع الجوانب، متضمّنة الجوانب الاجتماعية، القبلية والجغرافية وطرق الحياة، وقد تمّ رسم وتحديد الحدود بموجب اتفاقيات بحسب موازين القوى القبلية، غير أنّ الدراسات الجيوبولتيكية أعادت النظر في ترسيم الحدود بالمعنى الحديث الذي يتفق مع تطوّر النّظام العالميّ وطبيعة الصراع الدوليّ في المنطقة².

كان اهتمام هذه الدّراسة متعلّقًا بالجذور التّاريخية للمشكلات الحدودية، كونها جزءًا من التطور التّاريخي وتكوين النّظام الخليجي.

إنّ دراسة المشكلات الحدودية تتركز على عدّة مناهج، نظرًا لتداخل هذه الإشكالية بين أبعادها السياسيّة والتّاريخية والاقتصاديّة والاجتماعية، وهذا التّداخل في دراسة المشكلات الحدودية في الخليج العربيّ يتطلّب الارتكاز على عدد من المداخل المنهجية، ويعدّ العامل الجغرافي السياسيّ من أهم المناهج الدراسية، وهو محكوم بطبيعة العلاقات الدولية، وينطوي على أبعاد عدة في دراسة هذه الظاهرة من بينها الآتي³:

* **العامل التّاريخي:** حيث نجد أنّ النزاعات الحدودية ترتبط بطبيعة العلاقات البيئية واتجاهاتها... ذلك أنّ النزاع التّاريخي بين طرفين، يجعل العلاقة متوترة بينهما و محاطة بمخاوف دائمة، وتنعكس بشكل إيجابي عندما تكون العلاقات البيئية جيدة.

حيث يعدّ العامل التّاريخي أهم العناصر المؤسّسة للدولة في الخليج العربيّ، ويتداخل ذلك مع ترسيم الحدود الذي فرضته القوى الكبرى، وأسهمت في وجودها وبقائها في المنطقة... فالعديد من النزاعات القائمة تأسّس على خرائط رسمت خلال المرحلة الاستعمارية، ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى (دور المقيم البريطاني برسي كوكس).

(1) - انظر على سبيل المثال، محمد علي القرا، العولمة والحدود - مجلة عالم الفكر، الكويت ع (4) نيسان/ أيار 2004، ص 68 وما بعدها.

(2) - المصدر نفسه.

(3) - انظر، يوسف سليمان علوش، مشكلات الحدود في منطقة الخليج والجزيرة العربية، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى كلية العلوم السياسية، جامعة دمشق، دمشق، 2009، ص 28-27.

* **العامل الجغرافي والاقتصادي**: فهو متعلق بطبيعة الأرض المتنازع عليها، والموارد البشرية والاقتصادية والقدرة العسكرية، وهل تتمتع بموارد نفطية أو تتمتع بأهمية جيوسراتيجية، وهذا البعد هو ما يميّز المناطق المتنازع عليها في منطقة الخليج العربي.

* **أما العامل الديموغرافي**: فهو يستند إلى الامتداد السكاني على جانبي الحدود - والذي ينطوي على مسألة الانتماء القبلي، كما هو الحال مثلاً بين العراق والسعودية. وينشأ عن الامتداد السكاني على جانبي الحدود، مشكلات تتعلق بصعوبة الفصل بين القبيلة الواحدة وتأسيس الحدود..

وبحسب الجانب المعرفي - فإنّ الحدود هي خطوط مادية أو افتراضية تتحدّد على سطح الأرض أو المياه، والتي تفصل الحيّز الجغرافي البشري للوحدات السياسيّة (الدول) تجاه وحدات أخرى؛ إذ تشمل الحدود اليابسة ومجري الأنهار والمسطحات المائية والبحر والمجال الجوي، وهذه تحددها الاتفاقيات الدوليّة... وتعرف كذلك بأنّها الخطوط الوهمية على سطح الأرض، والتي تفصل إقليم دولة عن إقليم دولة أخرى - وهو النطاق الذي تستطيع الدولة أن تمارس منه سيادتها¹.

ولهذه النزاعات الحدوديّة أشكال مختلفة، منها سياسية وقانونية، وأخرى اقتصادية وثقافية وإعلامية، وقد تتخذ أشكالاً مركّبة بين هذا وذاك.. وتتخذ النزاعات الحدوديّة في منطقة الخليج العربيّ المظاهر الآتية²:

1- النزاعات العسكريّة: هذه الطريقة يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة، بالإضافة إلى أنّه من الممكن أن لا تحقق الأهداف المرجوة. وسببها ضعف الدول المعنية في هذه المنطقة أو ارتباطاتها الدوليّة، ولا سيما بالولايات المتحدة الأمريكية، فهي من العوامل الرئيسة التي تجعل هذه الطريقة محدودةً، إذ قد يؤدّي الخيار العسكري إلى تغيير الوضع القائم ويقلق استقرار المنطقة، كما حدث في النزاع العراقي - الإيراني والنزاع العراقي - الكويتي. ولكن بالرغم من الصدام العسكري الذي أدى الى نتائج كارثية لهذه الدول، إلا أنّ الأوضاع عادت كما كانت عليه قبل النزاع.

(1) - لمزيد من التفاصيل انظر: فيصل عبد الرحمن طه، القانون الدولي ومنازعات الحدود، القاهرة، دار الأمين للنشر، 1999، ص 22 وما بعدها.

(2) - يوسف سليمان علوش، مشكلات الحدود... م س ذ، ص ص 43-41.

2- النزاعات السياسية: يعدّ هو الشكل الأكثر تداولاً لنزاعات الحدود في المنطقة.. و يتخذ شكل المعالجة السياسية المباشرة، إذ تعتمد الدولة التعاطي مع موضوع النزاع بالوسائل السياسية، أو تعتمد السياسة أولاً فيما يكون الخيار العسكري خياراً آخر، كاستمرار لوسيلة السياسة «كما يرى كلاوزفيتز»، وقد تكون مسألة النزاع الحدودي بداية للصراع السياسي بين الأطراف المتنازعة - وهي في هذه الحالة تعكس الجانب الأيديولوجي، وخصوصاً في حالات التوتر الشديد؛ حيث يرى بعض الأطراف أنّ من مصلحة دولته وضع قضية الحدود على رأس سلم الأولويات. ومن جانب آخر، من الممكن أن يكون أساس النزاع الحدودي صراعاً على الموارد والنفوذ والسياسات الإقليمية، والجانب السياسي هنا مرتبط بإرادات الأطراف، وقوتها وإمكاناتها المادية، وطبيعة علاقاتها الخارجية حيال الطرف الآخر. وقد يكون النزاع الحدودي نتيجة لعوامل أخرى، إذ يكون ذريعة لنزاع، أو لتصدير المشكلات الداخلية وإلقاء تبعاتها على المحيط الخارجي.

3- النزاعات القانونية: تستند على معايير القانون الدولي، ومحكمة العدل الدولية؛ وهو الخيار الذي يتناسب مع الأطراف القانونية، والتي تتطلب موافقة المتنازعين على ولاية المحكمة الدولية في موضوع النزاع الحدودي.

هذا الشكل لم يكن مألوفاً في الخليج العربي، ذلك أنّ دول الخليج العربي حديثة العهد، بالإضافة إلى أنّ ترسيم الحدود ارتبط بالفترة الاستعمارية المتأخرة، ولم يكن للأطراف المعنية القدرة على إقرار الأبعاد القانونية لمواقفها بصورة حاسمة، الأمر الذي يسهم في إعطاء النزاعات المعنية طابع الغموض - وأحياناً غير قابل للحسم.

نستطيع القول هنا أنّ إحالة النزاع الذي كان قائماً بين قطر والبحرين حول بعض الجزر البحرية إلى محكمة العدل الدولية، كان شكلاً من أشكال الإدراك لدى الطرفين باستحالة تحقيق هدف كلّ منهما بالوسائل العسكرية.. وقد شكلت تسوية النزاع بين قطر والبحرين نموذجاً لتسوية النزاعات في المنطقة، بالرغم من وجود خيارات أخرى لتسوية النزاعات الحدودية، كما جرى بين السعودية وقطر اللتين توصلتا إلى حلّ سياسي من خلال المفاوضات المباشرة بين الطرفين¹.

(1) - المصدر السابق، ص44.

بإمكاننا القول هنا إنّ الرّؤية السّياسيّة لمشكلات الحدود تتراوح بين عاملين مهمّين :
الأوّل هو الإدراك أنّ التّزاعات طويلة ومحدودية القدرة على حسمها، والثاني هو النّظام
العالميّ الذي يحدّد السقوف العليا للتوترات، بحيث يعيد النزاع إلى حالته الأولى، إذ
يصبح الخيار العسكري مستحيلًا .

من هنا نستطيع القول إنّ الخيار القانوني في حلّ التّزاعات الحدوديّة هو أكثر ضمانًا
فيما لو اعتمدته الأطراف المعنية، وهو الخيار الأقرب إلى الواقعية السّياسيّة.

وتعدّ العوامل الداخلية والخارجيّة المرتبطة بكلّ من البيئتين الإقليميّة والدوليّة، بالإضافة
إلى البيئة الوطنيّة (الداخلية) مدخلًا جيّدًا لدراسة المشكلات الحدوديّة في المنطقة العربيّة
ومنها منطقة الخليج العربيّ.

إنّ مشكلات الحدود واحدة من أشكال التّزاعات الخاصة في المنطقة، سواء كانت
ذات أسباب داخلية، أو خارجية إقليميّة أو دولية - وتتخذ أحيانًا عناوين أخرى من قبيل
الصراع على أماكن وجود النفط، الجزر، الممرات المائيّة، والمراعي، وفي إطار النفوذ
القبلي - السّياسيّ¹.

من حيث المحدّدات الداخلية، فإنّها تشكّل أهمّ عامل من عوامل التّزاعات - الحدوديّة
في الإقليم، حيث إنّ البعد الداخلي بعوامله الاجتماعيّة، وطبيعة النّظام السّياسيّ والموارد،
يعدّ أهمّ عامل في نشوء التّزاعات على الحدود، حيث إنّ أحد أهمّ الطرق التي كان
يعتمدها الحاكم في المنطقة العربيّة لتوسيع نفوذه، ونجد هذا في تجربة المملكة العربيّة
السّعوديّة في بداية تأسيسها عام 1932، في إطار الصراع الذي كان قائمًا بين آل سعود
من جهة، وآل الرشيد والأشراف الهاشميين من جهة أخرى، في مجال ضمّ الأراضي.
ومنها من رسمت حدودها القوى الغربيّة الاستعماريّة (بريطانيا وفرنسا) كما هو الحال
بين العراق وشرق الأردن - على سبيل المثال - إذ رسمت الحدود على خارطة بيضاء
من قبل سياسيين بريطانيين بعد الحرب العالميّة الأولى، بينما رسمت الحدود بين
المملكة العربيّة السّعوديّة والكويت والعراق من قبل السير (بيرسي كوكس) المندوب
السّامي البريطانيّ في (مؤتمر العقير) عام 1922، إذ أخرج من جيبه قلمًا أحمر، وفي

(1) - نفس المصدر، ص44.

دقائق معدودة رسمت الحدود¹ والتي خلفت وراءها نزاعات الحدود بين العراق والكويت، وكانت أحد الأسباب الرئيسة لأزمة عام 1990.

وقد أوضح موضوع ترسيم الحدود الأهداف السياسيّة لمصالح الدّول الغربيّة، فمثلاً، العراق تقدّر مساحته بنحو 440 ألف كم²، أمّا سواحلّه البحرية على الخليج فهي 58 كم² فقط، في المقابل نجد مساحة الكويت تقدّر بنحو 18 ألف كم²، وسواحلّه على الخليج تقدّر بـ 500 كم². وهو وضع أقلّ ما يقال عنه بأنّه غير طبيعي وغير منطقي بين دولتين. وكذلك الحال بالنسبة لبقيّة إمارات ومشيخات الخليج التي رسمتها بريطانيا كدول قبل انسحابها عام 1968، تاركة خلفها نزاعات حدودية فيما بينها؛ كما هو الحال بين السّعوديّة والكويت، والسّعوديّة والإمارات وعمان حول واحة البريمي والشريط الحدودي الذي يفصل بينهما، وكذلك مشكلات الحدود بين قطر والبحرين حول جزر حوار².

وقد عمدت بريطانيا لمنح بعض الدّول موارد كثيرة، وأخرى تفتقر لها، كما أنّها خلقت النزاع على أماكن وجود النفط في المناطق المتنازع عليها - والذي كان مرتبطاً بالمزايا البترولية الممنوحة للشركات البريطانية والأمريكية، تلك الأخيرة أسهمت في سياسة بلادها في رسم الحدود في المنطقة، ممّا أدّى إلى التنازع حول شرعية الدّولة، وبروز الإيديولوجيات القومية التي تدعو إلى الوحدة في مقابل التيار المحافظ المضاد لها، ممّا عرض المنطقة إلى التدخل الخارجي في الشؤون الداخليّة، إذ تورّعت اتجاهات الطبقة السياسيّة في المنطقة إلى ولاءات متناقضة ومتعارضة، وأمسى الصراع على المنطقة إقليمياً ودولياً.

وكانت الدّولة عبر مراحل تأسيسها في المنطقة عرضة لعوامل متعددة، أثّرت في طبيعة تشكيلها وفي دورها. وهذه العوامل هي³:

1- العامل الدّولي: حيث نشأت تحت تأثير تغيرات عالمية، وخاصة تلك المتغيرات الواقعة بعد سقوط الدّولة العثمانية واختراق الدّول الأوروبيّة (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) للمنطقة العربيّة، إمّا احتلالاً أو وصاية أو انتداباً، بالإضافة إلى زرع الكيان الإسرائيلي

(1) - فصل السير بيرسي كوكس، الكويت كدولة مستقلة داخل إطار السلطة العثمانية عام 1913 في المؤتمر الأنكلو

- عثماني، انظر المصدر نفسه، ص45.

(2) - نقلاً عن المصدر نفسه، ص46.

(3) - ثامر كامل محمد، الدولة في الوطن العربي على أبواب الألفية لثالثة، بغداد، بيت الحكمة، 2001، ص13-12.

في قلب المنطقة.

2- آثار الحروب الباردة الدّوليّة في تحديد طبيعة الدّول ومؤسساتها، ولا سيما بعد تعرّض الدّولة في المنطقة العربيّة لمحاولات الاستقطاب الدّوليّ في القرن العشرين.

3- آثار حقبة ما بعد الحرب الباردة، وظهور دعوات العولمة التي عبّر عنها -على سبيل المثال- مشروع الشرق الأوسط الكبير.

لذلك، فالدّولة العربيّة، هي ظاهرة أنشأتها الدّول الأوروبية، من حيث حدودها ومؤسساتها، فإنّها -تبعاً لذلك- تعدّ ثمرة هجينة ولدت ولادة غير طبيعية من قبل قوى أجنبية.

أمّا الدّولة التي نشأت في منطقة الخليج العربيّ، فقد كانت نموذج الدّولة في اعتمادها القوة العسكريّة في إخضاع المناطق وإحاقها بمركز السلطة، إذ اعتمدت على أساس صلة الدم أو العصبيّة الدينيّة/ المذهبيّة والعشائريّة، وأساسها الإيديولوجي تتمثّل في الادعاء بالاستحقاق التّاريخيّ القهري لمناطق ألحقت بقوة السلاح¹.

تعدّ المملكة العربيّة السّعوديّة النمط الأبرز للدّولة التي قامت على أساس توسع السلطة أو العصبيّة السّياسيّة من الأطراف إلى المراكز الحضريّة، كما هو الحال في ضمّ الحجاز والمناطق الشّرقية - والشّمالية من الجزيرة العربيّة... وقد كان للقبائل سابقا دور كبير في النشأة العسكريّة، وتوطينهم بعد أن هجروا حياة البادية واستقروا فيها منذ عام 1911، ثمّ توسعت وفرضت سلطاتها على بقية المناطق والقبائل بشكل معاكس لما هو معتاد في تأسيس الدّول (أي من المراكز إلى الأطراف) - ومن خلال هذا الامتداد تمّ إخضاع المراكز الأكثر أهميّة في شرق الجزيرة العربيّة وغربها - متمثلاً بمناطق الإحساء والقطيف والحجاز وحائل عبر التوسّع .

من هنا جاء استغلال ثنائيّة (الدين - القبيلة) لتأسيس جيش عقائدي بدوي قادر على كبح القوى المحليّة في منطقة نجد، ومن ثمّ مواجهة الجيوش الأخرى في شرق الجزيرة وغربها. حيث إنّ وجود جيش كان ضرورة لتأسيس الدّولة السّعوديّة... ولم يكن بالإمكان إخضاع القبائل بالقوة لوحدها، وإنّما بسلطة الدين، فكانت الوهابيّة الوعاء الأيديولوجي

(1)- محمد فؤاد، أزمة الدولة في الخليج على الموقع الإلكتروني: www.Gulfissues.net/Index.20html.

للتوسّع وتكوين المملكة العربيّة السّعوديّة¹. وتعدّ القبيلة أهمّ مرتكز وقع عليها عبء تشكيل الدّولة السّعوديّة الحديثة: رجال المذهب الوهابي الذي وفر الغطاء الديني والإطار الإيديولوجي للتوسع في مناطق الجزيرة العربيّة، والمرتكز الثاني كان أسرة آل سعود التي مثّلت القيادة السياسيّة المدركة لمهامها وأهدافها، والمرتكز الثالث تمثل بالقبائل النجدية القوية التي شكّلت القوة العسكريّة .

المبحث الثاني : البيئة الاجتماعيّة والبنية السياسيّة للنظام

تعدّ القبيلة نواة البناء المجتمعي في منطقة دول الخليج العربيّ، وهي مكوّن اجتماعي سياسي واقتصادي وعسكري، وقد اتخذ مفهوم شرعية الحكم فيها أنماطاً مختلفة، بدءاً بالشرعية الدينية، وصولاً إلى شرعية (الحق التّاريخي). فالأسر الحاكمة في البحرين وقطر أخذت بشرعية العرف القبلي وحق القبيلة بدلاً من الشرعية الدينية، وبعدها تحوّلت من شرعية العرف القبلي إلى شرعية الأسر الحاكمة ضمن القبيلة، كما هو الحال مع المملكة العربيّة السّعوديّة التي تعدّ مثالاً للشرعية الدينية التي تحوّلت فيما بعد إلى شرعية الحق التّاريخيّ بفضل الدعوة الوهابية نسبة إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب².

القبيلة في منطقة دول الخليج العربيّ مختلفة في سماتها وخصائصها، على الرغم من تنوعها وخلافاتها.. وهي في ساحل الخليج العربيّ قبائل أو أسر هاجرت من الجزيرة العربيّة، سواء في الكويت أو البحرين أو قطر أو الإمارات العربيّة المتحدة، وتاريخ المنطقة حافل بالتحالفات السياسيّة والتوزيع الجغرافي والاجتماعي للقبائل، ومنها قبائل رئيسية قوية لعبت دوراً مهمّاً في تاريخ المنطقة وتفاعلاتها الاجتماعيّة/ السياسيّة، وبعضها قبائل ثانوية انضوت تحت لواء القبائل القوية³.

وهنا نستطيع القول: إنّ قضية الحدود في منطقة دول الخليج العربيّ متعلقة بالقبليّة، فالحدود قبيلة أو تحالفات قبليّة سياسية في فترة ما قبل الاستعمار، فالطبيعة القبليّة، ذات السمات المتمثلة في الرعي والصيد والترحال الدائم والتجارة، ممّا كان له الأثر الكبير في

(1) - حمزة الحسن، الوهابية.. إيديولوجيا إخضاع أم إيديولوجيا حكم - على الموقع الإلكتروني:

www.Gulfissues.net.

(2) - انظر، عبد الجليل مرهون، نزاعات الحدود في شبه الجزيرة العربيّة، مجلة شؤون الأوسط، (12) تشرين/ 2، 1992، ص ص65-47.

(3) - عبد المالك خلف التميمي، القبيلة في منطقة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن العشرين، مجلة شؤون عربيّة ع (112) صيف 2005، ص225.

سيادة مفهوم فكرة الحدود، أي تغيير الحدود حسب وجود وسائل الحياة القبلية.. و فكرة الحدود قائمة بحسب المفهوم الشخصي القبلي وليس على أساس العامل الجغرافي - كما هو في القانون الدولي.. وهكذا فإنّ الحدود متغيرة حسب انتقال القبيلة من مناطقها إلى مناطق أخرى، وتدخل تلك المناطق التي انتقلوا إليها في إقليم القبيلة وتصبح تحت سيطرتها. وهذا المفهوم تأخذ به الشريعة الإسلامية، حيث يقوم مبدأ الحدود فيها على أساس دار الحرب ودار السلام¹.

وهكذا، فالشكل السياسي للمنطقة كان متمثلاً بصراع القبائل لمدّ النفوذ، ووضع حدود للكيانات السياسية في منطقة الخليج العربي.. حيث استطاع آل سعود من توسيع حدود مملكتهم التي تمّ الاعلان رسمياً عنها عام 1932، بعد أن وضعوا ركائز قيامها بالعديد من المعاهدات والاتفاقيات مع بريطانيا، وأهمّها اتفاقية عام 1925 التي نظمت موضوع انتقال القبائل عبر الحدود الشمالية للمملكة - بين نجد والعراق وإمارة شرق الأردن، ومكّنت آل سعود من إخضاع قبائل المنطقة لحكمهم.. واتفاقية عام 1927 التي اعترفت لل سعوديين بسيطرتهم على الحجاز ونجد وملحقاتها، وضمّ أراضٍ من الكويت ومن الحدود العراقية، ولا سيما منطقة جبل شمر².

بالإضافة إلى أنّ النزاع الذي نشب على منطقة (واحة البريمي) كان نزاعاً ذا طابع قبلي، حيث كان ولاء القبائل في تلك المنطقة يتوزّع بين الكيانات الثلاثة: عمان وإمارة أبو ظبي والسعودية، غير أنّ أغلب هذه القبائل كانت تدين بالولاء للمملكة العربية السعودية، مثل قبائل: بني حجر، والمناضير، والعوامرة وآل مرّة والدواسر³؛ أمّا قبائل التخوم فإنّها كانت تطالب بمرونة الحدود ليكون لرعاياها امتيازات القبيلة، ومنح الجنسية، وحقل التنقل الرعي، والتجارة، وتسهيلات في المؤسسات الرسمية. ومثال ذلك دولة الكويت التي أعطت أعداداً كبيرة من أبناء القبائل الجنسية الكويتية⁴.

يتّسم البناء القبلي بأنّ علاقاته غير مستقرة، وبناء على ذلك، فإنّه قابل للدخول في

(1) - للمزيد من التفاصيل حول هذه الإشكالية، انظر عدنان السيد حسين، العلاقات الدولية في الإسلام، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 2006.

(2) - عبد الله فؤاد الربيعي، قضايا الحدود السياسية للسعودية والكويت ما بين الحربين العالميتين 1919-1939، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1990، ص36-35.

(3) - للاطلاع على حيثيات النزاع على واحة البريمي، ينظر، مفيد الزبيدي، تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث والمعاصر، دارأسامة للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص263-261.

(4) - عبد المالك التميمي، القبيلة في منطقة الخليج العربي، م س ذ، ص ص228-227.

صراعات ومنافسات قد تفضي إلى نشوب نزاعات حدودية

أما طبيعة النّظام السّياسيّ في منطقة الخليج العربيّ فإنّه محكوم بعدد من المفاهيم، أبرزها إشكالية مفهوم الشرعية وعلاقة ذلك بالحدود السّياسيّة لكيان الدّولة ... لكونه ضامناً لاستمرارية هذا النّظام، ويحقّق له الاستقرار.. والنظم السّياسيّة في منطقة الخليج هي في الغالب نظم قبلية، تشاركها قبائل أخرى وبدرجات متفاوتة - كما أشرنا سلفاً -.

إلا أنّ هناك إشكالية في شرعية هذه النظم، فهناك نظم سياسية اعتمدت على الشرعية الدينية للسلطة، وذلك باستقطاب الرموز الدينية - واعتماد الخطاب الديني الرسمي الذي يبقى السلطة في دائرة الشرعية. وهناك نظم سياسية تأسست من خلال (مشروع ديني - سياسي) يفضي بكامل الشرعية الدينية للسلطة ذات التكوين التقليدي - في مقابل إطلاق العنان لدعوة دينية ذات عقائدية خاصة (الوهابيون في السّعوديّة)¹.

لذلك نرى أنّ التشكيل السّياسيّ للتحالفات القبلية، ومن ثمّ الكيانات السّياسيّة، هو تشكّل غير مستقر، ويتطلّب -بصورة دائمة- العمل من أجل الحفاظ على توازن العلاقات الداخلية، وتوزيع السلطة والنفوذ والموارد، وذلك يعني أنّ شرعية النظم السّياسيّة هشّة ومعرضة للاهتزاز ومواجهة تحديات مختلفة، فالمملكة العربيّة السّعوديّة مثلاً، تعرضت لعدة تحديات، منها ما هو خارجي..مثل الثورة الإيرانيّة وفكرة تصدير الثورة، وبعض التحديات داخلي - مثل العمالة الأجنبيّة، الانفجار السكاني والتضخّم، وازدياد الاستحقاقات التي تفرضها علاقاتها الخاصة بالغرب، ولا سيما الولايات المتحدّة الأمريكيّة، وغياب الإصلاح السّياسيّ والاقتصاديّ ونظام التعليم وتصادم احتجاجات بعض القبائل والاحتجاج الديني والمذهبي (الشيعيّة) في المنطقة الشرقية والتهميش وسوء توزيع الثروة².

المبحث الثالث: القوانين الدوليّة والتدخّل الخارجي

أحدثت فترة ما بعد التدخّل الاستعماري الغربي في منطقة الخليج العربيّ بشكل خاص، والمنطقة العربيّة بشكل عام، تضخّماً في المشكلات الحدوديّة، والذي يعدّ ظاهرة تاريخية سبقت التشكّل السّياسيّ الحديث للدولة في المنطقة، ولعلّ هذا الأخير يعدّ واحداً

(1)- نقلاً عن، يوسف سليمان علوش، مشكلات الحدود في منطقة الخليج...، م س د، ص52.

(2)- انظر المصدر نفسه، ص52.

من بين نتائج ذلك التدخل.. والسبب في ذلك أنّ القوى الاستعماريّة لم تنقل فقط ترسانتها العسكريّة، بل نقلت أيضاً أشكال التنظيم السياسيّ (الحدائث السياسيّة)، التي كان مفهوم الدولة والحدود أحد أساسياتها - في مقابل ذلك، كانت الدّول الكبرى حاضرة في تدخلها الدائم في المنطقة.

كان نظام الحكم في السّعوديّة مثلاً، قادراً على التوسّع الإقليمي على حساب كيانات سياسية أو شبه سياسية أخرى في منطقة الخليج والجزيرة العربيّة، إذ كان نزوع آل سعود للتوسع يلقى الدعم من بريطانيا، كما هو الحال مع حكّام الحجاز الأشراف الهاشميين من أولاد الشريف حسين بن علي¹.

فالنزاعات الحدوديّة، في جزء كبير منها، هي نزاعات إيديولوجية في فرض توسع كيانات سياسية بعينها.. ويمكن أن ينسحب ذلك على الكثير من مشكلات الحدود القائمة.

وإذا كان النّظام الدّوليّ يعدّ شبكة العلاقات التعاونية منها، والصراعية فيما بين أعضاء المجتمع الدّوليّ على المستويين العالميّ والإقليمي، وفقاً لمنظومة قيم معينة، كما يذهب العديد من المختصّين بعلم العلاقات الدّوليّة²، فإنّ النّظام الدّوليّ الجديد في تداعياته الحاضرة، هو أقرب ما يكون إلى الفوضى منها إلى النّظام أو المنظومة، إذ إنّ التعرّف على الجوانب العامة للنّظام الدّوليّ يمكن أن يساهم في فهم تأثيره على مشكلات الحدود في المنطقة موضوع الدراسة.

ويمكن إجمال الجدل القائم حول النّظام العالميّ بالآتي³:

1- نظام القطبية، والأمر يتعلق بكون النّظام العالميّ الراهن هو: أحادي القطبية بالمعنى السياسيّ والعسكري، ومتعدد الأقطاب - بالمعنى الاقتصاديّ والثقافي.. ويبدو أنّ هذين البعدين - الأحادي والتعددي - محل جدال لا ينتهي، غير أنّ اتجاهات العولمة تؤثر في تعميم نمطية عامة للنّظام العالميّ وتأثيره في النظم الإقليميّة ووحداتها

(1) - للتفصيل، انظر، بنواميشان، ابن سعود.. ولادة مملكة، تعريب رمضان لاوند، دار أسود للنشر - بلا تاريخ، بيروت، ص ص373-371.

(2) - علي الدين هلال، النظام الدولي الجديد.. الواقع واحتمالات المستقبل، مجلة عالم الفكر، العددان 4-2، آذار/ نيسان، 1995، ص 10.

(3) - يوسف سليمان علوش، مشكلات الحدود في الخليج، م. س، ص ص62-61.

السياسية (الدول).

2- من أشكال النظام العالمي الحالي، هناك اتجاه يدور حول «قوننة» التفاعلات الدولية والاتفاقيات العالمية؛ مثل: التجارة الحرة وقوانين البحار والأنهار، وحق تقرير المصير، والتدخل الإنساني في المنازعات الدولية والإقليمية.

3- العولمة اختزلت المسافات جغرافياً وزمناً وتاريخياً، وأصبح العالم أكثر تفاعلاً، ومن ثم أكثر تدخلاً - وتدخلاً متبادلاً.

4- أن القوى الكبرى وضعت عدداً كبيراً من القواعد القانونية والاتفاقيات، بالإضافة إلى أنها شرّعت نظاماً، وأقرت سقوفاً للنزاعات الدولية، كما وضعت اشتراطات علنية وضمنية لحلّ النزاعات، حيث تشكل النزاعات الحدودية أهم القضايا التي تأثرت إلى حدّ كبير بالنظام العالمي الراهن.

ويمكن إجمال تأثير المحددات الدولية لمشكلات الحدود في منطقة الخليج العربي في مدخلين أساسيين هما: مدخل الجغرافية السياسية، ومدخل القوة أو توازن القوى¹.

أما الأول، فيتعلق بتأثير النظام العالمي بالطبيعة الجغرافية، ومعنى الحدود ومسافات الجغرافية، وقواعد ضبط الأمن والنقل والاتصالات، وكلّ هذه الأبعاد لها أهمية إقليمية ودولية، ومن ثمّ فإنّ الصراعات الحدودية مثلاً، في منطقة الخليج العربي، تشكّل مصدر تهديد للنقل والمواصلات، فضلاً عن نظام تسويق المنتجات النفطية وبعض طرق التجارة العالمية.. والكثير من نزاعات المنطقة يأخذ بالاعتبار تأثير وتأثر النظام العالمي.

وأما الثاني، فيتعلق بـ (ميزان القوى) الذي يعدّ الأساس لبناء السياسات، وضبط النزاعات الحدودية، على سبيل المثال، حيث يشكل عامل القوة الأساس للسياسات الخارجية للدول، سواء في ميادين النزاع المباشرة (مشكلات الحدود)، أو في التحالفات ذات الطابع الإقليمي والدولي.. وتطمح الدول في تأمين مصالحها من خلال الحصول على أسباب القوة - والتي قد تتطلب الانخراط في تحالفات إقليمية ودولية. وتعدّ هذه الطريقة إحدى محددات السياسات الخارجية في منطقة الخليج، حيث لا يمكن إحداث نزاع حدودي دون مراعاة هذا الجانب، وخاصة ما يرتبط بدور القوى الكبرى لجهة الدعم

(1)- المصدر نفسه، ص72.

السياسي أو العسكري.. وقد تكون مشكلات الحدود، أو بعضها، ذريعة لإظهار القوة. ومن المعروف أنّ القوى الكبرى هي التي تضع معايير هرمية وتوازن القوى في المنطقة؛ كما تضع السقوف لصراعات القوة ونزاعات الحدود، مما يشكل قيّدًا على العلاقات الدوليّة السلمية.

إنّ مفهوم الاعتماد المتبادل في النظام العالمي يفرض على الكيانات في المنطقة أن تميل إمّا إلى نزاعات حدودية، أو إلى العمل على تسويات، ولكنّه قليلًا ما يعمل على تفجير تلك النزاعات، وبالأخص مع السقوف التي يفرضها النظام العالمي والقوى الكبرى على إرادة الأطراف المتنازعة. ذلك لأنّ في منطقة الخليج أطرافًا قد تنظر إلى موضوع الحدود بامتعاض، غير أنّها تشعر بعدم قدرتها على اتخاذ موقف أو تدبير عسكري، ومن ثم تقرر تأجيل الموضوع¹.

يمكن الإشارة هنا إلى أنّ تفاوت القوى في منطقة الخليج العربي، بوجود قطب كبير مثل السعوديّة، يستطيع أن يضبط مفاعيل تلك النزاعات، إلّا أنّ ذلك من الممكن أن يتعرّض لاختلالات من قبل أطراف خليجية وإقليمية، على الرغم من دعم النظام العالمي - وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية - لأولويات الاستقرار الإقليمي، باعتبار أنّ الهرمية هي هرمية نظام القوة.

(1) - نقلًا عن المصدر نفسه، ص 65.

الخاتمة

هذه الدراسة كانت لمعرفة أسباب وتداعيات المشكلات الحدودية في منطقة الخليج العربي في جوانبها كافة، سواء كانت التاريخية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وكذلك العسكرية، وفي أبعادها السياسية والقانونية وطبيعة النظام السياسي لكل من دولها، وتناول البحث الجانب المتعلق بمفهوم الشرعية، وعلاقة ذلك برسم الحدود السياسية لكيان الدولة في هذه المنطقة، وسلوكها السياسي الخارجي، وتم التركيز على العوامل التي يفرضها المجتمع الداخلي، وقوانين النظام الدولي، بالإضافة إلى آثار التدخل الخارجي، الذي كان له الدور المهم في صناعة القرار الخارجي لتلك الدول، والخاص بمشكلات الحدود. إذ تناولت الدراسة بعدين رئيسين لمشكلات الحدود في المنطقة، أولهما ما يتعلق بنشأة الدولة، والثاني خارجي متعلق بالنظام العالمي وطبيعة علاقته بالنظم السياسية الحاكمة في الإقليم.

نلاحظ أن أغلب مشكلات الحدود في منطقة الخليج برز نتيجة اجتماع عدد من العوامل، وفي مختلف المستويات المذكورة، وقد تم تسوية العديد من هذه النزاعات، منها ما يتعلق بطبيعة النظام السياسي، وقسم آخر تمت تسويته، إما عن طريق المفاوضات المباشرة، أو عرضه على محكمة العدل الدولية.. كما حصل بين المملكة العربية السعودية وقطر في الحالة الأولى، وبين الأخيرة والبحرين في الحالة الثانية، وهنا نستنتج بأن كل المشكلات الحدودية في منطقة الخليج يمكن بشكل أو بآخر أن يتم تسويتها، إلا موضوع الحدود بين العراق والكويت - تلك القضية التي حدثت بها تغيرات وتوترات شتى خلال العقود الماضية، وبعضها لا يزال موضع سجال وتوتر مفتوح على احتمالات عديدة في المستقبل. وكذلك الحال أيضا بالنسبة إلى الصراع بين الإمارات العربية المتحدة وإيران على أحقية الجزر الثلاث: طناب الكبرى، طناب الصغرى، وأبو موسى.

المصادر والمراجع :

- 1 - محمد علي القراء، العولمة والحدود - مجلة عالم الفكر، الكويت ع (4) نيسان/ أيار 2004، ص68 وما بعدها.
- 2 - يوسف سليمان علوش، مشكلات الحدود في منطقة الخليج والجزيرة العربية، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى كلية العلوم السياسية، جامعة دمشق، دمشق، 2009، ص27-28
- 3- : فيصل عبد الرحمن طه، القانون الدوليّ ومنازعات الحدود، القاهرة، دار الأمين للنشر، 1999، ص22 وما بعدها.
- 4 - فصل السير بيري كوكس، الكويت كدولة مستقلة داخل إطار السلطة العثمانية عام 1913 في المؤتمر الأنكلو - عثماني، انظر المصدر نفسه، ص45
- 5 - ثامر كامل محمد، الدولة في الوطن العربيّ على أبواب الألفية لثالثة، بغداد، بيت الحكمة، 2001، ص12-13.
- 6 - محمد فؤاد، أزمة الدولة في الخليج على الموقع الإلكتروني: [www.Gulfissues.net/](http://www.Gulfissues.net/Index.20html)
- 7 - حمزة الحسن، الوهابية.. إيديولوجيا إخضاع أم إيديولوجيا حكم - على الموقع الإلكتروني: www.Gulfissues.net
- 8 - عبد الجليل مرهون، نزاعات الحدود في شبه الجزيرة العربية، مجلة شؤون الأوسط، (12) تشرين/ 2، 1992، ص ص65-47.
- 9 - عبد المالك خلف التميمي، القبيلة في منطقة الخليج العربيّ في النصف الثاني من القرن العشرين، مجلة شؤون عربية ع (112) صيف 2005، ص225 .
- 10 - عدنان السيد حسين، العلاقات الدوليّة في الإسلام، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 2006.
- 11 - عبد الله فؤاد الربيعي، قضايا الحدود السياسيّة للسعودية والكويت ما بين الحربين العالميتين 1919-1939، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1990، ص35-36
- 12 - مفيد الزبيدي، تاريخ المملكة العربية السّعوديّة الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص261-263
- 13 - عبد المالك التميمي، القبيلة في منطقة الخليج العربيّ، م س ذ، ص227-228
- 14 - بنواميشان، ابن سعود.. ولادة مملكة، تعريب رمضان لاوند، دار أسود للنشر - بلا تاريخ، بيروت، ص ص371-373
- 15 - علي الدين هلال، النّظام الدوليّ الجديد. الواقع واحتمالات المستقبل، مجلة عالم الفكر، العددان 4-2، آذار/ نيسان، 1995، ص10

جوانب تناصيّة بين «سفر أيّوب» والنّاتج المهجريّ

(أُنموذجان : قصّة الشّيطان والخوري سمعان¹ لجبران، ومسرّحيّة أيّوب، نُعيّمه)

فيرناليّزا فريّحة

L'intertextualité entre Job et la littérature d'Almahjar

Selon la tradition biblique et le patrimoine universel, la question existentielle (la problématique) soulevée par Job, pose le problème de l'existence du mal et du désordre, dans le monde.

Les stoïciens, dans la perspective de Job et sous son influence, disaient que les maux qui apparaissent comme tels sont en fait des bénédictions cachées et il est impossible de considérer le bien sans lui associer le mal. Ils sont inévitablement présents l'un à l'autre. Job ne disait-il point : « pourquoi accepter le bien de Dieu et refuser le mal ? »

Gebran et Nouaymé avaient une prédilection pour le personnage de Job symbole de sagesse et d'endurance. N'a-t-il point surmonté les épreuves de Satan avec une volonté surhumaine ?

Sa conduite, sa manière d'être, la cohérence de son discours et sa poétique, ont convaincu et séduit les deux écrivains tout en fourvoyant leur pensée.

Le texte de Job constitue donc un hypotexte pour les textes de Gebran et de Nouaymé que nous considérons comme des hypertextes (Genette).

En quoi consiste cette intertextualité entre l'écrit biblique et les œuvres des deux écrivains ?

Quelles sont les composantes ?

1 - مدخل

اخترتُ هذا الموضوع لبحتي الموجز، بعد أن تيقّنتُ من أهميّة مكانة نصّ «سفر أيّوب»، في أدبيّ جبران ونعيّمه. فالأوّل فضّل من الكتب، العام 1914، عندما سألتُهُ ماري هاسكل: شكسبير، أيّوب، الكتاب المقدّس (قسم كبير من عهديه)، وكتاب

(1) - عنوان قصّة جبران، في «العواصف» هو: «الشّيطان»، والخوري سمعان هو الشّخصيّة المحوريّة الأخرى، في فضاء القصّة، فأثرتُ تعديلاً في العنوان: «الشّيطان والخوري سمعان».

الموتى⁽¹⁾، والثاني اختار «البطل» «أيوب» عنوانًا لمسرحيته، العام 1966، مُحبرًا مقدمة قيمة بعنوان: «سفر أيوب وهذه المسرحية»⁽²⁾. ولا شك في أنّ إشكاليات كثيرة حيكّت حول شخصية أيوب، وهويّتها، وتَجربتها، وحول النصّ ونوعه، وكتابه، وأصله، وفصله... كلّ ذلك حدّاني على عدم التخلّي عن المُعالجة، وعلى محاولة توضيح ما أُستطيع، في مقام السّعي لفهم طبيعة العلاقة الثنائِيّة بين النصّ - الأَصْل أ - سفر أيوب (Hypotexte)، والنّصّين المهجريين، ب- (Hypertexte)، هل يرتبطان شكلاً، ومضموناً، وفضاءً، بالنصّ - الأب، أو يستوحيان بعض جوائه، من دون أن ينسخاه أو يتأثّراه مباشرة⁽³⁾. والقصة التي عَونَها جبران: «الشيطان» في «العواصف»، حافظت على طبيعتها الكاملة، لكنّها استظلت عنوانًا مُعدّلاً: قصة «الشيطان والخوري سمعان».

2 - ضوؤه على النصّ - الأَصْل

ذَكَرَ القديس أوغسطينوس، في كتابه: «مدينة الله» أنّ أيوب لم يكن يهودياً، أو غريباً مُنضوياً إلى دائرة إسرائيل، بل انتمى إلى بلاد أيّدوم الفلسطينية (race iduméenne)، وهو واحدٌ من رجال العدل والصّلاح والإيمان، في تلك العَشيرة⁽⁴⁾، وقيل، من ناحية ثانية، إنّهُ كان عادلاً تقيّاً في بلاط أحد ملوك بابل، في نهاية الألف الثاني ق.م.، ومُحاوروه: السّيماني، والشّوحي، والنّعمانى، والبوزي، هم كنعانيون. ورجّح باحثون أنّ يكون اليهود أدخلوا على النصّ الأساس تعديلات خاصة بهم، ما يُشير إلى أنّ للنصّ مؤلّفين كُنْزاً⁽⁵⁾. على أنّ طرَحَ كَوْنِ أيوب مَشْرِقياً من الأرض الأدميّة العربيّة، وَجَدَ مَنْ يَصِفُهُ بأنّه «تكهّئات»، وبأنّ الحوار الشّعريّ هو يهوديّ، يَعْرِفُ اعترافات إرميا، والمزامير، والأمثال، ومارسَ صاحبه خدمة نَبوِيّة رعوِيّة، وجمعَ في نصّه، فنوناً متنوّعة، يختلفُ بعضها عن بعض، كأنشودة النّذب، والتّشيد، والقول الحكميّ، والمُناظرة القضائيّة، والتّأنيب النّبوي، ورواية التجلّي القديمة... والأناشيد الملحميّة⁽⁶⁾. دَعُ أنّ القصة الشّعبيّة تَصَمَّنَتْ جدالاً حول الوضع البشري، والألم، والعدالة، والإيمان،

(1) - نبيّ الحبيب، رسائل الحبّ بين ماري هاسكل وجبران، الأهلِيّة للنشر والتوزيع، تسويق فرجينيا حلو، ترجمة الأب لوران فارس، ج2، 1974. ص 57.

(2) - ميخائيل نعيمه، أيوب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط2، 1978، ص9.

(3) - Gérard Genette, palimpsestes, Ed. Du seuil, 1982, p 9, 13, 14.

(4) - Saint Augustin, La cité de Dieu, 3, Eds du seuil, 1994, p. 76.

(5) - الأب سهيل قاشا، التّوراة، التّوراة والتّاريخ، دار الأجيال للدراسات والنشر، لبنان، 2018، ص 354 - 372.

(6) - الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت، 1989، ص 1046.

والحياة والموت، وغير ذلك، من الأبعاد الأسطورية، واللاهوتية، والتخييلية، والإنسانية، في مزيج غريب عجيب⁽¹⁾. ولئن كان نعيمه تحيل أيوب أميراً عربياً⁽²⁾ فنحن لا نملك المعلومة النهائية لنُدلي بدلولنا، لذلك نتبنى وجهة نظر أوغسطينوس بكون إلهامات الله، ونعمه، لا تحل على شعب واحد، إنما تقضي العدالة بنشر الروح الإلهي في أدوم، وناسيها، وغيرهم⁽³⁾.

وتردُّ بعض المصادر جذور هذه الرواية الشعبية إلى مرحلة الجيل الثاني للجلاء، حوالي 575 ق.م.، وتتحدث أحر عن «البار المتألم» في التراث، السومري - البابلي، وعن صيغة الحوار الأدبي المرتبطة بحلقة أدياء الحكمة المشرقيين، والمصريين، وغيرهم⁽⁴⁾. ويبدو أن النص حول «الصالح المتألم»، في سومر، ظهر قبل قصة أيوب التوراتية⁽⁵⁾، وتساءل حول حق الرجل النقي المتألم في طرح مسألة العدالة الإلهية⁽⁶⁾، وكيف انتهى إلى التصالح مع الله، انطلاقاً من نظرتيه إليه.

3 - فحوى قصة أيوب - التراث

بعد عوامل سلبية (أهل سبأ، نار الله، الكلدانيون، الرياح الشديدة...)، ردت الرجل المستقيم عارياً إثر عظمة، وفقيراً، مريضاً، نسي عزه والجاه... وخلال ضيقه الشديد، أصر الشيطان، غب حوار مع الله، على اختبار طبيعة أيوب البشرية، من خلال وطأة التجارب، وامتحان أمانته لله، ومدى ثبات نظرتيه إلى الحكمة الإلهية⁽⁷⁾. وعلى الرغم من كآبته، وألمه، لم يخطئ أيوب، وقبل الشر كما الخير، من قبل. وبعد حوار الله والشيطان، أصغى إلى كلام محاوريه الأربعة، يعزونه، وبقي راسخاً في حكمته، وثقتيه بالله، وشعاره أن الصديق يلزم طريقه⁽⁸⁾، وأن حياته تُبصر النور⁽⁹⁾، ما دام نادماً حتى

(1) - ن. ص 1048 - 1052.

(2) - ميخائيل نعيمه، أيوب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط2، 1978، ص 11.

(3) - Op. St Augustin, La cite de Dieu - 3, p77.

(4) - الكتاب المقدس، دار المشرق، 1989، ص 1043 - 1050.

(5) - سهيل قاشا، التوراة والتاريخ، دار الأجيال، 2018، ص 354.

(6) - ن. ص 354.

(7) - معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، 1986، ص 45.

(8) - الكتاب المقدس، العهد العتيق، المجلد 2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، سفر أيوب، الفصل 17، آية

9، ص 23.

(9) - ن. الفصل 33: 28.

النُّراب، ومُعترفًا بأنَّ بيانهُ محدود⁽¹⁾، وعقله لا يُدركُ المُعجزات⁽²⁾. وهكذا، باركَ اللهُ آخرةَ أيُّوبَ أكثرَ من أولاده⁽³⁾، وقد شَبِعَ مِنَ الأَيَّامِ⁽⁴⁾.

4 - جبران وإيقاع أيُّوب

في 19 أيار 1922، دار حديث بين جبران وماري هاسكل حول كتاب «النَّبِيَّ»، وَبِنَيْتِهِ، ونظمه. فأبدى إعجابَهُ «بسفر أيُّوب» خصوصًا، و«بالعهد القديم» عمومًا، مركزًا في ما سَمَّاهُ «إيقاع البحر». وشرحَ لماري ما مفهوم ذلك: «إِنَّكَ لَتَسْمَعِينَ هَذَا الإيقاعَ فِي الطَّرِيقَةِ المزدوجة لِقول شيءٍ ما. وَهَذِهِ يَسْتَعْمَلُهَا اليهود. فَهُنَاكَ ما يُقالُ ثُمَّ يُقالُ لَتوكيده ثانيةً، بِطريقةٍ مختلفةٍ قليلًا، وَهَذَا يُشابهُ أمواجَ البحر. فَأَنْتِ تَعْرِفينَ كَيْفَ تأتي المَوْجَةُ الكَبِيرَةُ مُلْتَقَّةً، صاخبةً، وَإِذْ تَمْتَدُّ تجرِفُ حصى الشاطئ، وَسَطَ هديرٍ مُتَكَسِّرٍ. ثُمَّ يَرْجِعُ بعضُ الحصى إلى مكانه، لكن بصخبٍ أَقلَّ، وتيارٍ أصغر. وتقومُ موجةٌ ثانيةٌ أصغرُ مِنَ الأُولَى، وتُفعلُ فعلها، بصخبٍ، ثُمَّ تأتي لحظاتٌ سكون، وتقومُ فجأةً، مَوْجَةً كَبِيرَةً تَهْدُرُ مُلْتَقَّةً، من جديد، وتليها شقيقتها أصغرُ منها، وهكذا... إِنَّهُ حَرٌّ بِأَنَّ يَسْتوحِي المرءُ هذه الموسيقى الطَّبِيعِيَّةَ، وَمِثْلُها هي موسيقى الهواء، وحفيفُ أوراقِ الشَّجَرِ»⁽⁵⁾.

هذا البحر كانَ ذا حضورٍ في جسد القِصَّةِ أو الأسطورة أو الملحمة، وروحها، فالله بقوته يُثَبِّرُ البحرَ، وَبِحِكمته يُحَطِّمُ تجبُّره.. و«الغمرُ قالَ ليستِ (الحكمة) فيَّ، والبحرُ قالَ ليستِ عندي»⁽⁶⁾. فالبحرُ الرَّمْزُ، وقد استعارَ جبران حركته، ومَدَّهُ والجزرَ، لثَمثِيلِ حيويَّةِ اللُّغَةِ كَيْفَ تَعشِقُ أَلحانها، وإيقاعاتها، وتتنوَّعها، وتخلقُ مَجازها... هذا البحرُ برزَ في «النَّبِيَّ» المتأثِّر، بناءً، وروحًا، بسفر أيُّوب. فالنَّبِيُّ الذي ألقى نظرة عميقة إلى البحر، رأى سفينته، وطارت روحه فرحًا، وسارَ في البحر من غيرِ كآبة⁽⁷⁾، لكنَّهُ كانَ يَنأَلُ في قلبه، القلب الذي جمَلته المجاعةُ، وجعله العطشُ رقيقًا... هذا النَّبِيُّ حَدَّثَ، عَبَرَ الحوار، كما أيُّوب، عن «الخير والشر»: قالَ أيُّوبُ: «أَنْقَبِلُ الخَيْرَ من الله ولا نَقْبِلُ

(1) - ن. ن 33: 32.

(2) - ن. الفصل 42: 3-6.

(3) - ن. الفصل 42: 12.

(4) - ن. ن: 16.

(5) - نَبِيَّ الحبيب، م.س.، ج3، ص 82-83.

(6) - سفر أيُّوب، ف 26: 12 / ف 28: 14.

(7) - المجموعة المعرَّبة، النَّبِيُّ، دار صادر، بيروت، ط1، 2002، ص 49 (مُسْتَهْلَ نَصِّ النَّبِيِّ).

الشرّ؟»⁽¹⁾، وقال جبران: «أليس الشرُّ هو بعينه الخير المتألّم آلاماً مُبرّحةً من تَعَطُّشه، ومَجاته»⁽²⁾. وحول الألم، قال أيّوب: «حتّى كلّ طرفي من الكآبة... وصارَ كوني، بجملته ظلًّا... جُعَل ليلى نهارًا، ونوري يكادُ يكونُ ظلامًا. ما رجائي؟»⁽³⁾، قال جبران: «يجبُ أن تُحطّم الآلامُ قسوركم قبلَ أن تعرفوا معنى الحياة... آلامكم بوساطتها يَشفي الطَّبیبُ الحكيمُ الساهرُ في أعماقكم، أسقامَ نفوسِكُم المريضة... لذلك، آمنوا بطبيب نفوسكم...»⁽⁴⁾.

5 - شيطانُ أيّوب وجبران

رأينا الشيطانَ في نصّ أيّوب، يَدْخُلُ خلسةً بينَ بني الله، وهو على طَوافٍ في الأرض، وتَرَدُّدٍ فيها. وكان حوارًا بين الربِّ والشيطان، حول أيّوب المستقيم النقي. فسعى الشيطانُ ليبرهن أن أيّوب لا يَتَّقِي الله مَجَانًا، فسُمِحَ له بتجربة أمانته، من دون تدمير شخصه. وإذ بریحٍ شديدة طلعت من عُرض الصّحراء، وصَدّمت البيتَ فمات الغلمان⁽⁵⁾، ونُهبت جميعُ مُقتنياته، فردّد: «الربُّ أعطى والربُّ أخذ، فليكن اسمُ الربِّ مُباركًا»⁽⁶⁾. ثمَّ ضربَ الشيطانُ جسده بالقروح ولم يخطأ بِشَفْتَيْهِ⁽⁷⁾، لكنّه تساءل: «لِمَ لَمْ أمتَ من الرّحم؟!». هكذا، في المقابل الجبراني، كان للخوري سمعان تجربةٌ مرّةً مع الشيطان، وهو يَنْتَقِلُ بين فرى شمالي لبنان، مُهتَمًّا بالأُمور الرّوحية⁽⁸⁾.

والخوري سمعان، كما أيّوب، كان في بَحْبوحة ورفاهية، يتلقَى الفضةَ والذهبَ بإزاء عِظاته، وَصلواته. فتعرّضَ لتجربة على يد الشيطان الذي تمثّل بإنسانٍ جريح، يَحْتَاجُ إلى إسعاف، واجتهد لإقناع الخوري بأنّ النعم التي يَحْصُلُ عليها هي في ظلّه، وبفضله⁽⁹⁾. وطرحَ موضوع الخير والشرِّ، وتراوَحَ الإنسانُ بين قوّتين مُطلقَتين: قوّة تُصعدُ روحَهُ إلى العلاء فيبارِكُها، وقوّة تُهبّطُ بجسده إلى الظلمة فيلعنُها⁽¹⁰⁾. وفي هذا المقام، كثُرَ الكلامُ

(1) - سفر أيّوب، م.س.، ف 2: 10.

(2) - النبي، م.س.، ص 49.

(3) - سفر أيّوب، م.س.، ف 17: 7 - 12.

(4) - م.ك. معرّبة، النبي، ص 70، 74.

(5) - الكتاب المقدّس، سفر أيّوب، م.س.، ف 1: 19.

(6) - ن. 1: 21.

(7) - ن. 2: 10-7.

(8) - المجموعة الكاملة العربية، دار صادر، بيروت، 1949، ص 449 (الشيطان، العواصف).

(9) - ن. ص 451.

(10) - ن. ص 452.

بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَالْخُورِيِّ سَمْعَانَ عَلَى الصَّرَاحِ بَيْنَ إِلَهٍ يُحِبُّ الْخَيْرَ، وَشَيْطَانٍ رَجِيمٍ يُحِبُّ الشَّرَّ، وَتَكَرَّرَ الْأَمْرُ بَيْنَ لَإَوَيْصَ وَزَعِيمِ الْقَبِيلَةِ، حَوْلَ صِرَاعِ إِلَهِ الشَّرِّ الْمُظْلِمِ مَعَ إِلَهِ اللَّيْلِ الْمُنِيرِ، وَاسْمُ إِلَهِ الشَّرِّ، وَفَقَ لَإَوَيْصَ، إِبْلِيسَ أَوْ الشَّيْطَانَ، وَهُوَ تَمَرَّدَ عَلَى إِلَهِ الْإِلَهَةِ، فَهَبَطَ وَلَا يَزَالُ يَكْرَهُ الْبَشَرَ... وَبُجِرَّيْهِمْ، وَبَدَأَ أَنْ مَعْرَكَتَهُ مَعَ الْخُورِيِّ سَمْعَانَ، عَكَسَتْ مَدَى وَهْنِ هَذَا الْخُورِيِّ، وَعَدَمَ اسْتِثْمَارِهِ الصَّرَاحِ لِمَزِيدٍ مِنَ الْخَيْرِ، لِذَلِكَ، حَمَلَ الْجَرِيحَ - الشَّرِيرَ وَتَوَجَّهًا نَحْوَ مَنزَلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ صَلْبًا فِي إِيمَانِهِ، وَأَمَانَتِهِ، عَلَى عَكْسِ أَيُّوبَ رَمَزِ الصَّبْرِ الْمُنْتَصِرِ، فِي التَّرَاثِ، وَأَيُّوبَ نَعِيمَهُ الْمَجْتَهِدَ لِلتَّحَرُّرِ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى سَجْنِ الْعِقَابِ فِي عَالَمِ الزَّمَانِ، مُسْتَنَدًا إِلَى نَظَرِيَّةِ الْكِرْمَا الْقَائِلَةِ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُقَرَّرُ هُوَ مُسْتَقْبَلُهُ، بِنَاءً عَلَى مَاضِيهِ، وَسُلُوكِيَّاتِهِ. وَفِي «الْعَوَاصِفِ» لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا جَبْرَانَ تَجَاهَ الْحَيَاةِ، وَالْمَوْتِ، قَدْ أَتَمَّتْ نُضْجَهَا!

وَكَمَا الشَّيْطَانُ مَصْدَرُ خَرَابٍ، وَتَعَسٍ، فِي «أَيُّوبَ»، فَهُوَ «الْقُوَّةُ الَّتِي تُحَوِّلُ الْعَاصِفَةَ نَحْوَ الْأَكْوَاخِ، وَتَحْرِقُ بِالْقَيْظِ مَزَارِعَهُمْ، وَتَقْرُضُ بِالْأَوْبَةِ مَوَاشِيَهُمْ، وَتَلَامَسُ بِالْأَمْرَاضِ أَجْسَادَهُمْ، فِي الْفَضَاءِ الْجَبْرَانِيَّةِ»⁽¹⁾. فَهَذَا هُوَ تَمَامًا مَا حَلَّ بِأَيُّوبَ وَمَزَارِعِهِ وَبَيْتِهِ، فَتَهَافَتَتْ عَلَيْهِ الْأَهْوَالُ، وَانْدَفَعَتْ عَلَى نَفْسِهِ رِيحٌ عَاصِفَةٌ، فَاضْمَحَلَّ خَلَاصُهُ كَالسَّحَابِ⁽²⁾. وَلَمْ يَكُنْ خَبْتُ شَيْطَانِ الْخُورِيِّ سَمْعَانَ، وَخَدَاعُهُ، وَتَجْمِيلُهُ لِدُورِهِ، بَيْنَ الْبَشَرِ، بِأَقْلٍ شِرَاسَةً مِنْ خَبْتُ مَافِيستوفليس غوتي (Méphistophélès) وَهُوَ يُسَهِّلُ انْفِتَاحَ أَبْوَابِ الشَّرِّ أَمَامَ فَاوِسْتِ (Faust) وَيَفْجِرُ فِيهِ نَارَ النَّشْهِيِّ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ مَا تَاقَتْ إِلَيْهِ مَارْغَرِيْتَا فِي مَسَارِ النَّقْوَى⁽³⁾. وَالشَّرِيرِ فِي فَاوِسْتِ، مَلَاكٌ هَابِطٌ حَاقِدٌ، مُتَعَجِرْفٌ، كَشَيْطَانِ جَبْرَانَ الَّذِي عَارَكَ مِيخَائِيلَ، وَانْهَزَمَ أَمَامَهُ⁽⁴⁾، وَكِلَاهُمَا (أَيُّ شَيْطَانِ فَاوِسْتِ وَشَيْطَانِ جَبْرَانَ)، يُقِيمُ الْخَمَارَاتِ وَبِيوتَ الْفُحْشِ عَلَى أُسُسِ الشَّهْوَةِ وَاللَّذَّةِ، وَيُوهَمَانِ بِأَنَّ زَوَالَ دُورِهِمَا يَعْنِي زَوَالَ الْخَوْفِ، وَاللَّذَّةِ مِنَ الْعَالَمِ، فَتَصْبِحُ الْحَيَاةُ خَالِيَةً، مُقْفَرَةً، بَارِدَةً⁽⁵⁾.

وَنَجِدُ فِي النَّظَرَةِ الْجَبْرَانِيَّةِ إِلَى مَفْهُومِ التَّجْرِبَةِ، وَأَبْعَادِهَا، كَمَا عَبَّرَ عَنْهَا الْخُورِيُّ سَمْعَانَ، الْجَوْهَرَ نَفْسَهُ فِي أَيُّوبَ. وَوَضَحَ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ قَوْلِ الْخُورِيِّ لِلشَّيْطَانِ، بَعْدَ نَجَاحِ هَذَا

(1) - م.ك.ع.، م. س. ص 456.

(2) - الْكِتَابُ الْمَقْسَسُ، أَيُّوبَ، م.س.، ف 30: 15.

(3) - Goethe, Faust, L.G.F., France, 2007, p 198, 207.

(4) - Ib. p. 57. أَيْضًا: الْمَجْمُوعَةُ الْكَامِلَةُ الْعَرَبِيَّةُ، م.س. ص 401.

(5) - م.ك.ع.، ص 457 - 458.

الأخير في زعزعة ثوابته: «أنا أعلم أنك موجود في العالم، لكي تجرب، والتجربة هي مقياس يعرف الله بوساطته قدر النفوس البشرية، بل هي ميزان يستخدمه الله ليُدرَك ثقل الأرواح أو خفتها»⁽¹⁾. واقتنع الخوري بمنطق الشيطان، فالتجربة ضرورية، والمُجربُ يجب أن يحيا، كي يبقى الإنسان في حذر⁽²⁾. فهل إنَّ تجاوبَ الربِّ مع منطق شيطان أيُّوب، والنَّسَاهلَ معه في تعريةِ البطل من كلِّ ممتلكاته، وكلِّ عافيته، وكلِّ طمأنينته، هو الذي شجَّع جبران على هذا الانسياق التلقائي لشخصية الخوري وراء الشيطان، وكأنَّ هذا جزءٌ من اللعبة الكونية لتدبير شؤون النظام العالمي، ومصير المخلوقات، وتسيير مبدأ العقاب والثواب، والتوازن، في هذه الحياة؟ ومهما كان الجواب فخوري جبران لا يملك من الروح الأيوبية المشرقة الكثير! وهكذا فواست، غوتي أمام شيطانه، لا يقاوم ما دامت رغباته مُمكنة، وجاهزة، وسهلة المنال.

6 - التناص بين أيوب الأدومي وأيوب نعيمه

لاحظنا رغبةً لدى جبران، في محاكاة التتغيم، والتكريب، كما تجلّيا في نصّ أيوب الأصلي. على أنَّ العلاقة بين أسلوب جبران، وأفكاره، وفضاء سفر أيوب، لم تكن تقليدياً، أو إعادة كتابة، أو تحويلاً (transformation ou transposition)، في سياق ما سمّاه جبران جينيت (Intertextualité) أو (hypertextualité)⁽³⁾. كان طموح جبران أن يستلهم من الرموز الأسطورية، والملحمية، والدينية، ما أمكن من المعاني الجديدة، مُشدِّداً على الترقّي الجمالي، لأنَّ كلَّ لطفٍ في البيان يتبعه عمقٌ في الفكر، وتثورُّ في الروح.

على أنَّ نعيمه عندما كتب أيُّوب محافظاً على العنوان، إنّما اعتمد على طريقتين: Excision أو تشذيب الأصل، والإبقاء على ما يخدم مهمّة الكاتب، في مقام ما سُمّي تحولات في فضاء المغزى أو المعنى (transpositions thématiques). وبرغم حرصه على إثبات بعض نصوص من الأصل كما هي، فهو اجتهد ليُمارس ما سُمّي (la transtylisation) أو (réécriture de style)⁽⁴⁾، مُركِّزاً ما استطاع، في

(1) - ن. ص 458.

(2) - ن. ص 459.

(3) - Op. Gérard Genette, palimpsestes, Eds du seuil, 1982, p. 2, 9.

(4) - Ib., p. 293, 315.

شعرية لا تُغيّب ما حمل نصّه من رسائل في وحدة الوجود، وتكرير الولادات، والصّراع، والصّبر، والصّهر، والتطهّر حتى استعمال الجهاد الرّوحي. وقد صدق «جينيت» في هذا المجال، عندما قال: «لا تجدُ الإنسانيّة دائماً، أجناساً جديدة لتجاربيها، أو أنواعاً أدبيّة مختلفة، لذلك فإنّها تُبدعُ رؤى جديدةً، وتطلّعاتٍ مدهشةً، وتضعها في إطارٍ فنيّ أو أدبيّ معروف، قابل للحياة»⁽¹⁾.

إنّ بعض الكتب، شأن «سفر أيّوب»، وُجِدَتْ ليس لتقرأ، وحسب، لكن لتُستلهم، وتُعاد كتابتها بكلّ الأشكال الممكنة، مسرحاً، وشعرًا، وقصّة، وأسطورة، ولاهوتًا يطرح حواراتٍ بين المخلوق والخالق، بين جماعات الخير والشر. ومن يقرأ مسرحيّة نعيمه يلحظ أنّه أسقط أربع صفاتٍ على النصّ الأيوبيّ: ملحمة، رواية، حكاية، قصّة⁽²⁾. على أنّ النفحة الشعريّة، والفلسفيّة، والإنسانيّة، تجعل النصّ فوق كلّ التصنيفات أو التسميات أو الفنون. وكان سؤال نعيمه وهو يتفكّر في بناء مسرحيّة مُتتاصلاً مع ابن عوص، الإنسان الصّالح أيّوب، «كيف نفسّر هذا العذاب الذي لم يكن قصاصاً على ذنب بل تحدياً من ربّ لربّ؟»⁽³⁾.

ولكي يفهم أبعاد ما جرى بين الرّب والشيطان، ولم وقع أيّوب ضحيّة حوارهما، اتّخذ موادّ مسرحيّة من القصّة، مُستحضراً الصّراع الغريب بين الإنسان وربّه⁽⁴⁾، ومَسألتي الخير والشر، وقانون العقاب والثواب، وقضيّة الله الواحد والأرباب المتعدّدين. ففي مسرحيّة ثلاثيّة أرباب، وثلاثيّة أصوات هي أصواتهم. وقال إنّهُ انتقى من الأصل بعض الأحداث، لكنّه أنقذ ابنةً لأيّوب سماها «تليدة»، وأمّها «زليخة»، وخلق شخصاً سماه «سرحبيل»... وفي اعتقاده أنّ المسرحيّة تكاد تكون بكاملها خلقاً من عنده⁽⁵⁾. فما الرّسالة الجديدة التي حملها أيّوب نعيمه، في مقابل الفكرة المحوريّة، في الأصل، وهي أنّ رجل الخير نفسه يمكن أن يُمتحن ويُجرّب، ويُعاني، ويُخلّص متى صبر، وبقي أميناً لفاديه الحيّ⁽⁶⁾.

(1) – Ib. p. 558 « L'humanité, qui découvre sans cesse du sens, ne peut toujours inventer de nouvelles formes et il lui faut bien parfois investir de sens nouveau des formes anciennes ».

(2) – ميخائيل نعيمه، أيّوب، نوفل، بيروت، ط2، 1978، المقدمة، ص 9 – 16.

(3) – م.س.، نعيمه، أيّوب، ص 13.

(4) – ن. ص 14.

(5) – ن. ص 16.

(6) – سفر أيّوب، الفصل 19، آية 25 (إني لعالمٌ فادي حيّ وسبقومٌ آخراً على التراب).

7 - مسرحية أيوب والصبر الهادف

عندما ألقى الحوار الطويل بين أيوب وأصحابه الأربعة، استمكن نعيمه من تكثيف نصّه المسرحي، وأضاف حوارًا مباشرًا بين الأرباب الثلاثة والمُجرب أيوب، وخلق بين زوجه زليخة وابنته تليدة، حوارات كشفت مزاج الزوجة المجدفة، وطبيعة الابنة الراقية إنسانياً، وروحياً. أمّا سرحبيل فبدا هو الناطق باسم نعيمه - أيوب، والذي عرض، تبعاً، رؤيته إلى الحياة والموت، الخير والشر، العقاب والثواب، الحلوية والاتحاد، التقمص والعودة إلى الجسد. ونظراً إلى أن المسرحية كناية عن فصول أربعة، فالحذف والمجاز والإيجاز هي سمات النص الجديد الذي تخلّى عن الجدلية المبهمة، والتعميم، والغموض، لإيضاح رؤيته إلى الحياة والوجود، من خلال خطاب سرحبيل.

ومُعظم فلسفة نعيمه بدت في حوار أيوب وسرحبيل، قال هذا الأخير: «أنت وأنا، يا سيدي، خيطان في النسيج الهائل الذي هو الكون»⁽¹⁾. الكون يعمل في الإنسان، والإنسان يعمل فيه أبداً⁽²⁾. ويجتهد نعيمه ليفهم دوره، في الكون، ويتناغم معه وعياً، وإرادة. وطرح بين أيوب وزليخة، موضوع الخير والشر، فقال لها أيوب: «الشر هو تهريك من دفع ثمن المعرفة التي تجعلك تقبلين الخير والشر بالسواء، للتغلب، في النهاية، على الاثنين»⁽³⁾، وتساءله عن الثمن فيأتي الجواب: «الألم... والصبر على ذلك الألم. الصبر مفتاح المعرفة على أن يكون صبراً في قلبه الإيمان بالمعرفة، فالصبر من دون إيمان شلل وفناء»⁽⁴⁾.

وعلم نعيمه بلسان سرحبيل، وأيوب، أن المحبة هي وحدها الحياة، وكل ما عداها موت.. وليس الموت في ذاته، فناء بل هو الباب الذي نطل منه على عدم الفناء، وهو يُحررنا من كل ما يحول ويحول⁽⁵⁾ ولا بُد من نار المصهر، ورماده، لتكتشف الذات أنها ألقيت في الأرض، وليست منها⁽⁶⁾، ومصيرها الظفر بعد المصهر⁽⁷⁾.

(1) - ن. ص 61.

(2) - ن. ص 63.

(3) - م.س.، سفر أيوب، ص 92.

(4) - ن. ص 95-94.

(5) - نعيمه، أيوب، م.س. ص 114-113.

(6) - ن. ص 117.

(7) - ن. ص 119.

وثمة في خطاب الأرباب، وأصواتهم، ما أرادَ نعيمه قوله، في سياق التناصّ مع بعض جوانب السفر المُتَنَزَّع عليه في أصله. وَمِنْ أَفكاره أَنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ كِتْلَةٌ تَنَاقُضَاتٍ يَخْتَبِرُهَا حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْفَهْمِ وَالْحَرِيَّةِ وَتَخْطِي التَّنَائِيَّاتِ وَالْمُعَوَّاتِ سَعِيًّا لِلْخُلُودِ. ثُمَّ إِنَّ أَيْ تَوَجُّعٍ أَوْ جَهْلٍ إِنَّمَا هُمَا نَتَائِجُ مُحْتَمَّةٌ لِأَفْكاره، وَأَفْعاله، وَمَوَاقفه، وَشَهَوَاتِه⁽¹⁾، ومبدأ الكرما هذا الذي ذكرناه، أَيْ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَحْصُدُ مَا يَزْرَعُ، يَفْرُضُ، فِي حَالِ الصَّرَاحِ، الْعُودَةَ إِلَى سِجْنِ الْجَسَدِ، لِدَفْعِ الْمَزِيدِ مِنَ الْأَثْمَانِ أَوْ التَّطَهُّرِ وَالتَّحَرُّرِ⁽²⁾. وَأَيُّوبُ، ابْنُ أَرْضِ عَوْصٍ، هُوَ رَمْزُ الْمُتَحَرِّرِينَ⁽³⁾ لِمَاذَا؟ لَقَدْ صَفَّنَهُ خَبْرَتُهُ الطَّوِيلَةَ، فِي خِلَالِ أَعْمَارِ كَثِيرَةٍ عَاشَهَا، وَبَاتَ مُدْرِكًا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ هِيَ الْجَوْهَرَةُ النَّمِينَةُ الَّتِي يَكْسِبُهَا مِنْ حَيَاتِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا تَسْتَرُدُّهَا مِنْهُ الْأَرْضُ⁽⁴⁾.

وناداه الأربابُ الثلاثة: «لا حياة لك إلا في حياتنا، وحياتنا وحدها، هي التي لا تموت⁽⁵⁾، ونصحوا له بالتصفي نهائياً، من أشواقه بإزاء الأرض، ومباهجها، والمجرات وأفلاكها، لأنَّ الفتنة والجمال في القدرة التي كوّنتها، وهي في ذاتها، وحدها، إلى زوال⁽⁶⁾، وكثروا أمامه: «اشددَّ حقوك، يا أيُّوبُ، وكُنْ رَجُلًا⁽⁷⁾. وَعَبَّرَ الْأَرْبَابُ عَنْ بَهْجَتِهِمْ لِأَنَّ الْبَلَايَ أَعَادَتْهُ إِلَى رُشْدِهِ، فَانْتَصَرَ الصَّبْرُ وَمَعَهُ الْإِيمَانُ، حَتَّى الْإِنْعِتَاقُ⁽⁸⁾. وَتَجَلَّى هَدْفُ الْمَسْرُحِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ الْفَصْلِ الرَّابِعِ، وَمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِ سَرْحِبِيلَ، حَوْلَ حَيَاكَةِ الذَّاتِ، وَصَهْرَهَا، عَبْرَ إِيْصَالِ فِلْسَافَةِ خَاصَّةٍ تُحْمَلُ الْإِنْسَانَ مَسْئُولِيَّةَ خَلَاصِهِ، بِمَا يَحُوكُ لِنَفْسِهِ مِنْ شَبَاكٍ أَوْ أَجْنَحَةٍ، مِنْ تَحَرُّرٍ أَوْ قَيْودٍ. أَوْلَمْ يَخْتَمْ نَعِيمُهُ مِنْ خِلَالِ مَكَّوكِ سَرْحِبِيلَ: «وَالَّذِي أَحُوكُهُ هُوَ نَفْسِي؟»⁽⁹⁾.

وكما رأينا تأثيرات مباشرة في النصوص الجبرانية للنصوص التوراتية، والكلدانية، ولاسيما «نشيد الأناشيد»، ففي ما قالتُه تليده حول عريستها: «وفمه فلقه رمان.. شعره كبد الليل، جبهته الشمس.. من رحيق فمي أترعت كأسه... قولوا لي، يا فتیان عوص،

(1) - ن. ص 74-73.

(2) - ن. ص 74.

(3) - ن. ص 75.

(4) - ن. ص 77.

(5) - ن. ص 120.

(6) - ن. ص 122.

(7) - ن.

(8) - ن. ص 123.

(9) - م.س.، نعيمه، أيُّوب، ص 127.

ويا فتيات، لماذا يتباطأ عريسي في المجيء؟ هلاً أخبرتموه أنّ الوليمة في انتظاره؟»⁽¹⁾. في هذا النظم أو في هذا التشديد، غناءً للروح، يُشبه ما قرأنا في التشديد - الأصل: «أستحلفكن، يا بناتِ أُورشليم.. حبيبي لي، وأنا له، هو الذي يرفع بين السّوسن. قد أسقمني الحب، تحت رأسي، ويمينه تُعانقني، أستحلفكن يا بنات أُورشليم...»⁽²⁾.

8 - نافذة: إحياء وتجدد

نستعينُ بجيرار جينيت أيضاً، انتهاءً إلى خُلاصة وهي أنّ القديم الحيّ، وبخاصّةٍ الكتبُ الدّينيّة، لا تخضعُ بحقيقتها، وجمالها، وحيويّتها، للزّمان أو لتقاليدٍ مُحدّدة، أو لقراءات جامدة مُكرّرة، بل تستمدّ من ذاتها، ومن قرائها، نبضاً جديداً، وحياءً جديدة. قال جينيت، في هذا المقام:

« L'hypertextualité a pour elle ce mérite spécifique de relancer constamment les œuvres anciennes dans un nouveau circuit de sens. La mémoire dit on est révolutionnaire à condition, sans doute, qu'on la féconde, et qu'elle ne se contente pas de commémorer. La littérature est inépuisable pour la raison qu'un seul livre l'est. Ce livre il ne faut pas seulement le relire, mais le récrire »⁽³⁾

وليس مُصادفةً أنّ نجدَ هذا التعلّق، لدى أدباء المهجر، بنصوص شأن «أيّوب»، و«نشيد الأناشيد» و«أشعيا»، والشعر الصّوفي، والغزالي، ولاوتسو، وغيرهم، وغيرها. فالأدب المهجريّ ليس مجردَ بلاغةٍ أو إبهارات بيانيّة، إنّما هو وقفات جادّة أمام فضاءات روحانيّة، وأفكار إنسانيّة، وأفاق مُدهشة، وألحان وألوان استبطانيّة خارجة على المألوف. إنّنا أمّام التّراث، نشعرُ بتهيّب وحياء، ولّسنا أمّام مشهدٍ لدفن الموتى! التّراثُ

(1) - ن. ص 102-101.

(2) - الكتاب المقدّس، م.س.، سفر نشيد الأناشيد، الفصل 2، ص 228.

(3) - Op, Gérard Genette, palimpsestes, Eds du seuil, 1982, p558

«للتّصانيّة مهمّة خاصّة وهي إحياء المتناصّات السّابقة بتجديد مسارها وفضائها. ومنّ طبيعة ما تخزّن في الذاكرة العودة إلى الحياة، شرطُ تفعيله، كي لا يتصلّب ويجمّد الدّم في شرايينه. وكتاب واحد يُخصّب مواهب وثقافات، دليل على أنّ حقل الأدب لا ينضب معيّن... كتابٌ أنموذجي واحد لا تكفي قراءة فاهمة له، إنّما تُلزم كتابته أبداً، ومحاكاته، لأنّه أصل لا يُستغنى!» (ترجمة بتصرّف لكلام جينيت)

الحيُّ يُحدِّثنا باستمرار، ويُساعدنا في رؤية المستقبل.

والمحور العميق المُشترك بين «أيوب» الأصل - أ، وأيوب اللّاحق - نعيمه - ب، وقصة «الشيطان»، في «العواصف»، هو أنّ الحياة بُنيت على تناقضات، ومُعانيات، وامتحانات أو اختبارات، ويَنبُجُ من ذلك ألمٌ وحيرةٌ، وخيبات. وفي الوقت نفسه يُظهر المرءُ مقدرةً على الصبر، والصمود، والفهم، والتحرر من ثنائيات التجربة. وفي النصوص الثلاثة يقوم بمبادرة الاختبار الله، والشيطان، والإنسان، وفي حال الثبات في المحبة تكون الحياة، وفي حال الانحناء أمام التجربة يكون الموت. فالمحبة، وحدها، ترفع الإنسان ليتناغم تدريجياً مع سرّ الله، وحكمته»⁽¹⁾.

يبقى وقفة لا بُدَّ منها، حول تشديد نعيمه، في مقام «الرواية التمثيلية»، في «الغريال» 1923، على اللغة العامية، ودورها، في مثل هذا النوع الأدبي⁽²⁾. قال: «إنّ أشخاص الرواية يجب أن يُخاطبونا باللغة التي تعودوا أن يُعبّروا بها عن عواطفهم وأفكارهم... وهي تحتضن «فلسفة الشعب، واختباراته في الحياة، وأمثاله، واعتقاداته»⁽³⁾. وكرّر أنّ الرواية التمثيلية «لا تستطيع أن تستغني عن اللغة العامية»⁽⁴⁾.

على أنّه في مقدّمة «أيوب»، مسرحيته، وبعد تأثره بالتجربة الأيوبية التراثية، لجأ إلى الفصحى، النقيّة، فأمدّها بما لديه من طاقة فكر وتخيل، من دون أن يُبالي بالمحكيّة أو بلغة الحياة التي شغلته، بشكل لافت، في «الغريال». ما هو السبب الذي حال دون تطبيق نظريته النقدية حول اللغة، وطبيعة الأنواع الأدبية؟ الجواب البسيط والتلقائي هو انجذابه، كما جبران، نحو الفضاء الحوارية، في أيوب، بين الله والإنسان، والله والشيطان، والإنسان وغيره من أبناء الحياة. دع أنّ الفلسفة هذه، في «السفر»، ليست شعبية، ويات كلُّ من الشخصيات يملك فكراً، ورؤية، ومُعانة، عبّرت جميعها عن أيوب من جهة، ونعيمه خصوصاً، من جهة ثانية. ولا ننس أنّه في «الغريال»، وغيره، بقي مُرتبطاً عضويّاً، بالفصحى!

(1) - معجم اللاهوت الكتابي، م.س. ص 45.

(2) - الغريال، دار صادر، دار بيروت، ط 6، 1960، ص 33.

(3) - ن. ص 34.

(4) - ن. ص 34.

أخيراً، وتحت مسألة التناص (intertextualité)، رأينا مصطلحات متنوعة منها: (transformation)=التحويل، (imitation)=التقليد - المحاكاة، (hypertextualité) (- mimesis)= محاكاة النص، (influence)= التأثير والتأثر، في مقام الأدب المقارن⁽¹⁾، وفي الحالات الثلاث تتم عملية إعادة الكتابة - (Réécriture)، بالعودة إلى نص - أصل، وبالتركيز في دور الكاتب الذي يستلهم الماضي ويحاور المستقبل⁽²⁾، من خلال ما سماه ميخائيل باختين (dialogisme)، أو الحوار بين خطاب البطل في النص - الأب، وخطاب آخر يتبناه البطل الجديد في النص اللاحق⁽³⁾.

لم يتحدث جبران عن «أيوب» مباشرة، في قصته «الشيطان والخوري سمعان»، لكن علامات كثيرة تكشفها مقارنة تناصية بين نصه والنص - الأب، منها السردية الحوارية، وموضوع التجربة، والشبه بين الشخصيات، والرؤية بإزاء الخير والشر، في حين رأينا نعيمه يُبقي على اسم «أيوب» في العنوان، وفي المتن، ويُشدّب ما استطاع كي يوظف بعض السرد في خدمة رؤيته هو، وهي مُنظمة وواضحة، على عكس ما انتهت إليه رؤية جبران، عبر تقارب أدى إلى تسوية مخزية بين البطلين، بينما أصرّ نعيمه على أن يتخطى بطله أبطال الأسطورة في التّرك والتّضحية والجهاد. وبدا أنّ لدى الكاتبين عمليّات تحويل (transposition) تطلّبت تغييرات سيمائية⁽⁴⁾، وتباينات في النظرة إلى مُعانة الإنسان، وتجاربه، وطريقته في إيجاد الحلول لأزماته الكيانية، ولتحديات الوجود.

(1) - Sophie Rabau, L'intertextualité, GF, Flammaron, Paris 2002, p 87-90

(2) - Tiphaine Samoyault, L'intertextualité, mémoire de la littérature, A, Colin, ISBN, Paris, 2014, p10-11

(3) - lb, p244-245

(4) - جراهام آلان، نظرية التناص، ت. باسل المسالمة، دمشق، ط1، 2011، ص 289، 291.

فهرس المصادر والمراجع

أ - تُبَّت المراجع العربية

- الأب سهيل قاشا، الثّورة والتّاريخ، دار الأجيال للدراسات والنّشر، لبنان، 2018.
الكتاب المقدّس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960.
جيران: - المجموعة الكاملة العربية، دار صادر، بيروت، 1949. (العواصف)
المجموعة المعرّبة، دار صادر، بيروت، ط1، 2002، (النّبي).
نبيّ الحبيب، رسائل الحبّ بين ماري هاسكل وجبران، الأهلّة للنّشر والتّوزيع، تنسيق فرجينيا حلو،
ترجمة الأب لوران فارس، ج2.
جراهام آلان، نظريّة التّناس، ت. باسل المسالمة، دمشق، ط1، 2011.
معجم اللاّهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، 1986.
ميخائيل نعيمه: - أيّوب، مؤسّسة نوفل، بيروت، ط2، 1978.
- الغريال، دار صادر، دار بيروت، ط6، 1960.
ب- تُبَّت المراجع الفرنسيّة

1-Gérard Genette, palimpsestes, Ed. Du seuil, 1982.

2-Saint Augustin, La cité de Dieu, 3, Eds du seuil, 1994.

3-Goethe, Faust, L.G.F., France, 2007.

4-Sophie Rabau, L'intertextualité, GF, Flammarion, Paris 2002

5-Tiphaine Samoyault, L'intertextualité, mémoire de la littérature, A, Colin, ISBN, Paris, 2014

التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية لسكان جبل لبنان

خلال الحرب العالمية الأولى

مريم يوسف الخنساء

المقدمة

كانت للسياسة الصّرائبيّة العُثمانيّة انعكاسات مهمّة على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في السّلطنة طيلة فترات الحُكم العُثماني، فجبل لبنان والمناطق اللبّانيّة، وعلى رأسها ولاية بيروت، هي جزءٌ من الإمبراطوريّة العُثمانيّة، فأطراف السّلطنة والولايات الأوروبيّة والآسيويّة والإفريقيّة مشدودة إلى قلب العاصمة إسطنبول بفضل تأدية الصّرائب إلى الدّولة.

وقد أثّرت هذه الجباية الصّرائبيّة على السّكان المحليين في لبنان، حيثُ كان لهذه الجباية عواقب وخيمة على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعية لدى سكّان المُقاطعات، فأفقرت سكّانها بشكلٍ تدريجيٍّ ونهائيٍّ، كما أنّ الصّراع بين أمراء الجبل زاد من بؤس الشعب الذي لم يبقَ في حوزته ما يدفعه للجباة، بعد أن باع كلّ ما يملك من أجل استمرار العيش.

ولم يكن سكّان جبل لبنان، وبالأخصّ أهالي المتصرّفيّة، أفضلَ حالاً عشية الحرب العالميّة الأولى العام 1914، فقبلَ أن تُعلن تركيا الحرب على دول الحلفاء فرنسا وبريطانيا وروسيا، بتاريخ 14 تشرين الثّاني 1914، كانت الأوضاع الاقتصاديّة في جبل لبنان ومختلف المناطق تُنذر أهلها، وتُرخي بظلالها السيّئة نتيجة الجوّ السياسيّ العام المشحون.

وهذا البحث سيُظهر التغيّرات في الوضعين الاقتصادي والاجتماعي لأهالي متصرّفيّة جبل لبنان خلال الحرب العالميّة الأولى (1914 - 1918)

إشكاليّة البحث:

لعلّ موضوع هذا البحث يطرح إشكاليّة للتّقصيل في ظروف الوضع الاقتصادي وأسبابه، وآثاره على الحياة الاجتماعيّة لسكّان جبل لبنان خلال الحرب العالميّة الأولى عام 1914، ما يستدعي الاستناد إلى الدّراسات والإحصاءات المتعدّدة المتعلّقة بأحداث تلك الفترة من الحرب. وقد جاءت على النّحو الآتي:

- 1- كيف كانت الأوضاع الاقتصاديّة لقرى جبل لبنان قبل الحرب العالميّة الأولى؟
- 2- ما هي أوجه الأزمات التي طرأت على حياة أهالي تلك القرى مع بداية الحرب العالميّة الأولى، وما كان تأثيرها على تدهور أوضاعهم المعيشيّة والاجتماعيّة؟

فرضيات البحث:

يتوخّى هذا البحث الوصول إلى الفرضيّتين الآتيتين:

- 1- استقرار الوضع الاقتصادي في جبل لبنان بالرغم من سياسة العثمانيين الضاغطة.
- 2- تأثير أوضاع الحرب وسياسة العثمانيين على الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لسكّان جبل لبنان.

منهجيّة البحث:

يعتمد هذا البحث منهج الاسترداد التّاريخيّ، وذلك من خلال الاستناد إلى دراسات الباحثين التاريخيين والمؤرّخين، لعرض الواقعين الاقتصادي والاجتماعي لسكّان جبل لبنان، قبل الحرب العالميّة الأولى وبعدها. يستخدمه الباحثون في التّاريخ المعاصر، وهم الذين يتعلّقون بتجارب الماضي بقصد دراسة بعض المشكلات المعاصرة وتحليلها. فيقول هؤلاء الباحثون بأنّه يصعب علينا فهم الحاضر إلّا بالرجوع إلى الماضي، والحياة الحاضرة هي امتداد طبيعي للحياة الغابرة. ويركّز هذا المنهج على توصيف الحدث أو مجموعة الأحداث التّاريخيّة، وقراءة الماضي وأخذ العبر لفهم الحاضر. فالمنهج الاستردادي يستردّ من الماضي مجموعة من البيانات التّاريخيّة لتفسير الحاضر الذي يبقى موضوع البحث الرّئيس.

أولاً: الوضع الاقتصادي في جبل لبنان قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى

كانت الأرض تشكّل المصدر الوحيد للعيش الريفي، فغالبية أهالي جبل لبنان كانوا فلاحين، ولا يحققون أي دخل خارج نتاجهم الزراعي. فالجبل كان غنياً بثروته الغذائية، حيث إنّ المياه وطبيعة أراضيه، ومناخه، قد شكّلت كلّ أسباب ازدهار الزراعة فيه، إلّا أنّ مجلس إدارة المتصرفيّة في جبل لبنان وصف أراضيه بأنها ضيّقة وغير صالحة للزراعة. جاء هذا التّوصيف تعبيراً عن الشكوى من عدم وجود القمح في الجبل. (شقرا، 2011، الصفحات 22-21)

وكان اقتصاد متصرفيّة جبل لبنان، قبيل الحرب العالميّة الأولى، يعتمد ثلاثة مصادر رئيسية هي: زراعة الزّيتون، وإنتاج الحرير، إضافة إلى أموال المغتربين. وكان معظم سكّان المتصرفيّة فلاحين، يمارسون الزراعة بطابع مميز ينسجم مع طبيعة الأرض الجبلية وتربتها. وكانت بساتين الزّيتون المنتشرة على سفوح سلسلة جبال لبنان الغربيّة تؤمّن عملاً للعمّال ودخلاً لأصحابها، حيث كان الزيتون يشكّل عنصراً مهماً في الإنتاج، واستهلاكه الأكبر في لبنان، أمّا الفائض منه فيصدّر إلى الخارج وخاصة إلى فرنسا. ويُضاف إلى ذلك الصناعات الزراعيّة كالتبغ والخمر.

وفي الربيع، كانت أغلبية اللبنانيين تنصرف إلى تربية دود القزّ الذي يتغذى على أوراق أشجار التّوت. وكانت زراعة هذه الأشجار منتشرة على السّاحل وفي الجبل. وشكّلت صناعة الحرير ثاني أكبر مصدر للدخل في جبل لبنان. وقد تمّ تجهيز عدّة مصانع في جبل لبنان لصناعة المنسوجات الحريريّة، فقسّم منها كان يُصدّر إلى البلدان الأوروبيّة. (البعليكي، 2020، الصفحات 43-42).

وقد عملت حوالي خمسين ألف عائلة في إنتاج الحرير الخام، حيث شكّل تصديره حوالي نصف قيمة الصادرات في بيروت. ومن أرباح الحرير كان يتمّ شراء المواد الغذائيّة من مصر، وهوران، وسهل البقاع. (الحارس، 2011 الصفحة 124)

وشكّل الخبز مادّة الطّعام الأساسيّة في كلّ قرية لبنانيّة، فالأهالي كانوا يهتمّون بمؤونة القمح، حيث إنّ القمح والحنطة والحبوب كان إنتاجها ضعيفاً في أراضي المتصرفيّة، وذلك لضيقها، خاصّة بعد فصل سهول عكار والبقاع والجنوب عن جبل لبنان بموجب

بروتوكول سنة 1861، وهذا ما دفع سكّان الجبل إلى شراء وتأمين القمح من البقاع وهوران، نتيجة الإنتاج الضئيل لجبل لبنان من القمح، والذي لا يسدّ غير قسم صغير جداً من حاجة أهله إلى هذه المادّة الأساسيّة في غذائهم اليوميّ.

ولم يكن للمتصرفيّة موانئ تجاريّة، فمنذ أن وضع البروتوكول عام 1861، تغافل عن الإشارة إلى فتح موانئ بحريّة أو إلى عدم إنشائها أو إبقاء القديم على قدمه، إلا أنّ السلطنة العثمانيّة أبقت المرفأ اللبانيّة مقلّلة أمام السفن البخاريّة التجاريّة، وسمحت للسفن الشراعيّة فقط أن ترسو على شواطئه، وهذا يعني إبقاء الجمارك اللبانيّة تابعة لجمارك الدّولة العثمانيّة، لكن بعد مفاوضات طويلة من قبل اللبانيين والقوى والأحزاب، والأساقفة الموارنة، ومجلس الإدارة، واجتماعات ومداولات استمرّت طويلاً بين الباب العالي، وسفراء الدّول الموقّعة على البروتوكول في الآستانة للبحث في تعديله، تمّ الاتفاق على فتح مرفأين للبنانيين، الأوّل في جونية، والثّاني في النبي بونس في ساحل قضاء الشوف، فأصدرت السلطنة أمر إنشائهما في ملخّص خاص، وذلك عام 1912. (لبكي، 1995، الصفحات 174-207)

شاء اللبانيّون أن تتحوّل موانئهم الصّغيرة إلى مرفأ تؤمّمها البواخر التجاريّة من مختلف الأقطار، فلم يرضوا بأن يُعزلوا اقتصادياً، وتتحوّل الرّسوم والضرائب التي أرهقتهم بها الإمبراطورية العثمانيّة، والتي كانت تؤخذ من الموانئ والمراكب إلى خزينة السلطنة.

لم تدم فرحة اللبانيين طويلاً، فقد اشتعلت الحرب العالميّة الأولى، وقطعت جميع الاتصالات بالعالم الخارجي، وحاصرت فرنسا وانكلترا شواطئ لبنان وبيروت، ومُنعت التجارة معها بحجّة ضغطها على الأتراك، في حين أنّ هؤلاء منعوا التجارة البرية عن متصرفية جبل لبنان، وهكذا اتفقوا جميعاً على خنق لبنان.

بدأت طبول الحرب العالميّة الأولى تُقرع، وأعلنت تركيا دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا في 14 تشرين الثاني 1914، ضدّ دول الحلفاء فرنسا، بريطانيا، وروسيا، فمرحلة الحرب العالميّة الأولى من أبرز المراحل في تاريخ لبنان المعاصر، لما تميّزت به من مآسٍ ونكباتٍ وتغيّرات، إن كان على الصّعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو حتّى السياسي. (نهر، 2011، صفحة 53).

وعلى هذا الأثر، عُيّن «جمال باشا» قائداً للجيش العثماني الرابع المُرابط في سوريا مكان «زكي باشا الحلبي»، وحاكماً عاماً، حيثُ تمتدّ سلطته إلى سائر الولايات العربيّة، وكيليكيّا، وكردستان. وقبل وصوله إلى دمشق، أذاع «جمال باشا» في 28 تشرين الثاني سنة 1914 بلاغاً إلى اللبنانيين، دعاهم فيه إلى الإخلاص لدولتهم العليّة، ولا تُزاد عليهم ضريبة، ولا يكفّون بالخدمة العسكريّة.....وفي ختام بلاغه، أوصى سكّان الجبل أن يخلدوا إلى السكينة، ويؤاظبوا على أعمالهم كالمعتاد. (معطي، 2007، الصفحات 83-84)

تسلّم «جمال باشا» زمام السلطة الحقيقيّة، واحتلّ جبل لبنان عسكرياً، ونقض نظام المتصرفيّة، وحمل رجال الدين المسيحيين تبعات السياسة الفرنسية في هذا الجبل، فانتمت من بعضهم، ونفى البعض الآخر. ومنهم: المطارنة «بطرس شلبي»، «جراسيموس مسرّة»، «أغاببوس معلوف»، و«غريغوريوس حجار» وغيرهم. وإلى جانب هذا الإجراء التّعسفي، أصدرت الحكومة العثمانية إرادة سنّية ألغت بموجبها الإمتيازات الأجنبيّة ابتداءً من 1 تشرين الثاني 1914، وعمدت إلى إخراج القناصل من بيروت. (الملاح، 2011، الصفحات 756-757).

ثانياً: الضائقة الاقتصادية وجنون الغلاء

لم يكن أهالي جبل لبنان متساوين في دخلهم، وذلك يعود إلى الاختلافات في حجم الملكية العقاريّة لكلّ منهم، إذ كان دخل ربّ العائلة يكفي خمسة أو ستّة أشخاص في أيّام الخير بصعوبة، فإنّ الغلاء الذي استفحل على مدى سنين الحرب العالميّة الأولى من العام 1916 وحتى 1918، لم يُبقِ للعائلة حتّى ماء الزيتون المالح.

وقبل أن تُعلن تركيا الحرب على دول الحلفاء بتاريخ 14 تشرين الثاني 1914، كانت المؤشّرات الاقتصادية المحليّة تُشير إلى ارتفاع في أسعار المواد الغذائيّة، ذلك أنّ الجوّ السياسي العام كان يُرخي بظلاله على توقّعات التّجار في لبنان. وظهر ذلك من خلال ارتفاع سعر رطل الطحين من 4،20 إلى 6،20 غروش. (شقرا، 2011 الصفحات 23-24).

وإذا كان الوضع الإقتصادي قبل بداية الحرب لا يُبشّر بالخير، فكيف سيكون في أثناء اندلاع الحرب؟

فاعتبارًا من فجر أول كانون الأول من عام 1914، كان الساحل اللبناني ساحة نفوذ للقوى البريطانية والفرنسية والروسية، فقد فرضت أساطيلهم حصارًا بحريًا على طول الشواطئ العثمانية، ومنها السواحل اللبنانية، فمنعت السفن من الدخول أو الخروج، مما أدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي في لبنان بشكل سريع وخطير، فتوقفت عمليات الاستيراد والتصدير، وعانت الصناعات من فقدان المواد الأولية الأجنبية اللازمة لها، كالمواد الكيماوية المستخدمة في دبغ الجلود وصناعة الصابون، إضافة إلى الخيوط القطنية والحريية الرخيصة الضرورية لصناعة النسيج. فماتت الحركة التجارية، وفرغت الأسواق من السلع الأجنبية، وبدأت الأسعار بالارتفاع بشكل جنوني وفاحش. هذا الواقع الأليم والمرير الذي حلّ باللبنانيين، لم يكن له الأثر الإنساني لدى العثمانيين، بل أحكموا خناقهم على اللبنانيين، ومنعوا سكان جبل لبنان من استيراد القمح والحبوب على اختلاف أنواعها، من البقاع وسوريا، حيث كان القمح يشكل نسبة 85% من وجبة الغذاء (فريحة، 1980 الصفحة 77) ، وهذا ما ترجم سياسة التتريك المتبعة خلال الحرب بالسلاح والإبادة والتجوع.

لم يتوقف غلاء الأسعار عند الحنطة، بل تعدّاه إلى باقي المواد الغذائية الضرورية، كالمح 8 غروش، والزيت 36 غرشًا، والتين اليايس 10،50 غرشًا، وسعر رطل الدبس 18،50 غرشًا (الدين، 2011 الصفحات 54-56).

ومما زاد من حدّة الأزمة أيضًا ارتفاع أسعار الحليب ومشتقاته من اللبن وغيره، وذلك بسبب تدني عدد الأبقار في الجبل، بعدما فتكت الأمراض المنتشرة بالأبقار الحلوب، ما حرم الأطفال من تناول الحليب، وقد انعكس هذا الأمر سلبيًا على نموهم.

1- أزمة القمح والمواد الغذائية

وفي ظلّ التدابير الاقتصادية التي اتخذتها السلطات التركية في سوريا ولبنان لجهة وضع يدها على القمح، حيث بدأت المشكلة في جبل لبنان، عند إنشاء شركة القمح اللبنانية الجديدة في 27 أيار 1916، وتحت إشراف حاكم جبل لبنان «علي منيف»،

وذلك بهدف توزيع كميات كافية لسكان الجبل وبأسعار عادلة، إلا أنّ هذه الشركة، ورّعت كميات من الغذاء على عدد صغير من السّكان، ولم يحصل النّاس إلّا على كميات محدودة، فكان هناك تمييز بالتوزيع، فانفرط عقد الشركة، وتُرك الأمر إلى مجموعة من الأشخاص الذين حققوا ثروات هائلة على حساب الفقراء. فشحت هذه المادّة، وكثُر الطّلب عليها، وتهافت التّجار من كلّ أنحاء سوريا على شراء القمح وتخزينه، وبيعه بأسعارٍ مُرتفعة. وهنا بدأت الأزمة فعلياً، حيث تنبّهت السّلطات العثمانيّة إلى وجوب اتّخاذ الخطوات اللازمة لتقي جيشها من المجاعة، ف «جمال باشا» عهد إلى التّجار بجمع الحاصلات، وهذا حال دون وصول القمح إلى المُستهلك، ما أدّى إلى ارتفاع سعر مدّ القمح إلى ثمانين قرشاً، وهو الذي كان يُباع ويُشترى بثمانية غروش، ويصحّ أن يُسمّى ذلك غلاء. (البعيني، 2001، الصفحات 85-88).

تشير المُعطيات التاريخيّة بأنّ «جمال باشا» لم ينجح في إدارة الأزمة الداخليّة، فهو لم يكتفِ بمصادرة القمح، بل أصدر أمراً بمصادرة وسائل النّقل الحيوانيّة، بحجّة الضّرورات الحربيّة. فالسّلطات العثمانيّة لم تتجح في تسهيل عمليات نقل القمح، لأنّ الجسم الإداري في هذه السّلطة كان فاسداً، فالقمح ذهب إلى غير الجائعين، وقد ساهمت السّلطة وتجار بيروت وطرابلس وصيدا ومعلّقة زحلة، كلّ على طريقته ساهم في ارتفاع أسعار القمح الجنوبيّة، وبيعها بأنمانٍ باهظة.

ولم يقتصر الأمر على ارتفاع أسعار الحنطة والمواد الغذائيّة، بل تعدّاه إلى ارتفاع في سعر الكاز الذي يعدّ من السّلع الهامّة، التي سعى المواطنون إلى تأمينها من أجل الطبخ والإنارة. وارتفع سعر صفيحة الكاز من 52 قرشاً إلى 60 قرشاً، وهذا بسبب شجع التّجار. (الحارس، 2011، الصفحات 164-165)

2- أموال المُهاجرين

كانت التحويلات الماليّة للمهاجرين، المصدر الوحيد للدخل بالنسبة للعديد من سكان الجبل، وتوقّفها شكّل عاملاً من العوامل التي زادت في تفاقم أزمت الحرب.

ومما لا شكّ فيه أنّ الحرب قد أعاققت وصول المساعدات الماليّة، إلّا أنّ التحويلات استمرّت، ولم يتوقّف البريد الدولي بشكل كليّ، بل استعيض عنه بوسائل بديلة، بمساعدة

الأميركيين والفرنسيين. وأرسلت أولى المساعدات الماليّة من مصر إلى لبنان عن طريق جزيرة أرواد في 29 آب 1916، وتكفّل الأبّ «بولس عقل» مهمّة توزيع الأموال الآتية من المغتربين إلى ذويهم، إلى كافّة المناطق اللبنانيّة. (الحارس، 2011، الصفحات 144-145).

3- تصدّع في مداخل الدولة

انخفضت مداخل الدولة بشكل كبير بسبب الحرب، وللتعويض عن ذلك، كان على كل ولاية أو قرية أو بلدية المساهمة بنصيب معيّن من المال. فُرضت ضرائب جديدة للدخل منها: ضريبة الخروج، وقد فُرضت على الأجانب الذين يغادرون الأراضي العثمانية.

كما أعلن في الأول من كانون الأول من عام 1914 عن ضريبة الحرب (ويركو الحرب)، وكانت بنسبة 3% على كلّ المداخل والمبالغ الثابتة، كما تمّ فرض ضريبة الطّرق (بدل الطريق النقدي)، والذي كان يجب دفعه مرّة في السنة في شهر آب، وفرض على كلّ الرعايا العثمانيين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والستين من العمر، وكان سكان جبل لبنان مشمولين بهذه الضريبة.

كما تقرر فرض ضرائب على العربات الخاصة والتجارية، ودفع الرسم الشهري يرتبط بعدد الحيوانات التي تجرّ هذه العربات.

أمّا السيّارات التجاريّة فالضريبة المفروضة عليها ترتبط أيضًا بعدد الرّكّاب الذين تقلّهم. ومثال على ذلك، فإنّ سيارات الأربع ركّاب كان عليها أن تدفع ست ليرات ذهبية عثمانية كضريبة سنويّاً؛ أمّا السيارات الخاصة فكانت ضريبتها أكثر بمرّة ونصف من السيارة التجارية.

وفيما يخصّ من يملكون درّاجة نارية، دفع رسم مقداره ليرة ذهبية واحدة في السنة. وفي 26 من آذار 1915 اجتمع المجلس الأعلى في بيروت، وفرض ضريبة دخول على القادمين إلى بيروت.

وبالرغم من المساعي إلى توسيع القاعدة الضريبية خلال عام 1915، إلا أنّ ميزانية جبل لبنان كانت تحت عجز مالي، بسبب توقّف مشاريع التبغ والملح التي كانت تدرّ

عليهم الأموال، والتي تُدار من قبل الأجانب. (ص160-159).
 ظلّ اللبنانيون يعانون الأزمة المالية، حيث كان في بيروت عام 1912 أربعة مصارف
 رئيسة هي:

- الشركة الإنكليزية - الفرنسية.

- البنك العثماني.

- البنك الألماني - الفلسطيني.

- بنك سالونيك.

وكانت المراكز الأساسية لهذه المصارف في أوروبا. ومع اندلاع الحرب في أوروبا
 عانى اللبنانيون ويلاتهما، وصدر قرار امبراطوري بتوقيف دفع المستحقات المالية،
 وتحدّدت المبالغ التي لا يمكن سحبها من المصارف. فهذا الوضع المالي المتدهور
 أثر على الأفراد والجمعيات الخيرية والبعثات الأجنبية. (الحارس، 2011، الصفحات
 158-157)

4- انهيار قيمة العملات، وتراجع اليد العاملة.

بعد دخول الدولة العثمانية الحرب، أصدرت العملة الورقية (البنكنوت التركي)، وذلك
 لتغطية نفقات الحرب. وساوت هذه العملة بالليرة الذهبية، فأجبرت الناس على قبضها
 والتعامل بها، فاستغل أصحاب المال هذا الوضع المأزوم لجمع ثرواتٍ على حساب فقر
 وشقاء وعوز الناس، الذين ضاعت ثرواتهم مقابل تأمين غذاء يُبقي لهم رمقاً واحداً من
 الحياة.

ومنذ بداية عام 1916، اعتمدت السلطنة سعراً تبديلياً رسمياً إجبارياً لعملتها، فسعرت
 الليرة العثمانية الذهبية بقيمة مئة قرش، أي ما يوازي سعر 4,4 دولارات أميركية آنذاك،
 والليرة الفضة بقيمة 108 قروش، أو ما يوازي سعر 4,75 دولارات أميركية.

كانت البشلك (نحاس أحمر) والريال المجيدي هما أكثر العملات العثمانية والأوروبية
 تداولاً في الأرياف اللبنانية في المعاملات اليومية لدفع الأجور، وشراء الحاجات المنزلية
 الضرورية.

تدلّ تسجيلات كبار مالكي الأراضي الريفية الزراعية، والتجار والمُرابين والسّماسرة، وجباة الضرائب في جبل لبنان بشكل خاص، والأرياف اللبنانية بشكل عام، أنّ التداول الذي كان سائدًا في التعامل التجاري، والتسليف الزراعي، وقبض الديون، وصرف الحوالات والعمليات المالية الكبرى، كان يتمّ بالعملة الأوروبية الذهبية، وخاصة الليرتين الفرنسية والإنكليزيّة. وهكذا قلّت المعاملة بالليرة الفضية أو الورقية (البنكنوت)، كعملة موثوقة في التداول المالي التجاري، خلال مدّة الحرب العالمية الأولى. (سعيد، 2011، الصفحات 376-377).

فأجرة عامل تقنية الزيتون، وعامل فرط الزيتون، والعامل الزراعي، وعامل النكش، وقيمة أجر الفلاحة وغيرها، تددت قيمتها مع بداية الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي استدعى هُوَلاء العمّال للعمل أياماً إضافية من أجل تجميع ثمن رطل القمح لتأمين الغذاء. لكن هذا الأمر انعكس سلباً على نشاط اليد العاملة، وتراجعها بسبب زيادة أيام العمل الضاغطة والطويلة.

وظلّت قيمة الليرة العثمانية طيلة سنوات الحرب، منذ عام 1914 وحتى 1918، في صعودٍ وهبوطٍ، أحدث ركودًا في حركة البيع والشراء، فالناس - بالتحديد - فضلوا الاحتفاظ بما عندهم من بضائع وغلّال، بدلًا من أن يبيعوها بأوراقٍ صادرة عن دولة مرهقة بنفقات الحرب الباهظة. ومما زاد الأزمة الماليّة سوءًا فقدان القطع النقدية الصّغيرة من أيدي الناس، فتعدّزّ على المواطنين تسديد قيمة الأعمال حتّى الصغيرة منها.

ثالثًا: قساوة الحرب على الحياة الاجتماعية

أسراب الجراد

لم يكن وصول الجراد إلى لبنان في الحرب العالمية الأولى سنة 1915 بالحدث المفاجئ، فقد واجهت البلاد هذه الظاهرة خلال القرن التاسع عشر مرّات عديدة، خلّفت وراءها أضرارًا جزيئيّة، وعلى سبيل المثال: ففي شهر نيسان سنة 1838 وصل الجراد إلى منطقتي الزاوية والكورة. كما وصل في بداية العام 1865 إلى بلاد البترون، وحطّ في بلدتي اجدبرا وعبرين، وبتاريخ 22 كانون الثاني سنة 1870 اجتاح الجراد ساحل مدينة بيروت، وهدّد بوصوله منطقة كسروان. ومع نهاية القرن التاسع عشر، خلال شهر

نيسان 1899، وصل الجراد إلى منطقة كسروان الجردية. (نخول، 2011، الصفحات 801-800). لكن كيف كان مشهد وصول جحافل الجراد إلى لبنان خلال الحرب العالمية الأولى؟

يحلّل الخوري يوسف الحداد، معلّم جبران خليل جبران، واقع اللبنانيين جرّاء قدوم جحافل الجراد إلى منطقة جبيل بقوله: « مع حلول 14 نيسان 1915، سبّح الحيوان الخبيث في الفضاء كغيوم تتلبّد، واندفع على الأرض.. وإذا نحن منه بين عسكريين زحّاف وطيّار..». وظهرت أسراب الجراد الكثيفة في سماء البلاد، لأنّ الدولة العثمانية لم تعمل على مكافحته قبل أن يتكاثر، بعد أن صُرف اهتمام السلطات عن هذه الناحية بفعل نشوب الحرب العالمية الأولى، فباض الجراد وفقس وتكاثر دون عائق، ثم زحف شمالاً، ولمّا ظهر في سماء جبل لبنان، حجب الشمس عن العيون عدّة أيام. ولمّا حطّت الأسراب على الأرض فتكت بالنباتات والمزروعات، وتركت الأشجار عارية جرداء من غير ورق أو ثمر. (الحداد، لا تاريخ).

كان موسم الحصاد يتمّ في أواخر شهر أيار، فالموجة الأولى من الجراد لم تقض على الموسم كلياً، لكن كان هناك نقص في الحبوب، وبالتالي ارتفاع في أسعارها، فلم يعد تأمين الغذاء حكراً على الفقراء، بل طال أيضاً الطبقات الوسطى، فغزو الجراد أدّى إلى تعطيل العملية الزراعية، وخسران الكثير من سكان الريف بساتينهم الصغيرة التي اعتمدوا عليها في تأمين غذائهم، والمُساهمة في تكريس أزمة الغذاء التي أثّرت بشكل مُفجع في الشعب اللبناني أثناء الحرب.

إنّ الأثر المدمر الذي تركته جحافل الجراد على خيرات البلاد ورد في الصّحف اللبنانيّة، مادّة إخبارية في صحف القاهرة، وتناولتها جريدة المقطم تحت عنوان «أخبار سوريا ولبنان». استمرّت جيوش الجراد سبعة أيام، وبذل الأهالي كلّ ما بوسعهم لإبادته، ففرضت الحكومة على كلّ فرد أن يجمع كلّ يوم خمس إقات من الجراد، وبُنّت الجنود في القرى والديساكر لتنفيذ الأوامر، فكانوا يجمعون الرجال والفتيان، ويأخذونهم إلى البساتين والسهول بالقوة العسكرية، ليجمعوا ما فرض على كلّ منهم. (نخول، 2011، الصفحات 805-804-802)

الجوع والأوبئة والأمراض

وفي 21 تشرين الثاني من سنة 1915 عاد الجراد في جولته الثانية مع أرتاله، يسرح ويمرح في البساتين والأراضي الزراعية، ملتهمًا الزرع ومختلف أنواع النبات، ممّا أدّى إلى استفحال المجاعة وانتشار الأمراض.

ففي صيف 1915 اشتدّت المجاعة في لبنان بشكل رهيب، وذلك بسبب فقدان القمح وعدم الحصول عليه، بحجّة احتياج الجيش إليه، وكان الألمان قد طلبوا جزءًا منه، فخيم شبح الجوع على اللبنانيين، ما أدّى إلى إقدام بعض الجياع على ذبح الأطفال المهملين وأكل لحومهم. (ضاهر، 1972، صفحة 26).

وذكر كمال الصليبي أنّ المجاعة قضت أثناء الحرب على الكثيرين من أهل لبنان، فخلت قُرى عدّة لا تزال بعض أنقاضها قائمة إلى اليوم. (الصليبي، 1991، صفحة 206).

في الحقيقة، لم تكن الأرض والاقتصاد في لبنان قادرين على إنتاج ما يكفي لسدّ حاجة السكّان من الغذاء، ولتجنّب المجاعة كان لا بدّ من استيراد الغذاء إمّا عن طريق البحر، أو من الدّاخل. فالحصار المُزدوج منع وصول أي شحنات من الخارج، وتعدّرت تأمين الحنطة من البقاع وسوريا، والأسوأ من ذلك هو صعوبة تأمين وسيلة النّقل التي ستحمل كمية المؤن، وذلك بسبب استخدام الجيش العثماني للسكّك الحديدية، فحاجات الحرب أُعطيت لها الأولويّة في عمليات النقل عبرها، فتأمين حاجات السكان باتت شبه مستحيلة في ذلك الوقت. (الحارس، 2011، صفحة 172).

ومع اشتداد المجاعة عمد الناس في الجبل، وللتخلّص من آلام الجوع، إلى أكل دقيق الشعير والكرستّة، أي غذاء الدّواب والجمال؛ إضافة إلى أكلهم لحوم الحيوانات الميّتة من حمير وبيغال، بالرغم من طعمها النّتن، ولكن ليسدّوا رمقهم انتقامًا من الجوع الكافر.

ويصف د.أنطوان البستاني المجاعة في كتابه «تاريخ المجاعة الكبرى في جبل لبنان (1918 – 1915) بأنّها «إبادة من الدرجة الأولى، حصلت نتيجة إرادة مسبقة، وتمّت ترجمتها بحصار برّي فرضه العثمانيون على كامل جبل لبنان لمنع إدخال القمح من البقاع وسوريا، وفي المقابل قاموا بمصادرة القمح من البيوت لإطعام جيوشهم».

وأضاف: «لقد باع الأهالي بيوتهم ورهنوها مقابل كيس من القمح، وباعت النساء أجسادهن». ما حصل كان رهيباً، حرّك اللبنانيين في مصر وبلدان الانتشار، ما جعل الملك الإسباني والولايات المتحدة يتحرّكان للضغط على السلطنة من دون جدوى». وانتقد من يقولون أنّ الحصار البحريّ الذي فرضه الحلفاء، هو السبب، مشيراً إلى أنّ «القمح يصل إلى الجبل عن طريق البرّ من البقاع وسوريا وليس من طريق البحر، وإذا كان الحصار البحريّ هو السبب، فلماذا صادروا القمح من البيوت ومنعوا إدخاله إلى الجبل؟». وختّم «ما قام به العثمانيّون كان هدفه إبادة المسيحيّين في الجبل، تماماً كالإبادات التي ارتكبوها بحق السريان والآشوريين والأرمن، ويستحقّ هؤلاء منّا تكريم ذكراهم» .

وقد وصف الخوري يوسف الحداد إعاشة الجائعين الصوريّة قائلاً: «صخبٌ وعويلٌ وأبدان عارية وبطون بالظهور لاصقة، وأيدي كالمغازل تنتظر الرحمة.. ولصوص داخل المستودع تسرق الحياة والحياء... وعصيّ جافّة تقع على الصدور والرؤوس، ثمّ أغلق الباب وخرج المتوظّفون.. وهام البائسون حول مرابط الدوابّ يتسابقون على شعيراتٍ بين الرّوث.. وكانت ضحايا الجوع والوباء تنتثر في التراب». «وأجهز الجوع على الكثيرين، وأصبحت قرى برمتها في لبنان خربة ومهجورة». وفي الغلاء وتجارة الأملاك يصف الحدادُ الغلاء بالبلاء؛ إذ «صغرت يد اللبناني، فوقف ضارعاً في باب الدائنين يقدم أرزاقاً سقاها بعرق الجبين... وما كان ثمنه قبل الحرب بعشرات الألوف، بيع وقت الحرب ببضع وريقات». (الحداد، لا تاريخ)

اضطر الكثيرون من اللبنانيين إلى التدرّج بالأسمال البالية لستر أبدانهم ودرء البرد عنهم، وأصبحت الحياة قاسية رتيبة تثير الخوف وتبعث على القلق. وبسبب اختفاء المواد الغذائية أو العجز عن الحصول عليها، لم يجد الكثير من اللبنانيين ما يسدّون به رمقهم. فهجروا بيوتهم وقراهم في الجبل، وتشتتوا في مختلف الأنحاء، وأغلبهم نزل إلى المدن الساحلية مثل بيروت وطرابلس وصيدا، وانطلقوا في شوارعها يفتشون في المزابل وأكوام النفايات قرب قصور الأغنياء عن فضلات الطعام.

هذا الواقع المرير أدّى إلى تكريس الفوارق الاجتماعية بين اللبنانيين، لأنّ ظروفها مكّنت الأغنياء من أن يُصبحوا أكثر غنى، وجعلت الفقراء أشدّ فقراً. فقد تقرب بعض

الأغنياء من الضباط والحكام العسكريين الكبار، الذين كان الحلّ والربط بأيديهم، فصادقوهم وسايروهم، وأقاموا لهم الحفلات الفاخرة والمآدب السخية، وأغرقوهم بالهدايا الثمينة. فكافأهم العسكريون العثمانيون على ذلك بغضّ النظر عن مخالقاتهم. لقد اضطرّ كثيرون من متوسطي الحال إلى بيع خُلاهم، وأراضيهم، وعقاراتهم، وأعلى ما يملكون بأبخس الأثمان، ليشتروا بها القمح من السوق السوداء، ويبعدوا خطر الموت جوعاً عنهم وعن أولادهم وذويهم. عاش بعض هؤلاء إلى نهاية الحرب ليجدوا أنفسهم وقد أصبحوا فقراء مُعدمين، وليروا أنّ الأغنياء قد ضاعفوا ثروتهم بما انتزعوا منهم من مال وأرض وعقار. ومن هنا نقول بنشأة أغنياء الحرب. كما انحسرت اليد العاملة من جرّاء التجنيد الإجباري، واضطرت النساء إلى العمل كخادِمات.

برزت إلى الواجهة مشكلة الاستدانة خلال الحرب، لتظهر مدى الحاجة التي وصل إليها اللبنانيون من أصحاب الأملاك، مُقابل تأمين الغذاء هرباً من الجوع، فكانوا يسطّرون رسائل على كمبيالات إلى ذويهم في الاغتراب لمساعدتهم على تسديد الديون، أو يوقّعون على عقود بيع من الدائنين. (ضو، 2017).

وكأنّ الجوع لم يكفِ الفقراء، فحلّت بهم الأوبئة والأمراض، وانهار الوضع الصحيّ العام بسبب انتشار الأوبئة، بحيث انتشرت أمراض التيفوئيد والملاريا، وغيرها من الأمراض المُعدية والخطيرة، في ظلّ غياب شامل للأدوية. فقلة الغذاء والكساء أضعفت مناعة الأجسام، وعدم العناية بالنظافة ساعد على انتشار الأوبئة التي فتكت فتكاً ذريعاً بالسكان، الفقراء والأغنياء على السواء. فمادّة الصابون التي وصل سعر الرطل منها إلى الأربعين غرشاً كانت غير متوفّرة، وإن توفّرت فكان شراؤها مستحيلاً. (شقرا، 2011، الصفحة 51) ..

أمّا الذباب فكان ينقل حمّى التيفوئيد، والقمل ينقل حمّى التيفوس، والجرذان تنقل وباء الطاعون، وقد تمّت العدوى من العساكر الأتراك الذين حملوا هذه الأوبئة، ونقلوها إلى اللبنانيين الذين اضطروا للعمل مع الجنود، فانتشرت بشكل واسع في كلّ البلاد. أضف إلى مياه الشرب الملوّثة التي سببت مرض الزحار. فالأطباء غير موجودين لأنهم جُنّدوا للعناية بصحة الجيش، والحصول على الأدوية لم يكن متيسراً لعامة الناس؛ وبسبب الجوع والمرض كان النَّاس يموتون بالمئات والآلاف، حتى أنّ كثيرين منهم لم يتيسّر من

يدفنهم. فكانت الجثث تُجمع من الشوارع والطرق في عربات خاصة، وتُرمى في حفر كبيرة جُعلت قبورًا للمشردين التعساء. (العلم، 2011، الصفحات 605-606).

وعرض الدكتور مسعود ضاهر، في دراسته عن التبدلات الاجتماعية في جبل لبنان، دراسة الباحثة الألمانية «ليندا شيلشر»، (مراجعة 1915-1918 في سوريا الكبرى)، عن أسباب المجاعة والتي تعود إلى تحالف عدّة قوى ضدّ الفقراء ومتوسطي الحال من اللبنانيين وسكان المناطق المجاورة. وقد ضمّ ذلك التحالف قوى عثمانية، وفرنسية، وألمانية، وبريطانية، وسورية، ولبنانية، وهذا ما أوجد سوقاً سوداء حقيقية، استفاد منها تجار الحبوب في مختلف مقاطعات بلاد الشام ومدنها، خاصة في حوران، وبيروت، ودمشق، وحلب. (ضاهر، تبدلات اجتماعية في جبل لبنان وآفاقها بعد الحرب العالمية الأولى، 2011، الصفحة 505)

تضاربت المعلومات التاريخية حول تحديد عدد اللبنانيين الذين قضوا جوعاً في الحرب العالمية الأولى. فإنّ هويّة «اللبنانيين» الذين ماتوا جوعاً في مرحلة تاريخية لم تكن واضحة، لأنّ لبنان الحالي لم يكن قد اتخذ هويّة جغرافية وسياسية واضحة المعالم، فكان من الصعب جداً معرفة الرقم الدقيق لضحايا المجاعة. وبسبب غياب الأرقام الرسمية الموثوقة، تمّ الاعتماد على ما ورد في مذكرات بعض الدبلوماسيين، ورؤساء فرق المساعدة، وشهود العيان. (ص 507).

3 - دور المؤسسات الدينية والاجتماعية في التصدي للمجاعة

كان للمساعدات والإعانات دور كبير في التخفيف من معاناة اللبنانيين ومصائبهم، وتعدّدت مصادر هذه المساعدات منها (الباور الإسباني) المحمّل بالمواد الغذائية، حيث وضع الأتراك شروطاً لتوزيع المواد الغذائية، لكنّ السفارة الأميركية في الآستانة، والتي رغبت في إعانة المحتاجين، لم تلتزم بهذه الشروط، فبقي الباور في البوسفور. (العلم، 2011، الصفحة 607).

أيضاً كان للإحسانات الأميركية دورٌ في بيروت والجبل، وأوكلت التفصيلية هذا الأمر للسيدة «مارش» للإشراف عليها وتوزيعها على المحتاجين من عائلات بيروت وجبل لبنان، وعملت سيدات أميركيات ولبنانيات بتوزيع الأشغال اليدوية من حياكة وتطريز،

على سيدات يُجَدن هذا النوع من العمل، وكلفت الرجال بحراسة منشآت الجامعة، وعهدت إلى آخرين، تنظيف الطرقات، وإلى تقنيين وفنيين في شؤون الطباعة وصفّ الأحرف وغيرها من الأمور، وذلك من أجل جني بعض المداخيل. (العلم، 2011، صفحة 608).

ومن المساعدات التي وصلت إلى اللبنانيين المنكوبين أيضاً:

- لجنة منكوبي المجاعة السورية في مصر.

- الجمعية اللبنانية في باريس.

- جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة في بونس آيريس.

- جمعيات الصليب الأحمر.

- مساعدة شخصية للخوري بولس عقل.

- الأب سارلوت رئيس معهد عينطورة، مؤرّع الإعاشة الفرنسية.

وقد أشار الخوري يمين إلى مبلغ مليوني فرنك فرنسي ذهب أرسلتها الجمعيات إلى المطران دريان، الذي تولّى بدوره توزيعها وإرسالها إلى لبنان عبر الكومندان «تزابو» المقيم في أرواد، وقد سلّمها بدوره إلى وسطاء لبنانيين، كالבוاري وكرم وغيرهما، ليتمّ تسليمها للبطريرك الحويك، أو لمستحقيها. (ص 609).

و يذكر الباحث في تاريخ لبنان الأستاذ نايل أبو شقرا في دراسته، والتي وضعها تحت عنوان «الغلاء وأثره في محنة الحرب العالمية الأولى»، بأنّ النصوص الرهبانية المارونية أظهرت بأنّ الرّاهبات هنّ اللواتي عالجنّ موضوع الفقراء، فقدّمنّ لهم ما يُبعد عنهم الجوع، ففي تقرير رفعه الأبّ أغسطين البستاني إلى البطريرك الحويك يخبره فيه بأنّ عدد الفقراء الذين يتوافدون يوميّاً على ديارهم، رجالاً ونساءً وأولاداً، لا يقلّ عن المائة شخص يوميّاً، ويُضيف الأبّ البستاني بأنّه تمّ استدانة مبالغ طائلة بفوائد باهظة من أجل إعانة الناس وخدمتهم. وفتح البطريرك غريغورس حداد أبواب البطريركية في دمشق أمام الفقراء، ومن بينهم القادمون من مختلف أنحاء لبنان.

ولا بدّ من ذكر دور البطيركيّة المارونية في التصدي للمجاعة، حيث كان البطيريك الماروني إلياس الحويك يتفطّر حُزناً على حال اللبنانيين الجياع، حاول رهن قسم من أرزاق الكرسي فلم يتيسّر له ذلك، فأمر الأديار بالمساعدة واستدانة الأموال ففعلوا. وفتحت بكركي أبوابها لإطعام الجياع. والتزم دير ماريوحنا مارون بأوامر البطيريك، وإبتدأ باستقبال الفقراء منذ عام 1916. وقد بلغ عدد الذين استقبلهم حتى نهاية الحرب، كما جاء في سجّل محفوظ، إثني عشر ألفاً وخمسة وستون من ضيوف وفقراء.

وتابع البطيريك اهتمامه برعاياه، ففي 26 كانون الثاني 1917 أمر الأبوان إبراهيم حرفوش وشكر الله مبارك بإغاثة المحتاجين، وأوعز إلى الرهبان اللبنانيين التجوّل في بلاد جبيل والبترون والشوف والمتن، لإغاثة المحتاجين أيضاً. (نخول، 2011، الصفحات 837-838).

وكان قد فُرضَ على البطيريك والأساقفة الموارنة مسألة «الفرمان» السلطاني من قبل «جمال باشا» بداية الحرب العالمية الأولى، وإجبارهم على طلبه. وبعد مفاوضات وتداولات حامية في هذا الشأن، استقرّ رأي البطيريك والأساقفة في 8 كانون الثاني 1915 على طلب الفرمان، وإرسال برقية في هذا الخصوص إلى نظارة الأديان في اسطنبول، وأخرى إلى «جمال باشا»، إلّا أنّ قرار طلب «الفرمان» لم يخفّف من حدّة السلطات العثمانيّة تجاه الأكليروس الماروني، وذلك بسبب علاقته بفرنسا.

4- توقّف الحركة التعليمية والهجرة إلى الخارج

بسبب ظروف الحرب القاسية التي أنهكت اللبنانيين، إمّا بسبب الجوع أو الإصابة بالأمراض المميتة، فإنّ معظم المدارس في جبل لبنان أقفلت أبوابها طيلة فترة الحرب، فالأب بولس مبارك الخوري الكفرنيسي ذكر بأنّ مدرسة مار يوحنا رشميا أقفلت أبوابها خلال عامي 1916 و1917، كما أقفلت مدرسة الفنون ودار السلام الإنجيليّة في صيدا بسبب الأزمة المعيشيّة، إذ عجز أهل التلامذة عن دفع أقساط أولادهم، الذي كان يبلغ رسمها السنوي خمس عشرة ليرة إنكليزيّة، وقد نتج عن هذا الإقفال رفع نسبة الأميّة في المجتمع اللبناني إلى 90%. (شقرا، 2011، الصفحة 52).

وكانت المدارس الروسية منتشرة في مناطق سوريا ولبنان وفلسطين، وذلك بفضل نظامها التربوي الرائد ومجانيتها، وبسبب تشجيع البطريركين الأرثوذكسيين ميلانيوس الدوماني وغيغوريوس الرابع لها، وذلك سنة 1912 و1913. وعند اندلاع الحرب توقّف تدفّق الأموال الداعمة لهذه المدارس وتحويلها إلى البنوك، وبالتالي توقّف الدفع للأساتذة والموظفين العرب. وقد أُسيئت معاملة الروس بعد أن ألغت تركيا نظام الامتيازات، فأُغلقت كلّ المؤسسات والمدارس الروسية، ووضعت تحت مراقبة رعايا عثمانيين. وبقيت هذه المدارس ومقتنياتها في عهدة البطريرك الأنطاكي. (الراسي، 2011، الصفحات 288-295-296).

إنّ ظروف الحرب القاسية، ولا سيما الحصار البحري، حالت دون هجرة أهالي جبل لبنان إلى غربي المتوسط طلباً للرزق، فبعض العائلات انتقلت إلى جبل الدروز، وخاصة العائلات الدرزية، فوجدت به ملاذاً آمناً في ظلّ الولايات التي يشهدها سكّان جبل لبنان. فهناك أفراد كانوا قد هاجروا إلى أميركا قبل الحرب العالميّة الأولى، فعاشوا بعيداً عن عائلاتهم طيلة فترة الحرب، أي ما يُقارب الأربع سنوات، تاركين زوجاتهم وأولادهم يعانون أزمت الحرب القاسية والمُدّة، وهناك بعض الزوجات طلبن الطلاق من أزواجهنّ وعُدن وتزوجن من جديد، فهذا الوضع أدّى إلى إحداث فجوات في بنية المجتمع اللبناني، من خلال وجود أخوة وأخوات لجهة الأمّ فقط. (شقرا، 2011 الصفحات 49-50).

5- الجمعيات المدنيّة والأحرار يدفعون الثمن بالنفي والاستشهاد

بعد الجراد والتجويح والأوبئة والاحتكار، وفقدان أدنى سبل العيش، كان الظلم الذي لحق بالوطنيين عن سابق تصميم قضى بها الأتراك في بلادنا. وببِد ترتجف كتب الأباتي بطرس الحداد في مخطوطته أسماء الشهداء الذين قضوا ضحية الأتراك واستبدادهم، «والقلب يخفق مضطرباً لذكر أبطال كرام، اشتروا بدمائهم الزكيّة استقلال البلاد، وراحوا يقصّون قضيتهم مع الترك إلى العليّ». هؤلاء الشهداء والمنفيّون، كانوا من الناشطين في الجمعيات المدنيّة أو الدينيّة، وكان من بينهم مفكّرون وصحافيّون وسياسيون ورجال دين، وموظّفون في دوائر مجلس الإدارة الكبير، رفضوا الإذعان للمحتلّ، أو سهّلوا التواصل مع الثوّار والمجاهدين. بالإضافة الى ضحايا جمال باشا

وحكومته من رجال دين مسيحيين ومسلمين، فدفع المدنيون ثمن مقاومة الظلم نفيًا واستشهادًا. (ضو، مخطوطة تاريخ الأباتي بطرس الحداد الكفاعي، 1997)

وقد تمّ ذلك على دفعات، أهمّها في 20 آب 1915، وفي 6 أيار 1916، ونقذ حكم الإعدام في ساحة الشهداء في بيروت، وساحة المرجة في دمشق، ومن الذين أعدموا في 6 أيار: الشيخ أحمد طيارة، سعيد فاضل عقل، عمر حمد، عبد الغني العريسي، إضافة إلى موسى حدّاد، وغيرهم.

الخاتمة:

أربع سنوات من الحصار الاقتصادي البحري والبرّي، لم تتفع معها معظم الاستغاثات التي باعت بالفشل، أمام راعٍ يمارس كلّ أنواع التتكيل برعيّته، كرمى عيون جيش حلم بالوصول مجدّدًا إلى أوروبا. إنّها الحرب التي تضرب دائمًا بعرض الحائط كلّ قيم الرّحمة الإنسانيّة. لقد مات من مات من اللّبنانيين إمّا جوعًا، أو بسبب الأمراض الفتّاكة، وأمّا الذين كُتبت لهم الحياة فقد عاشوا وشهدوا فصول المعاناة من فقر وعوز وتشرد. فقد تلاشت الفوارق الاجتماعيّة بين الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسّطة، فظهرت الاستدانة بالفائدة المركّبة، وبيع الممتلكات العقاريّة، من أجل الصّمود أمام أمواج الكوارث المتلاطمة، والتي حلّت بسكان جبل لبنان أثناء الحرب العالميّة الأولى. وبالرغم من بذل ما يملكون للحصول على الأموال من أجل الحصول على لقمة يسدّون بها الجوع، إلّا أنّ قرارات الحجز على أملاك سكّان الجبل صدرت خلال سنتي 1927 و1928، وذلك بعد انتهاء الحرب، حيث عجز مالكوها عن تسديد المبالغ المُستدانة، فوضع المُدينون يدهم عليها، ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل أقدم بعض المرابين على تسليم طالبي الاستدانة مبالغ من النّقد الورقي، مع إلزامهم بالتوقيع على سندات الدّين بالليرة الذهبية. وبالرغم من كلّ الأيادي التي مدّت من أجل مساعدة أهالي الجبل في محنتهم، من جمعيات ومؤسسات دينيّة، إلّا أنّهم تعرّضوا للقهْر والإفناء، ومحاوله القضاء على وجودهم وحرّيتهم، فالأماسي التي عاشوها في هذه الحرب، والتضحيات الكبرى التي قدّموها بسبب سياسة العثمانيين الجائرة، هي خير دليل على الثمن الباهظ الذي دفعوه، مقدّمين أرواحهم من أجل وطنهم، لذا كان لا بدّ من أخذ العبر من الماضي، فعلى كلّ لبنانيّ ولبنانيّة الإدراك بأنّه لا يُفيدنا الاتكال إلا على أنفسنا، وأن نكون دومًا

جنودًا وعمالًا ورُسلًا للمحافظة على بقاء لبنان واحة حرّة مستقلّة في هذا الشّرق!..

المصادر و المراجع:

البستاني، ا. (n.d). تاريخ المجاعة الكبرى في جبل لبنان، 1915-1918، إبادة مرّت بصمت. بيروت.

البعيني، ت. ن. (2001). ذكريات الأمير شبيب أرسلان عن الحرب الكونية الأولى. نوفل، الطبعة الأولى.

الحارس، ع. ا. (2011). الأوضاع الاقتصادية والمالية في الدولة العثمانية والمقاطعات اللبنانية (1918-1914). بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

الحداد، ا. ي. (لا تاريخ). اللبنانية، رسالة في نكبات الحرب إلى المهاجرين. دار عصام حداد للإعلان والإعلام والطباعة والنشر.

الدين، م. ت. (2011). وثائق ملحم تقي الدين، دفتر (و). In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الأول. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

الراسي، ج. (2011). المدارس الأرثوذكسية في منطقتي حاصبيا ومرجعيون مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الأول. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

الصليبي، ك. (1991). تاريخ لبنان الحديث. بيروت: دار النهار للنشر.

العلم، و. (2011). مصادر لبنانية من الحرب الكبرى. In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الثاني. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

سعيد، ع. ا. (2011). تطور حركة الأسعار والأجور. In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الأول. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

شقران، ن. ا. (2011). الغلاء وأثره في محنة الحرب العالمية الأولى. In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الأول. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

ضاهر، م. (1972). تاريخ لبنان الاجتماعي. بيروت: دار الفارابي.

ضاهر، م. (2011). تبدلات اجتماعية في جبل لبنان وأفاقها بعد الحرب العالمية الأولى. In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الثاني. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

ضو، ط. (1997). مخطوطة تاريخ الأباتي بطرس الحداد الكفاعي.

ضو، ط. (2017). شهادتنا وشهداؤنا زرع الكنيسة ولبنان الكيان. جبيل.

فريحة، أ. (1980). القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال. دار النهار للنشر.

نخول، ج. (2011). بلاد البترون في الحرب الأولى. In لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الثاني. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانية.

دور الجهات المانحة والداعمة في التنمية المحلية (بلدة تمنين الفوقا نموذجاً)

حسين محمد جانين¹

المقدمة:

تعدّ قضية التنمية من القضايا الرئيسيّة التي تحتلّ مكانة هامّة على المستويين العالمي والوطني. وخير دليل على ذلك، الكمّ الهائل من الدراسات والبحوث والمقالات، التي تنشر في جميع أنحاء العالم.

فالتنمية تعتبر مدخلاً مهماً يمكن من خلاله الانتقال بالمجتمع، من حالة التخلف والركود، إلى حالة التقدم والقوّة، والسير به نحو النموّ والارتقاء إلى ما هو أفضل. كما لها دور مهمّ في سدّ وتلبية الاحتياجات الأساسية للسكان المحليين.

فالإنسان هو المنوط به تحقيق التنمية بكل أبعادها، سواءً أكان فرداً أم جماعةً أم مجتمعاً. لذا فإنّ التنمية لا يمكن أن تكون فاعلة ومستمرّة وذات نتيجة، إن لم يكن هنالك إنماء لفكر وقدرات الإنسان، على المستوى العلمي والثقافي والاجتماعي والصحي والاقتصادي. لكي يكون قادراً على فهم وتحقيق حاجاته وتطلّعاته الحالية والمستقبلية له ولأبنائه، والاستفادة منها بشكل صحيح وبناء.

فقد صرّح برنامج الامم المتحدة الإنمائي في أول تقرير له عن التنمية البشرية عام 1990، بأنّ «الناس هم الثروة الحقيقية لأية أمة، لذا فإنّ الهدف الأساس للتنمية، هو خلق البيئة الملائمة، ليتمتعوا بحياة طويلة خالية من المشاكل»².

لذلك تلعب الجهود المبذولة من قبل الأشخاص وجمعيات المجتمع المدني والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية، دوراً مهماً من خلال مساهمتها في وضع وتنفيذ مشروعات التنمية، التي لا تقلّ أهميّة عن الجهود الحكوميّة المبذولة في هذا الصدد.

(1) - طالب دكتوراه في الجامعة اللبنانية.

(2) - برنامج الامم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية 1990.

لذلك ومن أجل تحقيق أهداف التنمية المستدامة المحلية، وضمان ديمومة استمراريتها، لا بدّ من توليف وتوجيه جهود مختلف الفاعلين في صنع القرار الاقتصادي والاجتماعي والمعلوماتي والبيئي والتربوي.

لذلك تعتبر الهيئات المحلية، إحدى أهمّ الركائز الأساسية للوصول إلى تحقيق التنمية، كونها الأكثر قرباً لاحتياجات المواطنين الحيائية. فهي تقع عليها مسؤوليات وأعباء إدارية وخدمانية رئيسة، تطل مختلف مجالات الحياة.

من أجل تحقيق ذلك بشكل صحيح، لا بدّ من إصلاح الإدارة المحلية للبلديات، وتطوير وتحسين أوضاعها المالية، ورفع قدراتها المؤسسية والتخطيطية، وتذليل العقبات أمامها، كي تصبح قادرة على تولي عملية التخطيط ووضع الاستراتيجيات التنموية الخاصة بها، وتنفيذ المشاريع المنبثقة عنها.

إنّ من شأن التنسيق والتعاون، والدعم والمساندة المباشرة مع إدارة البلديات من قبل الجهات المانحة، سواء أكانوا أفراداً، أم منظمات ومؤسسات وجمعيات محلية ودولية، حكومية كانت أم غير حكومية، أن يسهم في تعزيز الدور التنموي للدولة، القائم على تثبيت المواطنين في أراضيهم، من خلال دعم المشاريع المتاحة، وتحسين نوعية الخدمات المقدّمة لهم .

هذا التعاون ليس خروجاً على دور مؤسسات الدولة، بل هو في غاية الأهمية لتحقيق التنمية، خاصة إذا كان ذلك في بلد ينخره الفساد في مؤسساته كافة. حيث تغيب الخطط التنموية، والمقاربات الجادة عند كل الحكومات المتعاقبة، للملفات الحساسة المعيشية والاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها المواطنون.

لقد أثبتت تجربة العمل البلدي في بلدة تمنين الفوقا، نجاحاً هاماً على مستوى تحقيق أهداف التنمية المحلية، من خلال التعاون والتنسيق المشترك بينها، وبين أفراد وهيئات المجتمع المدني، والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية، واستثمار النية الصادقة للجهات المانحة على تقديم الدعم على كافة المستويات. حيث أحدثت نقلة نوعية على مستوى تحقيق تطلعات السكان داخل البلدة، ونموذجاً مهماً يقتدى به. حيث نأمل من البلديات الأخرى أن تحذو حذو تجربة بلدية تمنين الفوقا المميزة.

لذلك سنتطرق في هذا المقال، إلى مفاهيم التنمية وأبعادها وأهدافها، وأبرز المشاريع التي نفذت، وتلك التي هي قيد الإنجاز، بالإضافة إلى المشاريع التي توقفت العمل بها مؤقتاً نتيجة توقف وغياب التمويل الكافي.

بالإضافة إلى الإضاءة على أسماء كافة الجهات المانحة والداعمة لمثل هذه المشاريع، سواء أكانت محلية أم أجنبية.

أولاً: التنمية البشرية المستدامة، مفهومها، أبعادها، وأهدافها.

1. مفهوم التنمية والتنمية البشرية والتنمية المستدامة:

- مفهوم التنمية:

«هي عملية تغيير في البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع، وفق توجهات عامة لتحقيق أهداف معينة، تسعى أساساً لرفع مستوى المعيشة للسكان في كافة الجوانب»¹.

تعرف أيضاً بأنها: «عملية تغيير اتجاهات وقيم، وتعديل سلوك وخلق مهارات وإنشاء وعي، فهي عملية تملك كل أسباب التقدم، القدرة على إرساء نظم وتوطن الإبداع»².

- مفهوم التنمية البشرية:

التنمية البشرية هي «عملية تهدف إلى زيادة الخيارات المتاحة أمام الناس، حيث تتركز الخيارات الأساسية في ثلاث خيارات وهي: أن يحيا الناس حياة طويلة خالية من العلل، وأن يكتسبوا المعرفة، وأن يحصلوا

على الموارد اللازمة لتحقيق مستوى حياة كريمة»³.

- مفهوم التنمية المستدامة: (Sustainable Development)

التنمية المستدامة هي نمط من التنمية، لا يفرط في استثمار مصادر الثروات الطبيعية، التي تركز عليها التنمية الاقتصادية. فمبدأ التنمية المستدامة يقوم على مفهوم تجديد

(1) - أحمد رشيد، التنمية المحلية، بيروت دار النهضة العربية 1986، ص 14.

(2) - Raymond B et François B ,dictionnaire critique de la sociologie ED, presse universitaire de france,pp205-207.

(3) - برنامج الامم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية، 1990.

الموارد والثروات، وإعادة التصنيع بشكل يحافظ على بيئة نظيفة، خالية من التلوث، وصالحة لحياة صحيّة للأجيال الحاضرة والقادمة.

فهي تعمل أيضاً على محو وإلغاء ظواهر الفقر واللامساواة والأنايية بين الشعوب، ومنع نهب موارد الطبيعة، وتقويم انحرافات التقدّم العلمي التي تسيطر على مجتمعاتنا، كي تتمكّن الأجيال الحاضرة والقادمة من الاستفادة من موارد الطبيعة.

ونتيجة للخلل القائم في الموازين بين دول العالم، قامت الدول القويّة أي الدول المتقدّمة، من خلال الهيمنة والقوّة والاستعمار، بالتحكّم بثروات الدول الفقيرة ونهبها، وبالتالي حرمت شعوب هذه الأخيرة من تحقيق النمو والازدهار والرفاهية، ممّا أدّى ذلك إلى ظهور فجوة وفروقات كبيرة على كافّة الصعد الاقتصادية والاجتماعية..... الخ، بين الدول المتقدمة والدول النامية.

إنّ تحقيق التنمية البشرية المستدامة بالنسبة للدول المتقدمة قبل الحرب العالمية الثانية، كان يقوم على مبدأ رفع النمو الاقتصادي لهذه الدول، من دون الأخذ بعين الاعتبار التأثيرات السلبية لذلك النمو على البيئة، والإفراط الكبير باستهلاك الموارد الطبيعية غير المتجدّدة. ونتيجة لذلك بدأت المشاكل البيئيّة بالظهور، ملقبة بظلالها الثقيلة على كل دول العالم (التلوث - رفع حرارة درجة الأرض) بما فيها الدول الفقيرة غير المستفيدة منها .

وبسبب ذلك، بدأت اهتمامات الدول بالظهور في فترة السبعينيات، من خلال ضرورة وأهميّة الحفاظ على التوازنات البيئية والموارد الطبيعية غير المتجدّدة، وأهميّة ربط تحقيق النمو الاجتماعي بالنمو الاقتصادي.

وبسبب ظهور هذه الاهتمامات الجديدة القائمة على مبدأ الحفاظ على البيئة، بالإضافة إلى الدراسات والتقارير التي أثارها نادي روما الشهير، القائم على أهميّة الحفاظ على التوازنات والأنظمة البيئية والموارد الطبيعية غير المتجدّدة، برز في مرحلة الثمانينيات تقرير عن الامم المتحدة، يعرف فيه مفهوم التنمية المستدامة بأنّها، «التنمية التي تؤمّن الحاجات الحالية للسكان دون المساس بحاجات الاجيال في المستقبل»¹.

(1) - تقرير برونتلاند، التنمية المستدامة، 1987.

فالاستدامة تعني إزاء، استمرارية أجيالنا القادمة بالاستفادة من الموارد غير المتجددة، القائمة على تحقيق النمو والتنمية، في ظلّ وجود بيئة مستقبلية نظيفة وغير ملوثة.

ولكن أعيد النظر في مفاهيم التنمية المستدامة، لناحية اعتبار الإنسان بأنه الركيزة الأساسية والمهمّة في عملية صنع التنمية، من خلال دوره المهمّ في المشاركة والتخطيط والتنفيذ واتخاذ القرارات التي تؤمّن له فرص العيش الكريم في بيئته.

بناءً على ذلك، تطوّر مفهوم التنمية ليُجعل من الإنسان سواءً أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً، محوراً أساسياً في صنع عملية التنمية. حيث صدر تعريف جديد للأمم المتحدة عام 2011، يعتبر التنمية المستدامة «توسيع الحريات الحقيقية للناس اليوم، مع بذل جهود لدرء خطر المساس بحريات أجيال المستقبل»¹.

فوفق تقرير التنمية البشرية، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية، الذي قال إنه، «ينبغي أن يكون الرجال والنساء والأطفال محور الاهتمام، حيث يتمّ نسج التنمية حول الناس، وليس الناس حول التنمية، وذلك للأجيال الحاضرة والقادمة»².

2. أبعاد التنمية المستدامة:

للتنمية المستدامة أبعاد رئيسة، تتجلى بالبعد البيئي والاجتماعي والاقتصادي وأبعاد أخرى داعمة لها، كالبعد السياسي والتكنولوجي.

- البعد البيئي:

قامت منظمة الشبكة العالمية للبصمة البيئية، والتي تأسست في كندا عام 2003، بقياس أثر البشر على الأرض، من حيث استهلاكهم للموارد الطبيعية، الذي يفوق قدرة الارض على إنتاج هذه الموارد.

فالبصمة الايكولوجية، «هي التي تقيس سرعة استهلاك الناس للموارد كافة وتوليدهم للنفايات، مقارنة مع سرعة الطبيعة في استيعاب هذه النفايات وتوليد موارد جديدة»³. من هنا أهمية الاستخدام الرشيد للموارد الناضبة، ومراعاة القدرة المحدودة للبيئة على

(1) - فاعور تانيا، التنمية البشرية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، المؤسسة الجغرافية، بيروت 2014، ص 27.

(2) - برنامج الامم المتحدة الإنمائي، مرجع سابق، 1990.

(3) - تانيا فاعور، مرجع سابق ص 64.

استيعاب النفايات. وضرورة استخدام كل مورد من الموارد بشكل محدد. لذلك فإنّ التنمية المستدامة تهدف إلى التوفيق بين التنمية الاقتصادية والمحافظة على البيئة، وحقّ الأجيال القادمة في الاستفادة من الموارد الطبيعية غير المتجددة. لذلك لا مانع من تطوير التكنولوجيا التي تحقّق النمو، شرط العمل على حماية الموارد الطبيعية من الاستنزاف والتلوّث، والحفاظ على التنوع البيولوجي.

البعد الاجتماعي:

يوضّح هذا البعد العلاقة بين الإنسان والبيئة، من خلال حصول استقرار على مستوى النمو الديمغرافي، وتعزيز قدرة الحكومات على توفير الخدمات للسكان وتحفيزهم على المشاركة في صنع القرار.

يعتمد هذا البعد أيضاً على الجانب البشري، من خلال العمل على تثبيت النمو الديموغرافي، للحدّ من التزايد الكبير لسكان العالم، الذي أصبح استمرار نموه أمراً مكلفاً، نظراً للضغوط الناجمة باستهلاك الموارد الطبيعية، وتدمير المساحات الخضراء، وتدهور التربة والحياة البرية.

فالتنمية المستدامة تعني الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية، وتخصيصها لضمان الوفاء بالاحتياجات البشرية، كتعليم القراءة والكتابة، وتوفير الرعاية الصحية الأولية والمياه النظيفة. وتركّز أيضاً على ضرورة وصول هذه الخدمات إلى الفئات الأكثر فقراً، وتحسين الرفاه الاجتماعي، وحماية التنوع الثقافي، والاستثمار في الرأسمال البشري. كذلك لا بد من الإشارة إلى أهمية الحفاظ على صحّة السكان العاملين وتأهيلهم علمياً، وهذا من شأنه أن يساعد في حماية البيئة والموارد الاقتصادية والتنوع البيولوجي.

البعد الاقتصادي:

يقاس البعد الاقتصادي بمؤشّرات التنمية البشرية، مثل زيادة رفاهية المجتمع والمستوي المعيشي والصحي والتعليمي، والقضاء على الفقر، والعمل على تغيير أنماط الاستهلاك، واجراء تخفيضات متواصلة على مستويات الاستهلاك المبدّدة للطاقة والموارد الطبيعية في الدول المتقدمة، التي تهدّد التنوع البيولوجي.

يهدف هذا البعد إلى تقليص تبعية البلدان النامية، وتحكّم الدول المتقدّمة في الأسواق العالمية. حيث تقوم الدول المتقدّمة بتخفيض استهلاك الموارد الطبيعية، ممّا يحرم الدول النامية من نمو صادراتها، ويخفّض من وارداتها. كما يعتبر أنّ الدول المتقدّمة مسؤولة عن التلوّث نتيجة لإفراطها في استخدام الموارد، ومسؤولة أيضًا في معالجته، عن طريق استخدام تكنولوجيا أنظف، وتقليل استخدام الموارد، وحماية النظم الطبيعية، وتوفير الموارد التكنولوجية والمالية، لتعزيز التنمية المستدامة للبلدان الأخرى.

يشكّل التباين والتفاوت بين الدول في الحصول على التعليم والخدمات الاجتماعية والموارد الطبيعية والحقوق والمشاركة السياسية، حاجزًا هامًا أمام التنمية. من هنا أهمية المساواة على مستوى التنمية والنمو الاقتصادي بين الدول كافة.

البعد السياسي:

من أهداف التنمية المستدامة، العمل على تعزيز مشاركة السكّان في القرارات السياسية، من خلال حقّهم في اختيار الهيئات والسلطات والمجالس التي تمثّلهم. كذلك العمل على تعزيز دور المرأة، ورفع مستواها العلمي والصحي، وتأهيلها في كافة المجالات ولاسيما الثقافية. كونها المدبّر الأوّل في الأسرة لناحية تدبير وتنظيم استهلاك الموارد، وتربية وتنقيف الأطفال ورعايتهم، كي يكونوا قادرين على قيادة عملية التنمية والحفاظ على البيئة والاستمرار بعملية التنمية.

البعد التكنولوجي:

تهدف التنمية المستدامة، إلى تحقيق تحوّل نحو تكنولوجيا جديدة ونظيفة، من أجل الحدّ من تلوّث البيئة.

والعمل على نقل التجربة في هذا المجال إلى البلدان النامية الآخذة في التصنيع، من أجل تقادي تكرار الأخطاء التي وقعت فيه الدول الصناعية، والتي سبّبت التلوّث البيئي.

3. أهداف التنمية الاقتصادية:

إنّ تحقيق حياة أفضل للناس، هو هدف رئيسي للتنمية المستدامة، والذي يتمثّل بحق الأجيال المستقبلية كما الحالية، بحقّها بالإستفادة من الموارد الطبيعية، والصحة والتعليم والغذاء، في ظل بيئة صحيّة وسليمة. كما تهدف إلى تحقيق المساواة بين الجنسين،

ومحاربة الفقر وإتاحة المجال للناس للمشاركة في اتخاذ القرارات في الحياة. ولأجل تحقيق ذلك، عقدت العديد من المؤتمرات، التي سعت وما زالت تسعى لتحقيق أهداف التنمية المستدامة، والتي تطوّرت كثيرًا لتشمل كافة مجالات الإنسان.

من أهم هذه المؤتمرات التي عقدت لأجل هذه الغاية ما يلي:

- مؤتمر الأمم المتحدة الذي يعنى بالبيئة البشرية:

عقد في مدينة استوكهولم في السويد عام 1972، وحضره ممثلو إحدى عشرة دولة. يعتبر من المحاولات الأولى لمعالجة العلاقة بين البيئة والتنمية على المستوى العالمي. صدر عنه 26 بندًا، تعتبر بداية الطريق للمعالجة والحفاظ على البيئة مع النمو الاقتصادي. وأبرز ما تضمنه « إن صون البيئة البشرية وتحسينها لأجيال الحاضر والمستقبل أصبح هدفًا لا سبيل لبني الإنسان إلا تحقيقه»¹.

- مؤتمر قمة الأرض:

عقد في مدينة ريو دي جانيرو في البرازيل عام 1992، وذلك بعد مضي 20 عامًا على انعقاد مؤتمر استوكهولم. حضره ممثلون عن 172 دولة، و 10000 إعلامي و 2400 منظمة غير حكومية.

أبرز ما صدر من بنود في ختام المؤتمر ما يلي:

- « إعلان مؤتمر ريو دي جانيرو بشأن التنمية والبيئة، والذي تضمن 27 بندًا أساسيًا تتعلق بتحقيق أهداف التنمية المستدامة، كالقضاء على الفقر والحفاظ على البيئة، وتأمين التعليم والصحة، وتمكين المرأة والمشاركة في السلطة واتخاذ القرار.

- جدول أعمال القرن الواحد والعشرين، والذي يهدف إلى إظهار المشكلات البيئية والتنمية، التي ستواجهها الدول في القرن القادم، بسبب النمو الاقتصادي، ووضع الاستراتيجيات والخطط، لمعالجة هذه المشكلات، على مستوى كافة الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية وغيرها....

(1) - اعلان استوكهولم، البيئة البشرية، 1972.

- مبادئ الغابات، والذي يتعلّق بإدارة الغابات وصونها وتنميتها من قبل الدول.
 - اتفاقية الأمم المتحدة الاطاريّة بشأن التغير المناخي، القائمة على الحفاظ وحماية النظام المناخي ومعالجة آثار هذا التغيّ¹.
 - اتفاقية التنوّع البيولوجي، والتي تتمثّل في صيانة التنوّع البيولوجي، واستخدام عناصره على نحو قابل للاستمرار، والتفاسم العادل والمنصف للمنافع الناشئة من استخدام الموارد الجينيّة، وذلك عن طريق الحصول على الموارد الجينيّة بطرق ملائمة، ونقل التكنولوجيا الملائمة ذات الصلة، مع مراعاة الحقوق كافة في هذه الموارد والتكنولوجيا، وعن طريق التمويل المناسب». (المادة 1 ص 4).
- مؤتمر قمة الألفية:**

أنتجت العولمة تحديات كبيرة وخطيرة، مثل غياب الأمن والفقر، وانعدام المساواة داخل المجتمعات، وانتشار الأزمات المالية، ممّا أدّى إلى ظهور تحركات شعبية ضد العولمة في كل دول العالم، حيث كانت الدافع الرئيسي، كي يتبنّى رؤساء دول وحكومات 189 دولة المنعقد في مقر الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك بتاريخ 6 حتى 8 أيلول/ 2000، مشروع إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية، للدفع قدماً بالتنمية، وتخفيض الفقر بحلول عام 2015. ملزمين فيه دولهم ببذل المزيد من الجهود، من خلال معالجة، المداخل غير الكافية، والجوع، وعدم المساواة بين الجنسين، والتدهور البيئي، وسوء التعليم، وغياب الرعاية الصحيّة والمياه النظيفة. كما يتضمّن إجراءات تقوم بها البلدان الغنية، لتخفيض الديون، وزيادة المساعدات للبلدان الفقيرة، والتبادل التجاري معها.

من أهمّ الاهداف التي تبنتها قمة الألفية ما يلي²:

1. استئصال الفقر والجوع الشديدين.
- 2 - تحقيق التعليم الابتدائي الشامل لجميع الأطفال في كل مكان.
- 3 -الحضّ على المساواة بين الجنسين، وتمكين النساء من خلال إزالة الفوارق بين الجنسين في التعليم الابتدائي والثانوي وفي جميع مستويات التعليم.

(1) - مؤتمر قمة الارض، ريو دي جانيرو، 1992.

(2) - الامم المتحدة، الاهداف الإنمائية الألفية، نيويورك ، أيلول 2000.

4- تخفيض نسبة وفيات الأطفال دون سن الخامسة.

5- تحسين الصحة الأمومية، من خلال خفض معدّل وفيات النساء في مراحل الحمل والولادة .

6- مكافحة فيروس نقص المناعة البشرية والملاريا وأمراض أخرى.

7- ضمانة الاستدامة البيئية.

8- تطوير شراكة عالمية شاملة للتنمية.

- مؤتمر الأمم المتحدة للتنمية المستدامة (ريو + 20):

«عقد في مدينة ريو دي جانيرو عام 2012 بمناسبة مرور 20 عامًا على عقد المؤتمر الاول في نفس المدينة. حيث تمّ التأكيد على تجديد الالتزام السياسي بالتنمية المستدامة وتقييم التقدم المحرز والفجوات المتبقية.

أبرز موضوعاته ما يلي: «الاقتصاد الاخضر، والإطار المؤسساتي للتنمية المستدامة لتعزيز التعاون الدولي وتوجيه الجهود»¹.

-مؤتمر قمة الأمم المتحدة للتنمية 2015:

عقد في مقر الأمم المتحدة في مدينة نيويورك، بين 25 و 27 أيلول 2015، بحضور أكثر من 150 رئيس دولة. حيث تمّ إقرار رؤيا شاملة، تتضمن طرقا جديدة لتحسين حياة الناس في كل مكان، وحق جميع الشعوب بأن تنعم بالازدهار بحلول عام 2030. فهي تتضمن 17 هدفاً و169 غاية، والتي وافقت عليها الدول الأعضاء في الأمم المتحدة البالغ عددها 193 دولة.

أمّا الأهداف السبعة عشر²، فتمّ تلخيصها من خلال الصورة التالية:

(1) - تانيا فاعور، مرجع سابق ص 90.
(2) - مؤتمر قمة الامم المتحدة للتنمية 2015، خطة التنمية المستدامة للعام 2030.

صورة رقم (1) أهداف التنمية المستدامة للعام 2030.



المصدر : United Nations Department of Economic and social Affairs

ثانياً: دور الجهات المانحة والمجالس المحليّة في تحقيق أهداف التنمية.(نموذج بلدة تمنين الفوقا).

مقدّمة:

تعمل الجهات المانحة بشكل مستقلّ عن الدولة، من خلال مساعدة الفئات الضعيفة في المجتمع، وتقديم العون والخدمات والمساعدات الخيرية والاجتماعية لها، سواء أكانت ماليّة أم خدماتية، كبناء المستشفيات والمدارس. وهذا من شأنه حتّ الدولة على القيام بعملية التنمية المحليّة في الدول الفقيرة. كذلك تقوم بوظائف أعمق، كتشجيع وتدريب الناس على المشاركة السياسية والديمقراطية، مثل اختيار أعضاء المجالس النيابية والمحليّة.....

تحقّق الجهات المانحة سواء أكانت (أفراداً أم جمعيات، منظمات محليّة أم أجنبية، حكوميّة أم غير حكوميّة)، من خلال دعمها للإدارة المحليّة، دوراً بارزاً في تحقيق إنجاز أهداف التنمية، التي أعلن عنها في خطة التنمية المستدامة للعام 2030.

إنّ التعاون والتنسيق الفريد من نوعه بين مختلف الجهات المانحة وإدارة بلدية تمنين الفوقا، أثمر نجاحاً هاماً، من خلال تحقيق التنمية المحلية.

لقد استطاعت البلدية خلال السنوات العشر الأخيرة، من أحداث نقلة نوعيّة ومهمّة، على مستوى تحقيق جزء كبير من تطلّعات أبنائها التتمويّة. وما كان ذلك ليكون، لولا تعاون وتعاضد ومساندة وثقة أعضاء المجلس البلدي، لرئيس البلديّة صاحب الرؤى والتطلّعات المستقبلية النيرة، والذي استطاع استثمار وتجبير كل علاقاته الجيدة والواسعة مع نواب المنطقة وفعاليتها. كذلك تلقّف كل مساعدة من مختلف الجهات المانحة، واستثمار استعدادها لتقدمة المشاريع، خاصّة تلك التي لها علاقة بتأمين بيئة نظيفة وسليمة، والمياه الصالحة للشرب، والقضاء على الفقر والبطالة، وغيرها من الأهداف التي تساعد في تحقيق التنمية المستدامة لكافة المواطنين من أبناء البلدة، والتي لها دور في تثبيت السكان واستثمار أراضيهم. حيث أصبحت البلدة، محط جذب للكثير من المواطنين، الراغبين بالسكن فيها، ونموذجاً فريداً من نوعه على مستوى بلديات محافظة بعلبك الهرمل.

لقد استطاعت البلدية، بجهود مختلف الجهود المانحة، تنفيذ وإنجاز العديد من المشاريع المهمة. كما أنها تعمل حالياً على إنجاز العديد منها، كذلك تسعى إلى تأمين تمويل الكثير من المشاريع المهمة كي يتمّ البدء بها واستكمالها.

1- نبذة عن بلدة تمنين الفوقا:

هي إحدى بلدات اتحاد غربي بعلبك، تقع في قضاء بعلبك، جنوب محافظة بعلبك الهرمل، على السفح الشرقي لجبل صنين. تبعد عن العاصمة بيروت حوالي 65 كلم، وتشكّل حدوداً فاصلة بين محافظتي بعلبك الهرمل ومحافظة البقاع. يبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر حوالي 1230م، حيث سجّلت أدنى نقطة ارتفاع فيها حوالي 932م، وأعلى نقطة ارتفاع حوالي 1528م.

يحدّها من الشمال بلدتيّ قصرنبا وبدنايل، ومن الشرق بلدة قصرنبا، ومن الجنوب بلدة تمنين التحتا، ومن الغرب بلدة نيجا. تبلغ مساحتها حوالي 10.95 كلم مربعا، وعدد سكانها حوالي 5160 نسمة. صورة فضائية رقم (1).

بلغ عدد المهاجرين منها إلى أميركا الجنوبية حوالي 96 نسمة، في حين بلغ عدد النازحين إلى مناطق خارج البلدة حوالي 300 نسمة.

أبرز عائلاتها: جانبين - ناصر - كركلا - سنّوح - بريدي - شاويش - أحمد قاسم - منذر.

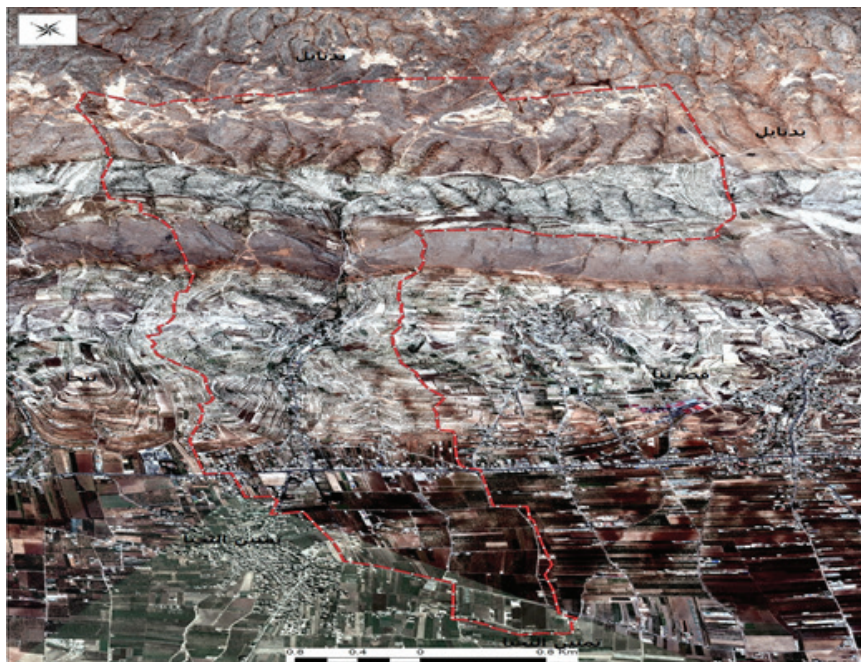
ينشط أهلها بشكل كبير في القطاع الزراعي، حيث يقومون باستغلال الأراضي الصالحة للزراعة حيث تشتهر بزراعة الأشجار المثمرة كالكرز واللوز والعنب وورد الجوري، وأيضاً في القطاع التجاري والخدمات.

- التواجد السوري في البلدة:

التواجد السوري في لبنان خاصّة وفي بلدة تمنين الفوقا هو تواجد قديم. حيث كان دافعه قبل الأزمة، البحث عن فرصة عمل، سواء كانت دائمة أو موسمية، وخاصة في مجالي الزراعة والبناء والتشييد. إلا أنّ الأزمة السورية التي بدأت عام 2011، شكّلت عامل طرد لمئات الآلاف منهم نحو لبنان. حيث أصبح عامل ضغط واستنزاف كبير للبنية التحتية، بالإضافة إلى منافسة اللبنانيين في كثير من المجالات، كاليد العاملة، والوظائف وبعض المهن وغيرها..... في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية ضاغطة وصعبة يعيشها المجتمع اللبناني. وهذا ما دفع المجتمع الدولي، عبر المنظمات الدولية والجمعيات المحلية، إلى تقديم المساعدات للسوريين النازحين الموجودين على الأراضي اللبنانية.

بلغ عدد النازحين في البلدة قبل الأزمة السورية عام 2011 حوالي 850 عاملاً. أمّا بعد الأزمة، فقد ارتفع هذا العدد ليسجل عام 2023 حوالي 2500 سوري. يقيم قسم كبير منهم في الخيم المقامة داخل الأراضي الزراعية الخاصّة في سهل البلدة، في حين يستأجر قسم آخر شققاً سكنية قيد الإنشاء أو مكتملة الإنشاء داخل الأحياء السكنية.

صورة فضائية رقم (2) تظهر بلدة تمنين الفوقا مع حدودها المجاورة.



المصدر: برنامج Maps Off line + اعداد الباحث.

2- تحديات التنمية المحليّة في بلدة تمنين الفوقا:

تتميز البلدة بتنوّع تضاريسها، فهي تتكوّن من ثلاث وحدات طبيعية، من الجبل (الجرد) والسفح الذي يتميّز بوجود التلال ذات الترب الكلسية البيضاء التي تفصل فيما بينها الأودية قليلة العمق، والسهل ذي الترب الخصبة. هذا التنوّع الجميل في تضاريس البلدة، «جعل منه عبئاً كبيراً على مستوى التنمية فيها، على عكس البلدات الواقعة بشكل كليّ في السهل، لناحية شقّ الطرقات وتعبيدها، وإقامة الجدران الباطونية على جانبي الطريق، وإيصال الكهرباء والمياه للأبنية السكنية المتناثرة جرداً وتلالاً وسهلاً، وفتح الطرقات في فصل الشتاء بسبب تراكم الثلوج، وتمديد قساطل الصرف الصحي وإيصالها إلى الأحياء السكنية الجديدة... الخ.

هذا في ظلّ شحّ الأموال، وانهيار سعر صرف الليرة، حيث لم تعد تكفي الأموال التي تتحصّل عليها البلدية من أي مصدر كان، لتأمين رواتب موظفيها. حيث تبلغ نسبة

المواطنين الذين لا يقومون بدفع المستحقات المالية المتوجبة عليهم حوالي 70%، وذلك بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها سكان البلدة»¹.

يحتاج تحقيق المشاريع ذات البعد التنموي، التي تؤمّن حاجات ومتطلّبات أهالي البلدة، الصحية والتعليمية والمعيشية والاقتصادية والثقافية، مبالغ كبيرة، حيث لا تكفي أموال الصندوق البلدي لتنفيذها دون دعم خارجي، وحتى لو افترضنا بقاء سعر صرف الليرة اللبنانية على حاله، أي 1500 ليرة لبنانية للدولار الواحد.

3- نبذة عامّة عن أبرز الجهات المانحة والمؤمّلة للمشاريع، التي لها بصمة إيجابية في رفع مستوى التنمية في بلدية تمنين الفوقا.

- مؤسّسة جهاد البناء²:

تأسّست عام 1988، لأجل تعزيز فكر المجتمع المقاوم على الأرض، حيث كانت الانطلاقة العملية لها في عام 1988، تحت شعار (معاً نقاوم معاً نبنى). هي مؤسّسة إنمائية خدماتية إسلامية في لبنان، لمواجهة الظروف القاسية التي خلفها الحرمان والعدوان الاسرائيلي على المجتمع.

هذا التأسيس لم يكن بديلاً وإعفاءً لمسؤولية الدولة تجاه مواطنيها، بقدر ما كان تعبيراً عن حاجة مجتمعية، وانطلاقاً من حيوية المجتمع الأهلي، وتحفيزاً وتشجيعاً لمؤسسات الدولة للعمل الجاد ولكي تعي المسؤوليات المطلوبة منها.

تهدف هذه المؤسّسة إلى القيام بالمشاريع العمرانية والإنمائية المختلفة، لرفع المستوى الاجتماعي، كترميم الأضرار الناتجة عن القصف الصهيوني، وبناء المساجد والحسينيات، والمراكز الطبية والتعليمية، وتأمين وتأهيل شبكات الريّ، ومياه الشفة، والمجاري وتجهيز الآبار، ومساعدة المزارعين على استصلاح وزراعة أراضيهم، والاهتمام بنشر الوعي الزراعي، عبر التوجيه والإرشاد بأشكاله كافة. بالإضافة إلى تمديد شبكات الكهرباء، وإنشاء محطات لتأمين التيار للقرى النائية، وإنشاء مراكز أبحاث ودراسات مختلفة لخدمة المهام الإنمائية.

(1) - حسين محمد جانين، رئيس بلدية تمنين الفوقا، 2023.

(2) - صفحة مؤسّسة جهاد البناء على الانترنت.

جمعية العمل البلدي¹:

ولدت «جمعية العمل البلدي» بسبب الإخفاقات التي واجهت البلديات، على مستوى سوء التقدير، لناحية تحديد أولويات المشاريع الخدمانية والإنمائية. وهذا ما يؤدي إلى هدر الأموال العامة.

وفي محاولة منها لمنع تلك الإخفاقات أو الحدّ منها، اختارت منذ تأسيسها، أن تكون بمثابة الرافعة للبلديات، من خلال توفير التوجيهات والمتابعات اللازمة لها، بغية الوصول إلى تنفيذ خدمات تنمية تخدم البلدية وأهلها. فالجمعية لا توفر الدعم المالي للبلديات فقط، بل هي همزة وصل بين البلديات وحزب الله، لتوفير الدعم المالي المطلوب لإنجاز بعض المشاريع.

تعمل مديرية العمل البلدي على جمع المجالس والاتحادات البلدية، وتنسّق معها، من خلال ورش عمل تدريبية، بغية مساعدتها في النهوض الإنمائي، وفق أسس قانونية وإدارية وأولويات خدمانية. بالإضافة إلى تأهيلهم، حول كيفية دراسة الحاجات والأولويات التنموية في المنطقة، وكيفية إدارة المشاريع واعتماد التخطيط قبل صرف الموازنات، من دون السهو عن تطوير الأنظمة الداخلية للبلديات.

- الجمعية اللبنانية للدراسات والتدريب²:

تأسست في أيلول عام 1998، وحصلت على العلم والخبر، في آذار 1999.

هي جمعية لا تتوخى الربح، تسعى لخلق بيئة اقتصادية واجتماعية جيّدة، وتعميق الوعي لدى الفئات المهتمّة على امتداد بلدات بعلبك الهرمل. يقوم مركز دراسات الجمعية المتخصصة، في إعداد الدراسات للمناطق المحرومة. حيث تعمل على تعزيز وتمكين الكفاءات المحليّة، وتنظيم الدورات التدريبية بشكل مستمر، من أجل إعداد الكوادر البشرية لكي تكون مؤهّلة في المجالات المهنية والعلمية وغيرها....

- اتحاد بلديات غربي بعلبك³:

تأسس بتاريخ 27/10/2005، بموجب قرار مجلس الوزراء رقم 19، ومركزه الحالي

(1) - الصفحة الرسمية لجمعية العمل البلدي على الانترنت.

(2) - الصفحة الرسمية لجمعية الدراسات والتدريب على الانترنت.

(3) - اتحاد بلديات غربي بعلبك، خطة التنمية الاستراتيجية، اب 2016، ص 14.

بلدة شمسطار، أكبر بلدات اتحاد غربي بعلمك من حيث عدد السكان.

يضم عدّة بلدات وهي: شمسطار - بيت شاما - بدنايل - قصرنبا - تمنين الفوقا - تمنين التحتا - حوش الرافقة - حوش النبي - حوش سنيد - حزين - طاريا - حدث بعلمك.

- منظمة العمل ضد الجوع¹ ACF :

هي منظمة دولية إنسانية غير سياسية، لا تهدف للربح تأسست عام 1979 . اعترفت بها وزارة الداخلية الفرنسية « بالعمل ضد الجوع "ACF" كجمعية ذات منفعة عامة، عام 1994.

تعمل على إنقاذ الأرواح من خلال مكافحة الجوع والمرض، الذي يهدّد حياة الضعفاء من الرجال والنساء والأطفال والتي تخلفها الأزمات والحروب. استجابت عام 2011 للأزمة السورية من خلال برنامج الأمن الغذائي وسبل المعيشة للاجئين. تعمل حالياً في 47 بلداً على الصعيد العالمي، حيث تقوم بتحديد وتنفيذ برامج على مستوى التغذية والصحة والمياه والصرف الصحي، وفقاً لاستراتيجية شاملة ومعايير عالية الجودة.

- المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين² UNHCR :

تأسست المفوضية العليا لشؤون اللاجئين رسمياً في 14 ديسمبر/كانون الأول 1950. تعتمد على مجموعة من القوانين والاتفاقيات والمبادئ التي وضعت سابقاً، بهدف حماية اللاجئين. ثم جاء بروتوكول عام 1967 ليوسّع نطاق عمل المفوضية، إثر انتشار مشاكل النّزوح في معظم أنحاء العالم.

يقع مقرّ المفوضية الرئيسي في مدينة جنيف السويسرية، ويضم خمسة أقسام، المكتب التنفيذي، وإدارة الحماية الدولية المنوط بها تنفيذ التفويض الرئيسي للوكالة وهو توفير الحماية، وإدارة العمليات التي تغطي جميع البرامج الميدانية، وقسم الاتصالات والمعلومات، وقسم إدارة الموارد البشرية.

(1) - الصفحة الرسمية لمنظمة العمل ضد الجوع على الانترنت.

(2) - الصفحة الرئيسية للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين على الانترنت.

يزيد عدد مكاتب المنظمة على 260 مكتبا في نحو 115 بلداً، ويعمل %84 من موظفيها في الميدان في مواقع نائية وخطيرة. تهدف المفوضية إلى توفير الحماية الدولية للاجئين، وإيجاد الحلول الدائمة لقضاياهم. كما تسعى لإيجاد حلول طويلة المدى، لمشاكل اللاجئين في ثلاثة مجالات رئيسية وهي، العودة الطوعية إلى الوطن، أو الاندماج في البلدان التي التمسوا اللجوء فيها، أو إعادة التوطين في بلد ثالث.

تقدم المفوضية المساعدة للأشخاص النازحين داخلياً، مثل المساعدات المادية والأغذية والمياه والرعاية الطبية والمأوى. كما تعمل على الترويج للاتفاقات الدولية الخاصة باللاجئين، وتراقب مدى امتثال الحكومات للقانون الدولي.

4- أبرز المشاريع المنفذة على مستوى بلدية تمنين الفوقا، وتلك المنفذة بالتعاون مع مختلف الجهات المانحة والممولة ما يلي¹:

• **إنشاء مبنى البلدية الحالي:**

تأسس عام 2018، بتمويل من الصندوق البلدي. بلغت تكلفته تقريباً حوالي \$400000. يتألف من مستودع وطابقين. تبلغ مساحته حوالي 250 متراً مربعاً. تشغله البلدية حالياً، ريثما يتم الانتهاء من تشييد المبنى البلدي الأساسي. تسعى البلدية وبالتواصل مع وزارة الصحة على استجلاب مستوصف إلى البلدة، وفي حال تم ذلك سنقوم البلدية بتقديم وتخصيص الطابق الأرضي لصالح هذا المستوصف.

صورة فوتوغرافية رقم (3) تظهر المبنى البلدي الحالي ومركز المستوصف المستقبلي.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

(1) - مقابلة مع حسين محمد جانين، رئيس بلدية تمنين الفوقا، بتاريخ 24/7/2023.

• إقامة ملاعب رياضية:

بدأ العمل بها عام 2017، بتكلفة حوالي \$180000، والذي تمّ تمويله بالتعاون مع اتحاد بلديات غربي بعلبك والبلدية والجمعية اللبنانية للدراسات والتدريب.

- يتألف من: ملعب ميني فوتبول، والذي يبلغ طوله 50 مترا وعرضه 40 مترا، ومحاط بالشبك الحديدي بارتفاع 6 أمتار. ومن ملعب كرة سلة، طوله 40 مترا وعرضه 15 مترا تقريبا، محاط بالشبك أيضا بارتفاع 6 أمتار، بالإضافة إلى موقف سيارات وغرفة للإدارة. كما تمّ تجهيز الملاعب، بلمبات إضاءة تعمل على الطاقة الشمسية. تسعى البلدية مستقبلاً، لفرش ملعب الميني فوتبول بالعشب الاصطناعي، من خلال العمل على تأمين جهة مانحة لتمويله.

توفّر هذه الملاعب فرصة كبيرة لشباب البلدة، لتحقيق هواياتهم الرياضية وتمضية أوقات فراغهم مجانا. كما تتميز أيضا بقربها من مكان سكن شباب البلدة مما يوفّر عليهم أيضا تكاليف النقل، في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعانيها الأسر. صورة فوتوغرافية رقم(4): تظهر موقف السيارات وغرفة الإدارة وجزءا من ملعب الميني فوتبول .



المصدر: عدسة الباحث 2023.

صورة فوتوغرافية رقم (5): تظهر جانبًا من ملعب الميني فوتبول ولمبات الإنارة على الطاقة الشمسية.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• معمل فرز النفايات المفروزة سابقًا.

تعاني بلدة تمنين الفوقا، كغيرها من البلدات والقرى والمدن، من مشكلة النفايات. في ظل غياب ثقافة الفرز المنزلي الأولي لها، وصعوبة اختيار أراضٍ تصلح أن تكون مكبًا للنفايات، ولا تسبّب تلوثًا للهواء، والمياه السطحية والجوفية، والأراضي الزراعية من مخلفات النفايات المتطايرة جراء العواصف.

هذا في ظل غياب الخطط لناعية إنشاء مطامر صحيّة في المناطق اللبنانية. أمام هذا الواقع، استطاعت البلدية منذ مدّة، بالاستفادة من اهتمام منظمات الأمم المتحدة بدعم النازحين السوريين في لبنان، والذين يزيدون من مشكلة النفايات والتلوث في البلدة خاصّة وسائر بلدات لبنان عامّة.

لذا قامت البلدية بالتعاون مع منظمة UNHCR التي تعنى بشؤون النازحين السوريين، بإقامة معمل لفرز النفايات المفروزة منزليًا. كما كان لمنظمة Anera الأميركية دور في تمويل بعض التجهيزات داخله.

تمّ انشاؤه في جرد البلدة على الحدود مع بلدة بدنايل عام 2018. تبلغ مساحته حوالي 2000 متر مربع تقريبًا، وبتكلفة حوالي \$ 800000. ويقسم المعمل إلى قسمين:

القسم الاول: مساحته 700 متر مربع، ويحتوي على معدّات كبس النفايات غير العضوية، كالبلاستيك والكرتون والمعادن وما شابه.

القسم الثاني: مساحته 700 متر مربع، يحتوي على معدات فرم المواد العضوية وتحويلها إلى كمبوست. **صورة فضائية رقم(6).**

تم تجهيز المعمل بمولّد كهربائي وبوبكات وجرار زراعي مزوّد بفزّامة، بالإضافة إلى طاقة شمسية لغرفة الإدارة. كما تمّ توزيع خمس آليات لجمع النفايات على بلديات تمنين الفوقا وقصرنبا وبدنايل لكل منها آليّة، وآليتين لبلدة تمنين التحتا. بالإضافة إلى توزيع 4000 حاوية بلاستيكية بالألوان الثلاثة المساعدة على الفرز ، لكل بلدة من البلديات المذكورة أعلاه 1000 حاوية. أمّا سبب إشراك بلديات تمنين التحتا وقصرنبا وبدنايل بهذا المشروع، فهو للحصول من هذه البلديات على المخلفات غير العضوية، كالبلاستيك والكرتون وغيرها مجاناً، مقابل حصول هذه البلديات على آليات جمع النفايات وحاويات بلاستيكية، وتأمين رواتب عمّال تنظيف داخل هذه البلديات. ثمّ تمّ انتخاب فريق من الشباب والشابات، من أجل تعليم وتوعية الأسر على كيفية وأهميّة الفرز المنزلي.

كذلك استطاعت البلدية وتمويل من المفوضيّة السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين السوريين، استجلاب آلات لفرم شحالة الأشجار والكروم، من أجل تحويلها إلى قطع خشبية مضغوطة صالحة للتدفئة المنزلية. تبلغ كلفة هذه الآلات حوالي \$160000، وسيتمّ وضعها داخل هنكار فرم المواد العضوية في معمل فرز النفايات المفروزة.

مميّزات هذا المشروع:

يؤمّن فرصة عمل لعشرة لبنانيين وخمسة سوريين من المقيمين داخل البلدة. الحصول على آليات ومعدّات جمع النفايات مجاناً لبلدة تمنين الفوقا والبلديات الثلاث المذكورة أعلاه.

حصول البلدية على ربح بفعل عملية بيع المخلفات غير العضوية.

يساهم في الحفاظ على البيئة والحدّ من التلوّث.

نشر ثقافة الفرز المنزلي.

يشجّع بلديات أخرى على اتباع تجربة بلدية تمنين الفوقا لناحية الفرز المنزلي.

يساهم في تنظيف الأراضي الزراعية من مخلفات الأشجار.

يؤمن للبلدية مردوداً مالياً لقاء بيع مضغوطات مخلفات الأشجار للتدفئة.

صورة فضائية رقم (6) تظهر النفايات داخل معمل الفرز الصرف الصحي

في بلدة تمنين التحتا.



المصدر: Offline Maps + اعداد الباحث.

صورة فوتوغرافية رقم (7) تظهر النفايات داخل معمل الفرز.



المصدر: عدسة الباحث 2023

صورة رقم (8) تظهر عمالا لبنانيين وسوريين يقومون بتوزيع الحاويات البلاستيكية للفرز المنزلي.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

صورة فوتوغرافية رقم (9) تظهر الية لجمع النفايات مقدّمة من منظمة العمل ضد الجوع لبلدية تمنين الفوقا.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

صورة فوتوغرافية رقم (10) تظهر بوبكاتا مقدّمة من منظمة العمل ضد الجوع لبلدية تمنين الفوقا.



المصدر: المصدر: عدسة الباحث 2023.

• مشروع تمنين لتكرير مياه الصرف الصحي.

يقع في بلدة تمنين التحتا على ضفاف نهر الليطاني، على الحدود مع بلدة النبي أيلا، التي تقع في محافظة البقاع. تمّ تذييمه عام 2019 بتمويل من صندوق التنمية العربي. يستقبل هذا المشروع مياه الصرف الصحي من البلدات الواقعة جنوب نبع العليق والواقعة على الناحية الشرقية والغربية لنهر الليطاني، منها بلدة تمنين الفوقا وتمنين التحتا وقصرنبا وحوش الرافقة وغيرها من البلدات... يستفاد من هذه المحطة بعد إتمام العمل منها، في بيع المواد المدوّرة والسماذ العضوي ومن المياه المكرّرة في ريّ الأراضي الزراعيّة. كما تساهم في الحد من تلوث نهر الليطاني، وتأمين فرص عمل بشكل خاص للعاطلين عن العمل من بلدة تمنين التحتا. تستفيد منه بلدية تمنين الفوقا، من خلال إنشاء وصلات الصرف الصحي في كافّة أحياء البلدة، والتي يبلغ طولها حوالي 12 كلم. ممّا يساهم في منع إنشاء جور الصرف الصحي داخل البلدة، والتشجيع على البناء في الأماكن التي وصلت إليها تمديدات الصرف الصحي. تمّ وقف العمل به حالياً، بسبب حجز أموال هذا المشروع في البنك المركزي اللبناني عام 2019، وتوقيف تمويله من قبل الصناديق الداعمة له.

صورة فوتوغرافية رقم (11) تظهر تراكتورا مقدّما من منظمة العمل ضد الجوع لبلدية تمنين الفوقا



المصدر: Offline Map + اعداد الباحث 2023.

• تشجير الأراضي الجرداء وتسييجها.

قامت البلدية وبالتعاون مع جمعية التحريج في لبنان، بتشجير أراضي جرداء وتسييجها بشباك بارتفاع متر تقريباً، حيث تمت زراعتها ببذور وشتول السنديان. يساهم هذا المشروع في زيادة المساحات الخضراء داخل البلدة، والتقليل من مساحة الأراضي الجرداء.

صورة رقم (12) تظهر منشأة الصرف الصحي في بلدة تمنين التحتا



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• تشجير جوانب الطرقات والمساحات الجرداء المشاع.

قامت البلدية خلال السنوات الماضية بغرس الآلاف من شتول السرو والصنوبر المثمر والبري والزيتون، على جوانب طرقات البلدة السهلية والجبلية، وفي داخل البلدة والتلال. وهذا من شأنه زيادة المساحات الخضراء، وزيادة جمالية المنظر، والاستفادة من ثمرها (زيتون - صنوبر)، تخفيف من حرارة الشمس للمارة على الطرقات، وتنقية الهواء من التلوث. تقوم البلدية بسقايتها والاعتناء بها وتنظيفها من الحشائش وتشحيلها في كل سنة.

صورة فوتوغرافية رقم (13) تظهر عملية التشجير الأراضي الجرداء وتسييجها

المصدر: عدسة الباحث 2023.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

صورة فوتوغرافية رقم (14) تظهر أشجار سرو مشجرة على جانب الطريق.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• حفر بئر ارتوازي لبلدتي تمنين الفوقا وتمنين التحتا.

تمّ حفره عام 2013، عمقه حوالي 300 متر، يغذي سكان البلدتين بمياه الشرب والخدمة المنزلية. الجهة الممولة البنك الدولي عبر مؤسسة مياه البقاع، ومجهّز بالطاقة الشمسية لتشغيله، إضافة إلى مولد كهربائي. ساعد على توفير المياه لحيّ الشندابة الواقع في جنوب غرب البلدة لناحية بلدة نيحا.

صورة فوتوغرافية رقم (15) تظهر أشجار سرو مشجرة على جانب الطريق.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• تجهيز بئري المياه لتستفيد منهما بلدتا تمنين الفوقا والتحتا بالطاقة الشمسية. تمّ انشاؤه عام 2019 على أراضي مشاع صخرية بالقرب من مكان تواجد الآبار. وبتمويل من السفارة السويسرية ومنظمة العمل ضد الجوع. قدرّت كلفته حوالي 370000 دولار أميركي.

ميزة هذا المشروع أنّه يؤمّن ديمومة الطاقة الكهربائية نهاراً لتشغيل البئرين، في ظل الظروف المالية الصعبة التي تعاني منها مؤسسة مياه البقاع التابعة للدولة. حيث لا يتأثر سكان هاتين البلدتين بانقطاع المياه، بسبب انقطاع التيار الكهربائي للدولة. كذلك ساهم في الحدّ من حجم فاتورة المازوت وأعطال المولد المشغل لهذين البئرين.

قامت البلدية بدعم من حزب الله، بتقديم المازوت لتشغيل بئري البلدة في فصل الشتاء وفي حالات وجود غيوم في باقي أيام السنة، حيث لا يمكن الاستفادة من الطاقة الشمسية.

صورة رقم (16) تظهر البئر الذي يتمّ حفره حالياً (تموز 2023).



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• المشاريع قيد الإنجاز حالياً:

إنشاء مشروع مياه لتغذية سكان بلدة تمنين الفوقا:

تُعاني أحياء من بلدة تمنين الفوقا، لا سيّما تلك الواقعة على الأطراف والتلال من شحّ المياه، كما تُعاني أحياء أخرى من عدم وصول المياه إليها. حيث يتكبّد أهالي هذه الأحياء تكاليف كبيرة جراء شرائهم المياه. لذلك وأمام هذه المعاناة اقترحت البلدية حفر بئر ارتوازي لتغذية هذه الأحياء بالمياه، حيث لاقى التمويل المطلوب من قبل عدّة جهّات داعمة مالياً.

بدأ العمل به منذ أكثر من شهر، حيث تمّ البدء بحفر البئر الارتوازي في أراضي المشاع وعلى ارتفاع 1200 متر تقريباً عن سطح البحر. والمنوي أن يكون عمقه حوالي 400 متر. كذلك تمّ البدء بتمديد قساطل مياه قطر 5 إنش وبطول 3000 متر، والتي تصل الخزان الواقع قرب البئر، بالخزان الواقع في تل الشندابة جنوب غرب البلدة، والذي يغذي بلدتي تمنين الفوقا والتحتا.

الجهة الممولة لهذا المشروع: صندوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية الأوروبي. تقدّر كلفة حفر البئر وتمديد القساطل حوالي 500000 يورو.

- **مشروع إنشاء خزّاني مياه قرب البئر:** ابتدأ العمل به أوائل شهر آب، واحد بسعة 500 متر مكعب، وآخر بسعة 100 متر مكعب. حيث سيتمّ وصله بالشبكة الرئيسية. الجهة الممولة لهذين الخزّانين هي جمعية العمل البلدي التابعة لحزب الله. كما تمّ تأمين التمويل اللازم لتجهيزه بالطاقة الشمسية.

صورة فوتوغرافية رقم (17) لحقلي الطاقة الشمسية للبئرين في بلدة تمنين الفوقا



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• **تعبيد الطريق الرئيسي داخل البلدة.**

بسبب الحرمان المزمن الذي تعانيه بلدات بعليك الهرمل، والذي انعكس سلبيًا على واقع الطرقات داخل هذه البلدات عامّة و بلدة تمنين الفوقا خاصّة. لذلك استطاعت البلدية بعد عدّة متابعات مع مجلس الإنماء والإعمار بتنفيذ طريق البلدة بطول 1200 متر وتخطيطه. ومن ميزات ذلك مساعدة السائقين على الاهتداء ليلاً أثناء القيادة، ومنع الركن العشوائي للسيارات، وتخفيف الحوادث وأعطال السيارات.

صورة فوتوغرافية رقم (18) تظهر البئر الذي يتم حفره حالياً (تموز 2023).



المصدر: عدسة الباحث 2023.

صورة فوتوغرافية رقم (19) تظهر تخطيط الطريق الرئيسي بعد تعبيده داخل البلدة عام 2023.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

• **شقّ طرقات وبناء جدران على جوانب الطرق.**

تقوم البلدية بشقّ الطرقات التي توصل إلى الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى توسيع الطرقات الضيقة.

كذلك قامت بفلشها بالديفينول وإقامة قنوات مياه على جوانبها. كما قامت بإنشاء جدران على جوانبها لمنع انهيار التراب على الطرق، وكذلك منع انهيار جزء منها. وهذا من شأنه تسهيل وصول المواطنين إلى مساكنهم وأراضيهم الزراعية.

صورة فوتوغرافية رقم (20) تظهر توسيع الطرقات الزراعية داخل البلدة.



المصدر: أرشيف بلدية تمنين الفوقا.

صورة فوتوغرافية رقم (21) تظهر قيام البلدية ببناء جدران على جانب الطريق



المصدر: أرشيف بلدية تمنين الفوقا.



المصدر: أرشيف بلدية تمنين الفوقا.

• تأمين فرص عمل للبنانيين والسوريين المقيمين داخل البلدة.

ألقت الأزمة الاقتصادية اللبنانية بظلالها الصعبة على سكان البلدة، لا سيما المتقاعدين والموظفين من القطاع العام والعاملين في الزراعة. حيث استفادت البلدية من تقديرات منظمة العمل ضد الجوع للأجئيين السوريين، لناحية فرض توظيف لبنانيين في مختلف الأعمال داخل البلدية. مثل إزالة الحشائش على جوانب الطرقات وتحت الأشجار، وتنظيف قنوات المياه، وتكنيس الطرق، وتوزيع الحاويات، وغرس الشتول وغيرها... توفر البلدية من خلال منظمة العمل ضد الجوع وغيرها من المنظمات فرص عمل لأكثر من 25 لبنانياً من أهل البلدة، و25 لاجئاً سورياً مقيمين داخل البلدة.

صورة فوتوغرافية رقم (22) إطفاء حريق من قبل متطوعي أبناء البلدة بالتعاون مع البلدية.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

- إطفاء حرائق في البلدة، لأسباب غير متعمّدة كارتفاع درجات الحرارة، وأخرى متعمّدة كافتعال حرائق من قبل أشخاص ما.

يعاني المزارعون في بلدة تمنين الفوقا من مشكلة عدم وصول الشبكة الكهربائية إلى الأراضي الزراعية الواقعة في تلالها وجردها. وهذا ما يسبب لهم مشاكل منها، شراء مولدات لتشغيل الآبار الارتوازية الزراعية، وتكبّد فاتورة المازوت المرتفعة لتشغيله. لذلك استبشر المزارعون خيراً بوصول شبكة الكهرباء إلى جرد البلدة، وهذا ما شجّع الكثير على حفر الآبار لري الأشجار وإنشاء الأبنية السكنية.

صورة رقم (24) تظهر شبكة الكهرباء في جرد البلدة

صورة رقم (23) تظهر عمالا لبنانيين وسوريين من الجنسين يقومون بإزالة الحشائش على جوانب الطرق



المصدر: عدسة الطالب 2023.

- إنشاء مبنى للبلدية: والذي يتألف من مستودع لآليات البلدية وطابق أول. قامت البلدية بتأجيره لجمعية النور تمنين الفوقا للصناعات الحرفية الغذائية مدّة عشر سنوات، مقابل أن تقوم الجمعية باستكمال بنائه.

• تمديد شبكة الكهرباء إلى جرد البلدة



المصدر عدسة الباحث 2023.

المشاريع التي تسعى البلدية لاستكمالها مستقبلاً.

• المجمع البلدي المستقبلي:

مساحته حوالي 700 م مربع، يتألف من مستودع أرضي مساحته 700 م مربع، من أجل ركن السيارات.

ومن طابق أرضي يقسم إلى قسمين: قاعة للرجال مساحتها 350 متراً مربعاً، وقاعة للنساء مساحتها 300 متر مربع. تم تصميمه لكي يكون قاعة تدريب وتأهيل لمختلف الدورات، وقاعة لاستقبال التعازي.

ومن طابق أول مصمّم ليكون مبنى بلديا ومكتبة عامة.

صورة فوتوغرافية رقم (24) تظهر المبنى الذي قامت البلدية بتأجيره لجمعية النور.



المصدر: عدسة الباحث 2023.

صورة فوتوغرافية رقم (25) تظهر المجمع البلدي المستقبلي قيد الإنشاء .



المصدر: أرشيف بلدية تمنين الفوقا

صورة فوتوغرافية رقم (26) تظهر جولة تقوم بها السفارة السويسرية مع رئيس البلدية ورئيس اتحاد بلديات غربي بعلبك، لتفقد مكان إنشاء الطاقة الشمسية.



المصدر: أرشيف بلدية تمنين الفوقا

كذلك قامت البلدية بالعديد من الأمور والمشاريع التي تلبي احتياجات أهلها منها:
إنشاء قنوات تصريف مياه الأمطار .

تأهيل وترميم العديد من الينابيع داخل البلدة.

تأمين حصص غذائية لبعض المحتاجين في البلدة بالتعاون مع الجمعية اللبنانية.

إنشاء خطوط للصرف الصحي في بعض الأحياء السكنية داخل البلدة وبالتعاون مع وزارة الطاقة.

تأمين نقل مشترك عبر ميني باص شبه مجاني بالتعاون مع بلديات بدنايل وقصرنبا

وبيت شاما.

إقامة دورات إسعافات أولية بالتعاون مع الصليب الأحمر.

السعي إلى إنشاء سوق الجمعة على الطريق العام للبلدة للتخفيف من الأعباء المالية للمواطنين.

المساهمة في تأمين المازوت للآبار العامة بمساعدة من جمعية العمل البلدي.

دعم الجمعيات الحرفية الغذائية في البلدة.

توزيع الشتول والبذور على المزارعين، حسب نسبة حجم حيازة كل مزارع في البلدة، والتي تقدّمها مؤسسة جهاد البناء في كل سنة للبلدية.

إقامة دورات تتعلق بتربية النحل وطرق مكافحة أمراض النحل.

تنظيم دورات زراعية وإرشادية بالتعاون مع مؤسسة جهاد البناء، لتأهيل المزارعين وتدريبهم على كيفية معالجة الآفات التي تصيب القطاع الزراعي، وكيفية ترشيد استخدام الأسمدة، وأساليب الري الجديدة، وكيفية زراعة الفطر.

الخاتمة:

إنّ النجاح المهمّ الذي تحقّق على مستوى التنمية الماليّة في بلدة تمنين الفوقا، ما كان ليكون لولا تضافر جهود القوى المانحة والداعمة وتعاونهم مع الإدارة المحلية للبلدة. والذي أثمر نجاحاً كبيراً ومميّزاً على مستوى رفع مستويات التنمية في البلدة في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وساهم في إحداث نقلة نوعية للبلدة، نسبة إلى باقي البلدات البقاعية المحيطة بها خاصّة. حيث نأمل أن يطبّق هذا النموذج من أجل تحقيق التنمية المحليّة في بلدة تمنين الفوقا في باقي البلدات اللبنانيّة عامّة، والتي توصل في النهاية إلى تحقيق التنمية المجتمعية على مستوى لبنان.

لائحة المصادر والمراجع والمقابلات:

1. أحمد رشيد، التنمية المحلية، دار النهضة العربية، بيروت 1986.
2. عثمان محمد غنيم وماجدة أحمد أبو زنط «التنمية المستدامة: فلسفتها وأساليب تخطيطها وأدوات قياسها»، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2007.
3. تانيا فاعور التنمية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، بيروت 2014.
4. تقرير برونتلاند، التنمية المستدامة، 1987.
5. برنامج الامم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية، 1990.
6. مؤتمرات الامم المتحدة للتنمية للاعوام 2015-2012-2000-1992-1972.
7. Raymond B et Français B , dictionnaire critique de la sociologie ED, presse universitaire de france.
8. مقابلة مع رئيس بلدية تمنين الفوقا حسين محمد جانبين بتاريخ 24/7/2023.

تعريب المسكوكات العربية الإسلامية لمياء دلة

النقود الإسلامية تعدّ مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ والآثار في الحضارة العربية الإسلامية، فقد حظيت باهتمام خاص نظرًا لارتباطها بأمر الشريعة وفي ميدان العبادات والمعاملات.

فهي تعطي فكرة عن اسم الحاكم وألقابه، والنظام السياسي الذي تقوم عليه الدولة، واسم ولي العهد، وفي بعض الأحيان تعكس عقيدة أهل البلاد، وطبيعة الجهاز الإداري للدولة من خلال دراسة الأسماء المسجلة على النقود، حتى أنّ الثّوار والخارجون أدركوا أهمية النقود من النّاحية الإعلاميّة، لذلك قاموا بضرب النقود وسجّلوا عليها أسماءهم مع أنّها كانت لا تجوز في أسواق التّدال النقديّ، ويتم سحبها ليعاد صهرها.

وتعكس المسكوكات أيضًا الأحداث السياسيّة والعسكريّة التي تشهدها البلاد بما تحمله من كتابات وزخارف تعبر عن الانتصارات العسكريّة، وتساعد في معرفة الحدود الجغرافيّة لكل دولة، والتعرّف على المدن الرئيسيّة ذات النشاط السياسيّ والاقتصاديّ.

ويبدو أنّ النقود مرت بمراحل كثيرة قبل النّقود الإسلاميّ، وكانت بلاد الرّافدين الأولى في اتخاذ المعدن كوسيلة للمبادلة⁽¹⁾، كذلك عرفت مملكة ليديا القديمة (بالقرب من أزمير في تركيا حاليًا) صناعة المسكوكات وانتشارها إلى بلدان العالم أجمع، وضربت على شكل حبة الفاصوليا، أمّا في اليونان فقد تقدّمت صناعة المسكوكات بتطوّر الفنّ اليونانيّ، فقد نقش عليها رسوم الحيوانات، ومع الغزو اليونانيّ لبلاد آسيا الصغرى⁽²⁾ وبلاد الشّام وبلاد الرّافدين وإيران والهند وتركستان.

تأثّرت هذه البلاد بالنّقود اليونانيّة في عهد الاسكندر الأكبر⁽³⁾، لذلك لا بد من الاطلاع على المسكوكات قبل الإسلام وبعده.

(1) - خلف الطراونة، المسكوكات وقراءة التاريخ، عمان، 1994م، ص 11.

(2) - آسيا الصغرى: هو مصطلح جغرافي يطلق على جزء من قارة آسيا محصور بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، ويعتبر مرادفًا لمصطلح الأناضول وهي اليوم دولة تركيا.

(3) - عاطف رمضان، النّقود الإسلاميّة، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، 2008م، ط1، ص 32.

- المسكوكات في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام:

حظيت شبه الجزيرة العربية بموقع مميز بين بلدان العالم القديم، ما أتاح لها التّواصل التجاريّ مع بلاد الرّافدين ومصر ودول البحر المتوسط. ومعرفة المسكوكات منذ وقت مبكر، حيث تعاملوا بالنقود الإغريقية، ثم سكوا النقود في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد⁽¹⁾.

وكانت مملكة «قتبان»⁽²⁾ السّابقة في هذا المجال. ومن ثم مملكة «سبأ» في اليمن التي تأثرت بالطراز اليونانيّ مع إضافة حروف تدل على القيمة النّقديّة، وأيضاً مملكة «معين»⁽³⁾، التي كانت عملتها على نمط مسكوكات الاسكندر الأكبر، كذلك من ممالك الجنوب التي سكّت نقود حضرموت، وحمير.

لم يقتصر هذا النشاط على ممالك جنوب الجزيرة العربية، بل شمل الممالك العربية الأخرى في وسط وشمال الجزيرة العربية، ونذكر منها «ديدان»، و«لحيان»⁽⁴⁾.

إلا أن مملكة «الأنباط» التي كانت تعد من أعظم الممالك العربية التي قامت في جنوب بلاد الشّام وشمال غرب الجزيرة العربية، فقد عمد معظم حكامها إلى سكّ نقود متأثرة بالنمط الإغريقيّ ومما وصلنا أيضاً مسكوكات من مملكة «كندة»، ومملكة «ميسان»⁽⁵⁾ في جنوب العراق، ومملكة «الحضر» في مملكة الجزيرة بالعراق.

كما عرفت مملكة تدمر مسكوكات فضية ضربتها زنوبيا، بعضها حمل صورة الملك الروماني أورليان (275-270م) وابنها وهب، وبعضها الآخر حمل صورة ابنها فقط، أما النمط ألثاني فكان عبارة عن صورة نصفية لزنوبيا نقشت على الوجه الأول، وأما الوجه الثاني فقد حمل صورة ابنها.

ما أثار حفيظة الملك الروماني أورليان، الذي أرسل جيشه لمحاربتها، وكانت النتيجة

(1) - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ص 490.
(2) - قتيبان: أحد الممالك العربية بجنوب شبه الجزيرة العربية، إمتد حكمها من القرن السابع ق.م. وحتى القرن الأول ق.م. منذ عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة البصرة، 1980م، ص 192.
(3) - معين: تقع في منطقة الجوف بين نجران وحضرموت. وكانت بداية ظهورها في القرن السابع ق.م. واستمرت حتى عامي 24-50 ق.م.
(4) - مجلة المسكوكات، 1974م، العدد 5، ص 101-100.
(5) - ميسان: بناها الاسكندر المقدوني، وتقع في جنوب العراق، ويقال موضعها مدينة المحمرة الحالية. محمد باقر الحسيني، نفوذ مملكة بيسان، مجلة المورد، 1986م، مجلد 15، عدد 3، ص 29.

الانتصار على زنوبيا وأسرها⁽¹⁾.

أما معرفة العرب للمسكوكات فقد كانت في القرن الخامس قبل الميلاد، وأنهم بدأوا بها منذ القرن الرابع قبل الميلاد، حيث انحصر نطاق تداولها داخل المملكة التي قامت بإصدارها، فيما عدا بعض المسكوكات اليمنية (سبأ وحمير) التي وصلت إلى بلاد الحجاز عبر التجارة، وأيضاً بعض المسكوكات النبطية التي كانت متداولة مع الأقاليم المجاورة لمملكة الأنباط.

بينما في بلاد الحجاز فلم يعثر على مسكوكات خاصة بها، على الرغم من كونها مركزاً تجارياً، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في سورة قريش: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۙ إِلَّا فِيهِمْ رَحَلَةَ الشِّتَاءِ ۚ وَالصِّيفِ ۙ فَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ ۝۳ أَلَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۙ﴾ [قريش: 4-1]⁽²⁾.

والنقود التي تداولوا بها كانت البيزنطية وبصفة خاصة الدنانير، كذلك تعاملوا بالدرهم الساسانية. إضافة إلى بعض النقود العربية⁽³⁾. لذلك لم يشعروا بضرورة إصدار مسكوكات خاصة بأهل مكة، واستمرت هذه المسكوكات أداة للتجارة حتى بعثة الرسول⁽⁴⁾.

- النقود المتداولة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين:

استمر تداول النقود البيزنطية والساسانية في عهد الرسول بالإضافة إلى بعض النقود المحلية كالدرهم الفضية الحميرية، وقد ذكر في القرآن أسماء بعض النقود مثل الدينار⁽⁵⁾، ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٍ إِن تَأْمَنُهُ بِيْعَتَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنٍ إِن تَأْمَنُهُ بِيْعَتَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ﴾ [آل عمران: 75].

كما ورد ذكر الدرهم⁽⁶⁾ في القرآن الكريم ﴿وَشَرُّهُ بِشْمٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا

(1) - ناهض عبد الرزاق، موسوعة النقود، دار أسامة، عمان، 2001م، ص 15.

(2) - عاطف رمضان، النقود الإسلامية، ص 38.

(3) - جواد علي، المفصل، ج 7، ص 495.

(4) - البلاذري، أحمد بن يحيى (ت: 279هـ/892م)، فتوح البلدان (أمر النقود)، مطبعة الموسوعات، مصر، 1901م، ط1، ص 77.

(5) - الدينار: كلمة تعود إلى الأصل اللاتيني Dinanus Aureus ثم عربت إلى دينار، وهو وحدة النقود الذهبية.

(6) - الدرهم: الدرهم يشتق من الدراخما اليونانية، والتي تعود إلى كلمة «درم» الفارسية، وهو الاسم الذي أطلق على النقود الفضية.

فِيهِ مِنَ الزَّهْدِ كَيْفَ ﴿٢٠﴾ [يوسف: 20]، والتي شاع استعمالها لدى العرب⁽¹⁾.

وقد أقر الرسول هذا النظام النقدي في الزكاة، ولم يحدث أي تغيير على هذه النقود من حيث الشكل أو المضمون أو الوزن. ولكنه حث المسلمين على الإلتزام بوزن هذه النقود وعدم الغش فيها.

أما في عهد أول الخلفاء الراشدين:

1. أبو بكر الصديق (13-11هـ/634-632م):

لم يحدث تغيير يذكر على النظام النقدي للدولة الإسلامية، واستمر التداول بالدنانير البيزنطية والدرهم الساسانية كما كانت على عهد الرسول .

2. عهد الخليفة عمر بن الخطاب (23-13هـ/644-634م):

شهد عهده انتصارات عسكرية على الفرس في القادسية (16هـ/636م) وعلى الروم في اليرموك أدت في نتيجتها إلى إتساع رقعة الدولة الإسلامية، واتساع الموارد الاقتصادية، ما أسهم بالعديد من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية، ولعل أهمها تأسيس أول مدينتين في العراق هما البصرة والكوفة، ثم الفسطاط في مصر. كذلك أنجز بعض الإصلاحات النقدية المهمة، وبصفة خاصة على الدرهم الساسانية. ويذكر الماوردي: «أن عمر بن الخطاب لما رأى اختلاف الدرهم وأن منها «البغلي» وهو ثمانية دوانق، ومنها «الطبري» وهو أربعة دوانق⁽²⁾، ومنها «المغربي» وهو ثلاثة دوانق، ومنها «اليمني» وهو دانق، قال: انظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاها وأدناها فكان الدرهم البغلي والدرهم الطبري فجمع بينهما فكانا اثني عشر دانقًا، فأخذ نصفها فكان ستة دوانق فجعل الدرهم الإسلامي في ستة دوانق فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل....»⁽³⁾.

وكان الدافع الرئيسي للقيام بهذا الإصلاح صعوبة تأدية الزكاة في ظل هذا الاختلاف الواضح بين أوزان الدرهم المتداولة في تلك الفترة الزمنية، وأيضًا أشار المقرئ إلى

(1) - يوسف غيمة، النقود العباسية، مجلة سومر، 1953م، ص 115.
(2) - ابن الرقعة الأنصاري، أبو العباس نجم الدين (ت: 710هـ/1311م)، الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، تحقيق: محمد الخاروف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز، 1980م، ص 59-60.
(3) - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: 450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة، ص 154.

إصلاح آخر قام به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الدراهم الساسانية من حيث الوزن والشكل ومضمون هذه الدراهم، وإضافة بعض الكتابات العربية التي تحمل ملامح العقيدة الإسلامية مثل شهادة التوحيد والرسالة المحمدية، بل إن عمر بن الخطاب ضرب دراهم سجل عليها إسمه باعتباره خليفة المسلمين.

لذلك يُعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صاحب حركة إصلاح نقدي حين نقل الخلافة الإسلامية من التعامل بالنقود الأجنبية فقط إلى التعامل بالنقود التي تصدرها الدولة الإسلامية⁽¹⁾.

ويبدو أنه أوصى للعالم بفكرة اقتصادية غير مسبوقة وهي إصدار النقود الورقية، وذلك عندما وجد إنتشار العث والتزييف في النقود المتداولة، فقال: «هممت أن أجعل الدراهم من جلود الإبل...». فقيل له: «إذا لا بعير فأمسك»⁽²⁾.

ويتضح أن هذه الفكرة لو تبلّورت بشكل آخر، لكانت الأمة الإسلامية السبّاقة في هذا المضمار⁽³⁾.

3- عهد الخليفة عثمان بن عفان (35-23هـ/656-644م):

شكل سقوط الدولة الساسانية (31هـ/651م) انعطافة كبيرة مكنت المسلمين من ضم أملاك الفرس والاستفادة من ارثهم الحضاري وجعله يراعي التعاليم الإسلامية.

ويُعد الخليفة عثمان بن عفان أول خليفة يصل إلينا من عهده دراهم عربية مضرورية على الطراز الساساني والتي يحمل أقدمها تاريخ مقتل يزيدجرد الثالث آخر الحكام الساسانيين (31هـ/652م). فالدراهم التي ضربت في عهد عثمان بن عفان أضيف إليها كتابات عربية بهامش الوجه مثل كلمة «جيد» على درهم «مرو»، و«بسم الله» على درهم سجستان⁽⁴⁾.

ومما أشار إليه المقرئزي عن نمط الدراهم المسكوكة في عهد عثمان بن عفان ، قوله:

(1) - وداد القزاز، الدراهم الإسلامية المضرورية على الطراز الإسلامي، مجلة المسكوكات، 1969م، مجلد 1، عدد 1، ص 14.

(2) - البلاذري، أمر النقود، ص 87.

(3) - النقود الورقية كانت معروفة في الصين إبان العصر المغولي، ثم انتقلت إلى العراق وإيران في عهد الحاكم المغولي «كيخاتو»، ولكنه فشل في تطبيقها لاعتیاد الناس على التعامل بالذهب والفضة.

(4) - المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: 845-764هـ/1442-1364م)، شذور العقود، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، مطبعة الأمانة، 1990م، ط1، ص 44-45.

«فلما بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان ضرب في خلافته دراهم ونقشها الله أكبر». ولكن هذه الدراهم التي ذكرها المقرئ لم يصلنا منها شيء⁽¹⁾.

4- عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (40-35هـ/661-656م):

استمرت الدراهم تضرب على الطراز الساساني، وكان ينقش عليها عبارة «بسم الله»، ثم أضيف إلى بعضها عبارة «بسم الله ربي»، كما ظهر على الدراهم المضروبة في الشيرجان (39هـ/660م)، إسم محمد مكتوبًا بالخط الكوفي⁽²⁾.

وأيضًا ينسب إلى حقبة كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب بعض النقود النحاسية التي ضربت على الطراز الساساني مع إضافة كتابات عربية. ويبدو أن دور الضرب الساسانية التي ظلت تعمل برعاية الخلافة الإسلامية عمدت إلى إصدار مثل هذه الفلوس للتداول داخل الأقاليم الشرقية التي كانت خاضعة فيما مضى للفرس.

- مرحلة الانتقال إلى الخلافة الأموية (132-41هـ/750-661م):

تمكن معاوية بن أبي سفيان من السيطرة على الخلافة الإسلامية، ووضع نظام نقدي إسلامي مستقل، فقد سك دراهم على الطراز الساساني، وسجل عليها اسمه ولقبه باللغة البهلوية «معاوية أمير المؤمنين»، وذلك في السنة الأولى لتوليهِ الخلافة بسبب الصراع على الخلافة مع الإمام علي بن أبي طالب، ليعلن للعالم أنه الخليفة الشرعي الذي آلت إليه الأمور، وحسمًا للجدل حول توليه الخلافة.

ويُعد معاوية الخليفة الثاني بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي قام بتوظيف النقود للأغراض الإعلامية والدعائية⁽³⁾.

الأسباب التي دفعت عبد الملك بن مروان (86-26هـ/705-646م) الخليفة الخامس والمؤسس الثاني للدولة الأموية إلى تعريب النقود:

الأول: سبب سياسي واقتصادي وهو تغيير طراز البردي إلى شهادة التوحيد.

الثاني: نصيحة خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بأن أطول الناس عمرًا هو من

(1) - المصدر نفسه، ص 105.

(2) - وداد قزاز، الدراهم الإسلامية المضروبة على الطراز الإسلامي، ص 15.

(3) - عاطف رمضان، النقود الإسلامية، ص 47-48.

قدس الله تعالى في دراهمه.

الثالث: الفساد الذي كان موجودًا في التّفود الأجنبية المتداولة.

الرّابع: الخلاف مع الامبراطور البيزنطيّ عند لجوء عبد الملك إلى ضرب الدينار الإسلاميّ المشخص إذ بدا الأشخاص عليه يعتمرون الكوفية العربيّة وبالزي العربي وقد حمل كل منهم عصا على رأسها كرة بدلاً من الصليب علامة الزعامة، ويقال أن الأشخاص الظاهرة على هذا الدينار تمثل في الوسط سيدنا محمد وإلى يمينه الخليفة أبي بكر وعلى يساره زوجته السيدة عائشة. غير أنه لم يلبث أن استبدل صورة هرقل وولديه قسطنطين وهرقلينوس بصورته. لاقت هذه الدنانير اعتراضات في الداخل والخارج. ففي الداخل، يذكر المقرئزي أنها كانت مثار اعتراض بعض الصحابة الذين وصلت إلى أيديهم في المدينة «فلم ينكروا فيها سوى نقشها فإن فيها صورة». وهو أمر محرم في الدين الإسلاميّ.

أما في الخارج، فقد أثارت حفيظة الامبراطور البيزنطيّ «جوستينان الثاني» (685هـ/695م)، ورفض قبض الأتاوة السنوية بالسكة العربيّة الإسلاميّة، إذ أنه من غير المسموح أن تضرب السكة في بلاد الشّام ومصر إلا على الطراز البيزنطيّ الذي وضعه امبراطور الروم، ولم تفلح محاولات عبد الملك في إقناع جوستينان بقبول سكته الجديدة ما دام وزن الذهب وعياره هما المعوّل عليهما. ما أدى إلى فسخ المعاهدة المبرمة سنة (67هـ/686م) والمتعلّقة بنقل الجراجمة من حدود الدّولة الإسلاميّة إلى داخل الأراضي البيزنطيّة مقابل ألف قطعة ذهبية. ومع أن الاتفاقية لمدة عشر سنوات فهي لم تحدد نوع السكة التي تدفع بها الأتاوة، إلّا أنه من المتفق عليه ضمناً أن يكون التعامل بالسوليدس البيزنطيّ المتداول بحكم الأمر الواقع⁽¹⁾.

الخامس: انتصار الأمويين في معركة سبستوبولس (692م) على الجيوش البيزنطيّة والتي جرت بالقرب من الشواطئ الشرقية للبحر الأسود. وكان لهذه المعركة نتائج داخل الصف البيزنطيّ وأدت إلى انقلابات أطاحت أولاً بالإمبراطور جوستينانوس ومن ثم بالقائد ليونتيوس الذي تمت تحييته واستلام القائد تيبيريوس مكانه. أدت هذه الأحداث

(1) - سمير الخادم، فجر السكة الإسلاميّة، جمعية المسكوكات للعالم العربي والإسلامي، بيروت، 2010م، ط2، ص 25-26.

إلى تحرر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من التزاماته تجاه الإمبراطور البيزنطيّ القاضية بدفع الأتاوة السنوية له بالنقد البيزنطيّ. ما أسهم في تثبيت دعائم ملك الخليفة وإطلاق يده في سك الدنانير الإسلاميّة الجديدة على هواه ودون أي التزام. وتخليدًا لذكرى هذا الانتصار في الخارج وانتصارات عبد الملك في الداخل تم ضرب دينار مميز عُرف بدينار الخليفة الواقف⁽¹⁾.

ولكن تعريب النقود في عهد عبد الملك بن مروان لا يرتبط فقط بالأسباب السابقة، بل أيضًا بتوسع الخلافة الإسلاميّة حيث عمد إلى صبغ دولته بالصبغة العربيّة الإسلاميّة ووضعها على الخريطة العالمية في ذلك الوقت.

وما كان ذلك ليتحقق وأجهزة الدولة الإداريّة والنقديّة لا تزال تدور في الفلك البيزنطيّ. فأصبح تعريب النقود أمرًا ضروريًا لكيان الدولة الإسلاميّة، وقد استغرق الأمر عدة سنوات من (692هـ/692م) وحتى (77هـ/697م) حيث مرت النقود (الدنانير - الدراهم - الفلوس) بمراحل متعددة حتى صدور الطراز الإسلاميّ الجديد الخالي من صور الأباطرة البيزنطيّين وصورة العاهل الساساني، ونقش على وجه النقود صورة تمثل الخليفة عبد الملك بن مروان واقفًا بملابسه العربيّة تعلو راسه كوفية، وهويضع يده اليمنى على مقبض سيف يهيم باستلاله. وحول الصورة هامش من الكتابة بالخط الكوفي البسيط نصها: «بسم الله لا إله إلا الله وحده، محمد رسول الله». وهي العبارات التي ظهرت على دنانير المرحلة السابقة. أما الظهر عليه عمود قائم على مدرجات أربعة ينتهي في أعلا بكرة، ويحيط به هامش من الكتابة الكوفية نصها: «بسم الله، ضرب هذا الدينار سنة...».

ومن المعروف أن السيف هو رمز الإمامة والجهاد عند المسلمين ولعل ظهور عبد الملك في هذا الوضع فيه تهديد لجسنتيان الثاني بأنه سيواصل جهاده ضد البيزنطيّين. هذا بالنسبة للدينار الذهبي⁽²⁾.

- بالنسبة إلى النقود الفضيّة (الدراهم):

طرأت بعض التغييرات عليها حيث أزيلت عقدة الشعر خلف رأس العاهل الساساني،

(1) - المرجع نفسه، ص 27.

(2) - عاطف رمضان، النقود الإسلاميّة، ص 58-59.

وتم حذف الكتابة البهلوية ونقش مكانها كتابة بالخط الكوفي تحدد تاريخ السك وعبارات دينية تحيط بالصورة.

أما ظهر الدراهم فقد حذف عنها معبد النار الزرادشتي، ونقش بدلاً منه صورة تمثل الخليفة ويرجح أن هذه الدراهم كانت إصدار تذكاري أصدره الخليفة عبد الملك بن مروان بمناسبة نجاحه في القضاء على فتنة عبد الله بن الزبير (73هـ/692م)، وعودة بلاد الحجاز إلى طاعته.

- النقود النحاسية والبرونزية (الفلوس):

اختلفت التأثيرات البيزنطية عن الفلوس في عهد عبد الملك بن مروان، ونقش عليها الكتابات العربية الإسلامية (87هـ/706م)⁽¹⁾.

وقد ضربت في أكثر من ست وستين مدينة في العالم الإسلامي، بعد الإقبال الذي صادفه هذا الطراز الجديد في أسواق التداول النقدي، لأنه يحمل ملامح عقيدة الدولة. ومن الملفت إتباع الخلفاء نظام اللامركزية في سك الفلوس على العكس من الدينار والدرهم الذي خضعاً لرقابة صارمة من حيث الوزن والمعيار، والكتابات التي تنقش عليهما⁽²⁾.

ويبدو أن الفلوس لم تخضع لقاعدة ثابتة، وذلك لأنها نقود محلية يقتصر التعامل بها داخل المدن والأقاليم التي سكتها⁽³⁾.

كما حظي الفلوس بأهمية خاصة نظراً لما يحمله من نصوص كتابية تلقي الضوء على أسعار صرف الفلوس بالنسبة للدراهم في هذه الحقبة المبكرة من تاريخ النقود الإسلامية، والأصل في ضرب هذا النوع من النقود النحاسية العمل على تسهيل وإجراء العمليات التجارية البسيطة، ولكن على الرغم من ذلك فقد اهتم العرب بنقوشها وأوزانها وصنعوا لضبط هذه الأوزان وتحديدها صنجاناً زجاجية خاصة بالقراريط والخراريب، وأصبح الدرهم الشرعي يساوي ثمانية وأربعين فلساً⁽⁴⁾.

(1) - نأيف القسوس، مسكوكات الأمويين في بلاد الشام، البنك العربي، بيروت، 1996م، ص 53.

(2) - عاطف رمضان، المرجع السابق، ص 65.

(3) - عاطف منصور، الكتابات الغير قرآنية على السكة في شرق العالم الإسلامي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002م، ص 88.

(4) - حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة، بيروت، 1978م، ص 17.

وهكذا يتضح أن السكة الإسلامية قد تحررت على يد عبد الملك بن مروان من التأثيرات والشارات المسيحية منذ العام (697هـ/777م)، ومن التأثيرات والشارات الساسانية منذ العام (84هـ/703م). إلا أنها لم تستطع التحرر من أسماء هذه السكة إلى يومنا هذا، ففي مقابل «الديناريوس» البيزنطيّ جاء الدينار الإسلاميّ، وفي مقابل الدراخما الساسانية الفارسية الفضية جاء الدرهم الإسلاميّ.

وكذلك في مقابل الفلوس Follis البيزنطيّ النحاسي جاء الفلوس الإسلاميّ، وما زال حتى اليوم لفظ «الدينار» و«الفلوس» و«الفلس» يطلق على وحدات النقد في العراق والأردن والكويت ومصر في حين استمر لفظ الدرهم يطلق على وحدة النقد الأساسية في دول الجزء الشرقي من الخليج العربي كقطر والإمارات العربيّة المتحدة وغيرها.

ويبدو أن الخليفة عبد الملك أطلق ورشة الإصلاح النقديّ تنفيذاً لمشورة محمد بن علي بن الحسين، فدعا الصّناع والسباكين ليرسموا له السّكة على قوالب حديد للتحقق من الشّكل والوزن والخلوص قبل ضربها في دمشق والأمصار وبلاد الشّام.

وجعل التّعامل بالسّكة الجديدة إجبارياً، وأمر بتذويب الدنانير البيزنطيّة والدراهم السّاسانية ونقشها على شاكلة السكة الإسلاميّة.

والجدير بالذكر أن الحقبة الانتقالية التي امتدت لبضع سنوات من (74هـ - 77هـ/694-697م) فقد استمر التداول بالسّكة التي تحمل صورة عبد الملك لمُدّة، ولذلك احتراماً لقانون المهل وتمهيداً لظهور الطراز العربي سنة (77هـ/697م) حتى لا ينصرف رعاياه عن السكة الجديدة والعودة إلى السكة البيزنطيّة التقليدية المألوفة لديهم.

وتدريجياً سُحبت الدنانير المشخصة وانفاقها في سبيل الله، فقرر بناء قبة الصخرة في القدس الشريف وبناء المسجد . فجمع البنائين وأهل العلم وبعد معاينة المخططات وافق عليها وأمر ببناء بيت المال إلى الشرق من الصخرة وملأه بالدنانير الذهبية وغالبيتها من الدنانير المشخصة. وعيّن رجاء ابن حيوة ويزيد بن سلام للإشراف على البناء وانفاق الأموال. وبعد اتمام عملية البناء أبلغاه بزيادة مئة ألف دينار من الأموال المخصصة لهذه الغاية، فأمر أن تَدوَّب الدنانير المشخصة وتصب وتدهن بها القبة من الخارج ففعلاً ذلك وأضحت قبة الصخرة إذا ما أشرقت الشمس في ذلك الوقت تلمع وتتألّق بشكل لا

يمكن النظر إليها مباشرة، وقد أراد عبد الملك من وراء ذلك أن يكون للمسلمين جامعاً فريداً ومميزاً في المقابل يضاهي جمال كنيسة القيامة في القدس. وبهذه الطريقة الفنية المبتكرة تخلص عبد الملك من الدنانير المشخصة وبنى قبة الصخرة المذهبة التي خلّدت ذكره. وأصبحت النقود الإسلامية الوحيدة المنتشرة في أصقاع الخلافة الأموية كافة.

المصادر والمراجع

1. ابن الرقعة الأنصاري، أبو العباس نجم الدين (ت: 710هـ/1311م)، الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، تحقيق: محمد الخاروف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز، 1980م.
2. البلاذري، أحمد بن يحيى (ت: 279هـ/892م)، فتوح البلدان (أمر النقود)، مطبعة الموسوعات، مصر، 1901م.
3. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت.
4. حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة، بيروت، 1978م.
5. خلف الطراونة، المسكوكات وقراءة التاريخ، عمان، 1994م.
6. سمير الخادم، فجر السكة الإسلامية، جمعية المسكوكات للعالم العربي والإسلامي، بيروت، 2010م.
7. عاطف رمضان، النقود الإسلامية، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، 2008م.
8. عاطف منصور، الكتابات الغير قرآنية على السكة في شرق العالم الإسلامي، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، 2002م.
9. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: 450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة.
10. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت: 845-764هـ/1442-1364م)، شذور العقود، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، مطبعة الأمانة، 1990م.
11. منذر عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة البصرة، 1980م.
12. ناهض عبد الرزاق، موسوعة النقود، دار أسامة، عمان، 2001م.
13. نايف القسوس، مسكوكات الأمويين في بلاد الشام، البنك العربي، بيروت، 1996م.

العلاقات المصريّة-الأمريكيّة من الاستقلال 1953 إلى 1970

ميسون سيف الدين الجمال

المقدمة

يأتي الدافع الأوّل من العلاقة الأمريكيّة-السوفييتيّة على المستوى العالميّ، فالولايات المتّحدة تميل منذ الحرب العالميّة الثّانية إلى ان ترى منطقة الشرق الأوسط في اطار التنافس بينها وبين الاتحاد السوفييتيّ، وفي فترات زوال التوتر وتحقيق الوفاق كان هناك تأثير معين، وان لم يكن متوافقا في المنطقة. وهذا يعني ان جزءا كبيرا من التفكير الأمريكيّ بشأن الشرق الأوسط كان نتيجة العلاقات التنافسية بين النّظام الأمريكيّ - السوفييتيّ.

والدّافع الثّاني للسياسة الأمريكيّة في الشرق الأوسط هو الالتزام تجاه دولة إسرائيل، وهي سياسة تتسم بالثبات وان كان عرضة للتغيير، ويرجع ذلك إلى فترة طويلة، ولكنه تبلور في عام 1947 عند التصويت على التقسيم ثم الاعتراف الفوري عام 1948، ومنذ ذلك الوقت لم يراجع اي رئيس امريكي او اي سياسي مرموق هذا الالتزام السّياسي. يقول د. وليم كوانت* قد كان هناك جدال حول مدى التأييد وتفاصيل السياسة، ولكن لم يكن هناك نقاش أبداً حول ما اذا كان الالتزام تجاه إسرائيل سوف يستمر ام لا، ومن ثم فقد ظل هذا العامل يتسم بالثبات النسبي وكان له تأثير كبير على تفكير القيادات بشأن الشرق.

أي دور في المنطقة وعلان سيطرة الولايات المتّحدة على هذه المنطقة بشكل نهائيّ، واذا كانت الاستراتيجية القديمة تقترح ان تقيم الولايات المتّحدة نظاما جديدا يقوم على اساس «اقناع المنافسين المحتملين بأنهم لا يحتاجون إلى التّطلّع لدور اكبر أو السّعي إلى اتّخاذ وضع الهجوم لحماية مصالحهم المشتركة» (السفير -25 ايار 1992) وتوضيح هذه الفقرة عل الشكل التالي «في الشرق الأوسط والخليج الفارسي نسعى إلى تعزيز الاستقرار الإقليميّ، وردع العدوان عن اصدقائنا ومصالحنا في المنطقة وحماية الأمريكيين

والممتلكات الأمريكية، وحماية حرية وصولنا إلى خطوط الملاحة الجوية والبحرية والدولية وإلى نبط المنطقة ونحن نكافح لتشجيع عملية سلام تؤدي إلى مصالحة بين إسرائيل وبين الدول العربية وكذلك بين الفلسطينيين وإسرائيل» (السفير-25 أيار 1992).

إن دراسة العلاقات بين أي محور عربيّ وغربيّ يستدعي قراءة عامة للاستراتيجيات العالمية التي تتمحور حول أبعاد محور على حساب قوة جديدة، وهذا ينطبق على العلاقات المصرية - الأمريكية التي سأحاول أن أحيط بالموضوع بفصلين، الأول حول استراتيجية الولايات المتحدة باستبعاد بلدان أوروبا الغربية من الشرق الأوسط، والإعلان الصريح والواضح أن «لا مكان لآخرين في منطقة الشرق الأوسط». والفصل الثاني حول الاستراتيجية المباشرة للولايات المتحدة التي في أغلب الأحيان كانت وراء إسرائيل لاشعال فتيل الحرب لإيجاد صيغة للتدخل من الباب الواسع واقصاء استقلال وحرية الشعوب بأي شكل من الأشكال.

اتبعت في هذا البحث منهجية البحث التاريخي عن طريق البحث في الجرائد والمجلات وتحليلات بعض المعاصرين، واستطعت - وإن كنت قد واجهت عدّة صعوبات - في مقارنة الأحداث وتبيان مقاصد سياسية فيها الكثير من الانقسام والاختلاط في أحداث محلية وعربية والانتباه إلى مصالح الدول الخارجية التي تغير مجرى الأحداث، والتوصل إلى فهم كيفية صياغة الاتفاقات التي تقيد البلد كما قبول بعضها التي تسئ لمصلحة البلد.

اعلان الاستقلال واطماع الدول

قرر مجلس قيادة الثورة في 18 حزيران 1953 إعلان الجمهورية والغاء النظام الملكي وانتهاء حكم محمد علي مع الغاء الألقاب من أفراد الأسرة. وفي 19 حزيران 1956 أعلن دستور «الجمهورية المصرية» باسم الشعب مدعماً سلطة الهيئة التنفيذية، وكان برنامجه هو برنامج الثورة، وقدس ذلك الدستور الكرامة والعدالة والمساواة، وسجل الشعب المصري متفاعلاً في الكيان العربي مقدراً مسؤولياته والتزاماته حيال النضال العربي المشترك، ونصّ الدستور على أن مصر دولة عربية جمهورية ديمقراطية السيادة فيها للامة ودينها الاسلام .

ونجحت حكومة الثورة في الوصول إلى عقد اتفاقية 12 السودان شباط 1953 التي قامت على اربعة مبادئ أساسية بالنسبة للسودان، وكان من أهمها إنهاء الحكم الثنائي البريطاني، و كان أن شجعت هذه الاتفاقية الجانبين المصري والإنجليزي على الدخول في مفاوضات فيما يتعلق بالجلء عن مصر. وقد وجدت بريطانيا نفسها بموقف يستدعي منها الحنكة السياسية في حماية مصالحها البترولية والتنازل عن سياستها الاستعمارية القديمة. وكان لنمو روسيا في مصر ما يستدعي القلق. فرأت الحكومة البريطانية انه من الافضل لها العناية بحماية المرور في القناة وكسب صداقة مصر أكثر من الاهتمام في الابقاء في قاعدة قناة السويس لتكون في ذلك تقاوم الارادة الشعبية المصرية التي لم يعد لها أمل بها. أثر عدة عوامل نجحت المفاوضات بين الجانبين المصري -البريطاني، وفي 19 تشرين الأول 1954 عقد الاتفاق النهائي لعملية الجلء عن القناة.

الانتقال من الاستعمار العنني إلى الاستعمار الضمني

التطاول الأجنبي على الاستقلال

رغبت بريطانيا جراء هذه الاتفاقية ان تبقي لها حق عودة القوات البريطانية إلى منطقة القناة في حال تعرض مصر لأي هجوم عسكري، ولكن حكومة الثورة اغتتمت فرصة العدوان الثلاثي على مصر في 1956، فأعلنت في أول كانون الثاني 1957 الغاء هذه الاتفاقية، وتقطع بذلك آخر خيط يربط مصر ببريطانيا.

وهكذا كان على حكومة الثورة أن تطلع إلى بناء عهد جديد بمعزل عن أي تغلغل لنفوذ أجنبي فرنسي أو إنجليزي في أراضي مصر. لكن إلى أي مدى يستطيع الغرب المتكالب على السيطرة أن يبين لمصر أنه محايد، أو يستطيع أن يتبنى سياسة عدم التدخل. قد سنحت الفرصة لمصر تحقيق حلم انكفاء لأيدي الغربية عنها حين رفضت إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تمويل السد العالي، فرأى جمال عبد الناصر الاستفادة من الظروف الدولية الموجودة في العام 1956 من انقسام العالم إلى معسكرين، ليعلن تأميم مصر لشركة القناة.

قد حدّد عبد الناصر سياسة مستقلة إلى حد بعيد بالمبدأ، ولكن إلى أي حدّ يستطيع عزل سياسة واقتصاد ومصالح مصر عن الغرب الذي له أيضاً مصالح رسم لها مسبقاً،

وقد حدّد عدة مبادئ من أهمها عدم ربط مصر بالأحلاف العسكريّة أو بمشروعات دفاع مشترك، فيما عدا الحلف العربيّ في حدود ميثاق الجامعة العربيّة، والعمل على تقوية مصر من الناحية الحربية، والعمل على تحرير الوطن العربيّ الكبير من تغلغل النّفوذ الأوروبيّ (عبدالعزیز-1990، ص531).

كان هدف عبد الناصر توحيد العالم العربيّ وتنبيه الوعي القوميّ العربيّ، ما استلزم الحصول على السّلاح للتّجهز المتكافئ أمام خطر العدو الإسرائيليّ، كما ألزم البلاد ببناء ثوابت للنّهوض بالاقتصاد القوميّ.

منذ أن عقدت اتفاقية 25 ايار 1950، لم يكن أمام مصر سوى الالتجاء إلى المعسكر الشرقيّ، وكانت صفقة الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا التي أحدثت ضجّة في العالم الغربيّ، ما أفضى بعضهم إلى حساباتها تهديداً للسلام العالميّ، أمّا من ناحية أخرى فقد عدّت هذه الصفقة إحدى دعائم بناء الاقتصاد القوميّ. وتعدّ إحدى دعائمه الكبرى وحاول الغرب في البدء أن يصرّو بأنّه داعم لمشروع الإنماء المستقلّ لمصر، ومن ناحية أخرى العمل على وقف تقدم النّفوذ الرّوسيّ والمدّ الشيوعيّ وذلك بتقديم مساعدة اقتصاديّة واجتماعيّة تمكّن الدّول النّاشئة على الاستقرار، وكان ذلك يقصد من ورائه اتّباع مصر سياسة تصبّ في مصلحتها.

لم تتعوّد بريطانيا والعالم الغربيّ ولم يريدوا أبداً ان يكون لمصر دور إيجابي في إدارة امورها الداخلية ولا رؤية واضحة للسياسة الدّولية، وحين سعى عبد الناصر خلق لمصر مركزاً في الشرق والاب الروحي للقضية العربيّة واتباع سياسة اقتصادية متحررة بدأ الغرب باتّباع سياسة الحد من هذه السلطة.

جاء مؤتمر باندونج الذي أظهر فيه عبد الناصر مصر قوة لا يُستهان بها من حيث تأييده للمنحى السياسيّ الشيوعيّ في الصّين الشعبيّة، واستنكار التكتلات الدّولية، ما أثار حفيظة الولايات المتّحدة المعاديّة للشيوعيّة. فرأى الغرب أن يقف موقفاً حاسماً من الجمهوريّة المصريّة، يقضي بعدم التّعاون معها وبخاصة حين أعلنت مصر بكل وضوح مناهضتها لحلف بغداد، ومقاومتها لسياسته، فرأى الغرب سحب عونه عن مصر بسحب العروض المقدّمة لتمويل السّد العالي. وجاء رد عبد الناصر إثر ذلك الذي عدّه خيانة من الغرب في مساء 26 حزيران 1956 بتأميم الشركة العالميّة لقناة السويس البحرية،

وكان ضربة قاصمة لاحتكارات الاستعمار.

فقد أدركت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أنّ مصر حينما تمتلك شركة قناة السويس وتحوّل أرباحها إلى بناء السّد العالي، وتقيم صرح الاقتصاد الوطنيّ المتين، سيكون لها شأن في هدم معازل الاستعمار كلّها وتحرير الشعوب وزوال سيطرة الاستعمار على مقدرات الأمم.

وظهر العداء العلنيّ بحيثٍ أسرعَت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحد الأمريكية باتّخاذ إجراءات ضد مصر، فجمدت أرصدها الاسترلينية، وحذت فرنسا كحذو حلفتها فجمدت جميع أرصدة مصر وأموالها لديها، وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية، وبذلك أبدت الولايات المتحدة العداء لمصر كحلفتيتها، فأرسل جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية، نائبه روبرت ميرفي بعد يومين من قرار التأميم ليحضر اجتماع سلوين لويد، وزير الخارجية البريطانيّة، وكريستيان بينو، وزير الخارجية الفرنسيّة، في لندن اجتمع وزراء الخارجية الثلاث للتشاور فيما يجب اتّخاذه من إجراءات لإحباط قرار التأميم، وأصدروا في تموز 1956 بيانًا حملوا فيه بشدة عل «قيام دولة واحدة بالاستيلاء التّعسفيّ على هيئة دولية» وطالبوا بعقد مؤتمر للدول الموقعة على اتفاقية 1888 بإقامة لجنة دولية لإدارة القناة التي يحقّ فيها لأربعة وعشرين دولة التي لها مصالح حيوية في استخدام القناة. وهذا ما رأته مصر اغتصاب حقّ من صميم حقوق مصر ومن صميم سيادتها. وقد اقترحت مصر قانون لحماية الملاحة في القناة، ما أثار الانقسام بين بريطانيا والولايات المتحدة حول القبول والتّهديد بالسّلاح.

في هذه الاجواء المتسلّطة من جهة والعدائيّة من جهة، اجتمع مؤتمر لندن (23-16 تموز لبحث مسألة القناة) وقد أسفر المؤتمر عن مشروع مستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية يؤكّد تدويل القناة، فتتعاون بذلك مصر والدول ذات المصالح في إدارة القناة وصيانتها وتحسينها. حيث قامت روسيا بمعارضة المشروع الأمريكيّ، وندد شبيلوف (مندوب روسيا) بفكرة استخدام القوة ضد مصر وانتقد المشروع الأمريكيّ وأوضح أنّ فيه معنى تنازل مصر عن حقوقها في السيادة إلى هيئة دولية تتصرف في ثروة مصر القومية وتدخل سافر في إدارة ثروات البلاد وإعادة استعمار البلاد بطريقة مهذبة، ولقد استطاعت روسيا برفضها لهذا المشروع من إزاحة النفوذ الغربيّ من تنفيذ أطماعه في

المنطقة ببساطة. كما رفض مشروع أسترالي لا يقل طمعاً عن المشروع الأول .

اختلفت الدول الثلاث إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة في فهم وظيفتها، فلقد فهمت الحكومتان الإنجليزيّة والفرنسيّة أنّها وسيلة لإرغام مصر على قبول فكرة التدويل، وفهمت الحكومة الأمريكيّة أنّها حلّ مؤقت للمرور من القناة او بعيداً عنها، أما روسيا فقد رأت أنّها فرصة البروز كحامل لحل مشكلة الشرق الأوسط وبخاصة مسألة القناة، فدعت لعقد اجتماع مع الدول الست «روسيا، انكلترا، فرنسا، اميركا، الهند ومصر» لحل هذه المسألة ولكن الغرب رفض هذا الاقتراح وذلك رغبة منهم باقضاء النفوذ الروسيّ عن منطقة الشرق. وكانت النتيجة أنّ التجاّ كلا الجانبين المصريّ والإنجليزيّ والفرنسيّ إلى مجلس الامن الذي أقرّ في 29 تشرين الأول 1956 ست مبادئ لحل قضية القناة قبلتها الحكومة المصريّة، ولكن الحكومتين الإنجليزيّة والفرنسيّة لم يكونوا بصدد الحل السلمي، فكان طموحهم يقضي باقضاء سيادة مصر الحرة.

العدوان الثلاثي

لم تستطع الحكومتان التسليم بالحلّ السلميّ ووضع أرباحها ومصالحها تحت سيطرة مصر وهي التي تعدّ نفسها الأحق من حيث فكرتها وإنشائها وإدارتها، فقد اتفق الجانبان بوضع مصر عند حدّها بحيث انقفت الدولتان مع إسرائيل على سياسة مبيتة مقتضاها أن تبدأ إسرائيل الاعتداء ثم تقدّم فرنسا وانكلترا انذارها إلى مصر، وكان يقصد بذلك احتلال القناة، وبالفعل هاجمت القوات الإسرائيليّة الحدود المصريّة في شبه جزيرة سيناء في 29 تشرين الأول 1956، وأسرعت كل من فرنسا وانكلترا بالاشتراك في العمليات العدوانية، بعد أن قدمتا انذاراً إلى مصر يقضي بوقف الأعمال الحربية في مدة 12 ساعة. والتسليم باحتلال قسم من أراضيها بحجة الفصل بين المقاتلين وحماية الملاحة في القناة. فشلت القوات البريطانيّة ولم تستطع إنزال قواتها إلّا في بورسعيد بعد ارتكاب الأعمال الوحشية ضد السكان. أمّا المعتدي الإسرائيليّ فلم يستطع أن يتقدّم في سيناء إلّا بعد اصدار القرار المصريّ بالانسحاب منها، حتى لا يضرب الجيش المصريّ من وراء ظهره بالغزو البريطانيّ الفرنسيّ للقناة.

أنذر الاتحاد السوفيتيّ الدولتين المعتديتين باستخدام الصواريخ الموجهة ضدّهما، كما أنذر إسرائيل باعادة النظر في موقفه من وجودها، ووقفت الأمة العربيّة والبلاد الآسيويّة

الافريقيّة إلى جانب مصر واستكرت العدوان الثلاثي عليها. أدركت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل أنّ الرّأي العام لا يؤيّدهم في عدوانهم على مصر وأنّ الشّعب المصريّ بقيادة عبد الناصر يدافع عن بلده بشراسة، وأنّ بوادر حرب عالميّة ثالثة لاحت في الافق، امتثلت حينها لقرارات الأمم المتّحدة بوقف القتال والانسحاب من الأراضي المصريّة. ونزلت القوّات الدّوليّة للإشراف على الانسحاب. انسحبت القوّات البريطانيّة والفرنسيّة بسرعة، أمّا القوّات الإسرائيليّة فتصدّت لإحراق الدّمار والخراب في طريق انسحابها. وهكذا فشل العدوان الثلاثي الذي دبّته بريطانيا وفرنسا للتخلّص من حكومة النّورة واتخذنا من إسرائيل أداة له.

أمّا أهمّ النتائج التي تمخّضت عن العدوان فهي:

- استقلال مصر الكامل وقطع العلاقات كلّها التي كانت تربطها مع بريطانيا.
- القضاء على الاستعمار الاقتصاديّ الأجنبيّ وتسلّطه على الاقتصاد المصريّ.
- تصفية الاستعمار وإنهاء عصر المغامرات الاستعماريّة المسلحة.
- يقظة القوميّة العربيّة ووحدة النضال العربيّ (عمر -1990، ص541)

وضع المنطقة العربيّة في الاستراتيجيةّ الأمريكيّة

لا تختلف الولايات المتّحدة في الجوهر عن الاستعمار الأوروبي القديم. انها هي ذاته في شكله المعاصر الأكثر فتكًا، والاعظم تأثيرًا ونفوذًا، أنّ الولايات المتّحدة التي كانت حتى أواخر القرن الماضي فصيلًا في النّظام العالميّ، واحتياطًا ضخماً له، صارت تتطلّع منذ ذلك التّاريخ إلى مركز القيادة الأوّل فيه، وها هي حققت هدفها بالفعل.

قد ظهرت نظرة السّياسة الأمريكيّة بتلخيص صغير من دون موارد لالبرت بيفريدج أمام مجلس الشيوخ «لقد جعل الله منا اساتذة العالم كي نتمكّن من نشر النّظام حيث تسيطر الفوضى وجعلنا جديرين بالحكم لكي نتمكّن من إدارة الشّعوب البربريّة الهرمة، ومن دون هذه القوّة سنعم العالم مرة أخرى البربريّة والظلام. وقد اختار الله الشّعب الأمريكيّ دون سائر الأجناس كشعب مختار لكي يقود العالم أخيرًا إلى تجديد ذاته «وبالطّبع يعدّ هؤلاء العرب هم الشّعب البربري الهرم.

يقول بيير روسي * «لقد نصب الأمريكيون أنفسهم مرممين للجنس البشريّ، لقد بدا للأمريكان أنّ العالم القديم المنهك حتى الصّميم لا ينتظر إلّا أن يحال على المعيش، وأنها هي وحدها في وزن يخولها أن تخلفه، وعلى الأخص في منطقة البحر المتوسط الذي هو قلب العالم والمركز الرّوحي للشّرايين الطّبيعية والاقتصاديّة، إضافة إلى قيمته الثّقافيّة التي لا تعوض، كذلك فإنّ بنية مدنه المتينة، وثورته الفائقة فيما تحت الأرض التي يبدو كأنّ محتواها من التّفط لا نضوب له، والتّفط هو مستقبل الطّاقة في عصر ما بعد الحرب، كل ذلك دفع الولايات المتّحدة لاحتلال هذا البحر. ذلك أنّ إسرائيل وهي حكومة عسكريّة أكثر منها دولة، وليس لها وطن تدافع عنه، وليست تملك أية سيادة، تعتبر اداة ممتازة للتسلط» .

صرح الأوروبيون بكثير من المقالات وبخاصة في الاوساط الديغولية، إنّ الولايات المتّحدة قد فتشت طويلاً بين الدّول العربيّة عن حليف يخضع لها خضوعاً تاماً ويؤازرها في طموحاتها الاستعماريّة، وأنها قد بذلت جهوداً في هذا السّبيل مع مصر بالذّات، ولكن ظهر في ذلك الوقت أنّه لم يكن هناك من يقبل مخطّطات واشنطن سوى إسرائيل وحدها، يقول بيير روسي «ليس هناك اي اعتبار من نظام ثقافيّ أو عقائديّ يحكم الصّلات بين الولايات المتّحدة وإسرائيل، والمجتمع اليهوديّ الأمريكيّ مرتبط أكثر من أي شيء آخر بالوطن الأمريكيّ وبالمصالح الأمريكيّة وبالتّوسع الاستعماريّ الأمريكيّ ، فلا يمكن تمييزه أبداً ولا فصله أبداً عن الاستراتيجيةّ الاقتصاديّة للولايات المتّحدة. وليس هناك ما هو موضع جدل أكثر من القول بأن موقف الولايات المتّحدة من إسرائيل هو عطف خاص منها عليها. إنّ هذا النّوع من الشّؤون الدّبلوماسيّة لا يعالج أبداً من زاوية عاطفيّة. وما يجري بكل بساطة هو أنّ المجتمع اليهودي يستأثر بقدر هام من مقررات رأس المال الأمريكيّ، لأنّه يهيمن على المصارف وعلى شبكات الاستهلاك وعلى مكاتب الدّراسات الاقتصاديّة. غير أنّه لا يعمل كقوة مالية مستقلة، فليس هو بحد ذاته سوى موجة في مدّ الإمبرياليّة الأمريكيّة وجزرها» .

من هنا أستطيع أن أسّس لدراسة الاهتمام الأمريكيّ بالشرق الأوسط واغتنام الفرص لنتيبت دعائمه والتّشبيث بموضع القدم الذي سمحت له الظّروف بها أو أنّه خلق الظرف تحت مسميات أخرى، واستطاع زرع القواعد العسكريّة وتدعيم الانظمة العميلة المرتبطة

بالإمبريالية ويحجم أو يلغى المدّ السّوفياتيّ خاصة في مصر وهي مجال دراستي التي سأحدث عن مرحلة فاصلة في التّاريخ المصريّ ووضع القلم العريض لعلاقتها الخارجيّة ومنها تسيير التّأثير المناطقي على المحيط وكيف تأثّرت وأثّرت بشكل مباشر أو غير مباشر بالانكفاء السّوفيتيّ أمام العملاق الأمريكيّ وتعد حرب 1967 التي سنتحدث عنها فيما بعد الحدث الفصل الذي سيغرز هيمنة الولايات المتّحدة على المنطقة ومصر التي تعيننا في الدراسة.

السّمات الأساسيّة للبنية السّياسيّة العربيّة في بداية حقبة السّتينيّات:

منذ بداية حقبة السّتينيّات وحتى دعوة الرّئيس جمال عبد النّاصر إلى عقد مؤتمر للقمة يحضره رؤساء الدّول العربيّة وملوكها لمناقشة سبل مواجهة تهديدات إسرائيل.

اتسمت البنية السّياسيّة العربيّة بأربع سمات رئيسة هي على النّحو الاتي:

1- انقسام الدّول العربيّة بين فريقين من النّظم، أحدهما يطلق عليه فريق النّظم التّقدمية في مواجهة فريق آخر يطلق عليه فريق النّظم المحافظة او الرجعية، ولكل فريق من هذه النّظم علاقاته العربيّة والدّولية المتميزة وقد أخذ هذا الانقسام في التّبور في ضوء مجموعة التّطوّرات التي بدأت تتوجه بمصر نحو تطبيق الاجراءات الاشتراكيّة، ثم تأييدها السّريع لثورة اليمن، وتأييد نخبة خليجية على البعد الإسلاميّ في سياستها الداخليّة والخارجيّة لإظهار الاختلاف عما تطرحه القيادة المصريّة في شعارات قومية ومبادئ اشتراكية. ولعلّ تعبير «الحرب العربيّة الباردة» الذي استخدمه أحد الباحثين لوصف العلاقات العربيّة في هذه الحقبة، يجسّد مثل هذه التناقضات خير تجسيد.

2- إنّ فريق النّظم العربيّة المعروفة باسم النّظم الثوريّة-التّقدميّة لم يكن على درجة من التّناسق فيما بينه وتجربة محادثات الوحدة المصريّة-السّوريّة-العراقيّة قد أثبتت عمق الخلاف بين قادة النّظم الثلاثة بالنّسبة لمسألة ترتيب الأولويات القوميّة.

3- على العكس من ذلك كانت النّظم العربيّة المحافظة، تتّسم في علاقاتها فيما بينها بقدر من الانسجام، وذلك عائد إلى تشابهها معا من حيث طبيعة النّظام الحاكم، غالبيتها نظم ملكية، ومن حيث توجيهها الدّولي صوب الغرب الرّأسماليّ.

4- أنّ قضية تحرير فلسطين ومواجهة المشروعات الإسرائيليّة في هذه الحقبة السابقة

على دعوة الرئيس عبد الناصر بعقد قمة عربيّة، لم تكن أحد مرتكزات العمل العربيّ المشترك مثلما صار إليه الحال في الحقب الرّمنيّة اللاحقة، إن كانت القضية الفلسطينيّة موضوعاً ثابتاً ضمن موضوعات الحرب الباردة العربيّة، وكانت مسألة التّصدي للصّراع العربيّ -الإسرائيليّ موضع اجتهادات متباينة، ففي حين كانت المملكة العربيّة السّعوديّة والأردن وسوريا (بعد الانفصال وحتى 1964) ترى أنّ التّحركات والمضامين المصريّة-الجزائريّة-اليمنيّة أدت وتؤدي إلى إضعاف النّضام العربيّ فاتحة ثغرة تخدم إسرائيل ومشاريعها، كان النّظرف الثّاني يرى أنّ وحدة الهدف أهمّ من وحدة الصف، وأنّ علاقات الطّرف الأوّل بالغرب هي في نهاية الأمر قيود عليه تمنعه من أي عمل ضد إسرائيل. كما أنّ النّظامين العراقيّ والسّوريّ (بعد انقلابي 1964) وفي الوقت الذي شارك فيه بتبني وجهة النّظر المصريّة إزاء السّعوديّة والأردن، شنّا حملة استهدفت الطّعن بجديّة الموقف المصريّ إزاء مسألة تحرير فلسطين. هذا في حين تركّز الرد المصريّ على اتّهام النّظامين البعثيين العراقيّ والسّوريّ بتشجيع الاتّجاهات المحوريّة الانفصاليّة التي بتفتيتها وحدة المعسكر الثّوري العربيّ، تقدّم خدمة مجانيّة لإسرائيل والغرب (عبد الرحمن-1982 ص55).

ويمكن القول إنّ سياسة دول المحور كانت تهدف بصورة أو بأخرى لمواجهة التّحركات المصريّة، سعياً إلى التقليل من تأثيراتها السّلبية على وضع نظم الدّول المحافظة تأثيراً داخلياً ودولياً.

حرب 1967 حرب أمريكيّة بأداة إسرائيليّة

إنّ حرب العام 1967 بين العرب وإسرائيل ليست إلّا فصلاً من حرب عالميّة. فبعد احتلال الإدارة الأمريكيّة لمركز القيادة الأوّل في النّظام العالميّ، بعد الحرب العالميّة الثّانية، بسبب تعاضم قوة الاتّحاد السّوفياتيّ ونتيجة لسباق التّسلح والتّوازن استراتيجيّ والنّوويّ. وأيضاً وبخاصة بسبب ما طرأ من مستجدات على أزمة النّظام الاقتصاديّ الرّأسماليّ العالميّ التي أصبحت شاملة وعميقة ومستعصية على أي حلّ جذريّ، بسبب ذلك كله وغيره أيضاً، صار من الصعب، إن لم نقل من المستحيل نشوب حرب شاملة على غرار الحربين الأولى والثّانية، لكن ذلك لم يحل دون نشوب حروب إقليمية تتكثف وتتخلص في ثناياها وفي أهدافها كافة عوامل الحرب العالميّة الشاملة. أمّا وظيفة هذه

الحروب فهي ألفاظ على المركز القياديّ الأوّل لواشنطن في النّظام العالميّ.

بحيث أنّنا نجد ما لا يحصى من الاثباتات التي تؤكد أنّ حرب 1967 هي فصل من حرب عالميّة، وأنّها كانت حرب الولايات المتّحدة وليس إسرائيل. لم يكن ميدان حرب 1967 هو تلك البقعة من الأرض التي دارت فوقها المعارك. لقد شملت ميدان المعركة، إضافة لشمال أفريقيا ومالطا واليونان وتركيا وإيران وشبه الجزيرة العربيّة والبحر الأحمر. فالولايات المتّحدة هي التي شنتّ الحرب، وقد وضعت في حساباتها جميع وسائلها كي تريحها بسرعة، ولكن السّاسة الأمريكيّين لا يشيرون إلى هذه النظرة أو المقاربة ويمضون في الحديث عن «الصّراع العربيّ-الإسرائيليّ» وعن أهميتهم وسعيهم لوضع حد للصّراع في المنطقة وإحلال السّلام.

من الأمور التي تبين تجهز أمريكا المسبق للهجوم المخطط له وكما يسرد الملحقون العسكريّين الغربيّين ملاحظاتهم، أنّ قاعدتي ويلييس والعدم الأمريكيّتين في ليبيا عرفتا نشاطاً محموداً طيلة الأسابيع التي سبقت هجوم إسرائيل في الخامس من حزيران 1967. كذلك كان الحال في قاعدة اسمره المجهزة بوحدة من أعظم محطّات الاتّصالات اللاسلكية في العالم. وكانت تلك القاعدة واسطة الاتّصال بين واشنطن وهيئات أركان الحرب الأمريكيّة في الهند الصينية. ومن هذه القاعدة أيضاً تلقّت الطائرات إشارات استطلاع إسرائيليّة قبل أن تتطلق لاداء مهمتها. كما أنّ المطارات العسكريّة في إيران وتركيا واليونان المرتبطة باتّفاقات تسمح باستخدامها خارج مجالاتها الإقليميّة، كان لها دورها في حرب حزيران عام 1967، يضاف إلى كلّ هذا القاعدة الجويّة الأمريكيّة الكبرى في الظهران. والأسطول السّادس الأمريكيّ كان في حالة تأهب قصوى وكان عازماً على الرسو في الشواطئ اللبنانيّة منذ تاريخ 25 أيار 1967. ثم راح يجول في عرض البحر متّ76 غخدًا من قبرص وكريت والموانئ التركيّة نقاط استناد، وكان اسهامه بالاعمال الحربية ملحوظا بسبب قلة الحذر .

ونتيجة لحرب عام 1967، أغلقت قناة السويس، وحرمت أوروبا من شريانها الحيوي «وللمرة الأولى في التّاريخ أصبحت تشرف على المواصلات بين أوروبا القديمة وبين جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى قوّة غريبة عن عالم المتوسط هي الولايات المتّحدة» (بيير فيينو). وأنّها لحقيقة أنّ الولايات المتّحدة ليست بحاجة لقناة السويس إلا

كسلاح تمارس بواسطته ضغوطاتها الاقتصادية والسياسية. فمن مجموع 20635 سفينة عبرت القناة عام 1958 كانت هناك 789 سفينة سوفياتية و1125 سفينة فرنسية. وجراء ذلك أصبحت بريطانيا تخسر كل شهر أكثر من عشرين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية منذ 1967، حتى أنها اضطرت إلى تخفيض قيمة نقدها، وبات مركز لندن كسوق دولية مهدداً، وتضررت كثيراً جداً موانئ مرسيليا وجيبوتي وجنوة وعشرات بل مئات الموانئ الأخرى. وانخفضت علاقات الاتحاد السوفياتي في شرق أفريقيا والاقطار الهندية والاسيوية الأخرى انخفاضاً ملحوظاً، وأصبح العون الذي تقدمه إلى فيتنام مقيداً منذ ذلك التاريخ 1967 بإرادة الصين.

لقد أضحى العسكريون الأمريكيون يشرفون بسهولة على منابع النفط العربي، وأخذت صناعة ناقلات النفط الأمريكية الضخمة بالنمو. وأنه لجدير بالذكر أنّ عائدات ميناء كيب تاون في جنوب أفريقيا قد ارتفعت خمسة عشر ضعفاً من معدلها المعتاد بسبب إغلاق قناة السويس وعودة السفن إلى الطريق القديم الطويل وإلى الدوران حول رأس الرجاء الصالح. وإنّ ما حقّقه واشنطن من هذه الحرب يبين لنا تدبيرها لها، وكيف أنّ بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي كانوا أكبر المتضررين بإغلاق قناة السويس.

كانت الحرب العربية -الإسرائيلية في حزيران 1967 مبينة الضعف في التوازن الإقليمي والخطر المستمر الكامن في المجابهة بين القوى العظمى وأخيراً الخطر الكامن في انقسام المنطقة فريقيين: الولايات المتحدة وإسرائيل من ناحية، والاتحاد السوفياتي والعرب المتطرفون من ناحية أخرى، ما سمح للولايات المتحدة بتكثيف جهودها الدبلوماسية للقضاء على تأثير الضغوط العربية والحد من النفوذ السوفياتي والاستعادة السيطرة على الأبعاد الاستراتيجية للصراع العربي -الإسرائيلي. يمثل سلوك الولايات المتحدة في المنطقة الاستراتيجية الإمبريالية الأكثر وضوحاً، وهو يهدف إلى الإبقاء على النظام الرأسمالي الاقتصادي باستغلال ثروات العالم الثالث، وأضعاف حركات التحرر العالمية والوطنية، واستخدام بلدان الشرق الأوسط كمجمع للقواعد العسكرية والتجسسية تستطيع منها الهجوم على الدول التقدمية التي تضطلع بأدوار قيادية في الحركة المعادية للإمبريالية (كوانت-1984ص27).

إلا أنه وبدءًا من العام 1967 وعلى الرغم من أهمية البترول العربي المتزايدة، ازداد دعم الولايات المتحدة لإسرائيل بشكل هائل، وأصبحت بذلك إسرائيل عميلة الإمبريالية الأمريكية وحارسة لمصالحها الاقتصادية وقوة معادية للثورة في المنطقة. ومن الأمور التي ترجع الحرب إلى تشجيع من الولايات المتحدة إسرائيل في هجومها على مصر بهدف أضعاف الرئيس عبد الناصر الذي كانت ميوله المعادية للإمبريالية مكتملة التّضح وبهزيمة عبد الناصر فتحت إسرائيل الطريق للدول العربية المحافظة كالمملكة العربية والسعودية وليبيا والكويت لاستخدام مواردها المالية للقضاء على تهديد عبد الناصر لمجتمعاتها.

بعد العام 1967، بدأ بعض استراتيجيين العسكريين ينظرون إلى إسرائيل كمصدر قوة استراتيجية للولايات المتحدة. فوجود إسرائيل في سيناء أبقى قناة السويس مغلقة مما جعل من الصّعب على الاتحاد السوفيتي إرسال وحدات بحرية إلى المحيط الهندي كما وفر التّصر الذي حققته إسرائيل على مصر أسلحة سوفيتية قيمة، كان يستعمل بعضها ضدّ القوات الأمريكية في الفيتنام. وإنّ أبسط وصف للاهتمام الأمريكي بالوجود السوفيتي في الشرق الأوسط مأخوذ من مبدأ منع انتشار الافكار المعادية، لقد ظهرت هذه السياسة أول ما ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، في محاولة لمنع توسع النفوذ السوفيتي في أي جزء من العالم الحرّ، ولقد تبين أنّ هذه المعركة كانت خاسرة في الشرق الأوسط في الخمسينيات من القرن إلا أنّ الاهتمام استمر للتقليل من شأن الدور السوفيتي في المنطقة، وفي منتصف الستينيات من هذا القرن عندما كان الاتحاد السوفيتي يقف بقوة إلى جانب عدة دول عربية متطرفة وظهر بعد جديد للوجود السوفيتي أدى إلى اطلاق صانعي السياسة الأمريكية (كوانت-1984ص32).

إنّ المنظور استراتيجي ومنظور المصلحة القومية لفهم السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط يعلنان التطوّرات الرئيسية المحددة لكون الولايات المتحدة متورّطة جدا في مشاكل الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية هو حقيقة يمكن إرجاعها بوضوح إلى التنافس الأمريكي -السوفيتي والالتزام تجاه إسرائيل ومصالحها النفطية إلا أنّ طبيعة هذه المصالح تجعل من العسير على الولايات المتحدة إيجاد سياسة واحدة تفسر بشكل عام المجموعات الثلاثة من المصالح.

الحصول على النفط

قد تعرضت أهمية هذا العنصر للتغير على مدى السنوات في احتياجات العالم الصناعي إلى النفط. وكان جميع الساسة الأمريكيين في المرحلة التالية للحرب العالمية الثانية في تعاملهم مع الشرق الأوسط يفكرون بطريقة أو بأخرى في الحصول على النفط بالذنب نسبة لحلفاء أمريكا وبالنسبة إلى الولايات المتحدة نفسها.

وحيث كانت هذه المقومات الثلاثة تمثل موضوع الخلفية الأساسية لصنع السياسة الأمريكية فإنها كانت مترابطة معاً، وتتسم بالثبات. وإن كان كلٌّ منه يتمتع بوزن مختلف تبعاً لطبيعة المرحلة التاريخية. ومن ثم فإن علاقات الولايات المتحدة مع أي قطر عربي: مصر أو السعودية أو الأردن أو بالأمة العربية ككل تميل إلى أن تكون انعكاساً لأحد تلك الاعتبارات أو بعضها. فقد ترغب في وجود حليف ضد الاتحاد السوفيتي في مقام المنافسة. وقد تكون مصر هذا الحليف أو قد يُنظر إليها نظرة عدو. وقد تكون رغبة التعاون مع قطر عربي لأن ذلك القطر على استعداد لمعادنات سلام مع إسرائيل. وهذا يفسر بعض العلاقات مع الأردن والاهتمام بمصر، أو بتقوية العلاقات مع قطر عربي آخر من أجل الحصول على النفط. إن السياسة الأمريكية نحو مصر ونحو العلاقات المصرية-العربية تتحدد على أساس اعتبارات منفصلة هي الموقف السوفيتي واحتمالات السلام العربي-الإسرائيلي والنفط.

أبعاد التطور في السياسة الأمريكية في مصر

السياسة الأمريكية بين 1967 و1973

إن السياسة الأمريكية تراوحت بين اتجاهين بشأن رؤيتها لمصر كجزء من العالم العربي، ويمكننا دراسة المرحلة منذ العام 1967 حتى العام 1973 وهنا أعتقد أن الاهتمام الأول للولايات المتحدة بشأن مصر، على الأقل للحقبة التي سبقت 1973 مباشرة، كانت هي العلاقات المصرية-السوفييتية وقد أثار ذلك بشكل كبير في نظرة الولايات المتحدة لمصر.

نستطيع دراسة هذه الحقبة لأنها تسمح بمعالجة مسألة النظرة إلى مصر في إطار العرب الآخرين من دون أن تتعرض كثيراً لتأثير الروابط المصرية-السوفييتية.

كان لدى الولايات المتحدة بشكل عام تصوران: الأول، هو رؤية مصر كعنصر قياديّ ضمن ما يمكن تسميته بالدول العربيّة المعتدلة، ومفهوم الاعتدال من وجهة النظر الأمريكيّة يتّجه أساساً إلى العرب الذين لديهم استعداد للعمل مع الولايات المتحدة من أجل نوع من التسوية التفاوضية للنزاع أو للصراع الإسرائيليّ-الفلسطينيّ. وبوجه عام فإنّ هذا يعني أنّهم لم يصبحوا معتمدين بالأساس على الاتّحاد السوفيتيّ في مجال التأييد الدبلوماسيّ والعسكريّ. وهذا ما يعنيه مفهوم الاعتدال، ومن هنا فإنّ التّصوّر الأوّل مضمونه أنّ مصر عنصر قياديّ في تحالف عربيّ عريض ونستطيع الاستنتاج أنّ الولايات المتحدة تعمل مع مصر ثم تحاول جذب أطراف عربيّة أخرى نحو تسوية تفاضلية للمسألة الفلسطينيّة.

والاتّجاه الثّاني في التّعامل مع مصر هي كونها دولة مستقلة عن غيرها من العرب، ومنغزلة بدرجة أو بأخرى عن جيرانها، وأن يتم التركيز على النّوع الثّنائي بين مصر وإسرائيل من دون الاهتمام بالأبعاد الأوسع للصراع.

سياسة الرؤساء الأمريكيين في مصر

من مبدأ نيكسون إلى مبدأ كارتر

على أبواب الهزيمة الكبرى التي لحقت بالسياسة العدوانية للإمبريالية الأمريكيّة في فيتنام وفتحت الطريق أمام هزيمتها الشاملة في الهند الصينية، بدأت الإدارة الأمريكيّة لعهد نيكسون أولاً تحت ضغط الهزيمة. وثانياً تحت ضغط إدانة الرأى العام بالديمقراطي في العالم لجرائم الحرب الأمريكيّة وثالثاً تحت ضغط حركة الاحتجاج الديمقراطيّة الأمريكيّة على هذه الجرائم، بدأت تراجع سياستها التي كشفت دور الولايات المتحدة كشرطي دولي بالدرجة الأولى.

وأصبح لأمريكا رصيد مهم عند العرب، وكان السوفيت قد أفصحوا عن استعداد عبد الناصر لتقديم تنازلات لأمريكا وهذا الذي كانت أمريكا ترصده، وهنا برزت زيارة سيسكو وخطاب عبد الناصر كنقطة تحوّل في أحد جوانب الدبلوماسية الأمريكيّة أدّى إلى جعل وزارة الخارجية خلال أشهر قليلة لتقوم بجهد مكثّف بهدف العودة إلى وقف إطلاق النّار، أمّا الخط الآخر للسياسة الأمريكيّة الموازية المرتبطة جزئياً به فقد كان

يتعلّق بتقديم الأسلحة لإسرائيل والتّورط السّوفياتيّ في مصر على حد سواء وقد تولّى البيت الأبيض الإشراف على هذه النّاحية. كان نيكسون ينكر إمكانية استخدام الإمداد بالسلّاح كشكل من أشكال الضّغط على إسرائيل لكن تبين عدم صحة هذه الحكاية في الأشهر التّالية من الحرب.

في حين لوحظ وجود طيارين سوفيات للمرة الأولى على الأرض المصريّة في اثناء قيامهم بالتّحليق بدوريات قتالية بتاريخ 18 نيسان، بعد بضعة ايام بدأ نيكسون التّخطيط لتحرك عسكريّ مثير للجدل وأمر بإجراء تحقيق شامل عن الدّور السّوفياتيّ المتعاطف في مصر. ولم يكن الرّئيس نيكسون يكسب إلا القليل من الدّعم الثّمين لاستمرار سياسته في الشّرق الأوسط .

جاءت الخطوة التّالية من الاتحاد السّوفياتيّ بتاريخ 2 حزيران عندما التقى دوبرنين وسيسكو، وحسب إدعاء دوبرنين، حصل الاتحاد السّوفياتيّ على تنازلين مهمين من عبد النّاصر، الأوّل أنّ مصر ستوافق على ضبط نشاطات الفدائيين من الأراضي المصريّة في حال سريان مفعول وقف إطلاق النّار، والثّاني أنّ مصر ستوافق على إنهاء حالة الحرب لدى توقيع الاتفاقيّة.

فكان الجواب الأمريكيّ تجاهل العرض السّوفياتيّ بالقيام بمبادرة مشتركة بل كان يرى بدلا من ذلك متابعة دعوة الاطراف المتنازعة لوقف اطلاق النار وتجديد المحادثات. اجتمع مجلس الامن القوميّ في 10 و18 حزيران لمناقشة الوضع في الشّرق الأوسط.فاصدر قرار وقف اطلاق النار لمدة ثلاث أشهر، وتجديد المحادثات تحت رعاية السفير يارنغ.

كان عبد النّاصر قد غادر إلى موسكو في 29 حزيران بهدف المعالجة الصحيّة في الأساس، وبينما كان هناك ناقش الاقتراح الأمريكيّ مع الرّعاء السّوفيات وأخبرهم على ما يبدو أنّه كان ينوي القبول به. وبعد عودته بمدة قصيرة في 22 ايلول قبل بها عبد النّاصر من دون شروط مسبقة.

والان كان على الولايات المتّحدة أن تتوصل إلى استجابة إسرائيليّة إيجابيّة أو تخاطر بانهيار نشاطها السّياسيّ في الشّرق الأوسط. فكتب الرّئيس نيكسون إلى رئيسة الوزراء مائير بتاريخ 22 تموز حادثا إياها على قبول إسرائيل بالاقترح ومتعهداً في الوقت

نفسه بعدة التزامات مهمة. بالإضافة إلى ذلك وعد نيكسون بالاستمرار بتقديم السلاح لإسرائيل. كما أنّ خطة روجرز سوف تحسب أنّ الولايات المتحدة ستقوم باستخدام حق النقض (الفيتو) ضد أية قرارات معادية لإسرائيل في الأمم المتحدة.

وبعد تلك المرحلة بدأ نيكسون يدعو لمراجعة لا تمسّ جوهر وأهداف الإمبريالية الأمريكية في وقف عجلة التحوّلات الديمقراطية والثورية المتسارعة في وتيرة تطوّرها في بلدان العالم النامي، وفي إدامة السيطرة والهيمنة الإمبريالية على هذه البلدان سياسياً، وعلى مصادر ثرواتها الوطنيّة. وانتهت إدارة نيكسون إلى اختراع ما اتفق على تسميته «مبدأ نيكسون» الذي يتضمن تراجعاً عن دور الشّرطيّ الولي ويدعو إلى «مبدأ المشاركة الإقليمية». إنّ مبدأ المشاركة الإقليمية كان يقوم على تقاسم دور الشّرطيّ الدوليّ مع الحكومات الرّجعية في البلدان النامية. وفي المنطقة العربيّة ومنطقة الشرق الأوسط وقع اختيار «المشاركة الإقليمية» لوقف عجلة التحوّلات الديمقراطية والثورية وإدامة السيطرة والهيمنة على كل من إسرائيل وإيران - الشّاه كقوى رئيسة في حسابات «المشاركة الإقليمية» وعلى السّعوديّة وعدد من دول الخليج والأردن كقوى مساعدة. أمّا «مبدأ المشاركة الإقليمية» فكان يتركز أساساً على معادلة تقضي أن تقدّم الدول الوكيلة للإمبريالية الأمريكيّة القوى البشريّة والإمكانات الماليّة والماديّة بينما تقدّم الإمبريالية الأمريكيّة التسليح بما في ذلك أحدث ما أنتجته مصانع الحرب الأمريكيّة، كما تقدّم الخبرة والمساعدات الفنيّة العسكريّة الضّروريّة لبناء الأساس التّحتيّ للقوات المسلحة، بما في ذلك المسائل المتعلّقة بشؤون القيادة والإدارة والتحكّم والاتّصال وتلك المتصلة بشؤون التّدريب والتّعبئة والمجمعات العسكريّة والقواعد الجويّة والبحريّة. ومن البديهي أنّه تحت راية «مبدأ المشاركة الإقليمية» هكذا كانت تجري عملية ربط واسعة لهذه الدّول بعجلة السّياسة الأمريكيّة واستراتيجيتها العدوانية.

مع ذلك لم يقف «مبدأ نيكسون» في «المشاركة الإقليمية» في وجه عجلة التحوّلات الديمقراطية والثورية في المنطقة وفي الحزام المحيط، أو ما تسميه الدوائر العدوانية في الإدارة الأمريكيّة «بقوس الأزمت» الذي شهد عدداً من الإنجازات والتطوّرات الثورية. فقد قادت كل من مصر وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينيّة حرباً مشرّفة ضدّ العدو الإسرائيليّ أبدت فيها الجيوش العربيّة قدرة جيّدة ومتقدمة ليس فقط في حسن

استخدام السّلاح السّوفيّاتي المتطور، بل كذلك في حسن إدارة حرب عصريّة ومعقدة. كذلك توطّدت أوضاع ومكانة جمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشّعبية وقامت في كل من أثيوبيا وإيران وأفغانستان ثورات شعبيّة كانت هي الأكثر تأثيرًا على المصالح الأساسيّة للإمبرياليّة الأمريكيّة في المنطقة، كما أحرزت منظمة التّحرير الفلسطينيّة رغم كل حروب الإنهاك ضدها، انتصارات واسعة على الأصدقاء العربيّة والإقليميّة والدّولية بكل تأثيراتها السياسيّة على سياسة الإدارة الأمريكيّة في المنطقة العربيّة والإقليميّة والدّولية بكل تأثيراتها السياسيّة على سياسة الإدارة الأمريكيّة في المنطقة العربيّة ومنطقة الشّرق الأوسط.

في ظل هذا الوضع وفي خضمها جاءت اتفاقية كامب دايفيد بين اميركا وإسرائيل ومصر السّادات لتشكل نقطة الانطلاق التي اعتمدها إدارة كارتر للعودة عن مبدأ المشاركة الإقليميّة، وشق الطّريق أمام ما سمي بـ «مبدأ كارتر». لقد جاء الإعلان الرّسمي الشّكليّ عن «مبدأ كارتر» بعد المساعدة السّوفيّاتيّة للثورة الديمقراطيّة في أفغانستان، كجزء من الحملة السياسيّة الأيديولوجيّة للإمبرياليّة الأمريكيّة ضد مجموع التّحوّلات الديمقراطيّة والثوريّة الجارية بشكل خاص في الحزام المحيط بالمنطقة العربيّة كغطية للاتجاه العدوانيّ الجديد في السياسة الأمريكيّة. إنّ التّراجع عن الإعلان الأمريكيّ -السّوفيّاتيّ حول أزمة الشّرق الأوسط في اليوم التالي لإعلانه كان يمثّل دون شك نقطة انعطاف في السياسة الأمريكيّة باتجاهات أكثر عدوانيّة وأكثر حسماً في خياراتها السياسيّة والاستراتيجيّة. وإذا كان هنالك مغزى لهذا التّراجع الأمريكيّ عن الإعلان الأمريكيّ -السّوفيّاتيّ في أيلول 1977، فإنّه يمكن في ان الإدارة الأمريكيّة قد أخذت تحسم خياراتها باتجاه عدوانيّ متطرّف يهدف إلى السّيطرة والهيمنة الكلية، خاصة بعدما لمست القيادة الأمريكيّة درجة عالية لدى السّادات من العداء اتجاه الاتحاد السّوفيّاتيّ وحركة التّحرر الوطنيّ العربيّ، ودرجة عالية من الانسجام مع السياسة الأمريكيّة ليس فقط في المنطقة العربيّة والشرق الأوسط. بل كذلك في القارة الافريقيّة التي تشهد بدورها تحوّلات ديمقراطيّة وثوريّة واسعة. إنّ تصريحات بريجنسكي، مستشار كارتر لشؤون الامن القوميّ والممثل الأبرز للاتّجاهات العدوانيّة المتطرفة في إدارة كارتر، قيل أكثر من عام على المساعدة السّوفيّاتيّة للثورة الديمقراطيّة في أفغانستان تكشف وبضوح

بالغ درجة ارتباط «مبدأ كارتر» بما يجري في الحزام المحيط بالمنطقة العربية. إنها كثيرة تصريحات واعلانات بريجنسكي وتحذيراته من «قلقين مباشرين يهددان الولايات المتحدة، أحدهما عدم الاستقرار الإقليمي»، فهناك على حد تعبير بريجنسكي «قوس من الأزمات» يمتد من سواحل ذات أهمية حيوية لنا مهددة، ويمكن ان تملأ بصورة قوية الفوضى السياسيّة بعناصر معادية لنا ومتعاطفة مع خصومنا».

إنّ ما تسميه الاوساط اليمينية العدوانية في الولايات المتحدة بقوس الأزمات، أولاً، وما يرافقه من أنظمة اجتماعية سياسية هشة غير قادرة على أداء دورها في المشاركة الإقليمية. ثانياً، كانا وراء استبدال مبدأ نيكسون العواني بمبدأ كارتر الأكثر عدوانية بدعوته إلى عدم التعويل على هذه المشاركة وإلى الحضور العسكري في بلدان المنطقة، أي يدعو إلى تعديل صيغة الحارس الوكيل للمصالح الإمبريالية الأمريكية واعتماد القوات العسكرية الأمريكية كحارس اصيل لهذه المصالح. فيكون الحارس الوكيل، إذا استثنينا دولة العدو إسرائيل، خاضعاً أو تابعاً له في سياسته واستراتيجيته، بحكم ارتهانه السياسيّ الناجم عن ضعفه أولاً، وارتباطه بمصدر التسليح الامبريالي. ثانياً، وخضوعه لشبكة من العلاقات العسكرية في جميع ميادين البناء العسكريّ التّحتي. ثالثاً، المصالح الاقتصادية التابعة. رابعاً، وقد جاءت اتفاقية كامب دايفيد التي تبدو في ظاهرها تعالج فقط الصّراع العربيّ- الإسرائيليّ والفلسطينيّ-الإسرائيليّ، منسجمة تماماً مع التّوجهات السياسيّة والاستراتيجية الأساسية للإمبريالية الأمريكية في عموم المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط، وخادمة لأهدافها المعادية لمصالح شعوب هذه المنطقة. ويتّضح بعد أكثر من سنتين على اتفاقية كامب دايفيد التّرابط العضويّ بين هذه الاتفاقات وبين أهداف السياسة الإمبريالية الأمريكية ومحاورها الأساسية في المنطقة. في هذا السياق يبدو منطقياً ومفيداً، ليس فقط على مستوى الرّبط بين الاتفاقات هذه وأهداف السياسة الأمريكية في المنطقة، بل كذلك على مستوى تحديد الاتجاهات الرئيسيّة لسياسة الإدارة الأمريكية الجديدة، بأنذ نسلط الضّوء من جديد على جوانب بارزة في أهداف اتفاقيات كامب دايفيد ومواقف مختلف القوى العربيّة والشرق أوسطية منها.

فعلى الصّعيد المصريّ أخرجت اتفاقيات كامب دايفيد مصر السّادات من ساحة الصّراع ليس فقط مع العدو الإسرائيليّ، بل كذلك مع العدو الإمبرياليّ وبخاصة إمبريالية

الولايات المتحدة الأمريكية، وجاءت القيود والاشتراطات التي يتضمنها الملحق رقم 3 من بروتوكول العلاقات لكامب ديفيد بالنسبة لمصر التي تعني أولاً وأساساً هدراً كاملاً لسيادة مصر بدءاً من أسبقية التزامات مصر نحو إسرائيل على التزاماتها في ميثاق الدفاع العربي المشترك، وانتهاء بتطبيع العلاقات في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية، جاءت لتعطي الاتفاقية بعداً جوهرياً يحوّل مصر بكاملها إلى قاعدة عسكرية للولايات المتحدة تتطوّل أعمالها العدوانية ضد شعوب المنطقة العربية والشرق أوسطية والقارة الأفريقية. ذلك يعني أنّ الولايات المتحدة الأمريكية قد حقّقت نجاحاً بارزاً. حتى في ظل اعتبار هذا النّجاح مؤقتاً. في طمس تاريخ مصر الوطني التحرري والمعادي للإمبريالية في المنطقة العربية وأفريقيا وحركة عدم الانحياز وفي تحويل طاقات مصر في الاتجاه المعاكس. وحقّقت نجاحاً بارزاً في تصفية جيش مصر الذي تربى في ظلّ قيادة عبد الناصر وبفعل المساعدة والمساندة السوفياتية على روح النضال التحرري الوطني والتقدمي العربي وروح مساندة الحركات الوطنية التحررية في أفريقيا وبلدان العالم النامي وبناء جيش آخر بتسليح أمريكي وعقيدة عسكرية أخرى جديدة تراهن الإمبريالية الأمريكية عليها في ظل قيادة السادات التي تنتكر وتعادي كل ما هو وطني وتحرري وتقدمي.

الأبعاد الاستراتيجية لاتفاقيات كامب دايف

نستطيع الحسم أنّه كان لاتفاقية «كامب دايفيد» ومعاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية، أبعاد استراتيجية بالغة الأهمية غيرت النّظام العربي في السّنوات الماضية، وتمثّلت أبرز هذه الأبعاد في اختلال التوازن العسكري بين أطراف الصراع العربي-الإسرائيلي، وتنامي العلاقات الاستراتيجية الأمريكية-الإسرائيلية، ونشوء علاقات مصرية-أمريكية مميزة، بالتالي ضالة الدور المصري في الوطن العربي والقارة الأفريقية.

ترتبط الاستراتيجية في العلاقات بين الدول بمفهوم الأمن القومي، وبمفهوم التهديد الرئيسية والثانوية التي تتعرض لها الدول، ثم برسم السياسات القومية العليا لمواجهة تلك التهديدات سواء ارتبطت تلك السياسات بتكريس استراتيجية مواجهة، أو بناء استراتيجية توافقية غير صراعية.

ومما لا شك فيه، أنّ اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، وما تبعها من اتفاقية سلام عرفت باسم اتفاقية واشنطن في آذار 1979 ترتبط ارتباطاً محكماً بتلك المفاهيم، بل إنّ إدراك ومضمون تلك المفاهيم أصبح إلى حد كبير متغيراً تابعاً لترتيبات الأمن والالتزامات السياسيّة التي نصّت عليها تلك الوثائق.

يمكننا الإضاءة على عدة جوانب عسكريّة وأمنيّة وردت في وثائق الصلح المصريّ - الإسرائيليّ وتحليل ما يرتبط بها من أبعاد استراتيجيّة من عدة نواحٍ نستطيع إدراج ما يهمننا دراسته في عدة نقاط:

- التّوازن العسكريّ بين الطّرفين، اي مصر وإسرائيل، وخصوصاً القيود التي فرضتها الاتفاقيات على مصر بما يؤثر في رسم استراتيجيتها.

- العلاقات الاستراتيجية المتنامية بين إسرائيل والولايات المتّحدة الأمريكيّة.

- العلاقات العسكريّة الخاصة بين مصر والولايات المتّحدة الأمريكيّة.

- ضآلة حجم الدور المصريّ في الصّراعات والتّفاعلات العربيّة، وبصورة خاصة تجاه الإزمة اللبنانيّة.

- خطط إسرائيل في القارة الافريقية وتأثيرها في رسم استراتيجيّة قارية مصريّة (المشاط-1985).

ويهمني دراسة النقطة الثالثة والتي تخص علاقة مصر بالولايات المتّحدة اثر اتفاق كامب ديفيد الحدث المفصليّ في علاقة مصر العسكريّة.

إنّ العلاقات العسكريّة الخاصة بين مصر والولايات المتّحدة قد نمت بصورة واضحة إثر اتفاقيات «كامب ديفيد» وبصورة أخرى عقب معاهدة الصلح. ويمكننا الإضاءة على خاصية المصالح المشتركة التي عليها تبنى الاتفاقات والمعاهدات، وأهمية كلّ من الأطراف بمدى الكسب القوميّ والدّوليّ الذي يستطيع تحصيله من علاقات متبادلة أو مكاسب مادّيّة.

إنّ مصر التي تحتاج إلى المساعدات والدّعم العسكريّ الأمريكيّ، تبادل كل ذلك بموقعها وأهميتها الاستراتيجية، أي أنّ مصر قدّمت للولايات المتّحدة بعداً وأهمية

استراتيجية مقابل حصولها على المعونات والدعم العسكري الأمريكي.

وهناك رؤية أخرى تسعى إليها الدول من خلال تلك العلاقات الخاصة وهي تعظيم المكاسب القومية ، وذلك من خلال تفاعل الدول فيما بينها، وهنا تسعى الحكومة المصرية إلى تعظيم أمنها القومي بتوطيد العلاقات.

من الممكن الاستدلال ببعض المؤشرات التي توضح خصوصية العلاقات المصرية- الأمريكية. فقد بلغ إجمالي المساعدات الأمريكية لمصر فيما بين أعوام 1975 و1982 حوالي 7.2 بليون دولار، وقد زاد الكونغرس المعدل السنوي للمساعدات بما يصل إلى 1.7 بليون دولار.

ومنذ توقيع اتفاقيات الصلح المصري-الإسرائيلي، والعلاقات المصرية-الأمريكية في تطوّر مطرد، قدّمت مصر للولايات المتحدة تسهيلات عسكرية في منطقة رأس بناس، وسمحت بإجراء المناورات العسكرية المشتركة بين القوّات المسلحة للدولتين فيما عرف بعمليات النّجم الساطع 1 و2 و3.

يبرز لنا عدة إشكاليّات لا تخفى باستراتيجيّات المتبعة، ففي الوقت الذي تحصل فيه إسرائيل على كميات كبيرة من الاسلحة المتطورة ذات الفاعلية العالية مع ما يلزمها من دعم تقني ومالي في صناعة مقاتلات وما يلزمها من كميات من الذخائر تكفي إسرائيل لعدة أشهر من دون امداد مباشر، تحصل مصر على كميات محدودة من الأسلحة ومن الذخائر لا تكفيها لعدة طلعات جوية.

يمكننا الاستنتاج أنّ التّسليح في إسرائيل يتميّز بالاستمراريّة، فإنّ تغيير تسليح الجيش المصري من السّلاح السّوفياتي إلى السّلاح الأمريكي أحدث تحوّلًا أساسيًا في استراتيجية التّسليح في الجيش المصري، مما يؤدّي على الأقل في المدى القصير على فقدان أي تفوّق نسبي في مواجهة إسرائيل.

يضاف إلى ذلك أنّ الاعتماد في التّدريب على إرسال المبعوثين من شباب القيادات العسكريّة إلى الولايات المتّحدة من شأنه إعادة تشكيل نظام القيم وجملة الأفكار التي يحملها الشّبان نحو الأطراف الدّولية المختلفة مما يؤثر في اتّجاهاتهم السّياسيّة، ومن ثم على أبعاد فهمهم الاستراتيجي.

إنّ تخصيص الولايات المتّحدة 1.3 بليون دولار من المساعدات والقروض للجانب العسكريّ المصريّ من شأنه أن يطوّر الجيش المصريّ وأهميته في بناء استراتيجية أمن قوميّ مصريّ، ولكن السؤال البديهيّ، أن تستدعي إقامة ترسانة عسكريّة مصريّة ضد من، إن لم تكن ضد إسرائيل .

الظاهرة الأساسيّة التي تميز الوضع العربيّ بشكل عام ومصر بشكل خاص هي احتدام الصّراع بين قوى الإمبرياليّة الأمريكيّة والصّهيوينيّة والرّجعية وبين حركة التّحرّر الوطنيّ العربيّة. ففي السّنوات الأخيرة تتابعت موجات الهجمة الأمريكيّة بسرعة متزايدة ومتزامنة مع مشاريع الهيمنة الأمريكيّة على المنطقة. لقد عملت الإمبرياليّة الأمريكيّة على خمسة محاور أساسيّة في مواجهة حركة التّحرّر الوطنيّ العربيّة هي:

- 1- تخطيط وتنفيذ الثّورة المضادة في مصر وصولاً إلى:
 - عزل مصر بكل ثقلها عن حركة التّحرّر الوطنيّ العربيّة.
 - تفتيت التضامن العربيّ.
 - إقامة حلف مصريّ-إسرائيليّ-نفطي (مقرر ان يضم له السّعوديّة وعمان وبعض الدّول النّفطية العربيّة)
- 2- التركيز على تصفية كل صور المقاومة الفلسطينيّة المسلحة، وسلب منظمة التّحرير الفلسطينيّة مضمونها ودورها.
- 3- ضرب التحالف العربيّ-السّوفياتيّ.
- 4- إشهار سلاح الشّيوعيّة على القوى «القوميّة» في اتجاهين أساسيين:
 - تفتيت الجبهات الداخليّة وإشغال نيران الصّراع بين القوى الوطنيّة النّقدية.
 - محاولة افتعال معركة عامة بين القوى القوميّة وبين الاحزاب الشّيوعيّة والقوى الماركسية في المنطقة في معركة وهمية تنفرغ خلالها الإمبرياليّة الأمريكيّة لاحكام قبضتها على المنطقة بواسطة عملائها.
- 5- إثارة الاضطرابات وتعميق الازمات والصّراعات الإقليميّة لاتخاذها ذريعة لانتشار وجودها العسكريّ في المنطقة وحولها بحجة حماية الرّأسماليّة العالميّة(الطرق-

1981ص60).

لقد استهدفت الاستراتيجية الأمريكية من ذلك إحكام سيطرتها على المنطقة العربية واستغلال ثرواتها وخيراتها واستعمال شعوبها لتفعيل مصالحها . وفي ظلّ هذا المخطط وقّع السادات اتفاقية كامب دايفيد.

ونلاحظ كثير من القوى السياسية الثورية المصرية والعربية ان ذلك تم في وقت كان الوضع العربي يعاني من حالة تراجع وانكفاء أمام شراسة الهجمة الإمبريالية الصهيونية ولذلك لم يكن شكل التصدي لهذه المواجهة في المستوى المطلوب. واقتصر التحرك الجماهيري بشكل أساسي على الساحتين الفلسطينية واللبنانية، في حين شكّلت جبهة الصمود والتصدي ردًا تقدميًا إيجابيًا أوليًا، وشكّلت قمة بغداد بالحد الأدنى من القرارات التي اتخذتها سقف المواجهة العربية الرسمية وأفضل الأشكال الممكنة للتضامن العربي في مواجهة المؤامرة. وقد أمكن اتخاذ القرارات الجماعية في قمة بغداد برفض اتفاقية كامب دايفيد ومقاطعة سياسة السادات ونظامه في مناخ ردة الفعل المشروعة على ما عدّ خيانة.

ولقد تميزت الحقبة التي أعقبت قمة بغداد بتفاقم الصراع حول الموقف الفعلي من كامب دايفيد، ظهرت خلاله مبادرات سعودية أردنية وسودانية جوهرها محاولة إخراج السادات من عزلته والتعامل بأشكال ملتوية مع الواقع الذي عبرت عنه اتفاقية كامب دايفيد.

لقد كان حجم التنازلات أكبر من أن تستطيع سياسة السعودية المعلنة قبوله. فاضطرت إلى رفضها حرصاً على الدور الذي تطمح إليه عربياً وإسلامياً، ولتعارضه مع موقفها المعلن من القدس وتحرير الأراضي الفلسطينية، فضلاً عن الاعتبارات الداخلية الناتجة عن الصراع الدائم الدائر في العائلة المالكة.

وبديهي أن تحاول الولايات المتحدة تطبيق الموقف السعودي ودول النفط الخليجية والعمل على جذب هذه الدول بعيداً عن الاجماع العربي ودفعها للاشتراك في الحلف الإسرائيلي-المصري-الأمريكي بصورة أخرى.

الثورة المضادة في مصر

بسقوط مصر في دائرة النفوذ الامبرياليّ وعودتها إلى التبعية الاستعماريّة وجهت الإمبرياليّة الأمريكيّة ضربة خطيرة لحركة التحرّر الوطنيّة العربيّة. إنّ تصرف السادات لايحوز أن ينظر إليها كتصرف حاكم فرد أو كمجرد ظاهرة مصريّة ولكنّها نتاج مصالح البرجوازيّة، إنّ هذه الظاهرة بدأت تنمو في ظل أنظمة وطنيّة عربيّة أخرى، والتّصدي الواعي لهذه الظاهرة هو أمر بالغ الأهمية للقضاء على «الطابور الخامس» الكامن في انتظار تغير المؤامرة لينقض وينتسك ببلادها. إنّ نظرة فاحصة على خطوات الثورة المضادة في مصر تصبح أكثر أهمية مما لو اعتبرناها فقط مجرد ظاهرة مصريّة.

كانت أولى خطوات الثورة المضادة في مصر من الناحية السياسيّة هي مبادرة السادات التي أعلنها في 4 شباط 1971 ابان اجتماعه بروجرز. وفي أعقاب انقلاب مايو 1971 تسارعت خطوات الثورة المضادة:

- 1-انهاء مهمة المستشارين والخبراء العسكريين السوفيات .
- 2-تخريب العلاقات المصريّة-السوفيّاتيّة.
- 3-الركض وراء الحل الأمريكيّ للقضية الوطنيّة.
- 4-الحديث الكاذب والمستمر عن تنوع مصادر السّلاح .
- 5-زيارة القدس المحتلة.
- 6-الصلح مع إسرائيل الذي انتقص من سيادة مصر على أراضيها، وجعلها لأول مرة في تاريخها حدودا سياسيّة وأخرى عسكريّة يفصل بينها أكثر من مائتي كيلومتر.
- 7-الغاء التزامات مصر العربيّة والتّخلي عن انتماء مصر العربيّ.
- 8-الدخول في الحلف الأمريكيّ الإسرائيليّ ضد حركات التحرّر الوطنيّ العربيّة والافريقيّة.
- 9-تحويل مصر من قاعدة للنضال التّحرريّ ضد الإمبرياليّة إلى قاعدة لتصدير الثورة المضادة واداة في يد الاستعمار الجديد.

10- تقديم القواعد العسكريّة والتسهيلات العسكريّة للإمبرياليّة في قاعدة رأس بيناس على البحر الأحمر حيث يعسكر حتى الآن 25 ألف عسكري اميريكي، منهم 11 ألفا من البحرية، لاستخدامها ضد شعوب المنطقة.

11- تسخير القوات المسلحة المصريّة لخدمة مخططات الإمبرياليّة وحماية مصالحها.

12- حماية الأنظمة العمليّة -التدخل العسكريّ في السّودان لإجهاض ثورة السّودان التّقدميّة في يوليو 1971- مساندة سلطان عمان ضد الثّورة الشعبيّة العمانيّة.

13- تقديم التّسهيلات العسكريّة للقوات المسلحة الأمريكيّة في المحاولة الفاشلة للعدوان على الثّورة الإيرانيّة.

14- تقديم الدّعم العسكريّ للقوات الانعزاليّة العميلة لإسرائيل في لبنان.

وفي مجال الاقتصاد وتحت شعار الانفتاح الاقتصاديّ على الرّأسماليّة العالميّة راحت الثّورة المضادة تصفي منجزات ثورة يوليو 1952 الاقتصاديّة والاجتماعيّة، واخذت تسلم مفاتيح الاقتصاد القوميّ للشركات العالميّة المتعددة الجنسيات وتعيد عصر الامتيازات الأجنبيّة وربط الجنيه المصريّ بالدولار الأمريكيّ، وأغرقت الثّورة المضادة البلاد في الديون الخارجيّة (قفزت من مليار دولار عام 1970 إلى 11 مليار دولار عام 1976 وإلى 16 مليار دولار عام 1979، وقد زادت إلى 32 مليار دولار عام 1985). وقفزت أعباء الديون الخارجيّة من 17.7 بالمئة إلى ما يزيد عن 70 بالمئة من إجمالي صادرات البلاد، كما خضعت سلطة السّادات لشروط البنك الدوليّ وصندوق النقد الدوليّ في إلغاء دعم السّلع الأساسيّة وتشريع القوانين الجديدة التي تسهل عملية التّهب الرّأسماليّة لمصر.

ورفعت الثّورة المضادة في البداية شعارات ليبراليّة زائفة حول سيادة القانون ودولة المؤسّسات وتصفيّة المعتقلات والحد من التّعذيب في المعتقلات والسّجون. مع احتدام الصّراع داخل مصر أسفرت سلطة السّادات-سلطة الثّورة المضادة-وعن وجهها المعادي للديمقراطيّة والحريّات، المعادي للجماهير الشعبيّة، فمارست القمع الوحشيّ للاضرابات العماليّة والانتفاضات الطّلابية خلال اعوام 1971 و1975، وواجهت الانتفاضة الشعبيّة في يناير 19-18 من 1977 بالرّصاص وإعلان الاحكام العرفيّة. ولقد سقط في هذه الانتفاضة أكثر من 400 شهيد ألف جريح وبلغ عدد المعتقلين 551. واتبعت سلطة

السّادات أسلوب القبض الدّوري على القوى الوطنيّة والديمقراطيّة والتّقدميّة وأصدرت القوانين الخاصّة بذلك، كما لجأت إلى تليفق القضايا السياسيّة ضد خصومها. وأقامت أجهزة قمعيّة مزودة بأحدث الأسلحة والمعدات لمواجهة أي تحرّك جماهيريّ وتعبئة جيش كامل يسمى بقوات الأمن المركزي وعدد هائل من الجواسيس والمرشدين وعملاء الاجهزة.

وقد عزّزت سلطة 15 ايار 1971 السّطات المطلقة لرئيس الجمهوريّة في دستور 1971. الأمر الذي يمكنه من الانفراد باتّخاذ اخطر القرارات المصيريّة من دون الرجوع إلى المؤسّسات التنفيذيّة او التّشريعيّة.

كما اصدرت ترسانة من التّشريعات والقوانين المعادية للديمقراطيّة والمهدرة لحقوق الانسان المصريّ، فأصدرت تبعاً:

- قانون الحراسة وتأمين مصالح الشّعب 34 لسنة 1971 .
- قانون الوحدة الوطنيّة لسنة 1972 .
- قانون 2 لسنة 1977.
- قانون حماية الجبهة الداخليّة لسنة 1978.
- قانون تعديل نظام الاحزاب السياسيّة 36 لسنة 1979.
- قانون حماية القيم

...

امريكا بعد كامب ديفيد عربيًا

ضربت اتفاقيات كامب ديفيد التضامن العربيّ وعطلت نهائيًا إمكانيّة استثمار نتائج حرب تشرين 1973 الوطنيّة لفرص تسوية سياسيّة مرحلية للصّراع العربيّ -الإسرائيليّ. فأسرائيل في ظلّ مكاسب كامب ديفيد لم يعد لها دوافع كثيرة لتسوية سياسيّة مرحلية شاملة بغير شروطها الاستسلاميّة. وكذلك تخلّت الولايات المتّحدة الأمريكيّة نهائيًا عن فكرة إيجاد حلّ مقبول من البلدان العربيّة ومنظمة التّحرير الفلسطينيّة ومن المجتمع الدّولي كذلك، وبدأت تتربّسّخ لدى الإدارة الأمريكيّة قناعة أنّها عبر كامب ديفيد وعبر

فرض الحل الأمريكيّ يمكن أن تحقق جميع أهدافها في الشرق الأوسط دون حل مرحليّ للقضية الفلسطينية. لقد تعرّزت هذه الاتجاهات لدى كل من إسرائيل والولايات المتّحدة الأمريكيّة لإدراكها المبكر لعجز صيغة المعارضة السياسيّة التي تجلّت في مؤتمر القمة العربيّ في بغداد، عن وقف اندفاع السّادات نحو الخيانة الشاملة:

أولاً، عن التّصديّ الحقيقيّ الملموس للإمبرياليّة الأمريكيّة بمصالحها السياسيّة والاقتصاديّة الضخمة في المنطقة.

ثانياً، لإدراكها المبكر كذلك أنّ الدّول العربيّة الرّجعية وفي المقدمة منها السّعوديّة لن تذهب بعيداً في معارضتها لكامب ديفيد، وبين ما هو لا وطنيّ ورجعيّ ينظر إلى كامب ديفيد من زاوية ضعفه الدّاتي وارتباطه بعجلة السياسة الأمريكيّة واحتياجات التّغطية القوميّة.

الخاتمة

بين شهر كانون الثّاني العام 1969 وآب العام 1970، مرّت سياسة نيكسون اتّجاه مصر كما الشرق الأوسط بشكل عام بمرحلتين: فخلال السّنة الأولى ساد اعتقاد بأنّ على وزارة الخارجيّة المبادرة بالتّفاوض مع الاتّحاد السّوفيتيّ بغية التّوصل إلى مجموعة من المبادئ تعبر بأسلوب لا لبس فيه وبشيء من التّفصيل عن شروط التّسوية العربيّة الإسرائيليّة.

كان هناك مفهومان متشعبان تماماً ويشكلان الأساس الذي تقوم عليه هذه السياسة. المفهوم الأوّل، ينظر إلى الشرق الأوسط على أنّه قضية ذات علاقة بالسياسة الدّولية أساساً، وكان كل من نيكسون وكيسنجر يؤيدان هذا المفهوم ويؤمنان به، كما كانا يؤكّدان خطر المواجهة بين القوتين الأعظم وأفضلية المحادثات الأمريكيّة السّوفيتيّة.

أمّا وجهة النظر الثّانية فكانت تركز على الاتجاهات الإقليميّة أكثر من الارتباطات الدّولية مؤكّدة أنّ موقف الولايات المتّحدة في الشرق الأوسط يضعف وأنّ عملية جر المنطقة إلى التّطرف أصبحت حتمية في ظلّ غياب اتفاقية سلام، لكن طالما كان السّوفييت يبدون روح التّعاون وطالما بقي الصّراع المحليّ ضمن حدود يمكن السّيطرة

عليها فإنّ وجهتي النظر هاتين بقيتا منسجمتين ضمن سياسة واحدة وكان نتيجة لذلك ظهور المبادرة التي استغرقت عامًا بأكمله وانتهت بخطة روجرز المعلنة بتاريخ 28 تشرين الأوّل و18 كانون الأوّل.

بدأت المرحلة الثانية من السياسة تجاه الشرق الأوسط بفشل خطة روجرز وتصعيد التّورط السّوفيتيّ في مصر في اوائل عام 1970 ولم يكن التّحرّك في السياسة بصورة رئيسة نتيجة التّشاطات السياسيّة البيروقراطية، كانتصار البيت الأبيض على وزارة الخارجيةّ مثلًا بل إنّ الوضع الجديد الذي واجه الإدارة في ربيع العام 1970 كان يحتاج إلى جواب أكثر تعقيدًا أو اختلافًا، فتعاضم الدّور السّوفيتيّ جعل الخوف من المواجهة حقيقة لا يرقى إليها مع مرور الزّمن. وهذا أكد ما كان البيت الأبيض يخشاه إذ كانت إحدى طرق مواجهة شحنات الأسلحة السّوفيتيّة إلى مصر، والتّعبير عن أنّ انعدام ضبط النّفس السّوفيتيّ في الشرق الأوسط لن يمر من دون مراقبة، يقتضيان تزويد إسرائيل بالأسلحة. وفي أيار تم التّوصل إلى هذا القرار من حيث المبدأ ووضع موضع التّنفيد على نطاق واسع خلال المدة المتبقية من العام.

وفي 7 آب وعندما سرى مفعول وقف إطلاق النّار، اتّضح أنّ كلا من وزارة الخارجيةّ والبيت الأبيض يشعران بالرّضا تجاه ما توصلت إليه سياستهما المفضلة من نتيجة موقفة، إلّا أنّه تبين خلال أيام من شروط وقف إطلاق النّار قد انتهكت، وأنّ هنا أزمة جديدة قيد الظهور، كذلك كان التّوازن الضّعيف والدّقيق القائم بين وزارة الخارجيةّ والبيت الأبيض بخصوص الشرق الأوسط قد تحطّم لذا عندما انتهت الأزمة التّالية، كانت آراء نيكسون وكسينجر هي السّائدة لتستبعد عن مسرح الأحداث نهائيًا آراء وزارة الخارجيةّ التي كانت تحبذ عدم الانحياد وهكذا كانت أزمة الأردن في ايلول 1970 تتويجًا مناسبًا للمرحلتين الأوّليين من دبلوماسية نيكسون في الشرق الأوسط.

المراجع

1. أبو طالب، حسن، 1987، الفكر الاستراتيجي العربي (العربية السعودية: البحث المتواصل عن الامن) العدد 20، نيسان، بيروت-لبنان، ص 175.
2. أبو طالب، حسن، 1987، الفكر الاستراتيجي العربي (السعودية والصراع العربي- الإسرائيلي 1964-1967) العدد 21_22، تموز- تشرين الأول، بيروت- لبنان، ص 93.
- 3.حتي، نصيف، 1981، شؤون عربية (السياسة الخارجية الأمريكية في عهد ريغان وإسرائيل والعامل النووي) العدد 8، تشرين الأول، جامعة الدول العربية، تونس، ص 55.
- 4.خالد، تيسير، 1981، الطريق (كامب ديفيد والصراع العربي - الإسرائيلي في ظل سياسة الإدارة الأمريكية الجديدة) العدد الثاني، نيسان، بيروت، لبنان.
- 5.روسي، بيير، مفاتيح الحرب، الدار البيضاء، بيروت.
- 6.عمر، عمر عبد العزيز، 1990، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان، ص 541-526.
- 7.قدورة، زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ص 279.
- 8.كوانت، وليم، 1984، عقد من القرارات 1976-1967، السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي، ترجمة عبد الكريم ناصيف، مكتب الخدمات للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، ص 207-139.
- 9.كوانت، وليم، 1983، شؤون عربية (السياسة الأمريكية والسعي نحو السلام) العدد 27، ايار، ص 27.
10. السفير ، 25 ايار 1992.

مفهوم الأدب في كتاب أبي بكر الصّولي (محمّد بن يحيى)،

أدب الكتاب

رحمة الشّيخ علي¹

لقد ذخر التراث العربيّ بعدّة كتبٍ خاطبت أهل العلم، فأنت مشعّةً بنصائح وتوجيهات، هدفت إلى تزويد الكاتب بمختلف ألوان الثقافة والمعرفة، تمامًا كذلك التي اتّسمت بها ثقافة أبي بكر الصّولي (335 هـ / 946 م) الذي نجده ينتهجُ نهجًا كان شائعًا في عصره: «من أراد أن يكون عالمًا، فليطلب فنًا واحدًا؛ ومن أراد أن يكون أدبيًا، فليتنسج في العلوم»² من هنا نلمسُ أهميّة الإلمام بكلِّ علمٍ وفنٍ لتتنوع المعارف، وكما عُرف عن زمنه ما ساد من أقوالٍ في العصر العباسيّ عن الإقبال على مختلف العلوم وفنونها، ومنها: «فما أقبح الرّجل يتعاطى العلمَ خمسين سنة، لا يعرفُ إلّا فنًّا واحدًا، حتّى إذا سُئلَ عن غيره لم يجلب فيه»³.

وقد أنتت هذه الدّراسة الموسومة بمفهوم الأدب في كتاب أبي بكر الصّولي (محمّد بن يحيى)، أدب الكتاب، للوقوف على الجهود الثقافيّة التي قدّمها الصّولي في أثره الأدبي ليجلي أماننا مفهوم الأدب، شارحًا وموضحًا مزايا الأديب وفضل الكتابة، مساهمةً منه في تطوّر الأديب.

مُنطقةً من إشكاليّة فحواها:

أ - كيف أنتت طريقة الصّولي في تحليل مواد وموضوعات كتابه (أدب الكتاب)؟

وهل للثقافة الديوانية علاقة في إنتاج أثره الأدبي؟

ب - ما مفهوم الأدب عند الصّولي؟ وكيف يرى الأديب الكاتب؟

وإجابةً عن هذه الإشكالية، أنتت خطة الدّراسة موزّعةً على ثلاثة مباحث، تناولتُ في المبحث الأول مكّونات الصّولي الثقافيّة، متحدثةً عن أصوله، مركّزةً على منابع

(1) - طالبة في جامعة القديس يوسف - كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة - معهد الآداب الشّرقية (بيروت)

(2) - العقد الفريد : 423 / 2.

(3) - إنباء الرّواة : 162 / 2.

ثقافته، أما المبحثُ الثاني فقد خصّصته لأثر الصّولي الأدبيّ (أدب الكتاب) بارزةً مخطّطه، ومحتواه، متطرقةً إلى أجزائه وكيفية توزيع الأبواب بين دفتيّ الكتاب، ليأتي المبحث الثالث بالعرض والتّحليل لمفهوم الأدب كما يراه الصّولي، وقد ختمتُ دراستي بما توصلتُ إليه من نتائج وتوصيات، مُعمدةً في تحليلي على المنهج التّاريخيّ القائم على تحليل المحتوى، وذلك من خلال جمع وتحليل المعلومات التي أوردها الصّولي في مصنفه (أدب الكتاب).

تقويم المصادر والمراجع

- 1- وفيات الأعيان وإنباء أبناء الرّمان: ابن خلّكان، بيروت، دار صادر، 1978 م. وقد استفدتُ منه في هذه الدّراسة للتّعريف بالصّولي والاطّلاع على أهم مؤلفاته.
- 2- أخبار أبي تمام: أبو بكر محمّد بن يحيى الصّولي، القاهرة، مطبعة التّأليف والنّشر، ط 1، 1937م. استطعتُ مع هذا الكتاب رسم صورة الحياة الأدبيّة التي ترعرع فيها الصّولي.
- 3- العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسيّ، تحقيق أحمد أمين وآخرون، القاهرة، 1940 م. وقد زودني هذا الكتاب بأخبار الصّولي.

المبحث الأول: مكوّنات الصّولي التّقافية

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين الكاتب، المعروف بالصّولي الشّطرنجي، كان أحد الكتّاب الأمناء الفضلاء المشاهير، له تصانيف كثيرة مشهورة ومنها (كتاب الوزراء، الورقة، أدب الكتّاب، الأنواع، أخبار أبي تمام، القرامطة، العزّ...)¹ هو من الأدباء الطّرفاء، حسن المعرفة بأداب الملوك والخلفاء، حاذق بتصنيف الكتب، كثير الرّواية واسع الحفظ، بلغ من روايته الواسعة ومحفوظاته الكثيرة، أن كان له خزانة كتب كبيرة من تصنيفه، جلودها مختلفة الألوان، كان يُعجب بها، يتباهى ويقول: «هذا كلّه سماعيّ، وإذا ما احتاج إلى معاودة شيءٍ منها قال: يا غلام، هات الكتاب الفلانيّ. جمّع ورثب الدّواوين ومنها ديوان أبي تمام، البحتري، النّوّاس، وغيرها»²

(1) - وفيات الأعيان : 2 / 356 .

(2) - أخبار أبي تمام : مقدمة الناشرين ، هـ ي .

كان مولد الصّولي ببغداد حيثُ نشأ بها نشأة الأشراف، نادم الخلفاء وكتب لهم، وكان ذا حظوة عندهم¹، لم يذكر مؤرخو التّراجم له شيئاً عن طفولته، إنّ أبا بكر الصّولي وُلد في خمسينيات القرن الثّالث الهجريّ في سنة خمس وخمسين ومائتين، وقد عُرف أنّه كان يتردّد كثيراً على العلماء والشّعراء ويعبُّ الكثير.

تشيرُ المصادر العربيّة إلى أنّ أساتذة الصّولي كانوا من أبرز أعلام التّقافة والأدب واللغة والنّحو والفقّه والحديث في عصرهم، تتلمذ عليهم وحضر مجالسهم وحلقاتهم، ونقل عنهم وروى لهم، وكان لهم الفضل الأكبر في توسيع آفاقه وتنوّع ثقافته في شتى ألوان العلوم، منهم سليمان السّجستاني (248 هـ / 862 م)².

عمل الصّولي على تنوّع ثقافته وتلويحها والإمام بكلِّ علمٍ وفنٍ ظهر وشاع في عصره، حتّى صارت ثقافته شاملةً لكلِّ ما ظهرت به التّقافة العربيّة الشّاملة من علومٍ وفنونٍ وآدابٍ، فبدت مصنّفاته جليّةً، واسعةً يعرفُ من طبّياتها كلّ محبٍ بنهمٍ، فأثرى المكتبة العربيّة بعددٍ ضخمٍ من الكتب والرّسائل على اختلاف أغراضها ومضامين موضوعاتها. ذلك لأنّ ثقافة الصّولي لم تكن وقفاً على الدّراسة والاستيعاب والاطّلاع والالمام فحسب، بل انعكست أيضاً على بذل العلم ونشره وتقريبه إلى الأذهان.

وهذا كتابه أدب الكتّاب وطريقته في تحليل مواده يدلّ على مدى تعمّقه الواسع في علوم القرآن ولغاته وألفاظه ومعانيه، فقد ضمّنه العديد من الشّواهد القرآنيّة في مختلف الموضوعات، كما أنّ الفارئ لكتابه أدب الكتّاب يجدُ فصولاً قيّمةً في بعض الأمور الفقهيّة، تحدّث فيها عن الأموال والحرية والخراج والزّكاة وأحكام الأرض وغير ذلك من المسائل المهمّة التي تتصلّ بالفقّه والشّرع.

ونجدُ أنّ الصّولي قد رجع بثقافته إلى العصور السّابقة إذ تعمّق بشعر الجاهليين ودرس لغاتهم ولهجاتهم وعرف صورهم وتشبيهااتهم، فانعكس كلّ ذلك على نفسه وعلى كتاباته، فنجده معجماً ضخماً يجمعُ فيه العديد من ألفاظ اللّغة التي يتناولها، مبيّناً اختلافها بين القبائل حسب لهجاتها، فكثيراً ما يتحدّث عن لغة تميم ولغة قيس³.

(1) - أخبار أبي تمام : مقدمة الناشرين ، ا هـ .

(2) - إنباه الزّواة : 234 / 3 .

(3) - أدب الكتّاب : 178 .

لم يكن الصّولي من الشعراء المكثّرين الذين دوتوا الدّواوين وقصدوا القصائد، فلذلك لم يعدّ من الشعراء، ولكنّه استطاع أن يسمعنا من شعره ما تقرط به الأسماع، وتلذّه الأطباع، وأن يرينا أزهاراً مفتّحة الأكمام وحدائق ذات بهجة. قطفها دانيةً وثمارها يانعة¹.

توفي الصّولي رحمه الله سنة (335 هـ) وقيل سنة (336 هـ) في خلافة المطيع أبي الفضل بن المقتدر بالله تعالى (336 هـ / 974 م) بالبصرة مستتراً لأنّه رزى خبراً في حق علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (40 هـ / 661 م)، فطلبته الخاصّة والعامة لتقتله فلم تقدر عليه، وكان قد خرج من بغداد لإضافة لحقته².

لقد حاولتُ قدر الإمكان في هذا المبحث تناول حياة الصّولي منذ نعومة أظفاره، كاشفةً تأثير ثقافته على آثاره الأدبيّة الخالدة، وأثرها التّفيس في تنويج كتابه أدب الكتاب الذي أتى به بمنحى مغاير وأسلوبٍ جديدٍ معياره الشّواهد الدّينيّة والشّعريّة المتناثرة في أرجاء الكتاب.

المبحث الثاني: أدب الكتاب (مخطّطه ومحتواه)

أدب الكتاب، ومن النّاس من يقول أدب الكاتب، وقد ألفه زمن الرّاضي بالله كما نفهم مما كتبه في باب ما يكتبُ فيه النّاس اليوم. وهو مع صِغر حجمه قد احتوى على فوائد جمّة ومباحث مهمّةٍ جديرةٍ بالتّقدير³.

إنّ المتصفحَ لأدب الكتاب يلحظُ أنّه خاضعٌ لتصنيفٍ معيّنٍ من حيث تقسيمه إلى ثلاثة أجزاءٍ في أوّل كلّ جزءٍ منها ذكر ما فيه من أبوابٍ ليقربَ على طالبيه ما يريد، إذ يحوي بين دفتيه تخريج المعاني في أقوالها من الألفاظ وإسقاط من أكثرها الأسانيد، فقرب الصّولي بذلك على الطّالب بغير كلفةٍ ما يريد، فجمع كلّ ما يحتاج الكاتب إليه حتى لا يعول في جميعه إلاّ عليه.

أوّل ما ذكر الصّولي في كتابه بعد حمد الله والثّناء عليه فضل الكتابة، حيثُ بدأ بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾

(1) - أدب الكتاب : 14.

(2) - أدب الكتاب : 18.

(3) - أدب الكتاب : 11.

عَمَّ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾^١ ومعنى قوله ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^٢ أي الذي علّم الكتابة بالقلم، ورأى الصّولي في قسم القرآن ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^٣ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ فبحسب الصّولي النّص القرآني واضح بما يتوجّب للناس عليهم الكتابة فيه من سفرٍ وقرطاس وأشباههم.

فبالكتابة جُمع القرآن وحُفظت الألسن والآثار وكذلك العهود وأُثبتت الحقوق وسيقت التواريخ، وقد ذكر كلّ ذلك ليرغّب أهل هذه الصّناعة الشريفة في الإقبال عليها وإنفاق بعض العمر في طلبها، ثمّ عرض ما روى في أول من كتب الكتاب العربيّ فقال: «أنّ أوّل من كتب الكتاب العربيّ والسريانيّ وسائر الكتب «آدم عليه السّلام» قبل موته بثلاثمائة سنة كتبتها في طينٍ ثمّ طبخها، فلما أغرق الله عزّ وجلّ الأرض أيّام نوح بقي ذلك، فأصاب كلّ منهم كتابهم. وبقي الكتاب العربيّ...»^٤، ثمّ فصل أصل كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعن «أما بعد» وما جاء فيها مخبراً أنّ داوود أوّل من قالها، وأنّ ذلك فصل الخطاب»^٥.

أمّا عن تصدير الكتب وما يقع فيها، فقد رأى أنّ النّاس استعملت أشياء فيها الكثير من الكلفة، فدعا إلى عدم التّزويد، وقد خصّص مقالاً للخطّ وجاء بكلّ تفصيلاً عنه، كاشفاً النقاب عن فضل حسن الخطّ، بأنّه يجعل القارئ يقبل عليه بارتياح ولو اشتمل على لفظٍ مردولٍ، وأنّ الخطّ دليلٌ على ما في النفوس، مورداً ما قيل في حسن الخطّ من المنظوم^٦، وما قيل في قبحه، موصياً بإصلاحه وآلته، معرّجاً في أهميّة استخدام التّقط والشّكل، وفوائدهما في تغيير المعنى، حتى وصل إلى ما جاء في وصف القلم من الكلام المنثور والشّعر، وما قيل في القلم وبريه، لينهي الجزء الأوّل من كتابه في وصف الكتاب، ثمّ تلاه بجزءٍ ثانٍ مبتدئاً بالدّواة.

(1) - سورة العلق : الآية 1 حتى 5.

(2) - سورة العلق : الآية 4.

(3) - سورة القلم : الآية 1 حتى 2 .

(4) - أدب الكتاب : 28.

(5) - أدب الكتاب : 37.

(6) - نظم: النظم: التّأليف، نظمه ينظّمه نظماً ونظاماً ونظمه فانظّم وتنظّم. ونظّمت اللؤلؤ أي جمّعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظّمتُ الشعر ونظّمته ونظم الأمر على المثل. (لسان العرب 12 / 578)

فصل الصّولي الكلام عن كلّ ما يتعلّق بالكتابة من مفردات فحكي عن الدّواة¹، الكرسف²، المداد³، القرطاس⁴، قطّ القلم⁵ والمقطّ والمرفع ومحرك الدّواة، منطرّقاً إلى دور اللّغة في الكتب، بارزاً همل مسنّ القلم (للاّينشاء)، السّطور، ونسخ الكتب.

أردف الصّولي الخطأ في الكتاب والمشق⁶، والرّلف⁷، ثمّ أوجز في الحديث عن فضّ الكتاب؛ أي الفرق بين الكتاب وطينه ورسخاته⁸، وعندما قرأ تنبّعه للكتابة، تجد نفسك أمام خبير، حتى عندما قال عن السّحاة، جاء بكلّ مشتقاتها ومعانيها مستشهداً كعادته بأقوال اللّغويين والشّعراء، غير غافل ما للترتيب من إبراز الكتابة بأحسن حلة.

المحو في الكتاب أقبل عليه بكلّ فصيح، وأخذ معه الحديث عن اللّحن كلّ ماخذ فلم يستطع أن يففيه حقه، فإنّه من المسائل المهمّة الذي يحتاج ذكره إلى كتاب كبير.

دعا إلى درس الكتاب وسرده لافتاً إلى مسألة خاتم الرّسول محمد (صلى الله عليه وسلّم)، وحاجته إلى الختم لمكاتبة الملوك، فاعتمد الرّسول سطوراً منقوشة على الخاتم باسمه (محمد رسول الله)⁹، أمّا عن تحرير الكتاب فرأى أنّه ينبغي للكاتب أن يحزّر بصوابٍ وكلّ أوانٍ مشيراً إلى ما بتكاتب به النّاس، والحضّ على التّكاتب مخبراً عن اللّغة في دعاء المكاتبة، حتى أنّه أجاد بالحديث عن التّرجمة في المكاتبة وتعريبها، وبحسبان عمله في الدّواوين أبدع في معناه، تسميته، وكيفية تحويل الدّيون من الفارسيّ إلى العربيّ والتّاريخ، وبذلك أنهى الجزء الثّاني، ليصل إلى الجزء الثّالث والأخير، أوّله أبوابٌ فقهية بحثة منطلقاً من وجوه الأموال، أصنافها التي تحمل إلى بيت المال ولمن تجب، مكملاً موضوعاته عن الجزية، الخراج، الرّكاة، أحكام الأرض، وغير ذلك من المسائل الفقهية الهامّة التي يطول شرحها.

لم يخف على الصّولي في مواد كتابه دراسة أحكام كتابة الألفاظ بشكلها الصّحيح

- (1) - الدّواة: المحبّرة وقشرة الحنظلة والعينة والبطيخة (المعجم الوسيط 1 / 306)
- (2) - الكرسف: القطن؛ الكرسف: بضم الكاف والسين وسكون الراء، القطن. (المعجم الوسيط 1 / 783) .
- (3) - المداد: سائل يُكتب به، ويقال له جبر (المعجم الوسيط 1 / 858) .
- (4) - القرطاس: الصّحيفة يُكتب فيها. (المعجم الوسيط 2 / 727)
- (5) - قطّ السّعرقطاً، وقطوطاً: ارتفع. و. الشيء: قطاً: قطعه عرضاً. يقال: قطّ القلم. (المعجم الوسيط 2 / 744)
- (6) - مشقّ في الكتابة: أسرع فيها، مشقّ في الكتابة: مدّ حروفها (المعجم الوسيط 2 / 871)
- (7) - زلّف: تقدّم، إقترب، دنا (المعجم الوسيط 1 / 398)
- (8) - أدب الكتاب: 124.
- (9) - أدب الكتاب: 139.

المتقن، فدرَسَ في هذا الجزء أحكام زيادة الألف ونقصانها، الهمز، الهاء، الواو ومواقعها، الياء، ما يكتب بالياء والألف من الأفعال، المقصور والممدود، كتابة النون الخفيفة، الإدغام، ما يقطع ويوصل، الحساب، وحتى ما كتب على غير قياس، أضافه إلى مواده.

لقد جعلنا الصّولي في تحفته الأدبية هذه نجول معه في حقولٍ متعدّدة ما بين أدب، فقه ونحو وكتابة، وننتهل معه أصول وقواعد ربّتها وساقها مع شواهد بارزة تحاكي العقول، وتتمّ عن شخصيّة ثقافية بارزة قدّمتها في إنتاجه الأدبيّ المهم (أدب الكتاب).

المبحث الثالث : مفهوم الأدب عند الصّولي

اقتضت طبيعة الدّراسة التعريف بالمؤلف ودراسة إنتاجه الأدبيّ أدب الكتاب لأصل في هذا المبحث إلى تحليل مفهوم الأدب عند الصّولي من توجهاته ونصائحه التي أبرزها للكتاب.

مع الصّولي تكتشف المربيّ الذي يمتنّهُ الكتابة، يسردُ الملكات التي يجب أن يتمتّع بها، والثّقافة الموسوعيّة التي لا بدّ لكلّ كاتب الانكباب عليها.

لم يترك الصّولي شيئاً يتعلّق بالكتابة إلّا وتحدّث عنه، فالأدب عنده بناؤه الأساسيّ الكتابة، فقد أسهب وأطال في كل تفاصيله، فأجادَ بالإتيان بصفات الكاتب المهمّة لأدبه، داعياً إلى غزارة العلم التي هي مدعاة الأدب عنده، والتّحليّة بسعة الثّقافة، حصافة وتهذيب الذوق، الحلم، الأناة، الذّكاء، القدرة على تصريف الأمور، إحسان الجواب، اللّباقة في الخطاب والبلاغة في الكلام، كلّ هذا عنده يشكل مادة الأدب، فيكون أدبياً يجذب القلوب والأسماع إليه ويسترقُّ أفئدة الرّجال.

حثّ الصّولي على الإتيان بالأدب بكلّ جوانبه، يُطالعك العنوان أدب الكتاب فتتواتر أمامك كل مفردة وتعبير متعلّقة بالأدب كالكتابة بالقلم، الكتاب، حبر، مداد، سفر، قرطاس، الحرف، السفارة، الصحف، التّعلّم... فانتشر الحقل المعجمي الخاصّ بالكتابة وبكثرة، لنلاحظ أنّ الأدب عنده ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمهارة الكاتب بالكتابة والإحاطة بجوانبها كافّة، فالكتابة عنده رأس كلّ صناعة وبها يتمّ جوامع الأعمال.

لم يكن الأدب عنده حرفة الهواة أو حرفة من لا حرفة له، ولا وسيلة للترجبة وتمضية أوقات الفراغ، بل الأدب بمفهومه صناعة ثقيلة تقتضي التّعب والبحث وتورث صاحبها الفلق، لا تقتصر على الفكرة أو الصّياغة وجماليات الأسلوب، ولكن هناك الأدوات والمهارات التي ينبغي لكلّ أديب أن يتحلّى بها، هي مهنة السعي الدائم وراء كلّ ما يُعبر عن الوجدان ويحفظ الهوية وينفع النّاس ويمكث في الأرض.

لقد قدّم الصولي في كتابه نبراساً وهدياً لكلّ أديب أراد أن يسلك طريق الكتابة ويتعيش من ثمار يراعه في دواوين الحكومة وقصور الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء، فنصّه ينقل توجيهات للأديب على المستويات كافة الإجماعية، الأخلاقية، الدنيوية فالأديب عنده يجب أن يكون نبيهاً، مهياً الذّهن، قريب الخاطرة، متقدّ الذكاء، قواماً على أمر الدين، واستحبّ الصولي للأديب أن لا يتكل على كفاءته، ولا يعترّ بخطّه، وأن يواظب الكاتب على طلب العلم ولا يقصّر في الاستزادة منه.

الخاتمة

قد جمع الصولي في إنتاجه أدب الكتاب خلاصة فكره وتجاربه وثقافته، تلك الثقافة التي عاشها في رحاب الخلفاء وانخرطه في سلكهم، وعمله في دواوينهم، وكتابة الرسائل لهم وإليهم، فجاء أدبه خير دليل بمفهومه على الثقافة المرتبطة بعصره والمرتبطة به، وجاء كتابه خير دليل على ثقافته الديوانية الواسعة التي قدّمته على كتاب عصره حتى ارتبط اسم الصولي بكتابه أدب الكتاب كما ارتبط أدب الكتاب بالصولي الكاتب.

وهكذا ، خلصت الدّراسة إلى عدّة نتائج أهمّها:

1- تدرّجت مباحث أدب الكتاب من العام إلى الخاصّ، حتى وصلت إلى أدق المباحث كالحديث عن الحروف والنقطة والشكل .

2- تخصيص الصولي لبعض المباحث في كتابه عن الصّرف وفقه اللّغة، التي اعتقد أنّها ضرورية للكاتب، وفيها تطبيقات وأمثلة متعدّدة عن الإدغام، الهمز، الهاء، ما كان بغير قياسٍ وغيرها.

3- اتّسام الكتاب بالنصائح، الملاحظات والتوجيهات في معظم مباحث الكتاب مؤيداً رأيه بالشواهد القرآنية والشعرية.

4- إعداد الكاتب المتخصص المزود بمختلف ألوان الثقافة متأثرًا بثقافته الديوانية، وخاصةً فيما يتعلّق بالكتابة.

5- دعوة الكتاب إلى الإلمام والإحاطة بكافة العلوم والفنون وعدم الاقتصار على علمٍ معيّن.

كثُر ممن قدّموا كتب عن الكتابة وأدب الكتاب والكاتب في مختلف العصور والحقبات التاريخيّة، تُرى ما تأثير هذا النوع من الأدب، ودعوته في عصرٍ غرّت فيه التكنولوجيا من كلّ جانبٍ؟! حتّى كدنا نصلُ إلى الاستغناء عن الورقة والقلم؟! عصر تطوّر المعلومات وثورتها!!

قائمة المصادر والمراجع

- 1- الأندلسي: أحمد بن عبد ربّه ، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرون، القاهرة، لاط، 1940 م .
- 2- ابن خلكان: شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لاط، 1978 م.
- 3- الصولي: أبو بكر محمّد بن يحيى ،أخبار أبي تَمّام ، تحقيق خليل عساكر، محدّ عزّام، نظير الهندي، مطبعة التّأليف والنشر، القاهرة، ط 1، 1937 م.
- 4-الصولي: أبو بكر محدّ بن يحيى، أدب الكتاب ، تحقيق محمّد بهجة الأثري، المكتبة العربيّة ، بغداد، لاط، 1431 هـ .
- 5-القّقطي: جمال الدين أبو الحسن بن يوسف، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمّد أبو الفضل، دار الكتب، القاهرة، لاط، لات.
- 6-ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، لات.
- 7-نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربيّة: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيّة، دار الدعوة، القاهرة، ط 2، 1972م.

تطوّر الجنس الأدبيّ في الأدب العربيّ في «أحكي يا شهرزاد» للقاصّة اللبنانيّة درية فرحات منيرة جهاد الحجار¹

المقدمة

• التعريف بموضوع البحث

«أحكي يا شهرزاد» للقاصّة اللبنانيّة «درية كمال فرحات»، مجموعة قصصيّة صدرت عن دار الأمير للثقافة والعلوم في بيروت العام 2019، ومقسّمة إلى أربعة أجزاء، عناوينها: «حكايات شهرزاديّة»، «وطنيات شهرزاديّة»، «شهرزاديّات»، «شهرزاد والحياة». وهي تجمع بين قصص قصيرة وقصص قصيرة جداً (قصص وجيزة).

يعالج هذا البحث تطوّر الجنس الأدبيّ في الأدب العربيّ من خلال مدوّنة «أحكي يا شهرزاد»، حيث أظهرت المدوّنة تطوّر الكتابة العربيّة من القصّة القصيرة التي يعود تاريخ ظهورها «إلى أزمان قديمة، ويمكن للمرء أن يلحظ هذا الفنّ في قصص العهد القديم والجديد، والقرآن الكريم...» (صالح، 2018، ص 74)، «وكان يستخدم في بداياته في الوعظ، فكان القاصّ هو الإخباريّ الواعظ المذكّر الذي يوظف قصص الأقدمين في هداية الناس» (فرحات، 2021، ص 5)، وقد تعدّدت أنواعه «فكانت في القديم الحكاية بمختلف أشكالها والأسطورة والحكاية الخرافيّة والأمثال والمقامة... وفي العصر الحديث القصّة القصيرة والرّواية والقصّة الوجيزة / القصّة القصيرة جداً» (ص 10).

تطوّرت هذه الأجناس الأدبيّة مع تطوّر العصور، فلا بدّ للأدب أن يكون مرئياً، يتناسب مع المراحل التاريخيّة كافّة، لذلك، وكما لا تموت المطولات الأدبيّة التي لم تعد تتناسب مع العصر الحديث بخاصة مع ظهور وسائل التّواصل الاجتماعيّ والتطوّر التكنولوجيّ، ظهر الأدب الوجيز، وقد مهّد «من خلال المؤتمرات والندوات والخلوات التي عقدها في تونس ولبنان ودمشق، منذ بدايات العام 2015، إلى بلورة منطلقاته الفكريّة – الفلسفيّة

(1) - طالبة ماستر في قسم اللغة العربيّة - الجامعة اللبنانيّة - عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة.

التي تأسس عليها مشروعه التّجاويزي». (الذّيب، 2022، ص 12)، وهو أدب يقوم على جملة عناصر حيويّة، تركز على التّكثيف واتساع الدّاخل في اللّغة والإيقاع الدّاخل، وتحرير المفردة من دلالاتها المباشرة وإطلاق طاقاتها المكونة إلى الحدّ الأقصى، وتوظيف اللّغة كمدخل للفكر الفلسفيّ»، باعتماد التّكثيف والإيجاز كي لا يملّ القارئ من المطوّلات، التي لم تعد تتناسب العصر وسرعته.

ويسعى هذا البحث إلى دراسة موازنة بين القصّة القصيرة في مدونة «احكي يا شهرزاد» والقصّة الوجيزة تحديداً في لبنان، حسب السمّات التي وضعت من قبل ملتقى الأدب الوجيز برئاسة الشاعر الرّاحل أمين الذّيب (1953 – 2020) وعضويّة الدّكتورّة دريّة فرحات، الدّكتور كامل صالح، والدّكتور باسل الزين لإثبات أنّ القصّة الوجيزة، بقصرها وإيجازها لها ذات مقوّمات القصّة القصيرة، إنّما بكلام قليل.

وقد أختيرت هذه المدونة لأنّها تجمع بين الجنسين الأدبيين المراد دراستهما.

• الإشكاليّة

يسلّط هذا البحث الضّوء على تطوّر الجنس الأدبيّ في الأدب العربيّ فإلى أيّ مدى تأثّر الجنس الأدبيّ بتطوّر الحياة انطلاقاً من مدونة «احكي يا شهرزاد»، وتحديداً فنّ القصّ؟

- 1 - كيف أثر تطوّر الحياة على القصّة انطلاقاً من مدونة «احكي يا شهرزاد»؟
- 2 - إلى أيّ مدى تقاطعت القصّة القصيرة مع الوجيزة انطلاقاً من مدونة «احكي يا شهرزاد»؟

• المنهج

يعتمد هذا البحث على المنهج السّرديّ البنيويّ، فهو منهج ملائم لدراسة «مظاهر الخطاب السّرديّ أسلوباً وبناءً ودلالة، ويهتمّ باستنباط القواعد الدّاخلية للأجناس الأدبيّة، واستخراج النّظم التي تحكمها وتوجّه أبنيتها وتحدّد خصائصها وسماتها. وتبحث السّرديّة في مكوّنات البنية السّرديّة للخطاب من راوٍ ومرويٍّ ومرويٍّ له». (جرجور؛ لبس، 2020، ص 57).

ورأى الناقد والباحث الفرنسي جيرار جينيت (Gérard Genette) (1930 – 2018) «أنّ البنية السردية للخطاب تتشكل من تضافر ثلاثة مكونات هي: الراوي، والمروي، والمروي له». (جرجور؛ لبس، 2020، ص 58).

وفي مطلع السبعينيات طرح الباحث السوفياتي أوسبنسكي (Uspensky) (1937) وجهة نظر من خلال ما سماه «بوطيقا التّوليف» أو «شعرية التّأليف» ساعياً إلى معاينة المواقع التي يحتلّها المؤلّف من خلال أربعة منظورات، هي: المنظور الإيديولوجي، المنظور التعبيري، المنظور النفسي والمنظور الزمكاني.

واهتمّ البنيويون أيضاً بدراسة المكان الروائيّ لما له من أهميّة خاصّة في المتخيّل القصصي. (ص 58).

وبناءً على ذلك إنّ هذا المنهج سيساعدنا على استنباط القواعد الداخليّة للجنس الأدبيّين (القصة القصيرة) و(الوجيزة)، وتحديد خصائصهما وسماتهما من أجل إظهار مقارنة بينهما.

أولاً: تأثر الأدب بتطوّر الحياة

يقول الشاعر اللبناني الراحل أمين الذيب في الكتاب التقدي لملتقى الأدب الوجيز إنّ التّجديد نقيض الموت، وعلى الرّغم من صعوبة الاختراق إلّا أنّه يؤمن بالحركيّة الصّراعية التي تعبّر عن جذوة الحياة ووظائفها التّجديديّة.

ما يخلّد الأدب، مرونته وتطوّره مع تطوّر الحياة ليلائم الإنسان في كلّ زمان ومكان و«إنّ بقاء المجتمع، أي مجتمع في حالة ركود فكريّ يؤديّ حتماً إلى تفكّك الهالة الحضارية التي تنبثق منها شخصيّة المجتمع وطاقتاه الإبداعية شعريّة كانت أم فنيّة أو أدبيّة عامّة»، (الذيب، 2022، ص 20) وهذا ما يؤدي إلى التّخلف والانحطاط.

فلا قيمة للوجود إلّا من خلال الإبداع الذي يتحوّل ويتبدّل بتغيّر المكان والزّمان ويتجاوز الحدود، ليقدم علاقات جديدة بين النّاس والأشياء والأماكن. فمن المستحيل أن يستطيع الإنسان الجديد، الذي تحكمه ظروف وعوامل حياتية جديدة، أن يعيش ويكتب ما عاشه الإنسان القديم، فكلّ خصوصيته، وتجاربه المرتبطة بزمانه ومكانه.

وقد عُرف عصرنا، بعصر السّرعَة وبتنا نعيش في دوّامة سريعة، انعكست على جوانب الحياة كافّةً، فطالت طرق العيش ودخلت في المأكل والمشرب، وأثّرت في التّواصل والاتصال، حتى اعتدنا على سرعة السّمع أيضاً، «ظلّت فكرة الخفّة والسّرعَة، تدور في أذهان مستعملي اللّغة، وخاصة الأديباء والموهوبون، حتى تسرّبت هذه الفكرة من أمثلة قليلة، لتصبح فنّاً مستقلاً في استعمالهم يسمّى الأدب الوجيز». (عياصرة، 2019، ص 37)

ومع تطوّر الحياة، اختلطت الأجناس الأدبيّة، ومحيت الفوارق بينها، فصار النّاقّد الإيطالي بندتو كروتشه (Benedto Croce) (1866 – 1952) «يقراً المسرحيّة والقصة على أنّها مجموعة من نصوص غنائية، تشفّ عن مشاعر فردية، وقيمتها في تصوير هذه المشاعر، أمّا الحدث الدرامي فلا قيمة له عند كروتشه» (ص 38) فظهرت الصّورة القصيدة، والمقال القصصيّ، فاعتمد القاصّون على الإيجاز والتكثيف، وحسبوا أنّ «الاسترسال في القصة يبّد القصة، ويهدم شخصيّاتها». (ص 38) وظهرت فكرة «الجملة القصة» وهي تختلف عن تلك الموجودة في الرّواية لما تحتويه من إيجاز وتكثيف، وترميز، فهي تساعد القارئ على فهم وتخيل أحداث كثيرة في كلام قليل. وهكذا بدأت حركيّة القصة الوجيزة، بحثاً عن التّحرّر والتمرد على القوانين المقيدة للأدب تأثراً بالأدب الغربيّة، مع الإشارة إلى بروزه في الأدب العربيّ، في قرون ماضية، مع الأمثال والتّوقيعات، إلّا أنّها لم تتبلور كفنّ خاص بالقصة الوجيزة (القصة القصيرة جداً).

ولدت القصة القصيرة جداً من رحم القصة القصيرة، بلا اسم، ثمّ تعدّدت تسمياتها بين قصة قصيرة جداً، وأقصوصة، وممضة قصصيّة... أمّا في لبنان فقد اعتمدت تسمية الوجيزة. لأنّه يتناسب مع حجمها. واختلفت تسمياتها تأثراً بالغرب فهي تسمّى عندهم كما جاء في كتاب الأدب الوجيز «Short Short Story، Very Short Story، Micro fiction ومنها الأدب البالغ القصير Flash fiction ومنها الأدب الممضة».

وهكذا فإنّ الأدب الوجيز تجاوز، وعبورٌ نحو التّطوّر، لمواكبة الأدواق المتعدّدة الجديدة التي تخضع لواقع اجتماعي وسياسي وثقافيّ جديد، فُرض بالقوّة بالتأثّر والتأثير.

كما إنّ الأدب يتأثّر بهذه المتغيّرات، ما يُسهّم في ابتكارات أدبيّة، وفي ظهور أجناس أدبيّة تنطلق من الوجود لتصنع جديداً وهذا الجديد يحتاج إلى نقد تجاوزيّ يفتح آفاقه

على أبعاد مختلفة. (فرحات، 2019، ص 88).

الأدب الوجيه «رسالة قصيرة، يلتهمها قارئ عجول، وهي نصّ ذكيّ يخاطب قارئاً نكيّاً، خاصّة في هذا الجيل الرّقمي السّريع التّعلّم، والذي لا يحتاج إلى خطاب إنشائيّ إملائيّ يركّز على الحشو، والكلام المكرّر، والمعاد والشّروحات...»

وقارئ اليوم لا يحتاج إلى تفاسير مطوّلة، خاصّة مع انتشار المعلومات في الشّبكات العنكبوتية، ويمكن استخراجها أو الاطلاع عليها في أيّ وقتٍ.

ومن أجل المقارنة بين الجنسين الأدبيين الموجودين في مدوّنة «أحكي يا شهرزاد»، فهي تحوي في القسم الأول منها مجموعة قصص قصيرة، والقسم الثاني منها مجموعة قصص وجيزة، لا بدّ لنا من معرفة الخصائص والسّمات التي يتمتّع بها كلّ من هذين الجنسين وعناصرها.

ثانياً: بين القصة القصيرة والوجيزة

أ- سمات القصة القصيرة وعناصرها

القصة كما تعرّفها الدكتورة دريّة فرحات في كتاب الأدب الوجيه «هي مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب القاصّ وهي تتناول حادثة أو حوادث عدّة تتعلّق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة النّاس على وجه الأرض. ويكون نصيبها في القصة متفاوتاً من حيث التّأثير والتّأثير». (2019، ص 87)، وكما يقول الدّكتور كامل صالح هي «عمل قصصيّ يركّز على جزئية مفردة» (2018، ص 74) تعدّ نوعاً أدبياً قصيراً، فهي أقصر من الرواية، لذلك فإنّ شخصياتها ومواقفها أقلّ عدداً وتعقيداً، وغالباً ما تحتوي على حدث واحد في مدّة زمنية قصيرة ومكان محدّد، «ولا بد لسرد الحدث في القصة القصيرة أن يكون متّحداً ومنسجماً من دون تشظيت» (ص 74)، ويحتوي على صراع دراميّ لأنّ «التوتّر من العناصر البنائية للقصة القصيرة» (فرحات، 2021، ص 2).

وعلى القاصّ أن يسهم في نقل القارئ إلى الاندماج التّام في حوادث القصة، فيتفاعل بصدق مع الشّخصيات والحوادث.

«وفي العالم العربيّ بلغت القصة القصيرة درجة عالية من النّضج على أيدي يوسف

إدريس في مصر، وزكريّا تامر في سوريا، ومحمّد المر في دولة الإمارات». (ص 2).
أمّا عناصر القصّة فهي: « الحادثة، السرد، البناء، الشّخصيّة، الزّمان، المكان
والفكرة...» (ص 3).

1 - الحادثة أو الحدث: «الحدث هو مجموعة الأفعال والوقائع مرتّبة ترتيباً سببياً،
تدور حول موضوع عام، وتصور الشّخصيّة وتكشف عن صراعها مع الشّخصيات
الأخرى... وتتحقّق وحدة الحدث عندما يجيب الكاتب على أربعة أسئلة هي: كيف
وأين ومتى ولماذا وقع الحدث؟» (ص 3).

2 - السرد: هو نقل الوقائع من خلال الألفاظ ويكون بأربع طرق:

- الطّريقة المباشرة حيث يكون الكاتب مؤرّخاً يسرد من الخارج.
 - طريقة السرد الدّاتيّ حيث يبدو الكاتب بطل القصّة لاستخدامه ضمير المتكلم.
 - طريقة الوثائق حيث تبرز من خلال الرّسائل أو اليوميات والحكايات وغيرها...
 - طريقة تيّار الوعي أو المونولوج الدّخلي وهي طريقة تفكير تسيطر على الشّخصيّة
فتشغل بالها وتحلّل اهتماماتها فيبرزها الكاتب من خلال تداعي الخواطر والذّكريات.
- 3 - البناء: «هو الطّريقة التي تسيّر عليها القصّة لبلوغ هدفها». (ص 4).

4 - الشّخصيّة: على الكاتب أن ينتقي الشّخصيّة المناسبة بحكمة لأن الأشخاص
من أهمّ عناصر الحكمة لأنّ القارئ ينتظر شخصيّة ناطقة متحرّكة ومتكلّمة، ليتفاعل
معها عاطفيّاً، وفكريّاً، ونفسيّاً.

وهناك شخصيات رئيسة وشخصيات ثانوية.

5 - الزّمن: «للزّمن أبعاد ثلاثة: زمن وقوع الأحداث، وزمن كتابة الأحداث، وزمن
قراءة الأحداث». (ص 6).

6 - المكان: «هو المحيط الذي تجري عليه الأحداث أو تدور فيه، ويرتبط جدّاً
بالزّمان» (ص 8) إذ لا يمكن الفصل بينهما.

7 - الفكرة: الهدف الذي يسعى الكاتب إلى تحقيقه من خلال القصّة بغرض المتعة

والفائدة، دون الفصل بينهما، «فلا تقوم الواحدة بمعزل عن الأخرى، غير أنّ الفكرة يجب أن تنساب في القصة انسياباً خفياً فيستخلصها القارئ استخلاصاً ولا يصرّح بها الكاتب تصرّيحاً». (ص 9).

8 - **الحبكة**: هي «مجموعة من الحوادث مرتبطة زمنياً، ومعيار الحبكة الممتازة هو وحدتها». (صالح، 2018، ص 75).

9 - **النهاية**: هي اللحظة الحاسمة التي يكتمل فيها العمل القصصي، حيث يكون الكاتب قد وصل إلى غايته، وعندها ينتهي انفعال القارئ، فلا حاجة للإطالة بعدها.

10 - **اللغة والأسلوب**: وسيلة يستخدمها الكاتب للتعبير وتكون إما من خلال السرد أو من خلال الحوار.

* **الكاتب**: ومن خلال هذه العناصر لا بدّ لنا من الإشارة إلى المعنصر (الكاتب) الذي يستوحي موضوعاته من محيطه، تأثراً بالواقع، مستخدماً خياله الواسع في التعبير.

ب- سمات القصة الوجيزة وتقنياتها

«الوجيز، لغوياً تعني الموجز والمختصر، والوجيز هو الكلام القصير السريع الوصول إلى الفهم». (فرحات، 2020، ص 88) والوجيزة مفهوم قديم ظهر مع الشيخ عبد القاهر الجرجاني في علم المعاني الذي قسّم إلى عدّة أقسام منها الإيجاز الذي يدلّ على اقتصاد في الكلام الدالّ على معانٍ كثيرة.

ومن هذا الأدب الوجيز، القصة الوجيزة، وهي نوع أدبيّ يتميّز بالحفاظ على طريقة السرد، من خلال «اعتماد عناصر السرد أي الحدث والشخصية والمكان والزمان وما فيه من استرجاع واستباق والحوار أو المونولوج ولغة وأسلوب وسارد وزاوية رؤية أو تبئير». (ص 90) كما وتتميّز بصغر حجمها، فكلماتها لا تتعدّى الخمسين 50 كلمة، وتعتمد على الإيحاء والإيجاز والتكثيف، إضافة إلى التلميح واستخدام الجمل التي تدلّ على الحركة والتوتر. «أمّا لغة فقد تميل إلى لغة فيها الإنزياح والصورة والخيال». (ص 90) وليس من الضروري أن تتواجد هذه العناصر كلّها في القصة نفسها، لكنّها تركز على التكثيف والإيجاز والدهشة.

ويمكن القول إنّ أركان القصة تتمثّل «بالحبكة السردية (الحدث / الشخصية /

الزّمن / المكان)، والدّهشة ووحدة الفكر والتكثيف. أما التّقنيّات فتنمّثل في خصوصيّة اللّغة والانزياح والمفارقة والتّناص والتّرميز والأنسنة والسّخرية والمفارقة والتّنوع في الاستهلال والاختتام». (ص 91).

ولدت القصّة القصيرة جدًّا (الوجيزة) من رحم القصّة القصيرة، لذلك فهي كما هو واضح أنّها لم تخرج عن أركان القصّة وتقنيّاتها كالحديث القصصيّ والمفارقة والتكثيف، لكنّها تتميّز باقتصاد في لغتها لتتناسب مع سرعة العصر الحديث.

ومن أهم تقنيّاتها:

التّناص

التّناص هو تحويل وامتصاص لكثير من نصوص أخرى (الموسى، 2022، ص 28)، حيث يغدو كل نصّ حاضر، عبارة عن عمليّة امتصاص وتحويل لنصوص سابقة.

والنّصّ عند النّاقّد الفرنسي جيرار جينيت (Gérard Genette) (1930 – 2018) طرس، «وهذا يعني أنّ النّصّ يكون في باطن النّصّ، وأنّ النّصّ الجديد يخبئ نصًّا آخر (...) فالنّصّ عند جيرار جينيت وقود للنّصّ». (الموسى، 2022، ص 29)، وقد استطاع الفيلسوف الفرنسي رولان بارت Roland Barthes (1915 – 1980) أن يطوّر مصطلح التّناص فلم يعد محوره النّصّ فقط، إنّما تطوّر ليطال القارئ، حيث ألغى دور المؤلّف كما في نظرية موت المؤلّف، ليظهر دور القارئ، الذي لا يتحقّق النّصّ الأدبيّ إلّا من خلاله، حيث «يتطلّب من القارئ الجادّ أن يحفر في طبقات النّصّ ليكشف المسكوت عنه» (...) ما «يحتاج استحضار النّصوص الغائبة لاستكمال النّصّ الحاضر، فالنّصّ يحتاج إلى ما هو خارجه من أجل قراءته وتحليله، والنّصّ الغائب عامل تفسيريّ للنّصّ الحاضر» (الموسى، 2022، ص 35) الذي يعتمد التكثيف والتّركيز.

والقصّة القصيرة جدًّا هي «قصّة التّناص بامتياز؛ لأنّها تنثير فضول القارئ، وتدفعه إلى ممارسة التّخييل والتّحليل والتّأويل، وملء الفراغات البيضاء». (فرحات، 2019، ص 92) حيث تنثير فضول القارئ، فإمّا أن تكون القراءة سطحيّة مباشرة، وإمّا قراءة

عميقة تستنتق ما بين السّطور ويسهم اعتمادها على التّناص في إخفاء إحياءات مرتبطة باللاوعي الجمعي والموروث الثقافي، فتنعّد التّأويلات من متلقّ إلى آخر. ويكون التّناص إمّا في العنوان أو في المتن، حيث يكون العنوان موحياً لا كاشفاً.

الأنسنة

تكون من خلال إضفاء صفات الإنسان على غير الإنسان محسوساً كان أو معنوياً، باستخدام الاستعارة والتّشخيص...

الترميز

يتفاوت استخدام الرّمز بين كتاب القصة القصيرة جداً، بين بسيط، عميق، وأعمق... واستخدام الرّمز يثير الدهشة ويشدّ القارئ للغوص في المعاني واكتشاف المعاني العميقة، إلّا أنّ استخدام الرّمز لا يكون بطريقة عشوائية، إمّا يكون على علاقة بسياق النّص ويخدم فكرته.

الانزياح

أمّا بالنسبة للانزياح فهو «خروج من المألوف، وهو الخروج من العيار لغرض يقصد إليه المتكلّم، وقد يكون من دون قصد، غير أنّه في كلتا الحالتين يخدم النّص بشكل أو بآخر». (ص 94).

وجود الانزياح مهمّ في القصة القصيرة جداً، ما يؤدي إلى بثّ التّوتر والصّراع ويسهم في إنتاج حركيّة النّص القصصيّ.

وهكذا فإننا نجد أنّ القصة القصيرة جداً تتلاقى مع القصة القصيرة، إلّا أنّها تختلف عنها في الحجم، ولكنها قادرة رغم قصرها وإيجازها على نقل الواقع وحثّ مخيلة القارئ إلى تخيل معانٍ كثيرة من خلال كلام قليل مستنداً إلى تأويلاته المرتبطة بثقافته وتجاربه، لذلك سيبرز هذا البحث مقارنة بين القصة القصيرة والقصة القصيرة جداً من خلال مدونة «احكي يا شهرزاد».

ثالثاً: نماذج مختارة من مدونة «احكي يا شهرزاد»

«احكي يا شهرزاد» مجموعة قصصية تحتوي في بداياتها على قصص قصيرة، ثم تليها في القسم الثاني قصص وجيزة، تجمع هذه القصص كما يبدو شهرزاد، تلك المرأة التي استطاعت أن توظف الحكاية كي تبقى على قيد الحياة وتكسب قلب الملك الذي أراد قتل كل النساء انتقاماً لخيانة زوجته، فحوّلت شهريار إلى مستمع يتذوق الأدب ويرغب المزيد.

أما القاصّة دريّة فرحات كما هو ظاهر على الغلاف فقد قصدت من خلال مدوّنتها «احكي يا شهرزاد» المرأة المعاصرة، التي تخشى الكلام إلاّ سراً، تدعوها إلى الخروج عن صمتها، والتعبير عن مشاعرها وانتماءاتها... لأنّ حياتها ملكها وهي فقط من تملك مفاتيح سعادتها، مهما كان عمرها.

أما عن الغلاف فالخلفية الأساسية بيضاء، وهو لون أساسي تتشكّل منه كلّ الألوان، فالمرأة أساس المجتمع، وهو رمز للنقاء، والكمال، والفرح، والسلام، رموز تتناسب مع دعوة الكاتبة لشهرزاد، فحين تقصح عن مكبوتاتها تصل إلى السلام الداخلي، وقد مثل اللون الأبيض قاعدة لامتزاح ألوان أخرى منها البنفسجيّ الذي يدلّ على الاعتدال والوضوح والتوازن والشغف والذكاء والحبّ والحكمة، وهي صفات تميّز بها المرأة الحرّة.

أما اللون الزهري فهو لون أنثوي يدلّ على الحبّ والهدوء والحنان، إضافة إلى الاهتمام والدفع، فالمرأة كائن بشريّ مليء بالعواطف ويحتاج إلى الاهتمام والشعور بالأمان كي تعبّر عن خلجات نفسها وما يجول في خاطرها.

أما اللون الأصفر، فهو لون متوهّج مشرق، يدعو إلى المغامرة في أسلوب التفكير، من أجل التحرّر من كلّ القيود التي تعيق بوح المرأة، وهو لون يدلّ أيضاً على الحكمة والذكاء، فالمرأة بحكمتها وذكائها تستطيع الوصول إلى السلام الروحي، ولولا حكمة وذكاء شهرزاد لما بقيت على قيد الحياة، ولما وصلت إلينا قصصها.

تتوسّط كل هذه الألوان صورة شهرزاد وهي محور المجموعة القصصية وأساسها، ظهرت بلباس أبيض يغطي أعضاء جسمها كافة، حتى يديها، وهذا رمز إلى أنّ المرأة كائن روحيّ، تستطيع بتفكيرها أن ترتقي وليس بجسدها، ف جاء الغلاف مناسباً لدعوة

الكاتبة من خلال مجموعتها القصصية. وسنعمد إلى المقارنة بين القصص القصيرة والقصص الوجيزة استناداً إلى البنيوية السردية.

يسعى هذا البحث، تبعاً للمنهج البنيوي السردى إلى «دراسة عناصر الإبداع في العمل السردى، انطلاقاً من عناصر البنية». (إبراهيم، 2015، ص 9).
وفقاً للعناوين الآتية:

- «الفضاء الروائي - واقعيته وصناعته.
- الحدث بين الحقيقة الواقعية والحقيقة الفنية.
- معمارية الشخصيات - الشخصية المصنوعة.
- المغزى والتبوء والفضاء الإبداعي». (ص 9).

أ- الفضاء الروائي - واقعيته وصناعته:

«يرى البعض أن الفضاء الروائي «يتحدّد بالمكان في زمان محدّد». فهو إذاً ذلك التلازم الحاصل بين الزمان والمكان». (ص 10).

من اللافت أن القاصّة دريّة فرحات تجاوزت «حدود الماضي إلى الحاضر وما بعده بحسب معطيات التوظيف السردى». (الديراني، 2021، ص 147) حيث وظّفت الماضي في خدمة الحاضر، لخلق مستقبل حرّ يتماشى مع طموحات المرأة.

ففكرة عُمر المرأة مثلاً فكرة قديمة ترافق المرأة حتّى زمننا هذا، سلّطت الكاتبة الضوء عليها في قصّتها القصيرة «في الأربعين». (فرحات، 2019، ص 27).

مستخدمة الزمن الموضوعي في سياق السرد القصصي. «وهذا يؤدّي دلالات أبرزها إكساب السرد واقعيّة والإقناع بصدقية الأحداث ودقّة أدائها، ومنها إثارة قضايا سياسية - اجتماعية، وتتبع تطوّر تجربة الشخصية (الرئيسة)، وبيان خصائصها وخصائص الشخصيات الأخرى». (زراقط، 1999، ص 733).

وقد أثار الزمن الموضوعي قضية:

- الوضع الاقتصادي الذي يعيشه المعلم ومعاناته «أعبه هذا العمل المضني» «ما المانع على كل إنسان أن يسعى إلى تحسين وضعه المادي». (فرحات، 2019، ص 31) «ما جرم هذا الأستاذ إن أراد أن يحسن وضعه المادي» (ص 29).

- المادية التي باتت جزءاً من العصر الحالي، حيث قيّدت الناس وبددت مشاعرهم «هل كل باحث عن الأفضل يكون ماديًا» (ص 29).

- قضية المناهج في لبنان التي تحتاج إلى تعديل «عن شكوانا من بعض المناهج وطبيعة المادة». (ص 31).

- قضية عمر المرأة التي يقيد بها المجتمع خاصة في سنّ الأربعين كما هو واضح من العنوان حيث يُنظر إلى عمر المرأة وكأنّها مجرد رقم، دون روحها.

ويسجّل هذا الزمن الموضوعي تطوّر تجربة البطلة في القصة، ما أدى إلى كشف شخصية الرجل وطريقة تفكيره، ويسجّل السؤال عن عمرها عاملاً فارقاً يقطع الزمن إلى نصفين، فتظهر لديها المناجاة حيث «تحدّث الشخصية نفسها بصوت غير مسموع» (زراقت، 1999، ص 738) «أين اختفت ابتسامته، ولماذا عاد التجهّم إلى وجهه؟!». (فرحات، 2019، ص 33).

ليأتي زمن الاستباق في تساؤلها «هل هو فقط اليوم الأخير لعمليات التصحيح أم ماذا؟؟؟» (ص 34) فهي هنا تتوقّع عدم رؤيته بعد الانتهاء من عمليات التصحيح.

وتعود بعد ذلك إلى تساؤلاتها من خلال المناجاة «ما مشكلة عمر الأربعين، لماذا تخافه المرأة؟...» (ص 35).

أمّا الزمن الحاضر فقد تمثّل في وعي المرأة على أن تعيش حياتها كما تريد، مهما كان عمرها، «يجب عليّ أن أعود لأقود حياتي كما أريد، لا كما يريدونها الآخرون... أجل أنا في الأربعين... وفي الأربعين تبدأ الحياة..» (ص 35) وهنا كما يبدو دعوة من الكاتبة إلى عدم ربط المرأة بعمر معين، ودعوة إلى المرأة نفسها للتحرّر من هذه القيود لأنّ المرأة لا تُقاس بعمرها.

وقد ارتبط الزمن الموضوعي في قصة «في الأربعين» بالمبنى الكبير، في غرفة التصحيح وهو مكان مغلق، أمّا الزمن النفسي فقد امتدّ من غرفة التصحيح إلى السيارة،

إضافة إلى المكان المضمّر الذي تتحدّث عنه القصة وهو المجتمع العربيّ وهو مكان مفتوح مغلقٌ بمحدوديّته وتفكيره.

أمّا في قصة «عمر» (ص 123)، فلم يظهر سوى المكان المضمّر الذي تتحدّث عنه المجموعة القصصيّة بأكملها وهو المكان المحوريّ الذي يجمع كلّ القصص وهو المجتمع العربيّ.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن قصة «عمر» بدأت بتساؤل بالفعل المضارع، وانتهت بفعل مضارع، للدلالة على استمرارية هذه التساؤلات في ذهن المرأة، واستمرارية حقيقة المرأة. أمّا بالنسبة إلى الجمل الاسميّة فقد مثّلت الرّمن بكلماتها «الشباب»، «الخبرة»، «بحساب السنين».

وقد ظهر الرّمن الموضوعيّ في قضيّة عمر المرأة الممتدّ حتّى عصرنا «هل تسأل المرأة عن عمرها؟» (ص 123).

يبرز الانزياح بالرّمن في قول الكاتبة «عمرها بعمر الورد والشّباب... عشرون» حيث ربطت عمر المرأة بشبابها لجمالها وقوتها ربطاً بعمرها الحقيقيّ وهو متعلّق بالرّمن الحاضر. «عمرها بحساب السنين... أربعون»، أمّا زمن الاستباق قد ظهر في نضج المرأة وخبراتها التي اكتسبتها خلال رحلة حياتها «عمرها بعمر النّضج والخبرة.. ثمانون» أما عبارة «عمر يختصر الحياة» فقد دلّت على استمراريّة الرّمن فعمر المرأة يختصر حياة بأكملها بين شباب ونضج وحبّ...

وكلتا القصتين (في الأربعين/ عُمر) يربطهما عمر الأربعين وعلى الرّغم من قصر قصة «عمر» إلّا أنّها استحضرت الرّمن في ذهن القارئ مكثّفًا، كاشفةً عن قضيّة تعاني منها المرأة في المجتمع.

أمّا قصة «الكمبيوتر والحب» (ص 21) تجسّد الرّمن الموضوعيّ الذي يصوّر الواقع المنغمس بالتكنولوجيا إلى درجة نسيان الذات وذوبانها، وقد أبرزت الكاتبة انغماس هذا الرّجل بعمله حيث أنّه لم يعد يعرف كم أخذ منه من الوقت، فيعود بذاكرته من خلال الانزياح «وعاد بذاكرته إلى الورا، إلى اللّحظة التي بدأت فكرة البرنامج تراود فكره» (ص 21)، ثمّ بعد ذلك يظهر الاستباق من خلال الحلم في مستقبل باهر «ومنها يخطو

خطوة جديدة في عالم الكمبيوتر، ويصبح له اسم مشهور» وبعدها تمثل الزمن الحاضر في تحقيق الحلم «ها هو الحلم أوشك أن يتحول إلى واقع». (ص 21).

شكّلت الجريدة تضمينًا، نقلت هذا الرجل من زمن إلى زمن فراودته تساؤلات عديدة، فظهرت عنده المناجاة بعد رؤية صورة حبيبته في الجريدة عروسًا في ثوبها الأبيض «هو ينظر إلى عروس في ثوبها الأبيض، وتذكّر تلك الفتاة التي كانت تقف دائمًا على الشرفة المواجهة لشرفته...» «هل يعقل... محال الشبه نفسه... الاسم نفسه...» (ص 23)، وبقيت هذه التساؤلات تراوده إلى أن عاد إلى الزمن الحقيقي على صوت طابعته «ولم ينته من شروده هذا إلا وصوت الطابعة ينهي إخراج أوراقه» (ص 24)، وتمثل هذه القصة سرعة الزمن الغارق بالتكنولوجيا.

لذلك فإنه يبدو أنّ المكان المتمثل بشاشة الكمبيوتر على الرغم من صغرها، كدّست زمانًا، فكانت مكانًا شاسعًا له هويته في خلق الأحداث، وكذلك الجريدة التي شكّلت مرحلة انتقال بين الزمن الحاضر والماضي.

يقابل هذه القصة، قصة وجيزة بعنوان «تكنولوجيا» (ص 112)، وقد دلّت هذه الكلمة على الزمن الحاضر، المعاصر الذي يتميز بالتكنولوجيا والتطور.

تبدأ القصة سردها بكلمة «أحبها» وهي فعل مرتبط بالزمن الماضي، قبل أن ينتقل إلى عالم التكنولوجيا، ثم تستخدم الكاتبة كلمة «لكنه» التي نقلت الرجل من مكان إلى مكان ومن عالم إلى عالم «علق بين برائن البحث التكنولوجي» وهي تدلّ على الزمن الموضوعي المرتبط بالواقع الحقيقي. ثم في عبارة «مضت الأيام...» وبعدها ثلاث نقط، تدلّ على المدّة الزمنية الطويلة التي قضاها أمام شاشة الكمبيوتر لإنجاز بحثه، وصولًا إلى الزمن الحاضر «ضاع منه حلمه الوردي».

وقد مثلت شاشة الكمبيوتر التي تمثلت في عبارة «البحث التكنولوجي» مكانًا شاسعًا أيضًا أسهم في خلق خيال واسع لدى القارئ لتخيّل الكثير من الأحداث.

وقد مثلت شاشة الكمبيوتر في القصتين (الكمبيوتر والحب، وتكنولوجيا) عاملاً مساعدًا لتحقيق البحث التكنولوجي، وعاملاً معاكسًا في تحقيق رغبة الحب.

وهكذا، فإنّه يبدو من خلال المقارنة، أنّ القصة القصيرة جدًّا اشتملت على المكان والزمان بشكل مكثّف، رغم محدودية الأمكنة فيها، مع التّركيز على خيال القارئ، دون تشتيته.

ويمكن القول إنّ «المبدع هو من يجعل (المكان والزّمان) «ينطقان» بما يريد، يحمّلهما أكثر ممّا نتوقع». (إبراهيم، 2015، ص 23).

ب- الحدث بين الحقيقة الواقعية والحقيقة الفنّية

ورد في كتاب الدّكتور صالح إبراهيم «إنّ المبدع لا يحتاج إلى الحدث الخارق أو الباهر ليصنع الإبداعية، قد يصل إليها عبر الحدث البسيط والجمل البسيطة» (2015، ص 23)، وقد ركّزت القاصّة على أحداث بسيطة مستوحاة من المجتمع المحيط بها، للإضاءة على قضايا مهمّة.

ففي القصة القصيرة «الكمبيوتر والحب» تطوّرت الأحداث بأفعال بسيطة «كانت عيناه تنتقل بين الأوراق المتكدّسة فوق مكتبة والشاشة الصّغيرة» (فرحات، 2019، ص 21) وهنا يدلّ هذا الحدث على انسلاخ هذا الرّجل عن الواقع، وانغماسه بالتكنولوجيا، حتّى نسي نفسه، «فلم يعد يعرف كم كانت هذه المدة؟!» (ص 21) إلى أن أنهى بحثه، ورأى في الجريدة صورة الفتاة التي كانت تعجبه، بستان زفافها الأبيض، فكانت الصّدمة «خيّل له أنّ الصّورة أضغاث أحلام». (ص 23).

وتكمن الأهمية في هذا الكلام، أنّه على الرّغم من بساطته، فهو كثيف وعميق، عظمت أهمّيته عند وقوع الحدث العظيم وهو زواج من كان معجبًا بها، بسبب انشغاله وانغماسه بالتكنولوجيا ليصنع مجدًّا في عالم الكمبيوتر «عصر السرعة والإنجازات» (ص 23)، ويبرز هذا الحدث ظلمه لنفسه ولهذه المرأة التي انتظرتّه أيّامًا طويلة من دون جدوى.

وقد برز الحدث أيضًا في القصة الوجيزة بعنوان «تكنولوجيا» من خلال تنامي الأفعال الماضية «أحبّها»، «علّق»، «مضت»، «حقّق»، «ضاع»، فتنامي هذه الأفعال دلّ على تنامي الحدث وصولًا إلى الصّدمة والمفارقة بين تحقيق حلم التكنولوجيا وضياح حلم الحبّ.

وأبرزت علامات الترقيم (...) المدّة الزّمنية الطّويلة التي قضاها أمام هذه الشّاشة الباردة، فكان استخدامها اختصارًا للكثير من الأحداث، التي تدفع القارئ إلى تخيلها وملء فراغاتها.

وكلا القصّتين مع فارق الحجم بينهما، استطاعتا الإضاءة على قضية غرق الإنسان في المادّيات وانغماسه بالتكنولوجيا والعالم الافتراضي لمدّة طويلة دون التّنبّه للوقت الذي يقضيه أمامها، وكأنّه آلة مبرمجة فارغة من المشاعر.

أمّا قصة «في الأربعين» (ص 27)، قد أضاعت أحداثها البسيطة المستوحاة من المجتمع على قضية تلاحق المرأة العربيّة وهي العمر وتحديدًا (عمر الأربعين)، من خلال تطوّر علاقة بين رجل وامرأة، انتهت بانقطاعها بسبب عمر المرأة الذي وصل إلى الأربعين.

أمّا قصة «عمر» القصيرة جدًّا (الوجيزة)، قد أضاعت على القضيّة بشكل عام، افتتحت بتساؤل يعرض الإشكالية التي تعيشها المرأة دون تنامٍ للأفعال، اختصرت القضيّة بفعل واحد يدلّ على الاستمراريّة «يختصر»، «عمر يختصر الحياة» جملة تحوي معانٍ عميقة، وتختصر تجارب كثيرة.

ج- معماريّة الشّخصيّات المبدعة - الشّخصيّة المصنوعة

أظهرت قصة «في الأربعين» القصيرة شخصيّة المرأة المخلّعة نفسيًّا، التي يحكمها مجتمع ذكوريّ، محدود التفكير، يربط أنوثة المرأة بعمرها، وقد وسّعت الكاتبة شخصيّة هذه المرأة لتطال كلّ النّساء مع اختلاف المكان والزّمان، وبرزت شخصيّة المرأة شخصيّة نامية متطوّرة مع الأحداث حيث وصلت في نهاية القصة إلى التّمرد على هذه الأفكار مخاطبة نفسها (إنّ الحياة تبدأ مع الأربعين...) (ص 35).

أمّا شخصيّة الرّجل فكانت مسطّحة، لم تتبدّل ولم تتطوّر حتى مع وجود الإعجاب، ومثّلت المرأة عامل ذات، محوريّ أرادت أن تثبت ذاتها من خلال عملها ورفقيّ تفكيرها، ومشاعرها المرهفة، فقد دفعها الحبّ وهو عامل مرسل إلى التّقرب من رجل أعجبها، فكان الرّجل هو العامل المرسل إليه، وليس فقط الرّجل الموجود في القصة إنّما كلّ رجل عربيّ متشبّث بهذه الأفكار، حيث شكّل عمرها عاملًا معاكسًا قطع هذه العلاقة رغم

ظهر هذا الانسجام بينهما، وهكذا فإننا نلاحظ أنّ العامل المعاكس المتمثل بفكرة العمر، ومحدودية تفكير الرّجل أدّى إلى فشل الذات في تحقيق الموضوع بعد أن عرف الرّجل عمر المرأة «في ذلك اليوم لم يأت أحدهم ليدعوني إلى فنان قهوة» (ص34)، فتمردت وبدأت تخاطب نفسها لتقتنع أنّ المرأة لا تقاس بعمرها.

أمّا بالنسبة لقصة «عمر» فالشخصية المحورية الأحادية هي المرأة أيضًا، لم يُذكر العامل المناوئ بشكل مباشر إنّما بطريقة مبطنّة في عبارة «هل تسأل المرأة عن عمرها؟» (ص123) وهذا يشير إلى العقلية المتخلفة التي لا تزال موجودة في المجتمع.

أمّا قصة «الكمبيوتر والحب» فنُظهر شخصية الرّجل الذي يسابق العصر ليصل إلى تحقيق حلمه في التكنولوجيا، حيث برز الكمبيوتر شخصية قويّة تسحب الإنسان لتذبيبه في عالمها، وتجعله كآلة مبرمجة تعمل لصالح التكنولوجيا، ظهر مقابلها الحبّ شخصية ضعيفة ضاعت في رحاب الانتظار. وقد شكّل الكمبيوتر عاملاً مناوئاً لتحقيق الحبّ، وعاملاً مساعدًا في تحقيق المادّة (الحلم التكنولوجي)، وقد توسعت دائرة هذه الشخصية لنظام مجتمعًا بأكمله، ليس فقط على صعيد العالم العربيّ، إنّما أيضًا على صعيد العالم بأكمله، كانت نتيجته اندثار الحبّ والمشاعر.

وكذلك فقد أظهرت قصة «تكنولوجيا» الوجيزة القضية ذاتها رغم صغر حجمها فكانت التكنولوجيا شخصية مسيطرة تحكم بنية النّصّ وتحكم العالم.

وكلّتا القصّتين أظهرتا تناقضًا حادًا بين المادّة (التكنولوجيا) والرّوح (الحبّ).

د- المغزى والنّبوءة، والفضاء الإبداعي

وُظف السرد في خدمة المغزى، وهذا المغزى لا يصرّح به، إنّما يكتشف اكتشافًا، وقد يصل إلى القارئ بطريقة عفوية تأثيرًا في وجدانه، فكانت الإضاءة من خلال «في الأربعين» و«عمر» على الأفكار السائدة في المجتمع، وفيهما دعوة إلى التّخلي عن هذه الأفكار، ودعوة للمرأة إلى التمرد وعدم المبالاة بهذه الأفكار التي تلاحقها. وتمثّلت فيهما النّبوءة بعدم المباشرة في عرض القضية، إنّما تُفهم القضية من السياق.

وكذلك بالنسبة لقصة «التكنولوجيا والحبّ» القصيرة، وقصة «التكنولوجيا» الوجيزة، فكان المغزى في إبراز سيطرة التكنولوجيا على الإنسان بطريقة غير مباشرة، إنّما بطريقة

فنيّة تشدّ القارئ وتجعله يتتبّأ بمساوئ هذه التكنولوجيا رغم حسناتها.

خاتمة

أظهر لنا هذا البحث تأثر القصة الوجيزة بالقصة القصيرة كنوع أدبي له عناصره وتقنيّاته ومن الواضح أنّه نوع أدبيّ تأثر بالعصر الحديث وسرعته، فجاء قصيرا، سريعا، يتناغم ومتطلّبات الإنسان العصريّ، الذي بات في صراع مع الوقت، ولا تستهويه المطولات الأدبية التي أصبحت تشكّل عائقا بينه وبين الأدب، لأنّه لا يملك الوقت الكافي، وقد أظهرت القصة القصيرة جدًّا (الوجيزة)، من خلال ما تقدّم قدرتها على نقل الواقع رغم قصرها، وقلة ألفاظها، من خلال اختزانها لمعان عميقة، وإعطاء دور لمخيّلة القارئ في التفكير والتأويل، فالإطناب لم يعد مطلوبًا في عصرنا، وأصبح الذوق العام يتطلّب وجازة وسرعة في كلّ شيء، فالوجيزة تلمع كالبرق الخاطف وتعتمد على فضول المتلقي وقدرته على التحليل والتأويل وملء الفراغات.

و«في الوقت الراهن نجحت القصة الوجيزة في شقّ الطريق نحو التأسيس لنفسها كفنّ مستقلّ بذاته، يجذب الكثير من المبدعين للإبداع فيه» (فرحات، 2022، ص 83)، وقد ظهرت بشكل كبير في صفحات الفيسبوك أو وسائل التّواصل الاجتماعي، وهذه الصّفحات أيضًا تعدّ مجالًا لنشر النّصوص الكثيرة التي ليس من الضّروري أن تكون قد التزمت بالسّمات الخاصّة، وهنا يأتي دور النّقْد لتأصيل هذا النوع الأدبيّ، بعيدًا من المجاملات التي تغزو عالم التّواصل الاجتماعي.

وقد ظهر هذا التأثير من خلال القصص الوجيزة التي قدّمتها «أحكي يا شهرزاد» مقارنة مع القصص القصيرة التي سبقتها، حيث أظهرت تمكّن الكاتبة من تقديم فكرتها بأسلوب سرديّ إبداعيّ يشدّ القارئ ويدفعه إلى الغوص في أعماق النّصّ رغم قصره، وبذلك يمكن القول إنّ «خير الكلام ما قلّ ودلّ».

وبما أنّ الفنّ يعبر عن الواقع بلمسات جماليّة، فلا بدّ للفنّ أن يتناسب مع واقعه، ليكون صوت زمنه، بالمقابل فهذا لا يعني إهمال الأنواع الأدبية الأخرى كالرواية وغيرها، فكلّ نوع متذوقوه.

وهكذا فإنّ الأدب تأثّر بالحياة، فأنتج أدبًا وحيزًا، ولكن إلى أيّ مدى أثر هذا الأدب في العالم؟ وأين وظيفة النّقد منه ليثبتته بشكل حاسم معترف به، له عناصره ومقوماته وكتّابه؟

المصادر والمراجع

- إبراهيم، صالح (2015)، عناصر الإبداع في السرد العربي الحديث. لبنان: دار البنان.
- جرجور، مهى؛ لبس، جوزف (2020)، دليل مناهج البحث العلمي (طبعة إلكترونية). بيروت: كئيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة - الجامعة اللبنانيّة.
- الديراني، نزار حتّا (2021)، قراءات في الأدب والفنّ التّشكيلي اللبناني المعاصر، أستراليا: ملبورن.
- الذيب، أمين (2022)، الكتاب النّقدي لملتقى الأدب الوجيز (ط 1). بيروت: دار نلسن.
- زراقت، عبد المجيد (1999)، في بناء الرواية اللبنانيّة (1972 - 1992) الجزء الأوّل: البناء الرّوائي بوصفه قصّة. بيروت: دائرة منشورات الجامعة اللبنانيّة، الإدارة المركزيّة.
- صالح، كامل (2018)، حركيّة الأدب وفاعليته - في الأنواع والمذاهب الأدبيّة (ط 2). بيروت: الحدّثة.
- عياصرة، منصور (2020)، الأدب الوجيز (هويّة تجاويّة جديدة) (ط 1). الأردن: دار جليس الرّمان للنشر والتّوزيع.
- فرحات، دريّة (2019)، احكي يا شهرزاد (ط 1). بيروت: دار الأمير.
- فرحات، دريّة (2021)، محاضرات في مادّة مقاربات سرديّة. لبنان: كئيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة - الجامعة اللبنانيّة، الفرع الخامس.
- الموسى، أنور (2022)، قضايا نقدية حديثة ومعاصرة (ط 1). صيدا: دار نور الدّين.

الشعر العربي إلى أين؟

حسين ابراهيم¹

في أربعينيات القرن الماضي، نشر لويس عوض ديوانه «بلوتولاند»، وقد استهله بمقدمة ثورية، جاءت تحت عنوان «حطّموا عمود الشعر». أعلن عوض في مقدمته موت الشعر العربي، وراح يزفه بحسرة فوق نعش التراث. وبعد أن انتهى من جنازته الدراماتيكية، بدأ يتحدث عن «تجاربه» الشعرية المجددة التي أوردها في ديوانه، والتي حاول من خلالها «أن يخلق دوامة من دوامات الفكر وسط هذا الأسن الأزلي»².

وقد تكّلت ثورة عوض بنجاح باهر، فما هي إلا بضع سنين حتى تحطّم عمود الشعر بشكل جذري، وعلى أيدي نخبة من الشعراء المجددين، أمثال بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وخليل حاوي، وعبد الوهاب البياتي، وغيرهم من شعراء القرن العشرين. إلا أن الشعر العربي أخذ ينحدر فجأة في مطلع القرن الحالي، وقد لا نبالغ إذا قلنا إنّه دخل غيبوبة عصرية لا نعرف إن كان سيصحو منها مجددًا.

فما هي أسباب هذا الركود المفاجئ؟ لماذا ابتعد كتابنا وقراءنا من الشعر؟ وهل يتوقف التجديد على الشكل أم على المضمون؟

المشكلة، كما نقدر، بدأت منذ عصر النهضة، فما حسبه النقاد نهضة شعرية، لم يكن سوى تقليد واستنساخ. وقد وصف أدونيس شعر النهضة وصفًا دقيقًا، فقال: «إنّه تكرر صناعي لأشكال وأفكار جامدة ومستنفدة»³؛ إذ كان شعراؤه يستعيرون أجواء أسلافهم وصيغهم، وكان معظمهم ينظرون حتى إلى الطبيعة بأعين تاريخية، وقلما كان يظهر في هذا الشعر بعد شخصي⁴.

فعلى سبيل المثال، ظلّت الحبيبة تُشبه بالطّبي، علمًا أنّ الطّباء قد انقرضت من معظم البيئات العربية، والأهمّ من ذلك، أنّ الطّباء لم تعد أجمل ما يراه العرب في عصر متقدّم

(1) - طالبة ماستر في قسم اللغة العربية - الجامعة اللبنانية - عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
(2) - لويس عوض، «بلوتولاند: وقصائد أخرى من شعر الخاصة»، ط2، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989، ص 26.
(3) - أدونيس، «مقدمة للشعر العربي»، ط3، بيروت: دار العودة، 1979، ص 78.
(4) - م.ن، ص 78.

كعصر النهضة. كما أنّ تشبيه الحبيبة بالحيوان؛ أيّ حيوان، مهما كان جميلاً أو لافتاً، مظهر من مظاهر البدائية. أليس من المفترض أن يكون شعراء القرن التاسع عشر أكثر تقدماً وحادثة في صورهم البيانية؟ ألم يكن ينبغي عليهم أن يكونوا أكثر عصريّة في تعابيرهم وأوصافهم؟

وإنّ المسألة لم تقتصر على الصّور والتّعابير وحدها، فإنّ اللغة؛ بألفاظها، وتراكيبها، ومعجمها، تكرّرت أيضاً في أشعارهم. حتّى صار من الصّعب على القارئ أن يميّز بين قصيدة للبارودي مثلاً، وأخرى لشاعر عبّاسيّ أو أمويّ. وهكذا ضاعت الخصوصية الإبداعية للشعراء، والخصوصية الزمنية كذلك؛ إذ صارت أشعارهم تعبّر عن عصور خلت، بدلاً من تعبيرها عن العصر الحاضر. وما زال لهذا التيار المحافظ أتباع حتّى اليوم، وهم لا ينفكّون يتفاخرون بتقليدهم قصائد أسلافهم من العصور القديمة، علماً أنّهم قد بلغوا من الحداثة مبلغاً عظيماً، يتنافى مع هذه البلاغة البائدة، وتلك اللّغة المتخلّفة عن زمانهم ومكانهم.

ومع خروجنا من عصر النهضة ودخولنا عصر الحداثة الشعريّة، تجاوزنا مشكلة كبيرة، وسقطنا في مشكلة أكبر. فبعد أن تحطّم عمود الشعر، واستحالت القصيدة العربية العمودية إلى «قصيدة النّقيلة»، ثمّ إلى «قصيدة النثر»، راحت أساليب جديدة وتقنيات غريبة تستحوذ على الشعر العربيّ. ولو أنّ هذه الأساليب وتلك التقنيات، مبتكرات ومنجزات عربيّة خالصة، لكان الوضع أشقى حالاً، إلّا أنّها أساليب وتقنيات أخذت من الشعراء الغربيين؛ أمثال إليوت وبودلير وفاليري وغيرهم. بعبارة أخرى، انتقل شعراء القرن العشرين من تقليد الشعر العربيّ القديم، إلى تقليد الشعر الغربيّ الحديث.

وليس غرضنا هنا دراسة التّقليد الشعريّ، فهذه قضية تستحقّ بحثاً مستقلاً. ما نودّ الخوض فيه هو المضمون الذي كرّسه ذلك التّقليد. فقد يكون الشّكل الجديد للقصيدة العربية أكثر حداثة وعصريّة، ولكن هل هذا ينطبق على المضمون أيضاً؟

لقد تهافت الشعراء المحدثون على توظيف الأساطير والشخصيات الدّينية والتاريخية في أشعارهم، وكثيراً ما كانوا يتخذونها أفنعة عصريّة لتمرير أفكارهم ورسائلهم. اجتاح الغموض القصيدة العربية، وبات على القارئ أن يطالع أساطير الإغريق والرّومان وبلاد الرّافدين وغيرها من الحضارات القديمة، ليفهم بعض الصّور الشعريّة الحديثة؛ الحديثة؟

هل هذا هو التعبير السليم؟

على أية حال، صار الشعر الحديث حكرًا على الطبقة المثقفة، تلك التي تستطيع إلى حد ما، أن تفكك رموزه وطلاسمه الرائجة باسم الحداثة. ولا بد هنا من أن نطرح السؤال الآتي: ما علاقة الغموض والتعقيد بعصر الحداثة؟ ما علاقة الأساطير والشخصيات التراثية بهذا العصر؟ ألم تسع الحداثة إلى تسهيل حياة المرء؟ إلى تبسيطها وجعلها أكثر عملية؟ وماذا يبقى من الشعر حين يترفع عن محاكاة العامة، ويكتفي بتسلق الأبراج العاجية للمثقفين؟

لقد طرح إدوارد الخراط سؤالاً مشابهاً لهذا الأخير فقال: «لماذا تقتصر الخبرة الفنيّة على نفر من أصحاب اللقانة؟ أهي صفة أرسقراطية جديدة؟ ألا يهدف الفن إلى أوسع مشاركة بين الناس؟ أليس يتخطى حواجز العزلة والفردية لكي يصل إلى الأرض المشتركة في الوجدان الإنساني؟»¹.

ويحاول الخراط أن يجيب عن هذه الأسئلة، مبرراً الغموض الطارئ على الشعر العربي، فيقول: «إنّ الشعر الحديث له سوق، وإلا لكانت الظاهرة قد ضمرت، وهي لا تضمر بل تنمو وتكبر»². كان الخراط، على ما يبدو، يرى أنّ الشعر الحديث شعر مفهوم من قبل كثيرين، وهو ليس شعراً أرسقراطياً كما يتوهم البعض، ودليله على ذلك هو تلك «السوق»! وعلى أية حال، إنّه كتب هذه الكلمات في نهاية القرن الماضي، وكان قد أقرّ واتقأ بأنّ المستقبل للكتابة الحداثيّة. ولا نظنّ أنّه ظلّ على موقفه هذا بعد عقدين من الزمن، فأين نحن اليوم من هذه الكتابة؟ وهل ظنّ الخراط حقاً أن لهذه الكتابة سوقاً شعبيّة؟

لقد كان الشعر الحديث الذي ازدهر في القرن العشرين ظاهرة مؤقتة، فليس ثمة فنّ يستمرّ طويلاً إلا إذا كان شعبيّاً. أمّا السبب الذي دفع الخراط للاعتقاد بأنّه كذلك، فيمكن اختصاره بقول البروفيسور فيلن: «إنّ الطبقة الفراغية تحاول شتى المحاولات لكي تبتكر لنفسها مظاهر معقّدة وصعبة تجعل العامّة عاجزين عن تقليدها، وبذلك يشعر أبناء تلك الطبقة بأنهم من طينة عليا ويتابعهم العامة في هذا الشعور من دون أن يحسّوا بالمكيدة

(1) - إدوارد الخراط، مجلة الآداب: "عن الغموض والوضوح"، ع 10، 1994، ص 16.

(2) - م.ن، ص 18

المنصوبة لهم¹». ولكن إلى متى سيدوم جهلهم بذلك الإحساس؟ إلى متى سيستمرّون في تجيل ما لا يفهمون؛ فقط لأنّ هناك من هم أعلى منهم ييجلّونه ويفهمونه؟ لم يدم ذلك طويلاً، فإنّ الشّعر الحديث بدأ ينحدر حين أعرضت عنه العامّة، أو ربّما حين اكتشفت أنّ هناك شعراً أكثر بساطة وعفويّة. وهذا ما ذهب الخراط إلى نقده، فهو يرى أن القارئ الذي يعزف عن سبر عمق النص ولا يريد منه إلا وضوحاً هو قارئ سطحي². فهل من يفضلون شعر نزار قبّاني على شعر السيّاب وحاوي ودرويش هم قراء سطحيّون؟ وهل نزار قبّاني نفسه شاعر سطحيّ لأنّه كتب بوضوح؟ لماذا سنعدّ الوضوح سمة سلبية في الشّعر، إن كان هذا الشّعر لا يفتقر إلى الإبداع؟ وهل الوضوح نقيض الإبداع؟! إنّ المشكلة، كلّ المشكلة، تكمن في افتقارنا إلى شعراء مثل قبّاني؛ إلى شعراء معتدلين، لا هم رجعيّون في معانيهم وألفاظهم، ولا هم غامضون في أساليبهم وصورهم.

خلاصة القول، إنّ الشّعر العربيّ قد ضاع بين الرجعيّة والغموض، فقد كان القارئ سابقاً يحتاج إلى معجم لغويّ ليفهم الألفاظ الغريبة في شعر النّهضة، صار يحتاج إلى مجلّدات في الميثولوجيا والتّاريخ والأديان ليفهم الشّعر الحديث، وهو في الحالين سيملّ ويهجر الشّعر. فالإنسان الحديث إنسان عمليّ، يبحث عن الرّاحة والبساطة، وكلّ ما يخالف هذه الرّاحة وتلك البساطة سيتجاهله.

إذا إنّ أزمة الشّعر العربيّ هي أزمة مضمون وليست أزمة شكل. فقد كتب قبّاني عشرات القصائد العموديّة، وقد حصدت هذه القصائد إعجاب الجماهير لسهولة وساطتها وإبداعها وليس لشكلها، في المقابل كتب أنسي الحاج عشرات القصائد الحرّة، ولم يقرأها أحد، ولم يفهمها أحد. ولهذا يمكن الإقرار بأنّه ما دام الاعتدال غائباً عن شعرنا العربيّ، فإنّ هذا الشّعر سيستمرّ في الانحدار والرّكود.

(1) - علي الورد، «مهزلة العقل البشري»، ط3، 2011، بغداد: دار الوراق، ص 206

(2) - إدوارد الخراط، م.س، ص 18.

الحرف اللبانية بين التّعرّ والانقراض

هدى عباس

توطئة

عرف لبنان الصناعات اليدويّة منذ القديم، وعلى امتداد العصور ظلت هذه الصناعات تمثل المصدر الثّاني للدخل بعد الزراعة، وكان إنتاجها يلبي احتياجات السّكان، وبمرور الزّمان تحوّلت هذه الصناعات إلى فنون حرفيّة يُبدع فيها الفنّان اللبانيّ باحتراف، يمزج الواقع بالخيال ليخرج فنّاً خالصاً، وساعد على ذلك وجود مناطق بكاملها يعيش فيها الحرفيون.

الحرف اللبانية

في ظلّ غياب خريطة سياحية حرفيّة تراثية واضحة يجد، اللبانيّ (داخليّاً) والسّائح (خارجيّاً)، عجزاً في التّعرف على الحرف اللبانية القديمة (العتيقة) التي تمثّل جزءاً من ذاكرة القرى اللبانية، وتخبر طريقة حياتهم البسيطة، وتسلك معها درب الحرير الحرفيّ... ففي كل حرفة قصة وذاكرة، وضمن ذاكرة كل حرفي تسطرّ ثقافة أصيلة. تنضوي في نطاق الحرف الأصيلة والتي يصعب احصاؤها، بل سأعرض بعضها على سبيل المثال لا الحصر وسأقوم بالتّقيب عنها والبحث في تاريخها وتطورها ومناطقيتها ومدى مساهمتها في الاقتصاد الأسري.

يشتهر لبنان بمزيج خاصّ من الحرف التّقليديّة المصنوعة يدويّاً، بما فيها الأواني النّحاسيّة (الصّواني) والمطروقة والمزينة بالزّخرفة العربيّة والسّكاكين ذات القبضات المصنوعة من قرون الحيوانات والعلب الخشبيّة وألواح صابون زيت الزّيتون والفخّار وغيرها من المنتجات.

وتشتهر مناطق لبنان المختلفة بمساهمتها الفريدة في الحرف والفنون التّقليديّة، لذا يجب على الزّائر أو السّائح الاستفسار عن الصناعات المحليّة عند التّـنقل بين مختلف المناطق اللبانية، ففي العاصمة بيروت تستطيع أن تجد

منتجات حرفية تقليدية من كل أرجاء لبنان، فهناك متاجر الحرف التقليدية أو (الأرتيزانا الخاصة) ومتاجر وزارة السياحة حيث تباع الحرف المختلفة. ويكتسب الصابون المصنوع من زيت الزيتون، صابون لبنان التقليدي شعبية عالمية بفضل نقاوته وميزاته الترطيبية الطبيعية، إذ كان يصنع تقليدياً من زيت الزيتون الخاص الذي تنتجه العائلات اللبنانية من أشجار الزيتون التي تملكها، وبعد اكتمال تصنيع الصابون ينقش اسم العائلة على الألواح باللغة العربية أو غيره من الكلمات والرموز دلالة على نوعية الزيت المستخدم ومهارة صانع الصابون أو وصفته السريّة، بعدها تباع ألواح صابون زيت الزيتون في المتاجر الصغيرة أو الأسواق الحرفية الموجودة في أرجاء لبنان.

المنجد، المبيّض، الكوى، المجبر العربي، الكندرجي، الفاخوري(صناعة الفخار)، صناعة الزجاجيات، صناعة السكاكين، صناعة السفن... هذه الحرف يعود أغلبها الى أكثر من مئة عام، بعضها ما زال صامداً في وجه التطور الصناعي الذي أحدث زلزالاً في التطور الحاصل وقاوم الحرفيون العاملون في هذه الحرف، على الرغم من تراجع الإقبال عليه... فالتّجديد ما زال يمارس في أكثر المناطق اللبنانية وخاصة في صيدا القديمة (سوق البازركان).

الحرف التي قاومت ما زال بعضها كالمنجد والكوى يثابران على العطاء والممارسة، وهم الذين علّموا أبناءهم من إنتاج محلات قديمة يفوق عمرها مئات السنين، تتبعثر في بعضها أكوام الصوف تحت ضربات المنجد، ولم يتعب أصحابها، أو أبناؤهم الذين ورثوا المهنة أو يكلوا رغم تراجع وتيرتها.

هؤلاء الحرفيون تابعوا بعض التطورات التي حصلت في مجال عملهم، ويستمررون، وهذا يؤكد مدى عمق العلاقة التي تربطهم بهذه الحرف المستمرة في أحلك الظروف.

1 - التّجديد حرفة يدوية قديمة، عمرها مئات السنين، ترتكز على القطن والصّوف والقماش المصنّع منهما، والخيط المبروم والمصنوع من القطن الصّافي، إضافة الى الإبرة و«الكشتبان» والشمع العسلي، ازدهرت في لبنان في ستينيات القرن الماضي واقتصر روادها على الأغنياء.

اليوم فقدت هذه الحرفة بريقها وباتت تعاني من صعوبات متعدّدة، وكما قال أحد المنجدين العاملين في صيدا القديمة: «مهنّتنا اليوم أضحت تحفة، حيث بات يوم محلاتنا بعض الفقراء الذين لا يتمكنون من تجديد لوازمهم». إذًا شارفت على الزوال، بعد أن كان يقصدها في الماضي العرسان ويطلبون من المنجد الدّهاب الى المنازل لينجز جهاز العروس. وهكذا تكون حرفة التّجديد قد أضحت في طريقها الى الدّوبان في عصرنة الواقع.

أحد المنجدين في صيدا القديمة عندما سألته عن المهنة وإمكانية استمرارها أجاب: «رزق الله ع إيام العز، لم نكن نهدأ أو نتوقف عن العمل وأكثر الأحيان نستمر حتى ساعات متأخرة من الليل. بينما اليوم نعمل بالقطارة، كنا نتنافس مع بعضنا بطبيعة العمل والتّفنن به، ومعاملة الزبائن».

سلال القصب: لقد دَوّن اللّبنانيون أسرار مهنٍ وحياة مجتمعيّ، واليوم وبعد ثورة العصرنة، باتوا على هامش الحياة العملية. ومن بين هذه الحرف، حرفة صناعة سلال القصب المهدة بالانقراض، وقد انتشرت كثيرًا في جنوب لبنان. فكانت ملاذ الفلاح والصّناعيّ وربة المنزل، ومن بين الأماكن التي انتشرت فيها بلدة كفرنا في منطقة صيدا.

الحرفيّ الذي يعمل في صناعة السّلال يمضي معظم وقته يحبك أحجية القصب التي تتحوّل في خلال بعض الوقت الى سلة تُركن في زاوية من المنزل أو في محلّ تجاريّ في القرية، تنتظر من يشتريها.

تمرّ هذه الصّناعة بعدة مراحل. تبدأ بشراء القصب الذي يلبّن بالماء، بعدها يقشّر ويقطّع نسلات متطابقة، ومن ثم ينطلق الجرفي الى تركيب البدوة التي تمثّل قاعدة السّلة، ثم يتابع فيشبك القضيب ويجدله بنسلات مفسّخة من القصب الطويل المنقوع من القاعدة والمورّع بتباعد متساوٍ، وبعد تحديد الارتفاع والإتساع المطلوبين، تُشبك وتُجدل المسكة العريضة التي تشير الى انتهاء إنجاز العمل.

هذه الصّناعة كانت مطلوبة منذ ما يزيد على نصف قرن وفي هذه الأيام باتت سلة القصب تحفة فنية تزيّن بها المنازل، الأمر الذي أدى الى تراجع الحرفة، وبدأت تطول رحيلها تُقرع.

2 - صناعة السكاكين في مدينة جزين:

تتميز بلدة جزين بحرفة تصنيع السيوف والسكاكين والخناجر، وغيرها من أدوات تناول الطعام التي تصنع مقابضها من قرون المواشي. كما يتم أيضاً تصنيع «علاقات» المفاتيح، سكاكين فتح الرسائل، «فتاحات القناني»، وجميع أشكال الحفر على القرن و«الستانلس».

بدأت هذه الحرفة منذ العام (1700) عبر الحفر على أغصان الأشجار المقطوعة، وأنواع الطيور التي تتواجد في الطبيعة. وبعد عقد أو عقدين تم استبدال المقابض الخشبية العادية للسكاكين والخناجر، بالمقابض المحفورة على شكل طيور. وبعدها بمدة اعتمدت القرون المحفورة كبديل للخشب، وهي فكرة ما زالت إلى اليوم أساس هذه الحرفة وميزتها، كتحة رائعة.

يقطع الحرفي الجزء الفارغ من القرن، ثم يمسكه بواسطة الملقط، ويقبّله على النار حتى يتجمّر ويلين ويصبح قابلاً للتقويم، فيقوم بتثبيته «بالملمزة» ليقومه بواسطة المطرقة، وتُزال الزوائد بواسطة المنجل.

يكون الحفر بواسطة المبارد، فيتم حفر رأس البطة، وإعطائها الشكل المطلوب، بعدها يُستخدم منشار «التشريك» لتسوية مكان الجانحين حتى يلتصقا بالقرن، من ثم يستخدم الحرفي منشار «التطعيم» على «ظهر» القرن/الطائر، لإفساح المكان لاستدخال وتثبيت قطع من النحاس أو الألومنيوم بواسطة المطرقة. وبعد ذلك يتقّب الطرف الأسفل من القرن (الموازي لرأس البطة)، ثم يصهر قليلاً من القصدير ويصبه ساخناً داخله، ويدخل أداة الطعام التي يريد وضع مقبض لها. هذه الأدوات تُستورد من إيطاليا ولها شكل خاص، حيث حلّ محلّ القبضة القديمة، قبضة تحتوي على زرّدة طولها (5 سم) تسمح بتثبيتها بالمقبض الجديد.

بعد ذلك يقوم بنقش الجوانح وباقي أجزاء المقبض، وتطعيمها بالنحاس أو الذهب، والأحجار الكريمة، فيرصعها ويزخرفها برسوم وأشكال مبتكرة.

وأحياناً تشارك النساء بهذا الجزء من العمل، حيث يقمن بنقش وزخرفة القرن، قبل أن يسلمنه للحرفي الذي يقوم بتلميعه النهائي. وتوضّب المنتوجات في علب خشبية

مرصعة، ومبطنة من الداخل بالمخمل.

تتخطى كل حرفة أهمية البعد الاقتصادي، لتطال البعد الثقافيّ تحديداً، حيث تشكّل واسطة تنقل مخزون الذاكرة والتراث إلى الأجيال اللاحقة، هي نبض الهوية وبعدها الحضاريّ في واقع العالم اليوم، حيث تتلاطم الثقافات ولا تتلاقح، وحيث يتم التثاقف عبر القسر والإكراه، فلا بد من التمسك بهذا المخزون لحماية الحاضر والمستقبل.

تتوارث هذه الحرفة أباً عن جد، لكنّها ليست حكراً على عائلة محدّدة في جزين قدر ما هي تميّز خاص للمدينة نفسها. كان الكبار يعلمون الصغار أصول الحرفة وفنونها، ويترك لهم المجال لتطويرها وابتكار أشكال فنيّة جديدة ومختلفة.

إنّ التحليل الأنثروبولوجي للصناعات الحرفيّة يوضّح دورها ووظيفتها، كما يوضّح العلاقة الجدليّة المتبادلة بينها وبين الإطار الثقافيّ العام في المجتمع. فالحرفيّ الفنان يكتشف في الشّيء الذي أنتجه، ليس مجرد وسيلة عمليّة فحسب، بل شهادة لقيامه بفعل خلاق. وهذا يتوضّح بطريقة تعاطي الحرفيّ مع منتجته بعد انتهائه منه. اليوم تعثّرت هذه الحرفة وانقرضت وأصبحت ذكرى من الماضي.

3- الفخار والخزف

الفخار هو عبارة عن مفهوم يُطلق على الأدوات والأواني التي تُصنّع من الطين، ويستخدم النار في تشكيلها، ويُعدّ تصنيع الفخار من أقدم المهن التقليديّة. يُعرّف بأنّه فنّ صناعة الخزف؛ حيث يُطلق على إنتاج الموادّ الفخاريّة مسمّى الأعمال الخزفيّة.

صناعة الفخار من الصناعات القديمة، التي تعتمد على رسم التصميم الخاصّ بقطعة الفخار قبل البدء بصناعتها، وتُستخدَم مادّةٌ أساسيّةٌ في هذه الصناعة وهي الطين؛ وفيما يأتي الخطوات الرئيسيّة التي تُطبّق أثناء تنفيذها:

- **خاط الطين:** يُعدّ خاط الطين الخطوة الأولى من خطوات صناعة الفخار، ويعتمد على ترطيب الطين؛ عن طريق إضافة الماء إليه في أثناء وجوده في خزانٍ مناسبٍ للخلط، وتستمرّ هذه العمليّة حتّى يُصبح الطين قابلاً للتشكيل، وذلك بعد أن يتوزّع الماء الذي يشكّل نسبة 30% منه.
- **بضعط الطين** باستخدام المرشحات والفلاتر، التي تسهم في التخلّص من الماء

الزائد منه قبل وضعه على الطّاحونة الخاصّة ببدء العمل على صناعة الفخّار، حيث تحتوي أسطوانة يُثبّت عليها الطّين، ومن ثمّ تبدأ الدّوران حتّى يتمكّن صانع الفخّار من تشكيله بطريقةٍ صحيحةٍ.

- النّجّوف هو الخطوة التي يستخدم فيها صانع الفخّار يديّه في تشكيل عمق الأواني الفخّاريّة، أو قد يستعين بآلةٍ خاصّةٍ بتجّوف الفخّار، تُساعده على صناعة الأواني المُجوّفة، مثل: المزهريّات، أمّا تطبيق هذه الخطوة فيعتمد على لفّ الأسطوانة بالتزامن مع لفّ الطّين الرّطب الموجود عليها، ويستمرّ تشكيل جوف المزهرية حتّى يصل الصّانع إلى حجمها المطلوب، وقد تُستخدَم قوالب جاهزة تُساعد على تجّوف المزهريات بطريقةٍ سهلةٍ، وسريعةٍ، ودقيقةٍ في آنٍ معاً، قبل البدء بتجهيزها لتطبيق الخطوات اللاحقة.
- الصبّ هو صبّ الفخّار في قوالب من الجصّ أي الجبس، وهذا يزيد متانة الفخّار وجفافه؛ لأنّ الجبس يمتصّ بقايا الماء الموجودة في مكّونات الطّين، والتي لم تجفّ بعد، وقد يحتوي قالب الجبس على مجموعةٍ من الأشكال والرّخارف التي تُستخدم في تزيين الفخّار، فتظهر على الطبقة الخارجيّة له، وتضيف الشّكل الجميل إليه.
- التّزجيج: التّزجيج هو الخطوة قبل الأخيرة في صناعة الفخّار، وتعتمد على التأكّد من جفافه نهائيّاً؛ استعداداً لاستخدام الألوان، لإضافة الطلاء إليه، وقد يُستخدَم في ذلك لون واحد أو خليط من الألوان، ممّا يزيد القطعة تميّزاً وجمالاً، ويُستخدَم أسلوب رشّ الطلاء غالباً؛ فهو يضيف بعض الأشكال إلى الفخّار في حال لم تُستخدَم أيّة نقوشٍ أو زخارف على السّطح الخارجيّ للقطعة، أثناء وجودها في قالب الجصّ.
- الحرق هو الخطوة الأخيرة من خطوات صناعة الفخّار، وتُستخدَم فيها أفران الفحم، أو الخشب، أو الكهرباء؛ لتعريض الفخّار لأكبر درجة حرارةٍ مُمكنةٍ؛ بحيث تساهم في تجفيفه، وتجفيف الطلاء الموجود عليه ضمن طبقاته الخارجيّة والداخليّة كلّها، وبعد التأكّد من جفاف الفخّار تماماً، عندها يصبح جاهزاً للاستخدام وفقاً للشّيء الذي صنّع له.

مكوّنات الفخار: أهم مكوّنات صنع الفخار ما يلي:

- الكاولين: مادة تتكوّن بشكل أساسي من سيليكات الألمنيوم الرطب، ولها استخدامات واسعة في الصناعة، وتتسكّل بطريقتين؛ جافة ورطبة، وتكون جودة المنتجات في الطريقة الرطبة أعلى؛ هذا وتستخدم الطريقة الجافة في صناعة المطاط، أمّا الطريقة الرطبة فتستخدم في صناعة الورق.

تاريخ صناعة الفخار:

يتعدّد تحديد تاريخ ظهور صناعة الخزف بدقّة، فمنذ أن اكتشف الإنسان خصائص الطين وأدرك أنّ بإمكانه أن يقول به بيده ويجعله صلّباً على النار، بدأت صناعة الخزف وكانت بشكل بدائي، ولبنان غنيّ بهذه المادّة التي تكون سمراء أو صفراوية أو مائلة إلى الرماديّ، وتوجد في السّاحل و في الجبل.

عاصرت هذه الصّناعة تاريخياً مجموعةً من المراحل الزمنية، ومن أهمّها:

- مرحلة ما قبل التّاريخ: يعود تاريخ صناعة الفخار إلى العصر الحجريّ الحديث، الذي ظهرت فيه العديد من الصناعات الفخاريّة، واستخدمها الإنسان في ذلك الوقت في مجال إعداد الطّعام وحفظه، وقد اهتمّ الخزّافون في اليونان القديمة ومنطقة بحر إيجه بصناعة الفخار ذي اللون الأحمر، مع التّركيز على استخدام مجموعةٍ من الأشكال والرّخارف المتنوّعة التي ارتبطت بتراث تلك الحِقبة الزّمنيّة.
- ظهرت عدّة أوانٍ فخاريّة في العصر البرونزيّ، حيث كانت عبارة عن تماثيلٍ لزيّنة السفن والمراكب البحريّة، وفي منتصف هذا العصر أسهم الإغريق في وضع أسس المدارس الأولى لصناعة الفخار؛ خاصّةً في المباني والقصور التي شهدت العديد من الأعمال التي استُخدم الفخار فيها بشكل رئيسيّ؛ من أجل إضافة ذلك النّصميم الفريد لها.
- شهدت صناعة الفخار تطوُّراً ملحوظاً في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ حيث أُدخل الرّجاج والرّصاص في صناعته؛ لزيادة صلابة قطعة الفخار، بالإضافة إلى الشّكل الجميل واللّون المناسب اللّذين يُضفيهما الرّجاج؛ خاصّةً إذا خلط مع الطين في الطبقات الخارجيّة.

- المرحلة الإسلامية شهدت صناعة الفخار في العهد الإسلامي في كل من: مصر، وبلاد الشام، وبلاد الرافدين، ومناطق الأناضول منافسة ملحوظة مع المناطق الغربية والأوروبية في صناعته، وتحديدًا في الفترة الزمنية الواقعة بين القرنين التاسع والثالث عشر للميلاد؛ إذ ظهر تأثير الفنون الإسلامية على صناعة الفخار الذي تميّز بحرفية عالية، وجودة لا تُقارن مع الفخار المصنوع في البلاد الأخرى، وانتشرت الأواني الفخارية في العديد من القصور، والمعالم التاريخية الإسلامية؛ ففي عهد الخلافة الأموية انتشرت الزينة التي تعتمد الفخار في القصور الدمشقية.
- انتشرت الأواني الفخارية بكثرة في عهد الخلافة العباسية؛ حيث استُعين في صناعتها بالأنماط الهندسية المتنوعة، ولكن اقتصر استعمالها على الأدوات، والمواد الخاصة بالطعام والماء، وأسهم الخزافون المسلمون في ابتكار العديد من الصناعات الفخارية التي استعان بها الشعوب الأخرى في أعمال الفخار، ما أدى إلى انتشارها في معظم أنحاء العالم.
- مرحلة العصر الحديث مرحلة العصر الحديث هي المرحلة التي تمتد من القرن الثامن عشر للميلاد إلى الوقت الحاضر، وشهدت صناعة الفخار فيها تطورًا ملحوظًا؛ وخصوصًا في قارة أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، وكافة أنحاء العالم عمومًا؛ إذ ظهرت العديد من المصانع المتخصصة في صناعة الفخار، كما استُخدمت مجموعة من الأدوات والوسائل التي ساهمت في تطوّر هذه الصناعة، وزيادة الإنتاج الخاص بها في أغلب الدول.

وعلى الصعيد اللبناني:

تشتهر قرية (بيت شباب) الواقعة على بعد 20 كلم من بيروت باستمرار حرفة عرفت ازدهارًا طويلًا فيما مضى إذ لا تزال عائلة من الحرفيين تصنع جرارًا بارتفاع متر كانت تستخدم قديمًا لحفظ الزيت والزيتون والخلّ والعرق، وفي جنوب لبنان وعلى مسافة 70 كلم من صيدا تقع بلدة راشيا الفخار التي نجد فيها أباريق من الفخار تحمل رسومًا هندسية درج اقتناؤها في المنازل لتبريد المياه.

4-المراكب الخشبية

راجت هذه الصنائة في مدينتي صيدا وصور، وهي تشكّل ركن الصنائة البحرية التي تعود الى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. بدأت هذه الحرفة في صيدا بمواصفات فينيقيّة، حيث كان المركب يتخذ شكلاً مقدّمته رأس ورقبة حصان وفي الخلق ذنب حورية بحر. وقد مثّلت في الماضي الأساس الاقتصاديّ للأسر التي تمارس العمل فيها، واليوم تحاول أن تصمد في وجه هجمة النّطّور، وغياب الراعي لها. ولكن دون جدوى في ظل الإحجام عنها وندرة العاملين فيها وارتفاع أسعار المواد الأولية التي تستخدم فيها.

5-الكندرجي

على مدخل سوق اللّحم في النّبطيّة، وفي إحدى زواياه توجد «مستشفى الاحذية» التي يجلس في داخلها «كندرجي» خلف ماكينته، يداوي أمراض الأحذية التي تتمثّل بخلع وتغيير كعب حذاء، وتبديل سحاب محفظة وخياطة مزق وتركيب نصف نعل وغيرها من الأعطال الطارئة.

انخفض عدد الذين يمارسون هذه المهنة في المدينة، بل هذه الحرفة التي تختزل تاريخ النّبطيّة التي كانت مقصد النّجار للتّبادل التجاريّ في القرن العشرين. وكان حي السراي معقل العاملين فيها، ونتاجها كان تصدر الى خارج المدينة.

في الوقت الحاضر تحولت هذه الحرفة الى مهنة الفقير الذي يعمل طيلة النهار لتأمين متطلبات حياته الاسرية، ولكن تدهور الاقتصاد اللّبنانيّ وارتفاع أسعار السلع، دفع النّاس للبحث عن قديمهم وإعادة تصليحة، وهذا ما أعاد بعض الرّوح إليها.

الواقع القانونيّ للحرف اللّبنانيّة:

تحركت جمعية «نحن» ساعية لإقرار قانون يحمي الحرفيين ويحفظ حقوقهم، وجالت على المسؤولين، وأطلقت حملة واسعة لتسليط الضّوء على واقع الحرفيين في لبنان، والحفاظ على الحرف اللّبنانيّة من الإندثار، لا سيما أنها قادرة على تأدية دور اقتصاديّ مهم.

وبداية قامت بوضع تعريف واضح للحرفيّ وهو: «الشخص الذي يعمل يدويّاً لتحويل مادة خام الى منتج نهائيّ، على أن يكون هذا المنتج مرتبطاً بالإرث الثقافيّ، ويحمل

لمسة إبداعية»، ومن ثم وضعت معايير تُحدد عمله. كما سعت إلى المطالبة بتغيير نظرة الدولة إليه، وربط العمل الحرفي بوزارة الصناعة لتكون وصية عليه، مع دور أساسي لوزارات الثقافة والسياحة والشؤون الاجتماعية والعمل والاقتصاد والتربية وحتى البلديات. والأهم حماية الحرفيين وإدخالهم في الضمان الاجتماعي، وحماية عملهم من خلال رفع الرسوم الجمركية على البضائع المماثلة، بغية عدم إغراق السوق المحلي بها، للحفاظ على قيمة العمل الحرفي وإبعاد المنافسة عن السوق. وتخفيض الضرائب على المواد الأولية المستخدمة .

العمل الحرفي والاقتصاد:

الحالة الاقتصادية والمعيشية للحرفي تؤثر في مدى إبداعه وعطائه وإتقانه للعمل. فبعض الحرفيين لا يزال يقوم بالأعمال الموروثة نفسها بأدواتها وموادها وطريقة الصنع وإنتاجها القليل، رغم المردود المادي المحدود. يبررون ذلك بعامل الإعتياد وملء الوقت بعمل منتج ولو كان يسيراً. وهذا مقترن بالمحافظة على الوظيفة والدور الاجتماعي. وبذلك تكون الحرفة هي انتماء ثقافي اجتماعي وليست للكسب وحسب.

و حرف اليوم المتبقية لا تزال بإطارها التقليدي الشعبي كما ورثها الأبناء عن الآباء، ومن ثم عن الأجداد. وهل هناك إبداع وتصنيع أم تركيب وضع على مثال معين؟ وأي تغيير حصل كمياً ونوعياً في إطار المادة والأداة وطريقة الصنع؟ هل تغير الحرفي وهل لديه الاستعداد لتقبل الجديد وتحديث حرفته؟ وهل من تغيير حصل من داخل الحرفة؟ وهل للعناصر الوافدة أهمية في تطوير وإغناء الحرفة؟

الإجابة على هذه الاسئلة يوضح الواقع الاقتصادي لأصحاب الحرف الصّامدة في وجه أعاصير الالغاء، وما يبين ذلك بوضوح هو السوق الذي يعدّ عاملاً مساعداً في استمرار الحرفة ونموها، لأن العلاقة بين السوق والحرفة مهمة. فالحرفي بدأ بإنتاج فردي ليفي بحاجاته الخاصة، ليصبح حرفي القرية وبعدها حرفي المنطقة، وهكذا بدأ الاتّساع من الخاص إلى العام. والأرجح أن لكل مجموعة سكانية حرفيينها، ثم لاحقاً بدأ الاختصاص في بعض القرى، وهذا ما حصل في راشيا الفخار وفي جزين وغيرها.

مع وجود السوق اتّسعت دائرة الاستهلاك، ودائرة التبادل، فزاد الإنتاج ثم الخروج عن

الدائرة الأولى في الإنتاج، بما يعرف «بالتوصاية» أي الطلب المسبق لإنتاج السلعة إلى مبدأ التراكم ومن دون طلب مسبق.

والتكامل الاقتصادي القديم القائم على أسواق موزعة طيلة أيام الأسبوع، تتمم بعضها البعض بشكل تكاملي في سلسلة من مجموعة حلقات:

ثم مع تغير الطابع القديم للسوق، تعددت الأسواق بعد أن كانت قليلة العدد. وأصبحت معظم القرى تقيم أسواقها الخاصة. ومع سهولة التّواصل بين المناطق والمدن، اتّسع هامش الاستبدال. وتم استيراد سلع مثيلة للإنتاج المحلي أو سلع تحل محلّها وظيفياً.

الخاتمة

في الغرب يشجّعون الحرف ويدعمون العاملين فيها، بينما في لبنان الحرفة باتت في الحضيض، والعمل الحرفي أصبح مقيداً بثلاثة معوّقات أساسية حيث لا تعريف واضحاً لماهيته، ولا معايير له، إضافة الى نظرة الدولة التّهميشية له وغياب القوانين التي تشكل إطاره الشرعي. وقد أدى هذا التّهميش مع الوقت الى اندثار حرف كثيرة من لبنان وانقراض المهارات التي كانت ترافقها بدل تمريرها الى الأجيال المقبلة.

معاناة الحرفيين تذهب أبعد من التّسميات والمعايير فهم في الواقع لا يملكون أي ضمان صحيّ أو اجتماعي، كونهم أفراداً لا مصانع، وليسوا قادرين على التّصدير بشكل شرعي، لأنهم لا يملكون شهادة منشأ وتقرض عليهم ضرائب عالية، إذا ما قاموا بتسجيل مؤسساتهم لذا فإنّ العديدين منهم يعملون في السّر ولا يصرّحون عن أشغالهم. أمّا الحماية الجمركية فغائبة كلياً في حين أنّه في الدّول الأخرى تقرض ضرائب باهظة على البضائع الحرفية التي يتم إدخالها الى البلد حين يكون هناك بضائع حرفية شبيهة لها في البلد. والمؤلم في الأمر أنّ لبنان الذي كان قد خصّص معلماً هندسياً رائعاً في منطقة عين المريسة هو «بيت المحترف اللبناني» عاد في زمن الانحطاط وحول هذا المعلم الى مطاعم ولم يترك إلا جزءاً يسيراً منه للحرفيين، أما مطار بيروت الذي كان يحوي أكثر من 40 محلاً حرفياً فلم يعد فيه اليوم إلا بضعة محلات فيما سوق جبيل القديم باتت معظم بضائعه «تقليدية» مستوردة من الخارج.

المراجع

- ابن منظور (ب، ت): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، المجلد الثامن.
- اعتماد علام: **الحرف والصناعات التقليدية بين الثبات والتغير**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991.
- رحيل دندش، **الصناعات الحرفية والإبداعية: قطاع** "غير قانوني" مهّد الزوال 2021.
- فريدريك معتوق: **الحرفيون في لبنان واقع وفاق**، اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية. والعلم والثقافة (اليونيسكو)، بيروت، 2002.
- قانون العمل اللبناني: **المجلة القضائية، قوانين العمل والعمال**، دار المنشورات الحقوقية، مطبعة صادر، بيروت، 200 www.saidanet.com

Promotion «Corona» : la gageure de la distance


DR. Fatima khaled elDamaj

Résumé

Entre 2019 et 2022, avec l'éruption de la Covid19, l'Université Libanaise adopte l'enseignement en ligne. Durant ces trois ans, une promotion à la faculté de pédagogie, que nous baptisons la « promotion corona », est sur le point d'achever son cursus universitaire et elle s'apprête à exercer dans l'enseignement scolaire. L'objectif de notre étude se veut une réflexion sur les apports et les écueils de la formation initiale des futurs enseignants au temps de la crise pour voir dans quelle mesure la formation ainsi dispensée a répondu aux exigences de l'enseignement « après corona ». Le questionnaire adressé à 41 étudiantes de la faculté de pédagogie– section 1– département de français, et analysant le ressenti durant trois années, montre que celles-ci se sont vite adaptées à l'enseignement en ligne qu'elles préfèrent à l'enseignement en présentiel. Ce questionnaire est complété par un focus groupe qui porte sur le contenu de la formation et le degré de maîtrise des méthodes d'enseignements propres aux différentes modalités d'enseignement. Les résultats soulignent l'inquiétude des stagiaires dues aux compétences requises pour réussir dans le métier, notamment la créativité et aux enjeux de l'enseignement en ligne dans le cycle maternel et primaire. Les étudiantes craignent ne pas être aptes à motiver les élèves, à interagir avec eux. Pour certaines, il s'agit d'un défi qu'elles ne sont pas sûres de pouvoir surmonter.

Introduction

En 2019, les jeunes libanais, titulaires d'un baccalauréat, s'apprêtaient à intégrer la vie universitaire. Ils furent assaillis par les événements du 17 octobre : fermeture, cours entrecoupés, absences... Les cours à l'Université Libanaise, notamment à la faculté de pédagogie à Beyrouth étaient difficiles à assurer en présentiel. En mars 2020, avec l'éruption de la Covid 19, ce fut le basculement total. De manière inopinée, l'UL avait à assurer des cours en ligne ou à distance et par conséquent, personne n'était prêt à ce tournant radical. Pourtant, il fallait agir. Pour ce, dans le but de sauver les années universitaires consécutives, l'université a eu recours à la plateforme Teams. Trois années se sont écoulées... et une promotion, la première « promotion corona » achèvera son cursus à la faculté de pédagogie et se préparera à exercer le métier d'enseignement. Cette expérience inédite mériterait une réflexion sur les apports et les écueils de l'enseignement à distance dans l'enseignement supérieur pour voir dans quelle mesure la formation initiale de cette promotion a répondu aux exigences de l'enseignement « après corona ». Les étudiants sont-ils prêts à enseigner en différentes modalités (en ligne, en mode hybride, en présentiel) ? Comment cette promotion appréhende-t-elle son futur professionnel ? Quelle transposition fera-t-elle dans les salles de classe d'après son expérience et quelle amélioration apportera-t-elle ? L'hypothèse de travail qui guide notre travail est que la formation initiale de cette promotion appellerait une remise en question pour être mieux adaptée aux défis du métier d'enseignement scolaire.



Dans une tentative de répondre à ces questions, notre travail s'articulera autour de deux axes. Nous présenterons d'abord le contexte de l'étude en présentant la faculté de pédagogie et en dressant l'état des lieux de la branche de Beyrouth ; nous circonscribons la recherche dans son cadre conceptuel. Par la suite, nous donnerons la parole aux étudiantes en troisième année- spécialité français- pour analyser de près leur ressenti et le contenu de la formation initiale suivie à travers un questionnaire. Ce dernier sera complété par un focus groupe qui approfondira la réflexion sur les expériences vécues dans leur diversité et contribuera à lancer en dernier lieu des perspectives.

1. Contexte de la recherche

1.1 La Faculté de Pédagogie

Considérée comme la faculté-mère de l'Université Libanaise, la faculté de Pédagogie (FP) fut créée en 1951 et désignée dans un premier temps par l'Ecole Normale Supérieure. Elle était destinée à former des enseignants du secondaire Ce n'est qu'en 1967 qu'elle fut baptisée « Faculté de Pédagogie », « suite à une nouvelle définition de ses fonctions ».

Sa mission est d'assurer la formation initiale des enseignants du pré-primaire (Éducation de la petite enfance¹) et du primaire (de CP à la 6^{ème}).

La faculté adopte le système LMD depuis 2008 : suite à 3 années universitaires, elle délivre des licences d'enseignement

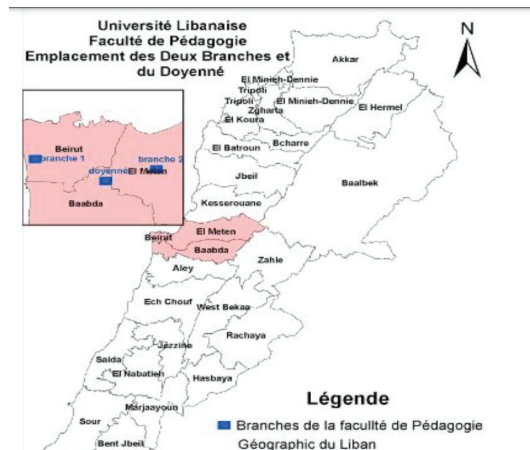
(1) L'appellation de « Éducation de la petite enfance » (EPE) s'aligne avec les normes internationales de l'UNESCO pour l'éducation des enfants de 0 à 8 ans.


pour l'enseignement de base en langue arabe- anglaise- française, en sciences, en maths, en sciences sociales et en éducation de la petite enfance et des licences en éducation physique, musicale et artistique.

Selon le site officiel de l'Université Libanaise, elle accueille actuellement 2700 étudiants environ, répartis sur 2 sections en plus du doyenné.

La section I se situe à Beyrouth, rue Beethoven. Elle accueille des étudiants qui viennent de différents cazas et de différentes régions (Beyrouth- Chouf- Aley- Akkar- Saida- Bekaa).et la section II se situe à New Rawda, près du quartier arménien. Certains d'entres eux louent des foyers et d'autres font le trajet tous les jours.

Pour les études supérieures, en master professionnel d'enseignement et en master de recherche d'enseignement, elles se font/ elles sont dispensées au doyenné, à Furn el Chebak.





1.2 Le cursus universitaire pour deux spécialités : licence d'enseignement pour l'enseignement de base en français et en éducation de la petite enfance

Une fois admis à la faculté de pédagogie (Après un examen d'entrée), les futurs enseignants suivent parallèlement une formation disciplinaire et une formation pédagogique : la première leur permet une meilleure maîtrise de la discipline et la seconde leur fait acquérir une culture professionnelle en leur proposant des cours sur l'évolution de la pensée pédagogique, la psychologie du développement... Soit noté au passage que ces cours en pédagogie sont en général dispensés en arabe –langue maternelle.

En outre, les étudiants réalisent un stage à partir de la deuxième année universitaire, à raison de 60 h/ par semestre. Deux journées de la semaine lui sont réservées et se font dans les écoles publiques et privées et c'est une occasion pour les étudiants de faire une immersion complète dans le milieu professionnel : Au troisième semestre, ils font des observations de classe et vont progressivement au semestre 4 vers l'accompagnement des enseignants dans les classes pour arriver enfin à faire des prestations durant lesquelles il prend en charge l'entière responsabilité d'une classe.

Par souci de clarté, nous exposerons sous forme de tableau le curriculum des deux spécialités qui forment notre échantillon, à savoir celui l'enseignement de base en français et celui de l'éducation de la petite enfance.


Curriculum – enseignement en français	Curriculum – éducation de la petite enfance
Première année	
Semestre 1	
Evolution de la pensée pédagogique	Evolution de la pensée pédagogique
Recherche documentaire	Recherche documentaire
Statistique descriptive	Statistique descriptive
Psychologie du développement	Psychologie du développement
Initiation à l'informatique	Initiation à l'informatique
Le français de la classe	Introduction à l'éducation de la petite enfance
Atelier d'écriture et d'expression orale	Chansons et comptines
Genres textuels I	Atelier créatif
	Social studies activities
Semestre 2	
Psychologie de l'apprentissage	Psychologie de l'apprentissage
Curricula	Curricula
Droits de l'homme	Droits de l'homme
Langues de l'enseignement	Langues de l'enseignement
Genres textuels 2	Activités psychomotrices
Atelier artistique phonétique et phonologie	Activités des sciences
Introduction à l'enseignement de la langue française	Education rythmique
Dimension interculturelle du français	Santé et nutrition
	Activités des mathématiques
Deuxième année	

Semestre 3	
cours optionnel 1	cours optionnel 1
cours optionnel 2	Psychologie de la petite enfance
Observation de classe	Observation de classe
morphologie et syntaxe	Enseignement des Sciences de l'éducation de la petite enfance
enseignement de la compréhension orale et écrite	Activités de langue étrangère
gestion de classe	Gestion de classe
Education à la citoyenneté	Atelier et théâtre de marionnettes
Techniques d'expression	Techniques d'expression
Semestre 4	
curriculum de la langue française	Activités de la langue arabe
enseignement de la communication orale et écrite	Curricula de la petite enfance
sociologie de l'éducation	Garde de la petite enfance
cours optionnel 4	Danse et expression corporelle
évaluation de l'apprentissage	Evaluation de l'apprentissage
pratique de classe 1	Pratique de classe 1
cours optionnel 5	Cours optionnel 2
éducation de la santé	Psychologie du jeu
cours optionnel 6	Cours optionnel 3
Troisième année	
Technologie de l'enseignement	Technologie de l'enseignement
	Sociologie de l'éducation
Cours optionnel 7	Education des enfants à besoins spécifiques
Littérature juvénile	Cours optionnel 4

Sémantique et pragmatique	Education environnementale
Cours optionnel	Enseignement des mathématiques dans l'éducation de la petite enfance
Pratique de classe 2	Pratique de classe 2
Evaluation de la langue française	Gestion des programmes de la petite enfance
Recherche action 1	Recherche action 1
Semestre 6	
Education à la citoyenneté	Education à la citoyenneté
Cours optionnel 8	Evaluation du développement de l'enfant
Cours optionnel 9	Cours optionnel 5
Education des enfants à besoins spécifiques	Education des enfants à besoins spécifiques
Recherche action 2	Recherche action 2
Système éducatif libanais	Système éducatif libanais
Cours libre	Cours libre
	Legislations de la petite enfance
	Littérature de la petite enfance

Le programme est ainsi organisé autour de trois domaines spécifiques de formation à savoir la pédagogie, la didactique, la recherche (visant à développer la réflexivité et des compétences de recherche chez les futurs enseignants).

Pour les matières en rapport avec le numérique, nous remarquons que les étudiants suivent une matière en première année « initiation à l'informatique » et une autre en 3e année « technologie de l'enseignement » : c'est une présence timide dans un cursus qui s'étale sur 3 années. Le premier cours est particulièrement centré sur Microsoft : les étudiants approfondissent leur connaissance



en Word, en PowerPoint et en Excel. En revanche, le 2^e module lie en partie les outils technologiques à l'enseignement : les étudiants apprennent à préparer des activités sur PowerPoint pour les travailler en classe et ils apprennent également comment créer un website (e-portfolio pour poster les rapports de stage essentiellement).

Ce point sera approfondi davantage dans la suite du travail.

Problématique

2.1 Etat des lieux entre 2019–2022

En 2019, l'année universitaire démarre en octobre sous les acclamations des manifestants : en réaction contre les mesures fiscales annoncées par le gouvernement libanais, des manifestants sont descendus dans la rue : manifestations, grèves, barrages de routes se poursuivent jusqu'en février : le rythme du travail était souvent irrégulier et le taux d'absence, élevé. Dans ce contexte instable, l'Université Libanaise ne disposait pas d'un système LMS (learning management system comme Moodle) ou d'une plateforme pour pallier ce problème et assurer la continuité pédagogique. Malgré le dysfonctionnement dans différentes facultés, l'UL n'a envisagé aucune solution/ issue bien que les événements persistaient et que la crise économique s'aggravait de jour en jour.


Ce n'est qu'avec l'éruption de la pandémie en mars 2020 que l'UL ferme ses portes et qu'elle passe à une modalité inédite pour elle, comme pour la majorité des institutions éducatives, à savoir, l'enseignement en ligne. Après un mois de suspension des cours, l'UL recourt à la plateforme Teams et forme le cadre/

le corps enseignant à son utilisation. Mais comme le note El Hage dans son étude, la plupart des enseignants n'était pas préparée à franchir le pas vers cette nouvelle forme d'enseignement et à s'adapter aux nouvelles modalités (2020). C'est pourquoi, une partie d'entre eux a préféré donner des cours aux étudiants via WhatsApp et mail. (A travers l'envoi de documents et de vidéos).

Bref, au cours de l'année universitaire 2019–2020, les cours se sont déroulés à distance mais les examens du premier et du deuxième semestres se sont passés en présentiel durant le mois d'août, malgré toutes les catastrophes qui se poursuivaient dans le pays, notamment l'explosion du port le 4 aout.

L'année d'après (2020–2021) s'annonça de plus en plus difficile sur le plan sanitaire et tous les cours à la faculté de pédagogie ont été dispensés en ligne via la plateforme Teams et la majorité des enseignants universitaires ont fini par l'adopter. Encore une fois, les étudiants ne se sont rendus au local de la faculté que pour présenter les examens finaux. En effet, même durant les périodes de déconfinement et le retour des élèves aux écoles, il n'était pas envisageable de faire venir des étudiants en présentiel : l'une des contraintes fut la distance sociale qui ne pouvait être assurée.

Enfin, cette année (2021–2022), bien que la crise sanitaire se soit plus ou moins estompée, (taux du covid en baisse, vaccination d'une grande partie des étudiants et des enseignants), c'est la crise économique qui gagne le devant de la scène : les frais du transport, les longues coupures d'électricité, le cout du groupe électrogène ont tellement augmenté qu'il s'est avéré presque impossible pour



les étudiants et les enseignants universitaires de faire le trajet pour reprendre les cours en présentiel et pour l'université de fonctionner dans de telles conditions. Pour ces raisons, et pour la troisième année consécutive la décision fut prise pour que tous les cours continuent à être assurés en ligne et que seuls les examens se fassent en présentiel.

1.2 Le numérique dans l'enseignement supérieure / à l'UL


Le tournant numérique a modifié considérablement l'éducation et les pratiques professionnelles. Selon Deschryver (2008), le recours aux technologies numériques émane des besoins exprimés dans la société et dans les instances politiques et mis en place par les institutions éducatives. Née d'une volonté d'élargir les dispositifs pour atteindre un public plus important et remettant en cause les modalités de formation actuelles, l'hybridité est apparue alors comme une nécessité incontournable. C'est pourquoi, dans plusieurs pays et depuis plus d'une décennie, l'enseignement supérieur a vu se développer des dispositifs combinant à des degrés différents des phases de formation à distance et des phases de formation en présentiel et offrant une certaine flexibilité spatio-temporelle : en effet, les étudiants ont la possibilité de choisir le moment et l'endroit d'apprentissage (Al-Qahtani et Higgins, 2013 ; Huang et al., 2012). A l'Université Libanaise, ce n'est que suite à la pandémie, ce véritable tsunami, que ce système éducatif a connu une profonde mutation « à marche forcée dans l'immédiat » (Grandbastien et al, 2021).

Mais où en était-elle avant le Covid 19 ? Selon une étude

menée en 2018 relative à l'utilisation des TIC au CSLC¹, « 68 % des étudiants sont en accord que leurs professeurs intègrent des technologies de l'information et de la communication dans leurs cours », ce qui implique que 32% ne le font pas. (Zeitoun et Ghosn, 2018). L'hétérogénéité dans l'usage des TICE a également été notée dans une étude intitulée « L'intégration des technologies numériques et méthodes pédagogiques innovantes dans le système universitaire : le cas de l'Université Libanaise » en 2019 (Messai Farkh et Kayal). Ce constat fait écho à ce qui figure dans le guide de L'Equipe Erasmus+ des Experts pour la réforme de l'enseignement supérieur (HERE) au Liban : « Un certain niveau de compétences technologiques est nécessaire pour assurer un enseignement en ligne. Des disparités existent entre les groupes, en fonction de leurs antécédents, de leurs domaines d'études, etc. Une formation s'impose dans certains cas. » (Avril 2020).

En somme, comme le note le rapport des Nations Unies, la crise sanitaire a d'une part constitué une source d'«innovation dans le secteur éducatif» (Nations Unies, 2020) et a mis en avant « des initiatives innovantes, qui ont permis la poursuite d'activités d'enseignement et de formation » : Le basculement d'un enseignement exclusivement en présentiel vers un enseignement exclusivement en ligne à l'UL, notamment à la faculté de pédagogie, a constitué une métamorphose « historique ». En contrepartie, ce passage brut « a révélé que la formation initiale et continue des enseignants devait être

(1) Centre des Sciences du Langage et de la Communication, centre affilié à la Faculté des Lettres et des Sciences à l'Université Libanaise.



repensée de façon à mieux les préparer aux nouvelles formes d'enseignement » (Nations Unies, 2020).

2. Cadre conceptuel


« Nous étions terriens dans un monde stable ; nous sommes devenus marins dans un monde héraclitéen où tout est changement, destruction et reconstruction. L'éducation doit s'adapter à ce monde problématique » (2011) nous dit Fabre et Paul Ricoeur dans un entretien qu'il accorde à Anita Hocquard, ajoute « Préparer les gens à entrer dans cet univers problématique me paraît être la tâche de l'éducateur moderne » (1996). En effet, depuis quelques décennies, le monde avance à une vitesse vertigineuse et la société subit des transformations profondes liées –entre autres– à la mondialisation, à la présence massive de la technologie dans le quotidien et à la mobilisation croissante des personnes. Ces facteurs ont fortement impacté l'enseignement et ont poussé les chercheurs à revisiter la formation initiale des enseignants pour « adapter les cursus » et « professionnaliser les formateurs, afin d'offrir aux futurs enseignants une formation initiale appropriée ». (Michel Berré, Pascale Hadermann et Laurent Robert, 2015).

Ainsi, la formation des enseignants n'est plus perçue comme « un processus de développement individuel tendant à acquérir ou à perfectionner des capacités » comme le préconisait Ferry dans les années 80. Dans un marché évolutif, elle est plutôt conçue comme un processus qui œuvre à développer la pensée critique des futurs enseignants et les induit à remettre en question des méthodes, des comportements professionnels et des représentations (Goyette, 2014). Pour y parvenir, la

formation proposera en plus d'une formation disciplinaire et sur la discipline, « une formation professionnelle au métier d'enseignant : techniques de classe, technologies, pédagogie du projet, analyse de pratiques professionnelles, évaluations... » (Dabène, 1994).

Ce va et vient entre théorie et pratique, cette articulation entre formation académique et formation professionnalisante a intéressé des chercheurs en sciences de l'éducation. Pour Lang, « une formation professionnalisante tente de construire un "savoir enseigner", une culture professionnelle intégrant des savoirs, des schèmes d'action, des attitudes... Elle prétend dépasser les clivages traditionnels entre formation académique, didactique, pratique » (Lang, 1999). Nous retrouvons cette volonté de jumelage intégré dans les travaux de Perrenoud qui considère que « l'esprit d'une formation professionnalisante est d'amener une part importante des connaissances théoriques comme réponses à des situations vécues, des éclairages et des grilles de lecture de l'expérience ». (Perrenoud, 1993). La clé de voute de sa réflexion se résume à notre avis dans le titre de son ouvrage : « enseigner : agir dans l'urgence et décider dans l'incertitude ». Quoi de plus adapté à notre monde éducatif actuel ? C'est cette formation professionnelle, fondée sur la réflexion, l'analyse, la critique et la prise de décision qui nous semble le mieux répondre aux exigences du métier actuel de l'enseignement (Shön, 1994 ; Perrenoud, 2002).

Par ailleurs, afin de circonscrire la professionnalisation du métier d'enseignant, les référentiels de compétences gagne le domaine de l'éducation et de la formation. Comme le note Legendre, le



référentiel « n'est pas statique, mais dynamique et évolutif et par conséquent susceptible de se transformer ». (Legendre, 2007). C'est pourquoi, au fil des années, il s'actualise, s'enrichit, se remodèle et se contextualise (Altet, 1994; Perrenoud (2004); De Ketele et al. (2008))

En somme, nouveaux contextes, nouveaux profils, nouveaux besoins... l'enjeu est de taille : il s'agit de dispenser une formation professionnalisante de qualité aux futurs enseignants d'autant plus qu'il existe des études qui ont braqué la lumière sur la corrélation entre la formation initiale des enseignants et les performances des élèves dans les écoles. Nous pensons particulièrement au rapport McKinsey qui s'est fondé sur vingt-cinq systèmes d'enseignement dans le monde pour conclure que « La qualité d'un système scolaire ne peut excéder celle de son corps enseignant » et que « les systèmes les plus performants sont la preuve que in fine, c'est le niveau de compétence des enseignants qui fait la qualité d'un système scolaire » (McKinsey et Company, 2007).

A la lumière de cet éclairage conceptuel, nous tenterons de voir dans quelle mesure les étudiants de la faculté de Pédagogie- sont prêts à exercer dans les écoles.

3. Méthodologie

4.1 Participants

Notre enquête a été effectuée auprès des étudiantes du département des langues- spécialité français- en troisième année à la faculté de pédagogie- section 1. Notre échantillon comporte 41 étudiantes : 30 d'entre elles préparent une licence

d'enseignement pour l'enseignement de base en langue française et 11 en éducation de la petite enfance.

Il s'agit de futures enseignantes qui s'apprêtent à exercer dans le préscolaire et le primaire.

4.2 Instrument de collecte des données

Nous avons opté pour une méthode d'analyse mixte jumelant l'approche quantitative et l'approche qualitative. Ces deux approches s'entrecroisent et s'associent sous la bannière d'axes structurants en relation avec notre problématique.

4.2.1. L'enquête quantitative

Un questionnaire fermé a été soumis aux étudiantes via Google Forms. Il comporte 3 volets : le premier s'intéresse au ressenti et à son évolution au cours des trois années d'étude. Il est complété par un axe qui se rattache au côté relationnel étudiantes/étudiantes et étudiantes/enseignantes dans le supérieur. Enfin, le dernier volet est consacré particulièrement au contenu de la formation (le numérique dans les apprentissages, le stage...).

4.2.2. L'enquête qualitative

Afin d'approfondir certains aspects liés au ressenti des étudiants, au contenu de la formation initiale et au degré de leur (prêt ?) pour exercer le métier d'enseignement, nous avons eu recours au focus groupe, formé de 8 étudiantes. Il a duré une trentaine de minutes et s'est organisé sur Teams. À notre sens, les aspects à étudier imposent un outil de type qualitatif et c'est pourquoi d'ailleurs nous avons laissé les étudiantes s'exprimer librement face à des questions dérivées de celles préparées. Nous avons

également interagi avec elles et élargi la discussion quand dans l'entretien apparaissaient des points pertinents qui pourront enrichir la réflexion.

4. Résultats des données

Nous ne traiterons pas à part les données des deux outils d'investigation. En effet, pour présenter une vision englobante, nous traiterons en parallèle les résultats obtenus dans le questionnaire et le focus groupe. Les verbatims recensés lors du focus groupe porteront des éclairages sur les résultats obtenus dans le questionnaire.

4.1 Le ressenti durant le confinement

Avant leur admission à la faculté de Pédagogie, il était pertinent de voir les représentations que les étudiantes se faisaient de la vie universitaire afin de juger par la suite le degré de « déception » ou de « satisfaction »/ « adaptation » avec l'éruption de la pandémie. En effet, entre les attentes et la réalité, les étudiantes ont trouvé que par rapport au lycée, la vie universitaire représentait essentiellement plus de responsabilité (75%) et plus de liberté (51%).

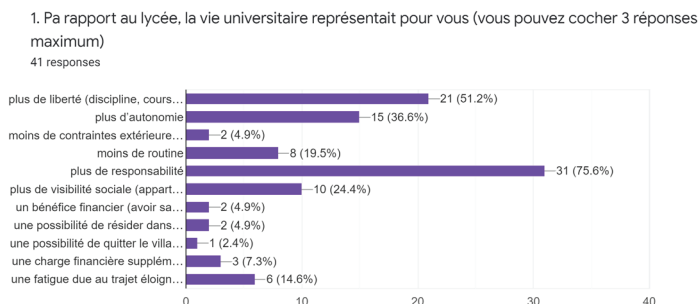


Figure 1 : représentation de la vie universitaire

Rares sont celles qui ont considéré que ce passage du milieu scolaire au milieu universitaire sera fatiguant ou qu'il constituera une occasion pour une meilleure visibilité sociale.

Une fois admises, les étudiantes ont vécu le premier confinement, alors qu'elles étaient en première année.

Contrairement à leurs collègues en France, qui ont présenté des signes de détresse psychologique, de nervosité et d'abattement lors de la crise sanitaire (Ove infos, septembre 2020), les étudiantes interrogées ont certes éprouvé de la fatigue et se sont senties démotivées, mais le tiers presque a réussi à s'y adapter et 22% ont senti qu'elles étaient plus libres à s'organiser dans leur travail.

2. En première année, qu'avez-vous ressenti suite au premier confinement et au passage en ligne ?
(Vous pouvez cocher 3 réponses maximum)

41 responses

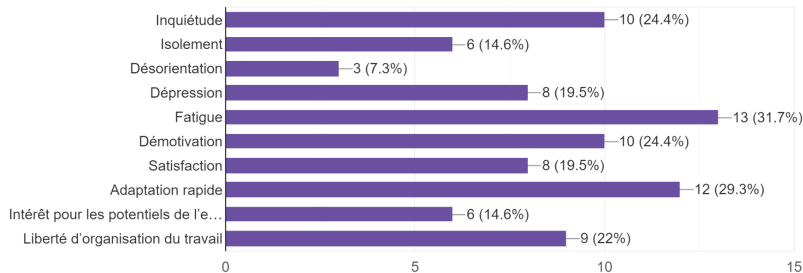


Figure 2 : ressenti en première année

Avec le temps, le ressenti a changé chez presque 50% des interviewées :

4. Après ces trois années de cours en ligne, quel est votre ressenti ?

41 responses

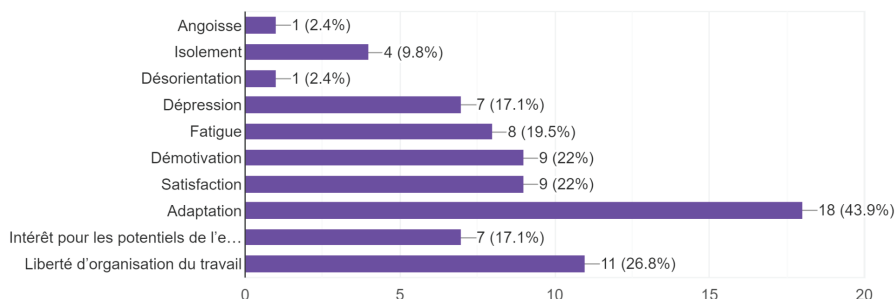


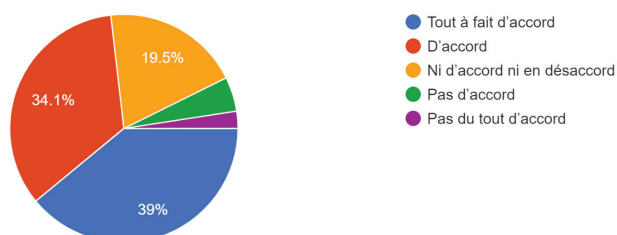
Figure 3 : ressenti après 3 années de cours en ligne

En effet, trois ans consécutifs ont fait fléchir le curseur du côté positif : le pourcentage de la fatigue, de la démotivation, de l'angoisse... régresse au profit de l'adaptabilité (44%) et de l'autonomie au travail (27%).

Par ailleurs, du point de vue relationnel, la crise sanitaire et la distance que celle-ci a engendrée n'ont pas eu un impact particulier sur les amitiés ou sur la solidarité entre les étudiantes.

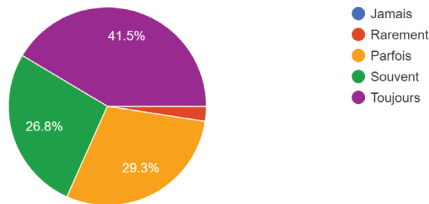
1. Vous avez noué des amitiés entre vous et avec d'autres groupes malgré la distance

41 responses



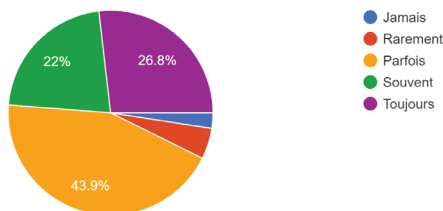
En effet, malgré la distance et les caméras souvent fermées durant les visioconférences, 75% ont noué des amitiés au sein de la classe et avec d'autres spécialités. Selon une étudiante, la crise les « a rendues plus solidaires ». « En échangeant sur les groupes, en parlant des difficultés rencontrées, et en voyant que les autres avaient parfois les mêmes soucis [les] tranquillisait ». (E.5).

2. Vous avez eu la chance de travailler en groupe sur des projets
41 responses



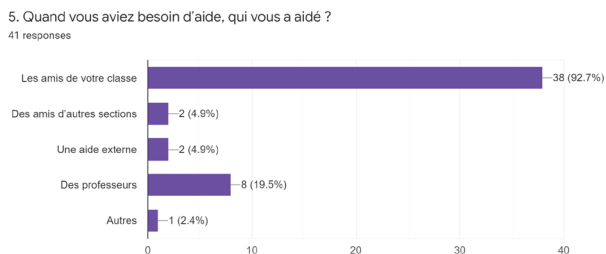
Elles ont également eu l'occasion de travailler souvent en groupe et se partageaient parfois les tâches « par exemple, on ouvrait Teams et on travaillait en ligne les recherches que les docteurs demandaient. Pour nous, c'était très facile, plus facile même que si on était en présentiel » (E.3).

4. Vous vous entraidez pour comprendre un cours, faire un devoir ...
41 responses



Elles n’hésitaient pas à s’entraider pour comprendre une notion ou faire un devoir ou une recherche :

De même, près de 50% des enquêtées partageaient des ressources sur le groupe WhatsApp de la classe « on envoyait des vidéos qu’on pouvait utiliser en stage, dans la phase de motivation par exemple, ou l’explication d’une notion en mathématiques... (E.1) ».



Il paraît évident que l’esprit d’équipe dominait et que la distance n’a fait que le fortifier

Quand elles avaient besoin d’une aide technique ou académique, ce sont les amies qui étaient souvent à « la rescousse ». L’une des étudiantes évoque les débuts de l’enseignement en ligne « Je me rappelle que quand on a commencé les cours en ligne en première année, c’était la première fois qu’on entendait parler de Zoom, Google meet et Teams. On était toute perdues. Mais à chaque fois qu’une fille comprenait comment fonctionne ce point ou ce point, elle aidait ses amies. On a compté sur nous-mêmes. » (E.1).

D'après les réponses ainsi obtenues, nous remarquons que le passage en ligne n'a pas « perturbé » les étudiantes et n'a pas affecté leur socialisation. Au contraire, une ambiance bienveillante d'échange et d'entraide a régné.

C'est pourquoi, plus de 80% d'entre elles considèrent que la formation initiale en ligne est mieux adaptée à leurs besoins :

E.1	Je préfère en ligne parce que c'est les mêmes informations. On a plus de temps pour nous.
E.2	On peut voir les recordings alors qu'en présentiel on « rate » vraiment le cours
E.3	On n' a plus à faire des trajets. Pour moi, j'habite loin
E.4	Je me sens plus libre. Je suis mature. Je sais que je ne dois pas rater des cours. Je sais comment m'organiser. Inutile d'aller à l'université parce que c'est la même chose.
E.5	Oui, ce sont les mêmes informations. C'est mieux en ligne.
E.6	On est plus tranquille, surtout avec les cameras fermées. On peut dire ce qu'on a à dire même si c'est faux, on va pas voir la réaction des autres.
E.7	L'enseignement en ligne m'a permis d'avoir plus confiance en moi-même. Les docteurs ne me voient pas, ça m'a permis d'être plus « courageuse ». Je ne suis plus timide comme avant. A l'école, j'évitais de prendre la parole, mais maintenant en ligne, je réponds, je pose des questions »

Sur huit étudiantes, une seule préférait les cours en présentiel parce qu'à la maison elle ne trouvait pas le calme pour suivre les cours : « pour moi c'est une perte de temps, parce que j'assiste au cours en ligne et je suis très distraite par les bruits. Je n'ai pas ma propre chambre. Je la partage avec mes deux sœurs. Donc,

je ne comprends pas bien ce qui est dit et puis je dois regarder les recordings » (E.8). Même si les conditions matérielles sont assurées, cette étudiante ajoute que la formation est plus réussie en présentiel « on est plus proche des docteurs. Pour moi, c'est important. Je peux apprendre de leur posture en classe, de leur voix de leur regard des choses. » (E.8).

Du ressenti présent/ actuel vécu dans l'adaptabilité et la satisfaction, nous passons aux « out comes » ou « output » de cette expérience. La touche de positivité commence petit à petit à s'estomper pour laisser la place à une réflexion sur les enjeux actuels du métier d'enseignement.

En effet, au bout de leur cursus universitaire, les étudiantes qui ont vécu cette expérience inédite ont forgé une conviction professionnelle du métier.

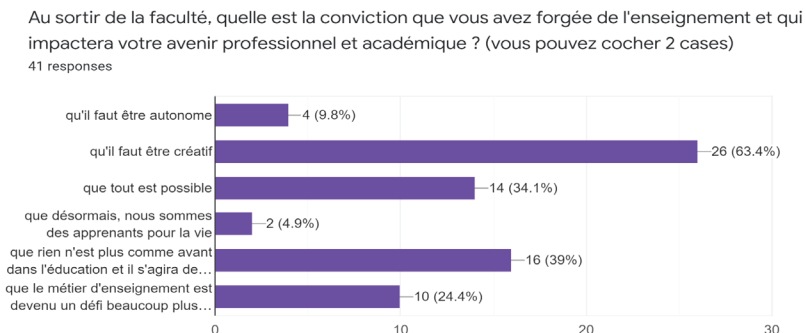
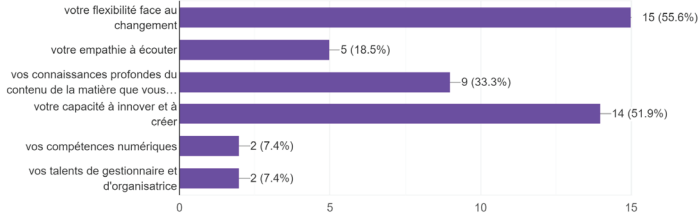


Figure 4 : conviction professionnelle et académique

Pour cette promotion, rien n'est plus comme avant et il s'agira de s'adapter rapidement au changement (39%). Parmi les défis liés également au métier, les étudiantes sont persuadées qu'il

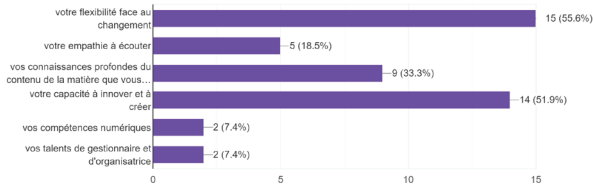
faudrait être avant tout « créatif » (64%).

Pour réussir dans votre futur rôle d'enseignante, vous vous appuyez surtout sur : (vous pouvez cocher deux réponses)
27 réponses



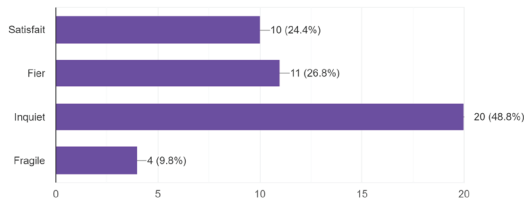
Par conséquent, pour réussir dans leur futur rôle d'enseignante, les étudiantes comptent s'appuyer particulièrement sur leur flexibilité par rapport au changement et sur leur capacité à innover et à créer.


Pour réussir dans votre futur rôle d'enseignante, vous vous appuyez surtout sur : (vous pouvez cocher deux réponses)
27 réponses



Ces résultats expliquent en partie l'angoisse ressentie quant à l'appréhension du futur professionnel :

6. Le fait d'être la première « promotion Corona » vous rend:
41 réponses





Pour 50%, le fait d'être la première promotion corona est une source d'angoisse. Et les raisons sont multiples comme nous le verrons dans ce qui suit.

5.2 Qualité de la formation initiale

Comme le dit très bien Carey « « implementing quality online education is easier said than done » ».

En effet, bien que le questionnaire ait montré que les étudiantes sont satisfaites de leur maîtrise didactique de la discipline (elles ont préparé des séances pour un enseignement en ligne), de leur maîtrise des outils numériques (87%) et de l'exploitation de ces derniers dans l'enseignement (40%), il s'est révélé lors de l'entretien (focus groupe) que les étudiantes évoquaient dans cette optique les « savoirs » et non pas « les savoir-faire ».

Elles ont appris à préparer une séquence, à concevoir une évaluation sur GoogleForms ; et parlant du numérique, elles savent comment utiliser une plateforme (télécharger et soumettre des documents, rendre des devoirs...). Mais d'après les questions posées, nous réalisons que

- à aucun moment, il n'y a eu une réflexion sur les différentes modalités d'apprentissage et les caractéristiques de chacune d'elles. Cette « lacune » s'est fait sentir en troisième année, lors des stages.
- Les outils numériques que maîtrisent les étudiantes sont ceux particulièrement liés à Microsoft (Word-Excel-PPT et Teams ou zoom). Elles n'ont jamais entendu parler de logiciels de sondage, de jeux éducatifs interactifs, de logiciels pour

l'écriture collaborative... et la matière ne leur a pas permis de comprendre qu'il est nécessaire de penser le choix d'un outil en amont de son intégration.

Ce manque dans la formation explique leur inquiétude et leurs propos font ressortir les faiblesses liées à la formation.

E.1	Dans l'enseignement en ligne, il faut être surtout créatif et moi je ne suis pas comme ça.
E.2	J'ai peur de ne pas pouvoir motiver les élèves, surtout quand ils sont petits. Je veux jouer avec eux, faire des activités... en présentiel je suis prête, mais si c'est comme l'année passée, tout en ligne, c'est très difficile
E.3	Même avec des cameras ouvertes tout le temps et des activités, on ne peut pas gérer une classe à distance ; à l'école, c'est pas comme à l'université. Et les élèves doivent être sociables. Pour nous c'est efficace en ligne mais pour les élèves non.
E.4	Pour moi je me sens prête. J'ai fait ma prestation en ligne, j'ai expliqué une leçon de grammaire et c'était très bien ! tout le monde parlait et participait
E.5	Certaines écoles vont dire qu'on a tout fait en ligne et ce n'est pas sérieux, donc on sera pas recruté
E.6	On a appris comment préparer une leçon et faire une évaluation sur Google Forms mais on a pas beaucoup fait des activités interactives pour capter l'attention des élèves tout le temps.
E.7	En ligne, ce sera plus difficile, parce qu'on a à préparer plus de choses, derrière un écran, l'élève ne se concentre pas beaucoup, je dois donc consacrer plus de temps à la discussion et aux jeux.
E.8	Pour moi, je sens que si je vais enseigner en ligne, je ne pourrai jamais réussir : les enfants ont besoin de nous voir dans la réalité. Si je ne serai pas en classe, pour moi cela veut dire que je ne suis pas une enseignante.

En somme, pour sept étudiantes de huit, le métier d'enseignement s'énonce en terme de « difficultés », difficulté liée à la créativité, à la conception d'un contenu interactif, à la gestion d'une classe à distance...

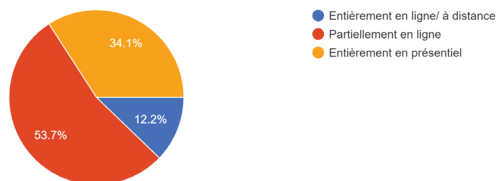
Les étudiantes semblent ainsi armées de connaissances pédagogiques, mais c'est le savoir-faire qui leur manque. Or, nous l'avons déjà noté dans le cadre conceptuel, former au métier d'enseignement ne signifie pas transmettre des savoirs et devenir enseignant ne se limite pas à une maîtrise des compétences didactique-pédagogique. Devenir enseignant implique entre autres, une mobilisation pertinente des connaissances dans la pratique, une évaluation systématique des pratiques, des autorégulations et dans le contexte actuel, une capacité à « agir dans l'urgence ».

5.2 Arrêt sur les heures de stage

L'instabilité au Liban, due aux crises sanitaire et économique ont provoqué des disparités au niveau de l'exécution des heures de stage.

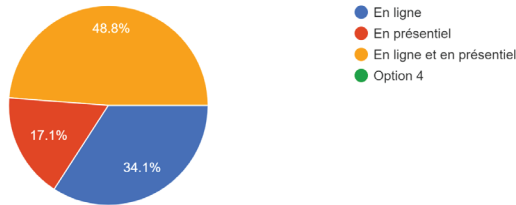
En effet, 54% ont effectué leur stage partiellement en ligne, contre 34% entièrement en présentiel et 13% entièrement en ligne.

5. Comment avez-vous fait vos stages ?
41 responses




Il en va de même pour les prestations : 49% les ont faites en ligne et en présentiel alors que 34% les ont passées en ligne et 17% en présentiel.

6. Vos interventions au cours du stage se sont effectuées
41 responses



Pour les étudiantes, celles qui ont pu les passer en présentiel se considèrent comme « chanceuses » alors que celles qui étaient contraintes à le faire en ligne ressentent « une injustice ». Soit noté au passage que pour les maitres de stage, il n’y avait pas une grille propre aux deux modalités.

Il va de soi que les heures de stage, telles qu’elles ont été effectuées, n’ont pas contribué à enrichir l’expérience des étudiantes d’une manière équitable. Nous pensons particulièrement à celles qui ont tout fait en présentiel ou tout en ligne et qui n’ont pas eu la possibilité d’expérimenter l’autre modalité ou l’enseignement hybride. Il nous semble également que le stage est « mutilé » et qu’il n’a pas rempli pleinement ses fonctions parce qu’il n’a pas permis cette immersion dans le monde professionnel que nous avons évoquée au départ : le nombre d’heures de stage s’est réduit comme une peau de chagrin parce que les journées de classe en présentiel étaient effectuées en une séance ou deux en ligne.



Enfin, pour les pratiques de classe effectuées en ligne, les étudiantes ont assisté à des cours où l'enseignant « tâtonnait » : les enseignants et les étudiants étaient comme à pieds d'égalité parce qu'il s'agissait d'une expérience inédite. C'était la première fois pour les deux. Il serait intéressant de consacrer une étude sur le rôle de l'expérience et la transposition des stratégies du présentiel aux cours en ligne.

Conclusion et perspectives

La question de recherche qui a animé notre réflexion était de voir dans quelle mesure la formation initiale à la faculté de pédagogie a préparé les étudiantes au métier d'enseignement dans un contexte de crise. Au fil de cette étude, nous avons donné la parole à la promotion que nous avons baptisée « la première promotion Corona » à la faculté de Beyrouth. A travers un questionnaire et un focus groupe, nous avons déterminé leur ressenti après trois ans de cours à distance et nous avons analysé leur appréhension du métier d'enseignement. Les résultats ont montré que les étudiantes se sont adaptées à l'enseignement en ligne et qu'elles en ont trouvé du plaisir. Mais quand il est question de l'exercice du métier, certaines inquiétudes apparaissent ; elles sont relatives aux compétences requises pour réussir, notamment la créativité et aux enjeux de l'enseignement en ligne dans le cycle maternel et primaire. Les étudiantes craignent ne pas réussir à motiver les élèves, à interagir avec eux. Pour certaines, il s'agit d'un défi qu'elles ne sont pas sûres de pouvoir surmonter.

Ainsi, si la crise a contribué à accélérer l'implémentation du numérique au sein de l'UL qui œuvrait à assurer la continuité

pédagogique, il reste que la mise en place d'un dispositif, (la plateforme Teams), n'est pas en elle-même suffisante pour former des enseignants de qualité. Lors de la pandémie, certains ont parlé de la résilience du système éducatif. Pour nous, cette résilience gagnerait à être transformatrice, c'est-à-dire, qu'elle nous pousse à repenser l'éventail des compétences que devront maîtriser nos étudiants pour être en mesure de réussir dans leur métier. Dans cette optique, le point de départ serait la revisite du cadre référentiel de compétences et de sa modélisation en fonction de la nouvelle réalité éducative : cette révision circonscrira le nouveau profil du nouvel enseignant : pour répondre aux complexités du métier d'enseignement, quel profil aura l'étudiant à la fin de son cursus universitaire ?

Par la suite, il s'agira de revoir le curriculum des matières disciplinaires et pédagogiques et de repenser le contenu de certains cours, notamment l'informatique. Il nous semble que pour développer une compétence numérique, deux cours sur la totalité du parcours ne sont pas suffisants et leur objectif ne pourrait pas se limiter à Microsoft.

Par ailleurs, il paraît impératif de porter une attention particulière sur les maîtres de stage qui jouent un rôle crucial dans la formation des étudiants. Pour accompagner des futurs enseignants et leur assurer un suivi de qualité, les maîtres de stage devraient suivre des formations qui tiennent compte des mutations profondes dans le domaine éducatif. A cette fin, il est imminent de reconsidérer leur recrutement à l'UL et de créer un département ou un centre de formation pour l'enseignement universitaire national.

Références

- Al-Qahtani, A. A. Y. et Higgins, S. E. (2013). Effects of traditional, blended and e-learning on students' achievement in higher education. *Journal of Computer Assisted Learning*, 29(3), 220–234. <https://doi.org/10.1111/j.1365-2729.2012.00490.x>
- Altet, M. (1994), *La formation professionnelle des enseignants*, PUF.
- Altet, M. ; Paquay, L et Perrenoud, Ph. (éds.), (2002), *Formateurs d'enseignants, quelle professionnalisation?* Bruxelles, De Boeck-Université.
- Berré, M., Hadermann, P. et Robert, L., (2015)., « La formation des enseignants de FLE/S en Belgique, un état des lieux » in *Le Langage et l'Homme* numéro 48.1, éditions E.M.E.: https://www.eme-editions.be/fr/41_le-langage-et-l-homme.
- Carey, K. (2016). *The End of College. Creating the Future of Learning and the University of Everywhere*. New York : Riverhead Books.
- Dabène, M., (1994). «La formation au métier d'enseignant : l'enfant pauvre de la didactique des langues », in Coste D., *Vingt ans dans l'évolution de la didactique des langues (1968–1988)*, Crédif-Hatier, LAL, p. 193–206.
- De Ketele, J.-M et al., (2008). *Évaluer pour former*, De Boeck.
- Deschryver, N. (2008). *Interaction sociale et apprentissage en formation hybride*, Thèse de Doctorat. Genève : FPSE, Université de Genève.
- Equipe Erasmus+ des Experts pour la réforme de l'enseignement supérieur (HERE) au Liban. (2020). *Guide pour l'apprentissage et l'enseignement en ligne Le contexte de la pandémie Coronavirus*. Lien : [http://erasmusplus-European Scientific Journal, ESJ ISSN: 1857-7881 \(Print\) e - ISSN 1857-7431 February 2022 edition Vol.18, No.6 www.ejournal.org 84 lebanon.org/sites/default/files/documents/Guide_Online_T%26L_at_Coronavirus_Context_FR.pdf](http://erasmusplus-European Scientific Journal, ESJ ISSN: 1857-7881 (Print) e - ISSN 1857-7431 February 2022 edition Vol.18, No.6 www.ejournal.org 84 lebanon.org/sites/default/files/documents/Guide_Online_T%26L_at_Coronavirus_Context_FR.pdf)
- Fabre, M., (2015). *Éduquer pour un monde problématique : la carte et*

la boussole. PUF.

- Ferry, G., (1983). Le trajet de la formation : les enseignants entre la théorie et la pratique, Dunod.
- Grandbastien, M., Mœglin, P. et Peraya, D., « Éditorial », Distances et médiations des savoirs [En ligne], 33 | 2021, mis en ligne le 16 mars 2021, consulté le 13 janvier 2022. URL : <http://journals.openedition.org/dms/6221> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/dms.6221>
- Huang, E. Y., Lin, S. W. et Huang, T. K. (2012). What type of learning style leads to online participation in the mixed-mode e-learning environment? A study of software usage instruction. Computers & Education, 58(1), 338–349. <https://doi.org/10.1016/j.compedu.2011.08.003>
- Lang, V. (1999). La professionnalisation des enseignants, PUF.
- Legendre, M.-F. (2007). Conclusion. In L. Bélair, D. Laveault, & C. Lebel, C. (dir.), Les compétences professionnelles en enseignement et leur évaluation (pp. 229–247). Ottawa : Presses de l'Université d'Ottawa.
- OVE, infos, (septembre 2020). La vie étudiante au temps de la pandémie de covid-19 : incertitudes, transformations et fragilités, numéro 42. <http://www.ove-national.education.fr/publication/ove-infos-n42-la-vie-etudiante-au-temps-de-la-pandemie-de-covid-19/> (consulte le 22 mars 2022).
- Perrenoud, P., (1993). «Curriculum : le formel, le réel, le caché.», in Houssaye, J. (dir.) La pédagogie: une encyclopédie pour aujourd'hui, ESF.
- Perrenoud, P. (2004). Dix nouvelles compétences pour enseigner. Invitation au voyage (4e éd). Paris: ESF.
- Perrenoud, P. (2003)., «Nouvelles identités professionnelles : de quelques enjeux de formation », in J.-P. ASTOTLI, Éducation et formation: nouvelles questions, nouveaux métiers, Issy-les-Moulineaux, ESF.

- Rapport Mckinsey & Company, 2007, in : http://www.mckinsey.com/App_Media/Images/Page_Images/Offices/SocialSector/PDF/How_the_Words_Best_Performing_french.pdf (consulté le 27 janvier 2012).
- Ricœur, P., (1996)., « Eduquer à quoi bon ? » in Anita Hocquard
- Schön, D.A. (1994). Le praticien réflexif. À la recherche du savoir caché dans l’agir professionnel. Montréal : Les Editions Logiques.
- Unicef. (Mars 2020). Messages clés et actions pour la prévention et le contrôle de la COVID-19 dans les écoles. Lien : https://www.unicef.org/media/65846/file/Key%20Messages%20and%20Actions%20for%20COVID19%20Prevention%20and%20Control%20in%20Schools_French.pdf
- Zeitoun, S. et Ghosn, R. (2018). Compétences Des Enseignants Universitaires : Etude De Cas Du Centre Des Sciences Du Langage Et De La Communication (CSLC) À L’Université Libanaise. Tripoli : Université Al Jinane. Lien : https://www.researchgate.net/publication/333552867_Compences_Des_Enseignants_Universitaires_Etude_De_Cas_Du_Centre_Des_Sciences_Du_Langage_Et_De_La_Communication_CSLC_A_L’Universite_Libanaise

Exploring the Implementation of Research-Based English Language Teaching Strategies


in Beirut and Its Suburbs Public Secondary Schools

Nada El-Khansa¹

Abstract

This study investigated the implementation of research-based teaching strategies by English language teachers. It explored the teachers' attitudes towards the effectiveness of research-based teaching strategies and whether the teaching strategies they adopted, in the absence of the education system update, were research-based, experience-based, or curriculum-based. Being a mixed methods approach, the study collected data through two survey questionnaires, one for teachers and the other for coordinators, conducted at sixteen (16) out of a total of twenty-five (25) public secondary schools where English language is taught as the first foreign language in Beirut and its suburbs. Sixty-three (63) out of a total of sixty-seven (67) teachers, and fourteen (14) out of fifteen (15) coordinators across the sixteen (16) schools answered the questionnaires. The responses to the two semi-structured questionnaires were assessed both qualitatively and quantitatively. The findings revealed the teachers' and coordinators' awareness of the effectiveness of research-based teaching strategies and their expertise in selecting different strategies to bridge the gap created by the lack of curriculum

(1) PhD student in Linguistics at the Lebanese University's Doctoral School and EFL teacher for secondary classes



update. The findings also confirmed Bala Kumaravadivelu's three parameters of the postmethod pedagogy: particularity, practicality, and possibility. The study answered the research questions and presented the implications and recommendations in the concluding section.

Keywords: English language teaching, research-based strategies, experience-based strategies, curriculum-based strategies, Kumaravadivelu's three parameters of postmethod pedagogy, Beirut and its suburbs' public secondary schools

1. Introduction

The target of carrying out research is to improve methods for better educational performance (Fohlin, Sedem & Allodi, 2021). Providing high-quality education is the mission of educational institutions in which the teacher is the main factor that is responsible for the major part of accomplishing the mission (Lagura, 2023). Innovations in research-based teaching strategies are likely to entail better student performance (Lee, 2021).

In fact, ways of teaching are shifting, hence, they are no longer certain (Bahr & Mellor, 2016). Although research plays an essential role in improving teaching practice, attitudes towards it vary (Ilhan, 2021). When it comes to schools, not all curricular objectives are research-based as in updating many traditional curricula only the needs of a 'typical' or 'average' student are focused on (Button, 2021). In Lebanon, where the public secondary schools are the focus of this study, and according to the Ministry of Education and Higher Education (MEHE), there has been no update of the educational system since 1997 (CERD, n.d.).


Nevertheless, in 2004, the Center for Educational Research and Development (CERD) in Lebanon “launched the Ongoing Teacher Training Project (OTTP) to ensure that teachers across the country would have access to training that sustains their growth and professional development” (CERD, n. d.). Eventually, and according to CERD, the Lebanese teachers, in the public sector, are in an ongoing process of developing their teaching skills. Building on the earlier points, the study will show whether teachers’ strategies are experience-based resulting from continuous professional development as teaching is a multidimensional performance (Graham, White, Cologon & Pianta, 2020), or selected to follow the guidelines set by coordinators whose traditional role is to transform the curriculum into an institution-built structure (Bromley, 2020). The findings will be analyzed in the light of Bala Kumaravadivelu’s postmethod pedagogy, a system of three parameters: particularity, practicality, and possibility (2008).

2. Statement of the problem

This study throws light on the fact that the Lebanese national curriculum has not been updated since 1997. Public school teachers are trying to address the lack of the curriculum update by relying on their experience and engaging in professional development in order to fill the educational gaps.

3. Rationale of the Study

This study aims to reveal whether English language teachers for secondary-level classes, at Beirut and its suburbs public schools, and in the absence of the curriculum update, consider research-based teaching strategies significant and adopt them in class.



The study's purpose is to explore whether teachers rely on their expertise in implementing the teaching strategies, or whether they abide only by the requirements of the curriculum monitored and managed by coordinators.

4. Questions of the Study

The study attempts to answer the following questions:

Q₁ To what extent do English language teachers and coordinators for secondary classes, at Beirut and its suburbs public schools, consider research-based teaching strategies effective?

Q₂ Why do English language teachers and coordinators for secondary classes, at Beirut and its suburbs public schools, choose research-based teaching strategies, experience-based teaching strategies, or curriculum-based research strategies?

Q₃ To what extent do secondary English language teachers' and coordinators' choice and application of teaching strategies, at Beirut and its suburbs public schools, agree with Kumaravadi-velu's three parameters of the postmethod pedagogy?

5. Significance of the study

This work is significant as it attempts to explore the integration of research-based strategies into the teaching practice of secondary English language teachers across public schools. It is pivotal because it provides insights about teachers' endeavors to fill the gaps in the teaching and learning process in order to meet student needs in the absence of the curriculum update.

6. Review of Literature

6.1 Research-based teaching

According to Creswell (2012), “research is a process of steps used to collect and analyze information to increase our understanding of a topic or issue” (p.3). Research-based education is an international demand that requires teachers to enact academic knowledge in their teaching practice and receive professional training that builds up that knowledge (Bergmark, 2020). In other words, research-based teaching strategies refer to strategies that are studied and have been proven to greatly affect student academic achievements (Vontz & Goodson, 2020).

6.2 The relation between educational research and teacher’s practice

Educational research has been criticized for its failure to influence the education system that entails better learning quality (Dagenais, Lysenko, Abrami, Bernard, Rande & Janosz, 2012). Dagenais et al. (2012) maintain that “there should be ongoing collaboration between education policy makers, practitioners, and researchers to shape the agenda and priorities for educational research” (p.285), and mobilize educational knowledge in teaching (Cain, Wieser, & Livingston, 2016) because teachers may infrequently depend on educational research in their practice (Joram, Gabriele, & Walton, 2020). Teachers may face difficulty in applying research findings which forges a gap between research and teaching practice (Schaik, Volman, Admiraal, and Schenke, 2018).

6.3 Teacher's expertise and professional development

To be regarded as experts, teachers should be successful in achieving the teaching objectives, and they should engage in practice for high-quality teaching (Lam, 2019). Research findings show that teachers' effectiveness continues to improve as their teaching experience increases in association with better student academic achievement (Kini & Podolsky, 2016). As a matter of fact, teachers who seek professional development become more knowledgeable, attentive and focused, and they show higher quality of teaching performance and classroom management, all of which eventually lead to enhanced student outcome (OECD, 2020). In the case of the Lebanese education system, and since its last update in 1997, the CERD teacher training centers have been organizing workshops to improve teachers' skills in ways that can best serve the teaching and learning process (CERD, n. d.). However, no research has been conducted to test the effect of the training workshops on teachers' professional development (CERD, n. d.)


6.4 Curriculum design

In the early 1900, curriculum started to be viewed as a scientific domain that requires its own planning (Ornstein & Hunkins, 2018). Teachers, who are the most important factor in implementing the curriculum, should take part in its development (Alsubaie, 2022) and should evaluate and question its content. Based on this notion, the Lebanese teachers and professors are supposed to work together to design the curriculum which has been the target of CERD (Lebanon's Educational System, n.d.). Nevertheless, the

curriculum has not been revised since 1997 although the update should occur every four years, according to the Lebanese law (El Hakim, 2021).

6.5 Kumaravadivelu's postmethod pedagogy

It is necessary to present as part of the review of literature the concept of Bala Kumaravadivelu's postmethod pedagogy that the study findings will confirm or deny. First, Kumaravadivelu (2008) believes that the notion of 'method' in teaching is surrounded by myths that suggest the existence of a perfect method that has a universal value. To him, teachers rarely follow the principles of methods. "They seem to know better. They know that none of the established methods can be realized in their purest form in the actual classroom primarily because they are not derived from their classroom but are artificially transplanted into it" (p. 166). The focus in this study is on his postmethod pedagogy as a system of three parameters: particularity, practicality, and possibility (Kumaravadivelu, 2008). Particularity stresses the idea that a postmethod pedagogy "must be sensitive to a particular group of teachers teaching a particular group of learners pursuing a particular set of goals within a particular institutional context embedded in a particular sociocultural milieu" (p. 538). The parameter of practicality emphasizes the relation between theory and practice, particularly, the teacher's reflection on and awareness of the effectiveness of his or her teaching (Kumaravadivelu, 2008). The parameter of possibility is concerned with social inequalities, economic and political environments, and power and dominance. As a result of its sensitivity to the characteristics of teachers, learn-



ers, goals, and settings of different contexts (Kumaravadivelu, 2001), Kumaravadivelu's postmethod pedagogy is chosen as a reference to which the study findings will be compared.

7. Methodology

7.1 Research design

This is a descriptive mixed methods research (Creswell & Clark, 2018). Both qualitative and quantitative data are collected and analyzed in order to answer the research questions.

7.2 Data collection

The collected data are the responses of teachers and coordinators to two semi-structured Google Form surveys (Pew Research Center, 2023; William, 2023). The teacher survey questionnaire asks questions about years of experience, the teaching strategies used in the classroom, the effectiveness of curriculum-based and research-based teaching strategies, the relation between the curriculum and research-based teaching strategies, and teachers' professional development and its impact on student learning outcome. The coordinator survey questionnaire focuses on coordinator's tasks, implementation of curriculum-based and research-based teaching strategies, the effect of curriculum-based teaching strategies on student achievement, the effect of research-based teaching strategies on curriculum development, adaptation of the curriculum-based program and research-based teaching strategies, and coordinator's professional development.

7.3 Participants

Participants are English language teachers and coordinators from sixteen (16) schools out of twenty-five (25) that is the entire number of public secondary schools where English language is taught as the first foreign language in Beirut and its suburbs. The total number of teachers who answered the questionnaire is sixty-three (63) out of an entire group of sixty-seven (67) teaching across the sixteen (16) schools. The number of the surveyed coordinators is fourteen (14) while the total number is fifteen (15) across the sixteen (16) schools.

7.4 Instruments

7.4.1 Two surveys

Each of the two survey questionnaires, the teacher's and the coordinator's, contains ten (10) questions. The questions of both surveys are of three kinds: multiple choice, Likert scale, and open-ended (Pew Research Center, 2023).

7.4.2 Kumaravadivelu's three parameters of postmethod pedagogy

Kumaravadivelu's three parameters of postmethod pedagogy, particularity, practicality, and possibility are evaluated in this work. They are either supported or refuted by the findings of the study.

8. Analysis and findings

The collected data are analyzed in the light of the purpose of the study which explores the bases of teaching strategies used by EFL teachers at public secondary schools in Beirut and its suburbs.

8.1 Analysis of the teacher's survey

Sixty-three (63) teachers submitted their responses. The following is a detailed presentation and analysis of their answers.

Question 1

In responding to the first question “Which class/es do you teach?”, teachers revealed that thirty-five per cent (35%) of them taught grades 10, 11, and 12, which was higher than the percentage of teachers who taught grade 12 (21%). Then comes thirteen per cent (13%) for those teaching grades 10 and 11, eleven per cent (11%) for two groups of teachers: one teaching grades 11 and 12, and the other teaching grade 10, six per cent (6%) teaching grade 11, and three per cent (3%) teaching grades 10 and 12.

Figure 1

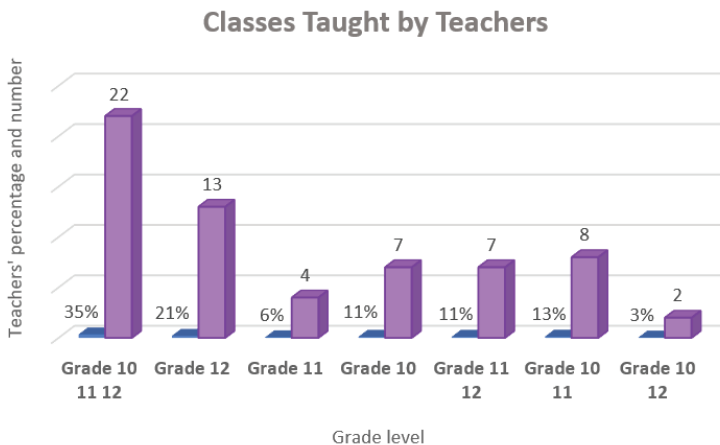
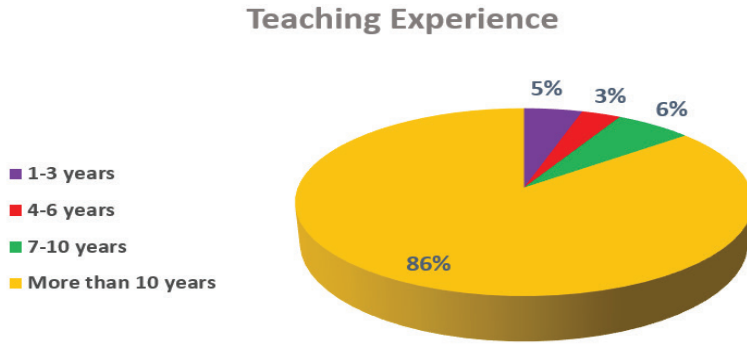


Figure 2



Question 2

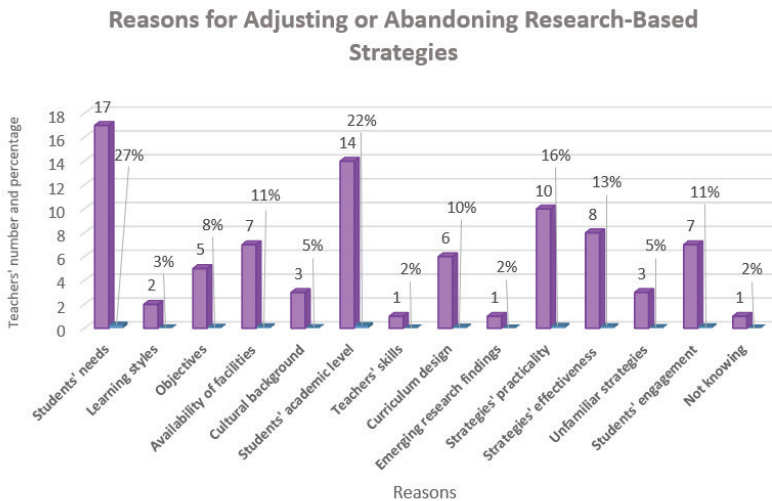
The responses to the question “How many years of teaching experience do you have?” revealed that the majority of the surveyed teachers had a long experience in the teaching field. ‘More than 10 years’ was the answer of eighty-six per cent (86%) of them, three per cent (3%) answered ‘4–6 years’, five per cent (5%) answered ‘1–3 years’ whereas ‘7–10 years’ was the response of six per cent (6%) of them.

Question 3

On the other hand, the responses to the open-ended question “What is/are the reason/s that urge/s you to modify or abandon a research-based teaching strategy?” were grouped into fourteen (14) labels according to the reasons provided by the teachers. ‘Students’ needs’ and ‘Students’ academic level’ were the main priority of the teachers and came first with twenty-seven per cent (27%) and twenty-two per cent (22%) respectively, followed by ‘Strategies’ practicality’ with sixteen per cent

(16%) which was higher than the percentage of ‘Strategies’ effectiveness’ (13%) and that of ‘Availability of facilities’ and ‘Students’ engagement’ that were eleven per cent (11%) each. ‘Curriculum design’ was the response of ten per cent (10%) of the teachers, a percentage higher than that of ‘Objectives’ (8%). Each of ‘Cultural background’ and ‘Unfamiliar strategies’ got five per cent (5%), ‘Learning styles’ got three per cent (3%), and finally two per cent (2%) for each of ‘Teachers’ skills’, ‘Emerging research findings’, and ‘Not knowing’.

Figure 3

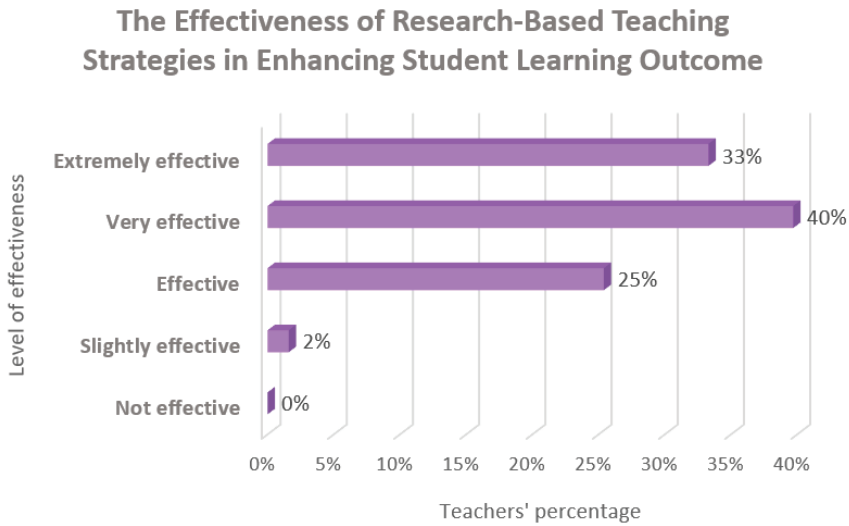


Question 4

Responding to the question “On a scale of 1 to 5, how effective do you believe research-based teaching strategies are in enhancing student learning process?”, the teachers who considered researched-based strategies extremely effective (number five on the scale) were thirty-three per cent (33%), those who chose number four (very effective) were the highest percentage

(40%), twenty-five (25%) considered research-based teaching strategies effective (number three on the scale) compared to only one teacher (2%) who chose number 2 (slightly effective). Thus, all of the teachers viewed research-based as effective, yet to various extents.

Figure 4

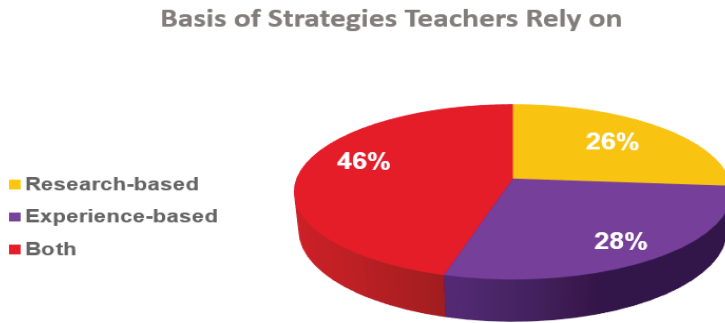


Question 5

The responses to the open-ended question “Which teaching strategies do you rely on for student better academic achievements: experience-based or research-based?”, revealed that the highest percentage of the teachers (46%) used both research-based and experience-based teaching strategies as they considered them complementary and combine scientific findings with the teachers’ experience in order to meet students’ needs, fit their social background, and offer the best learning environment. On the other hand, the percentages of teachers who relied on their experience (28%) and those whose strategies were research-based (26%) were close. The former (28%) explained that research-based

strategies were time-consuming, unauthentic, required tools, etc., whereas the latter (26%) focused on student-centered learning, active learning, cooperation, etc.

Figure 5

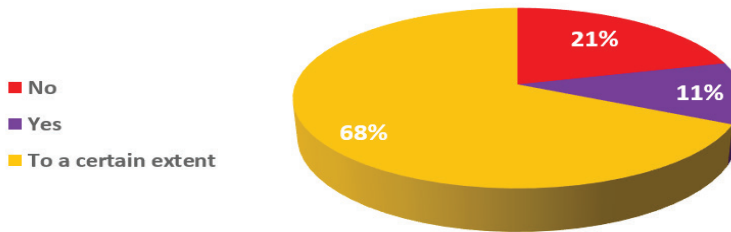


Question 6

More than two third of the surveyed teachers (68%), in their response to the question “Are the curricular objectives research-based?”, reported that the curricular objectives were research-based ‘to a certain extent’, thus reflecting their awareness of the basis of the set objectives. However, the response of twenty-one per cent (21%) of them was ‘No’ whereas it was ‘Yes’ for the lowest percentage (11%).

Figure 6

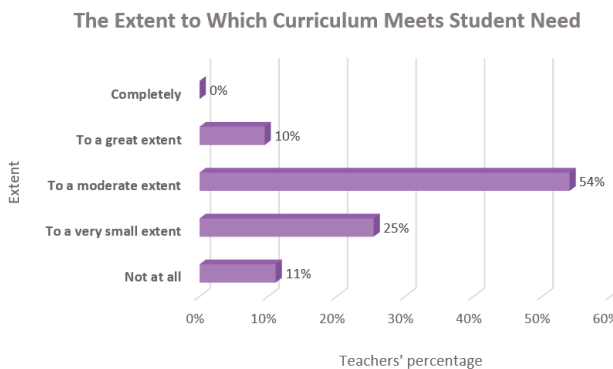
Are the Curricular Objectives Research-Based?



Question 7

Responding to the question “On a scale of 1 to 5, to what extent does the curriculum meet student needs?”, more than half of the teachers (54%) believed that the curriculum didn’t meet all student needs, and accordingly selected ‘To a moderate extent’ which was more than double the percentage of teachers (25%) whose response was ‘To a very small extent’. Eleven per cent (11%) went for the response ‘Not at all’, whereas the lowest percentage (10%) went for ‘To a great extent’.

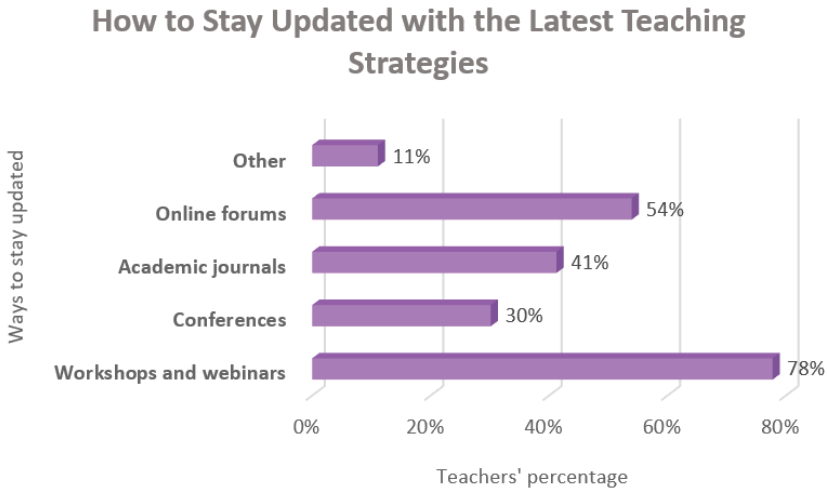
Figure 7



Question 8

Answering the question “How do you keep yourself updated with the latest teaching strategies?” conveyed that more than three quarters of the teachers (78%) opted for ‘Workshops and webinars’ which was higher than ‘Online forums’ (54%) after which came ‘Academic journals’ with forty-one per cent (41%), ‘Conferences’ with thirty per cent (30%), and finally ‘Others’ with eleven per cent (11%).

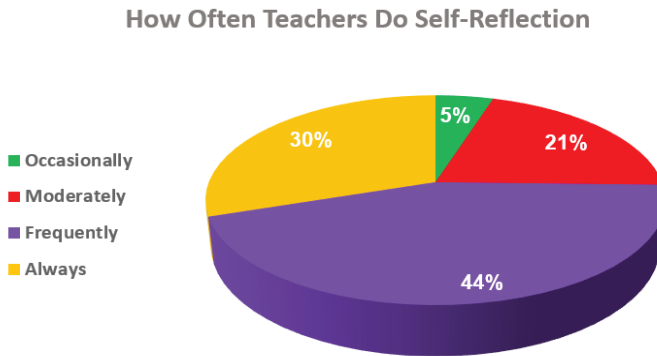
Figure 8



Question 9

The responses to the question “Do you do self-reflection in order to refine your teaching performance?” revealed awareness towards the significance of self-reflection. Five per cent (5%) of the teachers reported that they ‘Occasionally’ did self-reflection, twenty-one per cent (21%) ‘Moderately’ did it, thirty per cent (30%) ‘Always’ practiced it, and the highest percentage (44%) ‘Frequently’ engaged in it.

Figure 9



Question 10

The answers to the open-ended question “How does teacher’s professional development contribute to student learning outcome?” were summarized in the following chart.

Table 1

Contribution of Teachers’ Professional Development	
Student Learning Outcome	Teachers’ Performance
<ul style="list-style-type: none"> Provides updated methods that suit students of different levels 	<ul style="list-style-type: none"> Equips teachers with new teaching skills that lead to better student learning outcome
<ul style="list-style-type: none"> Positively impacts student motivation and achievements 	<ul style="list-style-type: none"> Develops teachers’ understanding of student thinking and keeps them updated with research findings on student psychology
<ul style="list-style-type: none"> Helps students become more creative, problem-solvers, critical thinkers, knowledgeable, and hardworking 	<ul style="list-style-type: none"> Empowers teachers to create engaging classrooms and collaborate with colleagues
<ul style="list-style-type: none"> Prepares students for university and work place 	<ul style="list-style-type: none"> Boosts teachers’ confidence in their performance which builds trust between them and their students
<ul style="list-style-type: none"> Bridges the gaps in the learning process especially with the ever-changing students’ attitudes due to the influence of the world rapid development 	<ul style="list-style-type: none"> Helps teachers use strategies that meet student different needs
<ul style="list-style-type: none"> Arouses students’ interest, develops their skills, offers them emotional support, creates better classroom environment, and meets student different needs 	

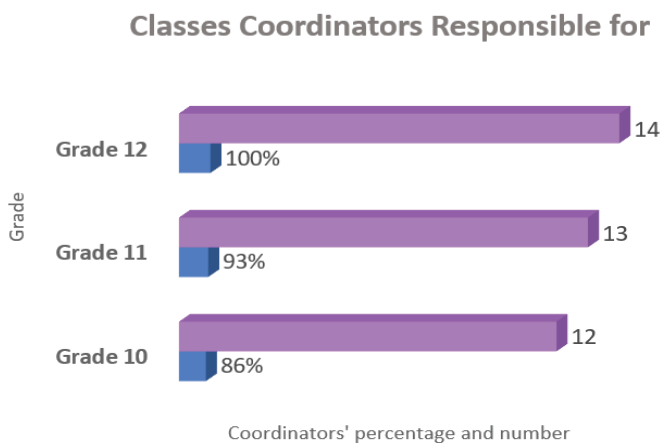
The teachers' view of the contribution of professional development to both teachers' and students' performance demonstrated their expertise and proficiency in the domain.

8.2 Analysis of the coordinator's survey

Question 1

The coordinators' survey opened with the question "As a coordinator, which class/es are you responsible for?". The answers revealed that all of the surveyed coordinators (100%) were responsible for grade 12 whereas ninety-three per cent (93%) and eighty-six per cent (86%) of them coordinated grade 11 and grade 10 respectively.

Figure 10



Question 2

The open-ended question "What are the tasks you are required to perform as a coordinator?" elicited a variety of responses which were divided, grouped, and labeled according to the tasks highlighted by the coordinators. The highest percentage of

coordinators (64%) mentioned preparing and checking exams, whereas fifty-seven per cent (57%) and fifty per cent (50%) mentioned the preparation of annual plans and monitoring teachers' performance respectively. Then follow other tasks such as identifying student needs and solving students' problems with thirty-six per cent (36%), observing students' performance with twenty-nine per cent (29%), etc.

Table 2

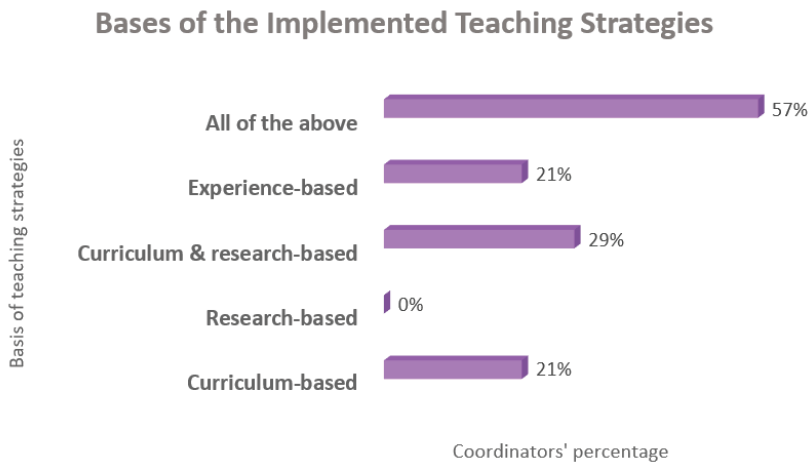
Coordinators' Tasks	Coordinators' Percentage
- Monitor teachers' performance and provide feedback	50%
- Prepare and check quizzes and exams	64%
- Observe students' performance and classrooms	29%
- Prepare and help teachers prepare annual plans consistent with the curriculum requirement	57%
- Prepare and revise daily and weekly lesson plans	21%
- Assess teachers' and students' performance	21%
- Identify students' needs and solve their educational issues	36%
- Do teachers' distribution	7%
- Provide guidance to the staff and department	21%
- Develop and implement the curriculum	14%
- Organize workshops for teachers	21%
- Manage resources	21%
- Coordinate teachers' pace in parallel sections and in different classes	14%
- Assist in recruiting and selecting teachers	7%

Question 3

On the other hand, the coordinators' responses to the question "What kind/s of teaching strategies do you implement in planning the program?" conveyed that none of them had adopted pure 'Research-based' strategies. Whereas twenty-one per cent (21%) went for each of 'Curriculum-based' and 'Experience-based' strategies and twenty-nine per cent (29%) for 'Curriculum

& research-based’, the highest percentage that was more than half of the coordinators (57%) selected ‘All of the above’ which conveyed the coordinators’ professional knowledge of the substantiality of the kinds of strategies in question.

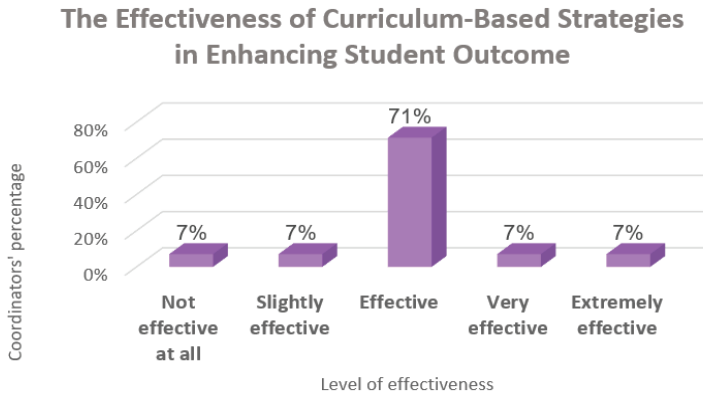
Figure 11



Question 4

In responding to the question “On a scale of 1 to 5, how effective are the curriculum-based strategies in enhancing student outcome?”, the majority of coordinators demonstrated their contentment in the effectiveness of the strategies. The highest percentage (71%) believed they were ‘Effective’ whereas each of the options ‘Not effective at all’, ‘Slightly effective’, ‘Very effective’, and ‘Extremely effective’ got seven per cent (7%).

Figure 12



Question 5

Focusing on the coordinators’ reaction, the open-ended question “What do you do if a teacher disagrees with you on using a curriculum-based strategy that you think necessary to achieve the curricular objectives?” showed the coordinators’ different attitudes towards the necessity of using curriculum-based strategies. The elicited responses were organized in categories based on the similarity of their contents. What got the highest percentage (29%) was the response in which the coordinators stated that they were open to strategies that met student needs. The following table demonstrates the coordinators’ responses.

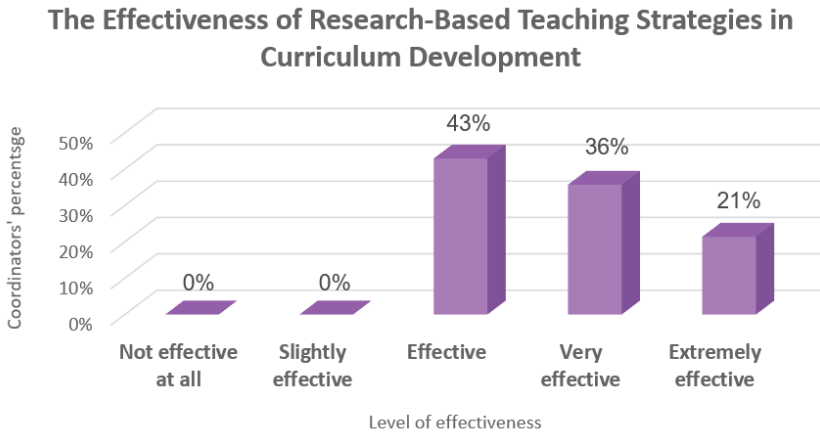
Table 3

Coordinators' Reaction When Teacher Refuses to Use a Curriculum-Based Strategy	Coordinators' Percentage
- I listen to them and discuss the issue to reach to an agreement.	21%
- I try to convince them about the effectiveness of the curriculum by providing evidence.	7%
- I agree because I believe that teachers are more aware of their students' pace and needs than I do, and I have no confidence in the curriculum.	21%
- I agree with them as I believe curriculum is outdated and we are teaching to the official exams.	7%
- I would not be so flexible when the curriculum-based strategy helps students pass the official exam.	7%
- I may learn from our disagreement and watch the result.	7%
- I'm open to any strategy that helps achieve the objectives and meet students' needs.	29%

Question 6

The question “On a scale of 1 to 5, how effective do you believe research-based teaching strategies are in developing the curriculum?” showed that all the surveyed coordinators have positive attitudes towards the efficiency of research-based strategies. Neither the choice ‘Not effective at all’ nor ‘Slightly effective’ was selected, however, twenty-one per cent (21%) chose ‘Extremely effective’ which was less than those who selected ‘Very effective’ (36%) whereas ‘Effective’ got the highest percentage (43%).

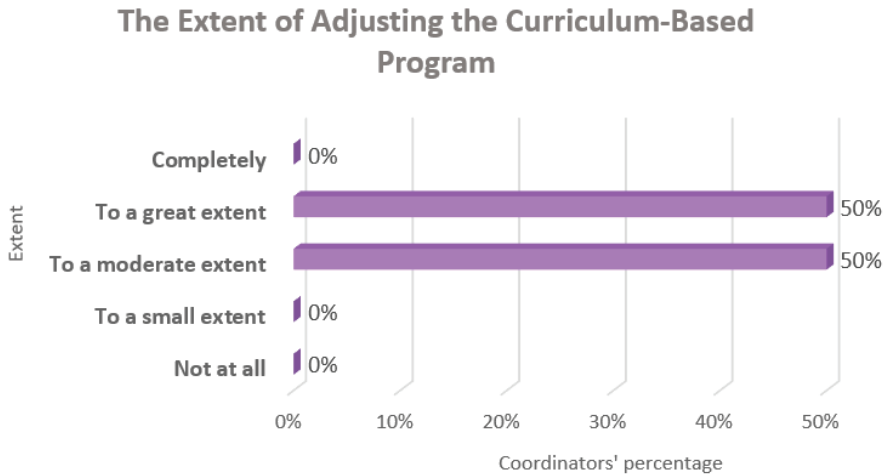
Figure 13



Question 7

The coordinators' responses to the question "To what extent do you adjust the curriculum-based program so that it keeps pace with the latest effective teaching strategies?" were 'To a moderate extent' and 'To a great extent', both of which got an equal percentage (50%). None of the other choices was selected which implied that the curriculum-based program was always modified.

Figure 14

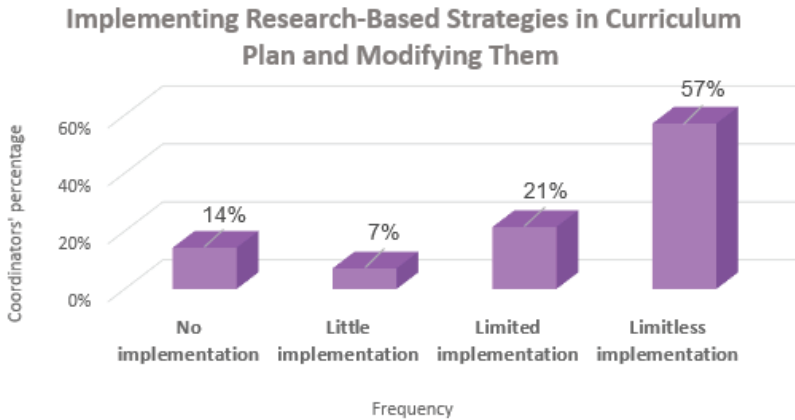


Question 8

The coordinators' positive view of the implementation of research-based strategies in the curriculum was reflected in answering the question "Do you implement research-based strategies in the curriculum plan? If yes, do you carry out the implementation with or without modifying research-based strategies? Why?". As in the previous open-ended questions, the responses were grouped and labeled based on the similarity of their contents. Thus, the highest percentage (57%) of the coordinators implemented research-based strategies without any limit, modifying them based on factors such as students' needs and levels, time, objectives, teachers' knowledge, context, students' background, etc., whereas twenty-one per cent (21%) implemented them, yet, within certain limitations due to issues that public schools had gone through such as shortage

of electric power and equipment, lack of internet access, and students' levels. The coordinators who did no implementation and those who did it to a very small extent were fourteen per cent (14%) and seven per cent (7%) respectively.

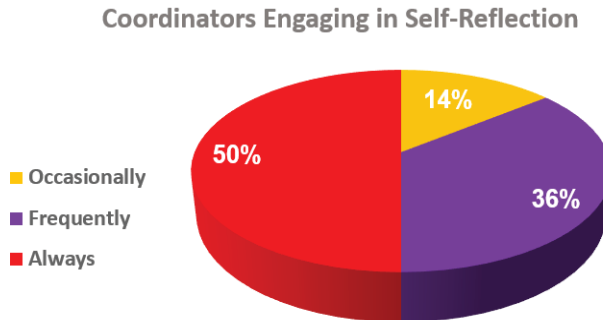
Figure 15



Question 9

When they were asked “Do you engage in self-reflection to enhance your performance as a coordinator?”, the majority of coordinators showed their awareness of the necessity of self-reflection. Half of them (50%) chose ‘Always’, followed by thirty-six per cent (36%) who ‘Frequently’ did self-reflection which was higher than the percentage (14%) that selected ‘Occasionally’.

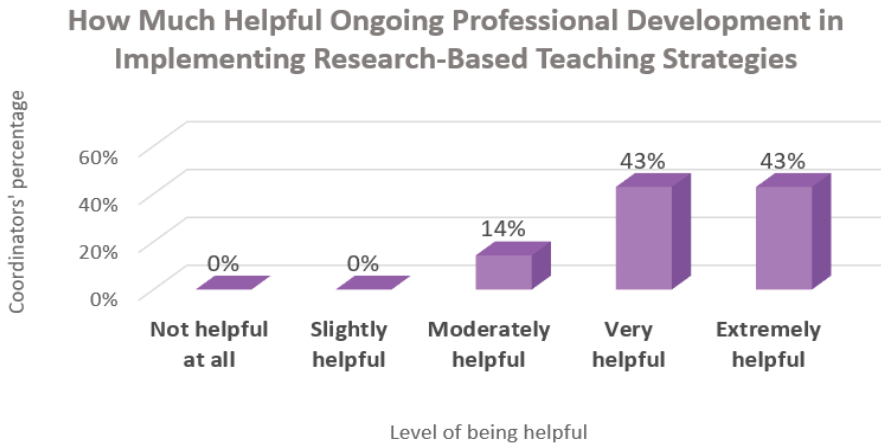
Figure 16



Question 10


On the professional development level, the responses to the question “On a scale of 1 to 5, how helpful do you think the coordinator ongoing professional development is in implementing research–based teaching strategies in the curriculum?” mirrored the importance of professional development to the coordinators and its relationship with implementing research–based strategies. None of the coordinators viewed professional development as ‘Not helpful at all’ or ‘Slightly helpful’, however, fourteen per cent (14%) opted for ‘Moderately helpful’, whereas ‘Very helpful’ and ‘Extremely helpful’ got the same and highest percentage (43%).

Figure 17



8.3 Comparing Kumaravadivelu’s three parameters to the study’s findings

Evaluating the three parameters of Kumaravadivelu’s postmethod pedagogy: particularity, practicality, and possibility (Kumaravadivelu, 2008) in the light of the study’s findings, it was clear that the teachers’ and coordinators’ practice agreed with his first parameter of particularity which focuses on particular group of teachers, learners, set of goals, institutional context, and sociocultural milieu (Kumaravadivelu, 2008). Thus, in responding to question 3 “What is/are the reason/s that urge/s you to modify or neglect a research-based teaching strategy?”, the teachers focused on students’ needs, objectives, cultural background, academic level, etc., and the coordinators adjusted the research-based strategies to fit the objectives, students’ needs, and context in their response to question 8. Kumaravadivelu’s parameter of practicality that emphasizes the relation between theory and practice, and teachers’




awareness about and their reflection on the effectiveness of the strategies they use (Kumaravadivelu, 2008) was clearly revealed in the teachers' and coordinators responses. In answering question 3, teachers stressed on the 'strategies' practicality' and 'strategies' effectiveness', and in question 9, all of them stated that they do self-reflection, at different frequencies though, to enhance their performance. Responding to question 5, most of the coordinators showed their openness in adopting any strategy that met student needs, and in answering question 9, all of them reported that they engaged in self-reflection. Furthermore, checking whether the parameter of possibility that is concerned with social inequalities, economic and political environments, and power and dominance, applied to the teachers' and coordinators' responses, it was noticed that in answering questions 3 and 5, teachers considered economic and social conditions such as availability of facilities and tools, and students' social background as determining factors in implementing research-based teaching strategies. Similarly, responding to question 8, the coordinators reported that implementation of research-based strategies was carried out taking into consideration factors such as limited economic capabilities of public schools, severe shortage of electricity and internet, as well as the social condition of students who in general came from poor economic background. Accordingly, the study's findings confirmed Kumaravadivelu's three parameters of the postmethod pedagogy.

9. Answering the questions of the study

In an attempt to answer the first question “To what extent do English language teachers and coordinators for secondary classes, at Beirut and its suburbs public schools, consider research-based teaching strategies effective?”, the study revealed that ninety-eight per cent (98%) of the teachers believed that research-based strategies were effective starting from level 3 (effective) on Likert scale. Similarly, one-hundred per cent (100%) of the coordinators reported that research-based strategies were effective in enhancing the curriculum, and seventy-eight per cent (78%) of them stated that they implemented them in the curriculum plan.

Moreover, the study provided an answer to the second question “Why do English language teachers and coordinators for secondary classes, at Beirut and its suburbs public schools, choose research-based teaching strategies, experience-based teaching strategies, or curriculum-based research strategies?”. The findings showed that the majority of the teachers and coordinators did not confine themselves to one-base strategies. They were selective in adopting the teaching strategies that best suited the student needs and levels. Such finding was anticipated as eighty-six per cent (86%) of them had more than ten years of experience.

The findings also provided an answer to the third and last question “To what extent do secondary English language teachers’ and coordinators’ choice and application of teaching strategies, at Beirut and its suburbs public schools, agree with Kumaravadivelu’s



three parameters of the postmethod pedagogy?”. The responses agreed with Kumaravadivelu’s three parameters to a very great extent. To the teachers and coordinators, student needs, level, context, and social background were top priority according to which they decided what strategies to adopt, and this matched Kumaravadivelu’s concept of particularity. The parameter of practicality was echoed in the teachers’ and coordinators’ concern with the effectiveness and practicality of the used strategies that were evaluated through self–reflection. Finally, the parameter of possibility was reflected in the teachers’ and coordinators’ focus on school infrastructure such as availability of facilities, electric power, internet, tools, and students’ social and economic background.

10. Conclusion

This study, conducted across Beirut and its suburbs public secondary schools and focusing on English language classes, presented insights into teachers’ and coordinators’ attitudes towards research–based teaching strategies, demonstrating knowledge, awareness, and good and professional use of them. The study threw light on the bases upon which teachers and coordinators rely in choosing the kind of teaching strategies they used. It revealed that eighty–six per cent (86%) of the surveyed teachers across sixteen (16) public schools had more than ten–year experience, which increased their ability to choose from different teaching strategies what they thought best suited their student needs and served the program objectives. All of the surveyed teachers and coordinators stated that they stayed

updated with the latest teaching strategies through engaging themselves in professional development. More than half of them reported that curriculum-based strategies enhanced students' learning outcome and the majority implemented experienced-based strategies into their practice, reflecting confidence in their expertise.

10.1 Implications

It can be said that the findings are likely to be generalized to Beirut and its suburbs public secondary schools because the number of public schools that took part in the survey are sixteen (16) which is equal to sixty-four per cent (64%) of the number of public secondary schools that teach English as the first foreign language all over Beirut and its suburbs. As the study revealed, the teachers and coordinators depended on professional development and on their expertise to bridge the gaps caused by the absence of the curriculum update. Thus, there is an urgent need to develop the national curriculum such that it meets student needs that are quickly emerging and transforming due to the rapid development in all life domains. Besides, schools should be equipped with sufficient and adequate infrastructure that facilitates the teachers' and coordinators' tasks and helps them adopt and apply the latest teaching strategies that keep pace with the speedy technological evolution.

In addition, the findings support the concepts of the three parameters of Kumaravadivelu's postmethod pedagogy: particularity, practicality, and possibility and show how it is the teacher who is the expert that is capable of evaluating the

situation and who can determine what strategy is suitable for a ‘particular’ situation, what strategy is ‘practical’ in use, and what strategy is ‘possible’ to apply. The study contributes to the education sector as it highlights the bases teachers, across public secondary schools, refer to in selecting the teaching strategies, it conveys their attitudes towards the various kinds of strategies, and it demonstrates their ability to reshape the curriculum through their teaching practice.

References

- Alsubaie, A. M. (2022). Curriculum development: Teacher involvement in curriculum development. *Journal of Education and Practice*, 7(9), 106–107. Retrieved August 8, 2023, from [\(PDF\) Curriculum Development: Teacher Involvement in Curriculum Development \(researchgate.net\)](#)
- Bahr, N., & Mellor, S. (2016). Building quality in teaching and teacher education. Australian Council for Educational Research.
- Bergmark, U. (2020). Teachers’ professional learning when building a research-based education: context-specific, collaborative and teacher-driven professional development. *Professional Development in Education*, 49(2), 210–224. <https://doi.org/10.1080/19415257.2020.1827011> Retrieved July 15, 2023, from <https://www.tandfonline.com/doi/epdf/10.1080/19415257.2020.1827011?needAccess=true&role=button>
- Bolt-Lee, E. C. (2021). Developments in research-based instructional strategies: Learning-centered approaches for accounting education. *e-Journal of Business Education & Scholarship of Teaching*, 15(2), 1–14. Retrieved July 16, 2023, from <https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ1313426.pdf>
- Bromley, M. (2020). Curriculum implementation: In the classroom and across the school. *SecEd*. Retrieved August 4, 2023, from <https://www.sec-ed.co.uk/best-practice/curriculum-implementation-ofsted-education-inspection-framework-schools/>

- Button, J. L. (2021). Curriculum essentials: A journey. Press Books. Retrieved August 26, 2023, from <https://oer.pressbooks.pub/curriculumessentials/chapter/chapter-21st-century-teachers-and-learners-meeting-the-needs-of-all/>
- Cain, T., Wieser, C., & Livingston, K. (2016). Mobilising research knowledge for teaching and teacher education. *European Journal of Teacher Education*, 39(5), 529–533. <https://doi.org/10.1080/02619768.2016.1256086> Retrieved August 2, 2023, from [Mobilising research knowledge for teaching and teacher education \(tandfonline.com\)](https://www.tandfonline.com)
- CERD (n.d.). Is ongoing teacher training remolding classroom practices? CERD. Retrieved August 2, 2023, from <https://www.crdp.org/magazine-details1/660/757/754>
- Creswell, W. J. (2012). *Educational research: Planning, conducting, and evaluating quantitative and qualitative research* (4th ed.). Pearson.
- Creswell, W. J., & Clark, L. P. V. (2018). *Designing and conducting mixed methods research* [Ebook]. Sage. Retrieved August 8, 2023, from <https://toaz.info/doc-view-2>
- Dagenais, C., Lysenko, V. L., Abrami, P., Bernard, M., R., Ramde, J., & Janosz, M. (2012). Use of research-based information by school practitioners and determinants of use: A review of empirical research. *Evidence & Policy*, 8(3), 285–309. <http://dx.doi.org/10.1332/174426412X654031> Retrieved August 3, 2023, from https://www.researchgate.net/publication/233531346_Use_of_research-based_information_by_school_practitioners_and_determinants_of_use_A_review_of_empirical_research
- El Hakim, R. (2021, January 22). Five ways the Lebanese education system falters. *Beirut Today*. Retrieved August 8, 2023, from <https://beirut-today.com/2021/01/22/five-ways-the-lebanese-education-system-falters/>
- Fohlin, L., Sedem, M., & Allodi, W. M. (2021). Teachers' experiences of facilitators and barriers to implement theme-based cooperative learning in a Swedish context. *Original Research*. <https://doi.org/10.3389/feduc.2021.663846> <https://www.frontiersin.org/articles/10.3389/feduc.2021.663846/full>

- Ilhan, N. (2021). The effect of research evidence–based teaching practices in science classrooms on student teachers’ attitudes towards educational research. *Journal of Science Learning*, 4(4), 316–326. Retrieved August 4, 2023, from <https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ1321147.pdf>
- Joram, E., Gabriele, J. A., & Walton, K. (2020). What influences teachers’ “buy–in” of research? Teachers’ beliefs about the applicability of educational research to their practice *Teaching and Teacher Education*, 88. <https://doi.org/10.1016/j.tate.2019.102980>. Retrieved August 3, 2023, from <https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0742051X18314847?via%3Dihub#sec1>
- Kapur, R. (2018). Significance of research in education. Retrieved August 4, 2023, from https://www.researchgate.net/publication/323833808_Significance_of_Research_in_Education/link/5aadc615a6fdcc1bc0badedd/download
- Kini, T. & Podolsky, A. (2016). Does teaching experience increase teacher effectiveness? A review of the research. Retrieved August 6, 2023, from https://learningpolicyinstitute.org/sites/default/files/product-files/Teaching_Experience_Report_June_2016.pdf
- Kumaravadivelu. B. (2001). Toward a postmethod pedagogy. *TESOL Quarterly*, 35(4), 537–560. DOI: 10.2307/3588427. Retrieved May 27, 2023, from (PDF) [Toward a Postmethod Pedagogy \(researchgate.net\)](#)
- Kumaravadivelu. B. (2008). *Understanding language teaching from method to postmethod*. Lawrence Erlbaum Associates.
- Lagura, L. G. (2023). Amplifying the impact of extension programs: Empowering teachers in the development of research–based instructional materials. *International Journal of Membrane Science and Technology*, 10(2), 916–936. Retrieved July 15, 2023, from <https://www.cosmosscholars.com/phms/index.php/ijmst/article/view/1321/779>
- Lam, B. (2019). *Social support, well–being, and teacher development*. Springer.
- OECD, (2020, September 15). *Back to the future of education: Four OECD scenarios for schooling*. Retrieved August 4, 2023, from

<https://www.oecd.org/education/back-to-the-future-s-of-education-178ef527-en.htm>

- Ornstein, C. A., & Hunkins, P. F. (2018). Curriculum foundations, principles, and issues (7th ed.) [Ebook]. Pearson. Retrieved August 7, 2023, from http://daneshnamehicsa.ir/userfiles/file/manabeh/francis_p_hunkins_allan_c_ornstein.pdf
- Pew Research Center, (2023). Writing survey questions. Retrieved August 13, 2023, from <https://www.pewresearch.org/our-methods/u-s-surveys/writing-survey-questions/>
- Schaik, V. P., Volman, M., Admiraal, W., & Schenke, W. (2018). Barriers and conditions for teachers' utilisation of academic knowledge. International Journal of Educational Research, 90, 50–63. <https://doi.org/10.1016/j.ijer.2018.05.003>. Retrieved August 3, 2023, from [Barriers and conditions for teachers' utilisation of academic knowledge \(uva.nl\)](https://www.uva.nl/research/portal/en/publications/barriers-and-conditions-for-teachers-utilisation-of-academic-knowledge(uva.nl)/)
- Vontz, T., & Goodson, L. (2020). EDCI 702: Curriculum, instruction, and assessment [Ebook].
- Kansas State University's Center for the Advancement of Digital Scholarship. Retrieved August 4, 2023, from <https://kstatelibraries.pressbooks.pub/edci702/>
- Williams, K. (2022, September 23). What is SPSS? Definition, features, types, and use cases. Survey Sparrow. Retrieved August 13, 2023, from <https://surveysparrow.com/blog/what-is-spss/>
- Williams, K. (2023, July 28). Types of survey methods and how they work. Survey Sparrow. Retrieved August 13, 2023, from <https://surveysparrow.com/blog/different-types-of-survey-methods/#section3>



A Multimodal Study of News Headlines: A Critical Analysis of the Sudanese Conflict

Abdulhussein Mansoor Ali

Abstract

News discourse is a critical field of investigation encompassed within linguistic research. It is regarded as an influential means through which news agencies spread their predefined ideologies to shape social realities. At the heart of this functional mechanism that news discourse undergoes, news headlines emerge as a pivotal unit serving a crucial informational purpose in the news discourse. In this regard, the paramount objective of this research endeavor is to provide a multimodal approach to the headline context characterizing the news discourse. Particularly, this study attempts to explore and critically analyze the diverse types of linguistic features employed in the headlines of American and British newspapers and channels reporting the Sudanese conflict. By exploring these features, the researcher determined the multiple operational functions these language components perform in the studied discourse. The explored functions were analyzed in the context of multimodality as a means of interpreting the different language modes and roles served by linguistic features in news headlines. The researcher adopted Fairclough's Three-Dimensional Model and Halliday's Systemic Functional Linguistics (SFL) to unveil the invisible processes that linguistic features undergo in the context of discursive and social practices. This qualitative approach to news headlines provided a

holistic interpretation of how the Sudanese conflict is ideologically reported in news headlines. The findings revealed that headlines employ diverse types of linguistic features that function as power tools contributing to shaping social realities.


Keywords: news discourse, headlines, multimodality, linguistic features

Introduction

Mass media wields the formidable brush that shapes our perception of social reality. Particularly, news deliberately intends to practice a dramatic play that communicatively mirrors social and political circumstances. This reflection of diverse issues displays the operational function of media in constructing societal realities accentuating how the power phenomenon is executed within the realm of mass media. This form of power is diligently manifested within the news discourse which is identified by Van Dijk (1988) as a frame incorporating the social world and not simply a reflection of social occurrences. Besides, Chimombo and Roseberry (1998) specify the nature and the operational role of news claiming that:

News media has acted as a cultural [leveler] in a very real sense; it plays a significant role in determining literate people's perception of their view of the world and also their place in the world, no matter what their condition, and whether they are based in first, second or third world countries." (p. 309)

At the level of the media discourse, news headlines serve an indispensable function in news reporting mainly as they constitute the entrance gate to the news context. This considerable



role of headlines justifies the complex yet interesting nature characterizing this component. An in-depth approach to the content and purpose of headlines provides a thorough overview of the functionality of their potential in systemizing information and managing the meaning display (Serdali et al., 2016). However, a pivotal feature characterizing headlines is manifested in their “multidimensional nature [...] as an effective means of conveying priority and secondary information” (Serdali et al., 2016, p. 4736). In this scope, headlines undergo multiple linguistic mechanisms that explicitly and implicitly contribute to cultivating the meaning-making process by prioritizing particular notions at the expense of others.

The functionality delineating news headlines fosters the essentialness of investigating the multiple linguistic functions that headlines serve in the news discourse. The informational potential of headlines in this respect is explored in the context of different American and British newspapers and news channels specifically reporting the Sudanese Conflict. As the Sudanese conflict emerges as a controversial issue crucially polarizing multiple concerns, investigating the process of meaning-display in the mass media is significantly substantial at this level. This critical examination of the news discourse illustrates the realization of the linguistic functions as well as the social practices that headlines evoke in a particular meaning frame.

Statement of the Problem


Mass media is invading people’s life forcing itself as a *fait accompli*. As media tends to construct social interconnections portrayed in

connecting people through the transfer of information, the news context emerges as a critical discourse that needs thorough examination. In investigating the news discourse, it is evident how particular realities are intentionally shaped by predefined ideologies. This is the consequence of the critical employment of diverse language components and linguistic features in a strategic way that extends beyond the level of communicating meaning and reporting events. As headlines play a considerable role in this regard, investigating the linguistic components of news headlines within a multimodal analytical process is essential. This analysis contributes to resolving the invisible issue that influences people's viewpoints and manipulates their social and political standings.

This indispensable function of language, particularly in shaping the realities surrounding the Sudanese conflict, is left unstudied. Although diverse critics, authors, and researchers have analytically tackled the discourse of the Sudanese conflict, approaching the context of headlines within the lens of multimodality unveils much meaning that is intentionally blurred for ideological and hegemonic purposes. This particular approach of the news headlines within a multimodal frame has been scarcely considered in the research field of language studies. This accentuates the research problem that this paper intends to investigate as a means of exploring the micro, macro, and meso levels of meaning that are functionally employed in the news discourse mainly through the use of different types of linguistic features.

Purpose of the Study

Conveying profound meaning lies at the core of any communicative



content. Mass media displays a communicative attempt that tends to frame the intended meaning within a predefined ideological context. In light of this concern, disclosing the diverse levels of meaning is a momentous pursuit that critical analysis of news should undertake. Accordingly, this study seeks to examine the linguistic content of news headlines reporting the Sudanese conflict. This involves employing Halliday's Systemic Functional Linguistics (SFL) to scrutinize the multiple types of linguistic features employed in the news headlines as a means of exploring how these features functionally operate in the studied discourse. This investigation also considers probing the different levels of meaning illustrated within Fairclough's Three-Dimensional Model. In exploring these levels, the researcher intends to accentuate how language undergoes not only textual but also discursive and social practices within a given context.

Research Questions

In light of the outlined problem, the researcher posed the following questions:

1. What types of linguistic features are employed in news headlines reporting the Sudanese conflict?
2. How do these features serve as functional tools in the process of meaning-making in the studied discourse?
3. How is Fairclough's Meso level manifested in the context of news headlines?

Definition of Key Terms

News Media

Yusuf (2012) defines news media as a representation of daily occurrences, social issues, and political concerns that considerably influence the individuals in a community. This influence is mainly manifested at 2 levels. While the first level refers to connecting people by communicating news and sharing daily happenings, the second level involves influencing the mindset in a community by shaping their viewpoints through sharing particular ideologies. Yusuf (2012) ascertains that news media functions at multiple levels including the social, cultural, political, and ideological levels. This operational function of news media does not only contribute to reflecting realities but also to shaping and constructing them according to predefined standards and ideological aspects.

Headlines

Headlines in newspapers are like titles in essays and book chapters (Montejo & Adriano, 2018). This reveals the considerable role of headlines in briefly and accurately displaying the content of articles in newspapers or even in introducing the news content in a news channel. Conboy (2007) describes headlines claiming that they serve diverse functions manifested in summarizing the content, highlighting main ideas, and catching the readers' attention. This emphasizes the essentialness of critically analyzing news headlines as they involve profound aspects capable of displaying the intended meaning and connecting the reader to the context.



Multimodality

According to Kress and Leeuwen (1996), multimodality is defined as the simultaneous employment of multiple communicative modes to promote the process of meaning-making in a discourse. Using diverse modes allows for approaching the context from different sides and perspectives which contributes to establishing a holistic manner through which the studied content can be previewed. Adams et al. (2014) also define multimodality as a methodological tactic encompassing various orientations that provide a clearer and more precise understanding of the targeted context.

Linguistic Features

Gajmer (2021) defines linguistic features as the “linguistic aspects [which] include the use of specific lexicons, adjectives, sentence structures, specific clause and phrases” (p. 7). This definition reveals the usage of linguistic features and provides a glimpse into the function they serve in displaying the intended meaning. These language components are intentionally employed in a predefined manner to create contextual meaning and emphasize certain ideologies practiced in a given discourse.

Literature Review


Media Discourse

The term discourse extends beyond the textual level involving diverse interdisciplinary aspects that construct the critical nature of discourses. In this regard, Ahmadova (2021) argues that discourses mainly encompass a wide range of forms and types as they serve different purposes. These forms are used

interchangeably to impose a particular system of beliefs and embrace decontextualized ideologies. Within the media scope, the news discourse is regarded as one popular discourse type mainly as it projects knowledge in a critical manner that reflects social reality within an ideationalised context. This context emerges from a cultural, political, or societal provenance that contributes to shaping realities through communicating meaning and reporting events (Rubing & Sandaran, 2023). The interconnection manifested in the role of the news discourse in communicating and reporting social activity is further explicated by Rubing and Sandaran (2023) who argue that:

There is a vernacular relationship between an event and the specific context and social structures in which it takes place, which connotes that discourse constructs knowledge, social identities and relationships between people. News discourse, as a device of journalism, can be seen as the transmission of ideology. As such, news discourse has always been an important area of critical discourse analysis. (p. 970)

In accentuating the vitality of the news discourse, Xie (2018) maintained that this discourse type is a momentous field in the scope of linguistic and analytical research. One critical definition that has been assigned to the news discourse mainly focuses on the ultimate target underlying news reporting as well as the relationships exhibited within the discourse context. Accordingly, Fowler (1991) defines news claiming that it “is not a natural phenomenon emerging straight from `reality’, but a product. It is produced by an industry, shaped by the relations between the



media and other industries, by the bureaucratic and economic structure of that industry, and most importantly by relations with government and with other political organizations” (p.223). This definition marks the news discourse as an ideological content veiled behind the notion of discourse and meaning representation.

Functions of News Headlines

Headlines are considered essential parts of news reporting as they serve pivotal purposes in communicating meaning in the media context. As headlines perform a wide array of functions, their importance is manifested in how this text type solely stands in introducing the entirety of the content. Iarovici and Amel (1989) maintain that headlines undergo a double function displayed in the semantic and pragmatic functions they perform. Through these functions, headlines convey the intended meaning and instigate action in the audience manifested in responding to the displayed information through social practice. This pragmatic function promotes the processes of meaning-making and recognition needed to enhance the efficacy of the decontextualized ideologies.

In addition, Conboy (2007) highlights the crucial functions of headlines in newspapers. According to Conboy (2007), not only do headlines grab the audience’s attention and foster particular beliefs, but they also provide a brief and precise summary of the entire content. This reveals the efficacy of news headlines as they serve informative and indicative roles in providing information and highlighting some key elements. These functions emphasize the complex and critical nature of headlines which reveals the importance of scrutinizing their content and critically analyzing

their different language features. These features contribute in a major way to promoting the functional aspect of headlines mainly at the macro and meso levels. These levels accentuate the role of headlines in employing a system of ideologies and beliefs to construct societal realities.

Methodology

Corpus

The targeted sample involves the linguistic content of news headlines in American and British newspapers and news channels. The selected corpus involves 8 headlines compiled from different sources reporting the Sudanese conflict that commenced on April 15, 2023 (UNICEF, 2023). The headlines involve different linguistic features that significantly contribute to conveying the intended meaning. In maintaining representativeness and sampling in compiling the tackled corpus, the researcher carried out a balanced compilation process by collecting equal numbers of headlines from American and British newspapers and channels. This enhances the analytical approach to the studied corpus mainly at the level of credibility and objectivity. This guarantees that the studied headlines are objectively tackled without any emphasis on particular ideologies and notions at the expense of others. The selected headlines are further displayed in Table 1.

Table 1


The selected news headlines and their respective sources

Headline	Source	
1. Darfur’s New Generation, Once Full of Promise, Now Suffers ‘Fire of War’	The New York Times	American Newspapers/ News Channels
2. ‘They Blew Our Lives Up’: South Sudanese Flee War in Sudan	The New York Times	
3. Saudi Arabia wants to be a bigger player in the Middle East — this time with diplomacy	CNN	
4. Power Struggle Between Sudan’s Top Two Generals Turns Deadly”	The Wall Street Journal	
5. Escape from Khartoum horrors	The Daily Star	British Newspapers
6. Hopes crumble for a pause in fighting in Sudan	BBC News	
7. A war for our age: how the battle for Sudan is being fuelled by forces far beyond its borders	The Guardian	
8. Sudan Fighting: The Unsung Heroes Keeping Khartoum Residents Alive”	BBC News	

Research Design

In venturing into the studied subject through the prism of critical analysis and investigation, the researcher approached the tackled corpus through a qualitative design and a descriptive research method. This interpretative approach is characterized by the multiplicity of analytical tools utilized in investigating its content from a critical perspective (Obeyd, 2021). Creswell (2014) describes this research design claiming that “purposeful sampling, collection of open-ended data, analysis of text or pictures, representation of information in figures and tables, and personal interpretation of the findings all inform qualitative methods” (p. 23). This illustration reveals how the qualitative method is perceived as an analytical process that displays meaning according to predefined contextualization governed by particular ideologies and systems of belief.

Additionally, Salkind (2012) explicates the interpretative nature of the qualitative design arguing that it is not just the opposite of the quantitative one. Instead, the qualitative method is a different type of research design that involves exploring the diverse phenomena underlying human behavior. This research method highly relies on textual and visual data in approaching a given discourse through an analytical lens (Creswell & Creswell, 2018). In light of these features delineating the qualitative method, the conducted study adopted the qualitative design employing an analytical descriptive method in scrutinizing the studied discourse. The researcher’s adoption of the qualitative method is manifested in the use of the multimodal approach in investigating the headlines’



context. Multimodality at this level is one aspect characterizing the interpretative nature of the descriptive method as it involves the adoption of diverse theories, frameworks, and models that provide a holistic approach to the studied context.

Adopted Frameworks

In the scope of this study, multimodality lies at the core of the conducted qualitative analysis. The researcher adopted Fairclough's Three-Dimensional Model and Halliday's Systemic Functional Linguistics (SFL) in approaching the targeted corpus. This multi-dimensional approach enriches the analytical process with diverse interpretative perspectives through which news headlines can be previewed.

Fairclough's Three-Dimensional Model


Among the multiple analytical approaches and interpretative processes employed in the scope of critical discourse analysis, Fairclough's Three-Dimensional Model is one considerable theory. The distinctiveness of this framework lies in its unique analytical style as it maps 3 levels of analysis (Fairclough, 1992). According to Gajmer (2021), one of the key attempts behind this theory is manifested in exploring "the relation of linguistically oriented discourse analysis with the social and political thought related to language and discourse. [...] [It is] a framework by which social changes through language use can be analyzed" (pp. 11-12). In particular, this model operates at 3 separate yet interrelated levels of analysis namely the micro, macro, and meso levels. While the micro and macro levels respectively refer to analyzing the textual level and exploring the processing analysis

in a discourse, the third level considers studying the social and cultural aspects of a discourse. The third level is highly significant mainly as it displays the invisible power within a discourse that is employed in reflecting social realities and even constructing them.

In illustrating the 3 levels within Fairclough's (1992) model, Renaldo (2017) argues that these levels are displayed as one delves deeper into the discourse. Although these levels are complementary in nature, an increased concern might be assigned to the second and third levels, namely discursive and social practice, as they directly influence social realities. Gajmer (2021) highlights this functionality claiming that "discursive practice of different context[s] turns into ideologies and then creating the domination gets the power. There is always a struggle between ideologies which use discourse in different levels of power exercising" (p. 17).

Halliday's SFL

According to Almurashi (2016), Halliday's SFL is an influential linguistic contribution to the field of research that emerged in the 1960s. This theory particularly scrutinizes how language is employed in certain contexts to achieve particular predefined purposes. It sheds light on the diverse operational functions that language serves mainly at the social level (O'Donnell, 2012). This theory considers the multiple linguistic components presented within a discourse highlighting the different roles that these components perform. In other words, SFL does not only focus on the structural level but also on the functional one (Matthiessen & Halliday, 1997). Almurashi (2016) describes this



theory maintaining that “SFL, with regards to data, does not tackle the manner of language representation or process in the human brain, but would rather try to see discourses produced in the form of written or oral language and what is contained in the texts that are produced” (p. 71).

In describing the key features delineating this theory, Halliday (2008) states that SFL focuses on the applicable notions of language. It is famous for its tristratal model that involves 3 levels of analysis namely Discourse Semantics, Lexico–grammar, and Phonology and Graphology (Matthiessen & Halliday, 1997). Each of these levels serves particular metafunctions manifested in the interrelationship exhibited among these levels in promoting the meaning–making process and performing certain linguistic functions (Egins, 2004).

Discussion and Analysis


As news headlines serve diverse indispensable functions in the news discourse, particularly contributing to manipulating and shaping the world we live in, exploring the linguistic content of headlines is highly revealing. The substantial content of headlines is approached through the lens of multimodality allowing for multiple features to be explored. In responding to the posed questions guiding the analytical process of this study, this section is divided into 3 subsections respectively answering the research questions.

The Different Types of Linguistic Features

In the scope of the first area of investigation regarding the types of linguistic features employed in the headlines, these features can

be displayed once approached through the lens of Halliday's SFL. Particularly, the researcher tackled the tristratal model within this approach mainly at the level of the lexico-grammar dimension. In exploring the linguistic features, Headline 1 is rich at the level of linguistic content. The diverse types of features include the lexical and grammatical components. The tackled headline involves the use of nouns, verbs, and adjectives such as 'new, full, promise, war, suffers, etc.' These features constitute an overall frame showing the contradictory situation manifested in comparing Sudan's past with its present. The lexical level highlights the tragedy experienced by the Sudanese people as promise fades and war and suffering evolve. Besides, the grammatical level is also significant as it employs features that show the ongoing suffering and grief that the citizens in Sudan are experiencing. At the level of Headline 2, the lexico-grammar level is significantly comprehensive. The employed lexicons are emotionally loaded with feelings of fear, depression, and abandonment. The lexicons in the phrase 'they blew our lives up' reveal how the civil war in Sudan has left the citizens with depression and disappointment. This is accompanied by the claim in the following statement that implies the urgent need for the citizens to escape the battle zone and run away from the cruelty of the warring factions. The Sudanese people are displayed as victims of the warring factions who carelessly fight for egoistic purposes.

In moving to Headline 3, adopting Halliday's SFL in interpreting the linguistic content of this headline is highly revealing. The lexico-grammar level is significant mainly as the employed features are loaded with denotative and connotative symbolism.



This headline includes different lexical and grammatical components that essentially contribute to meaning-making. For example, some features are ‘bigger, player, diplomacy, wants, etc.’ These features vary in type between adjectives, nouns, and verbs in which each type serves crucial functions. This diversity in types has enriched the linguistic content of the studied headline. Besides, another sample of the rich lexico-grammatical content of headlines is illustrated in Headline 4 which includes different linguistic features that effectively function as tools for displaying the intended meaning. Among the different features, the words ‘power, struggle, generals, turns, deadly’ preview the linguistic diversity of this headline displayed in the use of adjectives, adverbs, nouns, and verbs. This diversity is accentuated within Halliday’s tristratal model in which the lexico-grammar level is fostered.


In a similar vein, Headlines 5, 6, 7, and 8 which are excerpted from British sources are also linguistically rich at the level of linguistic features. Previewing the linguistic content through the lens of Halliday’s SFL, the lexico-grammar level in these headlines is significant. These headlines include a wide variety of linguistic features ranging in types between adjectives, adverbs, verbs, and nouns. Some examples of these features are illustrated in the scope of Headline 5 and Headline 6 which include words like ‘escape, horror, hopes, fighting, crumble, etc.’ The diversity of verbs and nouns enriches the linguistic content of the studied headlines making them more effective and powerful in transferring the intended meaning. The chosen lexicons accompanied by the employed verbs have beautified the entire context and enhanced

its meaning display.

Additionally, the last couple of headlines represented in Headline 7 and Headline 8 also involve a wide diversity of linguistic features delineating their linguistic content. Some of the linguistic features employed in these headlines include verbs, nouns, and adjectives. This can be illustrated in the use of terms like ‘unsung, heroes, war, fuelled, battle, etc.’ The linguistic diversity previewed in the studied headlines highlights the extensive reliance of news reporting on diversifying the linguistic content in a given context. This diversity has promoted meaning display and performed diverse functions that extend beyond the informational level.

The Functional Role of Linguistic Features

After illustrating the multiple types of linguistic features employed in the news headlines as previewed through Halliday’s SFL, exploring the functions of these features is essential. In perceiving the studied headlines from the vantage point of Halliday’s SFL accompanied by Fairclough’s Model, the different functions of the explored features can be illustrated. The operational functions of the tackled headlines will be collectively analyzed as a means of highlighting all different functions at once avoiding the fault of redundancy and useless repetition. In this regard, the employed components are significantly functional at the informational and indicative levels. This function is displayed in all the studied headlines as they entirely intend to report events, provide information, and display meaning. This function is the core element in all headlines as they might be useless if no meaning is conveyed through them. An example of the informative function of headlines



is shown in saying ‘Saudi Arabia wants to be a bigger player, escape from Khartoum horrors, etc.’ These headlines primarily intend to provide information while the displayed meaning might be encompassed within predefined contexts and decontextualized ideologies.


Besides, other functions that these headlines perform can be illustrated at the pragmatic level. The critical linguistic composition characterizing news headlines undergoes a pragmatic function as it instigates a particular action in the audience. The audience’s response and reaction to headlines is the outcome of the invisible linguistic elements contributing to controlling the mindset of the audience and managing their behavior. This function is crucial as it foregrounds the social practice that headlines perform particularly in employing power and hegemony as tools for constructing social realities. In addition to the pragmatic function, the studied headlines significantly grab the audience’s attention as they involve language components that foster the audience’s curiosity to explore the entire content. This is one vital function that headlines served in the studied discourse as they constitute the entrance gate through which the overall content can be explored.

Exploring the Meso Level of News Headlines

After displaying the multiple types of linguistic features along with the different functions they perform, approaching news headlines through the lens of Fairclough’s model is highly significant. This particularly involves exploring the meso level of these headlines. Accordingly, although the studied headlines undergo an informational function displayed in their meaning–

making process, other crucial functions are illustrated at the level of their social practice. The tackled headlines display a reflection of the social reality characterizing Sudan. This reflection extends to shape the social and political state which is one aspect of Fairclough's (1992) Model which holds that discursive practice turns into ideologies dominating a particular social context. An example of this reflection is portrayed in the context of Headline 1 in which the overall image displayed in the studied headline previews a hopeless generational transition as the new generation encounters trauma and economic hardship caused by the destructive force of war. The societal shaping of this headline suggests that the dreams and hopes of the new generation have been marred by the cruelty of the civil war.

Additionally, Headline 3 also shows the effective function of language at the level of its social practices. The lexical level including the term 'bigger player' provides a strong basis for the effective impact of this headline on the societal context. This suggests that the subject of the headline, namely Saudi Arabia, plays an indispensable and influential role in the Sudanese context. The linguistic display of this role instigates particular sociopolitical perceptions of how different parties are being involved in the Sudanese conflict. Besides, another example of how power is linguistically practiced in news headlines is revealed in Headline 4. In the context of this headline's sociocultural dimension and discursive and social practice, Fairclough's (1992) model displays how power is linguistically practiced in the studied headline to the extent of dominating social realities. This is accentuated in how the Sudanese people are previewed as victims suffering



the selfishness of two egoistic generals. This shows how the language used has powerfully reflected much meaning beyond the illustrated textual level. This connotatively shows how the fate of the Sudanese people is managed by the wider sociocultural and geopolitical forces that are effectively contributing to the victimization of innocent citizens.

Similarly, the headlines excerpted from different British sources also display the effective role of language in managing, constructing, and reflecting realities. Headlines 7 and 8 typically show how meaning is implicitly encoded within the news context in a critical manner that extends beyond the level of news reporting. Instead, language is employed as a powerful instrument loaded with extensive meanings. Headline 7 shows how the Sudanese conflict is controlled by external forces that go beyond the two Sudanese generals. This reveals how the civil conflict is not managed from within; instead, larger political forces are influentially contributing to the political status in Sudan. Moreover, the social practice of language is also manifested in the context of other headlines such as Headline 8. The lexicon used in the context of this headline along with its macro level established in the production and processing of meaning critically influences the meso level represented by the social practice. This headline sheds light on the courageous brave role of the medical staff in Sudan whose members are soldiers of humanity saving thousands of lives. This highlights the contradictory scene showing how military forces are egoistically and irresponsibly killing civilians while the rescue teams and medical staff are striving to spare thousands of lives.

Conclusion

The critical approach to news headlines mingled with the sense of multimodality has unmasked diverse features characterizing the news discourse. As news constitutes a crucial part of everyone's daily life keeping people updated with any controversial and contemporary circumstances, exploring its discourse reflects how news influences the world we live in. The conducted study has unveiled diverse features delineating the news discourse showing how language plays a crucial role in constructing social realities. The studied headlines highlighted the multiple types of linguistic features used in headlines along with the different functions that these headlines serve. The findings revealed that headlines are rich in lexical diversity which enhances the process of meaning display as well as the operational functions of this discourse. Besides, scrutinizing the meso level has unmasked the different hidden characteristics, roles, and functions that headlines perform mainly in the context of manipulating social realities and shaping political and cultural contexts. These functions extend beyond the informational and indicative roles of headlines spotting light on a wider aspect that reveals the role of language in designing the entire social context.

References

- Adams, Y., Matu, P. M., & Oketch, O. (2014). Multimodality in Safaricom advertisement communication in the Kenyan Daily Nation Newspaper. *Academic Journal of Interdisciplinary Studies*, 3(6), 403–410.
- Ahmadova, S. (2021). Linguistic devices used in newspaper headlines [Master's thesis, Khazar University]. <http://dspace.khazar.org/bitstream/20.500.12323/5459/1/Linguistic%20Devices%20used%20in%20Newspaper%20Headlines.pdf>
- Almurashi, W. (2016). An Introduction to Halliday's systemic functional linguistics. *Journal for the Study of English Linguistics*, 4(1), 70–80. doi:10.5296/jysel.v4i1.9423
- Chimombo, M., & Roseberry, R. (1998). *The power of discourse: An introduction to discourse analysis*. Mahwah: Lawrence Erlbaum Associates, Inc.
- Conboy, M. (2007). Permeation and profusion: Popular journalism in the new millennium. *Journalism Studies*, 8(1), 1–12. <https://doi.org/10.1080/14616700601056775>
- Creswell, J. W. (2014). *Research design: Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches* (4th ed.). Sage Publications.
- Creswell, J. W., & Creswell, J. D. (2018). *Research design* (5th ed.). Sage Publications.
- Eggins, S. (2004). *An Introduction to systemic functional linguistics* (2nd ed.). London: Bloomsbury Academic.
- Fairclough, N. (1992). *Critical language awareness*. London: Longman.
- Fowler, R. (1991). *Language in the news: Discourse and ideology in the press*. London/New York: Routledge.
- Gajmer, S. (2021). Critical analysis of beauty product advertising discourse in magazine [Master's Thesis, Tribhuvan University]. <https://elibrary.tucl.edu.np/bitstream/123456789/10633/1/All%20Thesis.pdf>
- Halliday, M. (2008). *Complementarities in language* (1st ed.). Beijing Shi: Commercial Press.
- Iarovici, E., & Amel, R. (1989). The strategy of the headline. *Semiotica*, 77(4), 441–459.
- Kress, G., & van Leeuwen, T. (1996). *Reading images. The grammar*

of visual design. London.

- Matthiessen, C., & Halliday, M. (1997). Systemic functional grammar: A First step into the theory (1st ed.). Author.
- Montejo, G., & Adriano, T. (2018). A Critical discourse analysis of headlines in online news portals. *Journal of Advances in Humanities and Social Sciences*, 4(2), 70–83.
- Obeyd, S. (2021). Research methods in linguistics: An Overview. *Studies in Linguistics, Culture, and FLT*, 9(1), 54–82. [10.46687/SILC.2021.v09i01.004](https://doi.org/10.46687/SILC.2021.v09i01.004)
- O'Donnell, M. (2012). Introduction to Systemic Functional Linguistics for Discourse Analysis. *Language, Function and Cognition*, 1–8.
- Renaldo, Z. (2017). Analysis of linguistic features of beauty product advertisements in *Cosmopolitan Magazine*: A Critical discourse analysis. *TELL–US Journal*, 3(2), 141–154. <https://doi.org/10.22202/tus.2017.v3i2.2628>
- Rubing, G., & Sandaran, S. (2023). A Critical Discourse Analysis of News Discourse on in *The Times*. *International Journal of Academic Research in Business and Social Sciences*, 13(1), 968 – 984.
- Salkind, N. (2012). *Exploring research* (8th ed.). Pearson.
- Serdali, B., Ashirbekova, G., Isaeva, Z., & Adieva, P. (2016). Newspaper headings as a means of presenting priority and secondary information. *International Journal of Environmental & Science Education*, 11(11), 4729–4738.
- United Nations Children's Fund. (2023). *Humanitarian Action for Children* (UNICEF publication). UNICEF. <https://www.unicef.org/appeals/sudan>
- Van Dijk, T.A. (1988). *News as Discourse*. Hillsdale: Lawrence Erlbaum.
- Xie, Q. (2018). Critical discourse analysis of news discourse. *Theory and Practice in Language Studies*, 8(4), 399–403. DOI: <http://dx.doi.org/10.17507/tpls.0804.06>
- Yusuf, Y. (2012). Different representations and semiotics analysis of web news texts. *International Journal of Language Studies (IJLS)*, 6(3), 17–36.